بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

مسطرة اللغوى

للدكتور إبراهيم أنيس

لكل من المهندس وطالب الهندسة مسطرة حاسبة تيسّر العمليات الحسابية المعقدة فى دقة وأمنٍ من الزلل ، فتغنى عن الحساب بوساطة القلم والقرطاس ، وتوفر زمنا وجهدا ذهنيا ، وتحقق نتائج سريعة دقيقة فى البحوث الهندسية ، وهى تستخدم لدى المهندسين منذ عشرات من السنين .

ثم أصبحنا وإذا باللغوى الحديث وقد تهيأت له منذ شهور أداة تشبه مسطرة المهندس ، هى التى ندعوها هنا مسطرة اللغوى ، وتتمثل فى تلك الجداول الإحصائية التى نُشرت ووزعت على أعضاء المجامع اللغوية وأساتذة اللغات والرياضة فى العالم العربى ، وبها اكتملت مسطرة اللغوى التى ظلت زمنا طويلا حُلماً لنا نحن اللغويين وأملا نتطلع إليه ونتمنى لو ظفرنا به حتى تتحقق على يدى أستاذ الفيزياء الدكتور على حلمى موسى بعد أن استخدم ذلك الجهاز العجيب المسمى بالكومبيوتر أو العقل الإلكترونى ! !

والجداول الإحصائية التى بين أيدينا الآن مؤسسة على معجم من أشهر وأصح المعاجم العربية القديمة ، هو معجم صحاح اللغة للجوهرى المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ويتساءل الدارسون منذ ظهرت تلك الإحصاءات كيف نستخدمها فى البحث اللغوى ، وهل تفسّر لنا بعض تلك الظواهر اللغوية التى كنا ندهش لها ، ونعجب من أمرها ، ثم لا نكاد نجد لها تفسيرا علميا معقولا مقبولا ؟ !

وقد أشرتُ من قبل إلى هذا التساؤل فى صدر هذه المجلة ، وتنبأتُ بأن ذلك التفسير العلمى المنشود سيتمّ بإذن الله ، ودعوتُ اللغويين المحدثين إلى أن يقولوا كلمتهم بعد أن قال أهل العلوم كلمتهم ! !

وهأنذا أفتتح هنا البحث اللغوى على أساس تلك الإحصاءات ، وقد كان لى حظ الاستشارة فيها والإشراف عليها ، فأصدِّر هذا الجزء من مجلتنا ببحث قصير أحاول فيه على ضوء هذه الإحصاءات تفسير ظاهرة من ظواهر لغتنا العربية عرفها علماؤنا القدماء باسم « القلب المكانى » ! !

قنع اللغويون من العرب بالإشارة السريعة إلى هذه الظاهرة ودون محاولة لتعليلها أو تفسيرها متررين أنها من سنن العرب ، ثم يسوقون لها مجموعة من الأمثلة لعل من أشهرها : جذب ، جبذ . يئس ، أيس ، لأك ، ألك . اضمحل ، امضحلّ . عجوز شهبرة ، شهربة . اكفهرّ ، اكرهفّ .

ولستُ أعرف منهم من عرض لها بشىء من التفصيل سوى ابن جنّى فى كتابه الخصائص ، فقد قسم أمثلتها قسمين : أحدهما يكون فيه كل من الصورتين أصلا مستقلا بذاته ، فليست إحدى الصورتين أصلا والأخرى فرعا لها . ومثّل لهذا القسم بالكلمة (جذب ، جبذ) . ومقياس الأصالة فى هاتين الصورتين ، فى رأيه ، كثرة التصريف مع كل منهما إذ يقال : جذب يجذب جذبا فهو جاذب . . . . . . الخ . كما يقال جبذ يجبذ جبذا فهو جابذ ! !

أما القسم الآخر فيمثل له ابن جنى بكلمة (اضمحلّ ، امضحل) ويعدّ الصورة الأُولى أصلا ، وأن امضحلّ فرع لها . وذلك لأن اضمحلّ هى التى تتصرف فيكون منها المصدر اضمحلال ، فى حين أن امضحلّ لم يرد منها امضحلال ! !

ويرى اللغوى الحديث فى كل أمثلة القلب المكانى أن إحدى الصورتين أصل ، وأن الأُخرى فرع لها ، غير أنه قد تصادف أن بعض الفروع اشتهرت وشاع استعمالها فتصرفت أيضا كالأُصول وجاءت منها مشتقاتها ، فى حين أن البعض الآخر من الفروع لم تتح له تلك الشهرة أو الشيوع فلم تتصرف كأُصولها .

وظاهرة القلب المكانى ليست مقصورة على اللغة العربية ، فقد عرفت فى بعض اللغات الأَجنبية ، وأشار إليها بعض اللغويين الأَجانب ، وفسروها فى لغاتهم . فيسميها « جسبرسن » فى بعض ما كتب Transpositon أو Mnetathesis (١) ويعزوها إلى الجيل الناشىء وتعثره فى النطق بالصورة الأَصلية ثم ذيوع الصورة الجديدة . ويرى أنه مع الكلمة الكبيرة البنية يشق عادةً على الطفل النطق بمجموع ما فيها من أصوات مرتبةً نفس الترتيب . ويعبر عن ذلك بقوله : « ليس الأَمر مرجعه إلى طول الكلمة وحده ، أى صعوبة إصدار سلسلة كبيرة من الأَصوات ، لأَن الطفل فى مرحلة المناغاة يستطيع النطق بسلسلة أطول من الأَصوات ، وذلك حين يكون نطقه غير متعمد أو مقصود . ولكن السرّ الحقيقى فى هذه الظاهرة هو أن الطفل يصعب على ذاكرته الضعيفة تذكُّر سلاسل الأَصوات مرتبةً كما يسمعها من الكبار حوله ، فلا يقدر على تذكُّر ترتيبها ليتحقق له النطق الصحيح . وكذلك الشأن مع بعض الكبار فى بعض الأَحيان ممن يكون نصيبهم من التعليم والثقافة ضئيلا . فحين يُطلب من أحدهم ترديد كلمة طويلة البنية من لغة أجنبية عنه كالسنسكريتية مثلا يشق عليه تذكر الترتيب الصحيح بين أصواتها ، فيحدث فى نطقه ما يسمى بالقلب المكانى » . ويسوق لنا جسبرسن أمثلة لاحظها مع بعض أطفال الإنجليز حين قالوا : Efelent بدلا من Elefent ، وقالوا : Serreval بدلا من Several ؛ وقالوا : Waps بدلا من Wasp ؛ وقالوا : Pillarcat بدلا من Caterpillar ! !

(١) Language its nature, development & origin. P. 108. & 281.

على أننا مع التسليم بفكرة ضعف الذاكرة لدى الأطفال وأشباههم ، نتساءل لماذا يقع القلب المكانى ، معذلك ، فى بعض الكلمات القصيرة البنية ، ثم فوق هذا ، لماذا يتخذ القلب المكانى صورة معينة فى تغيّر ترتيب الحروف ؟ ! ولذلك لا نتصور أن يكون لضعف الذاكرة دور حقيقى فى ظاهرة القلب المكانى إلا مع الألفاظ الأجنبية الطويلة البنية" .

وقد تبيّن لنا فى دراسة حديثة أن السرّ الحقيقى فى معظم أمثلة القلب المكانى يرجع إلى اختلاف نسبة شيوع السلاسل الصوتية فى كلمات اللغات .

وربما يكون ذلك أوضح فى اللغات السامية ومنها اللغة العربية ، لأنها تعتمد فى كلماتها على الجذور الأصلية . وعليه فمعظم الصور المروية للقلب المكانى فى الكلمات العربية تعزى أولا وقبل كل شىء إلى اختلاف نسبة شيوع السلاسل الصوتية فى اللغة العربية .

وليس بين اللغويين العرب أو المستشرقين من فطن لذلك ، بل لم نفطن له نحن قبل ظهور الإحصاءات التى بين أيدينا .

وحديث ذلك ، دون الدخول فى متاهات علم النفس عن الذاكرة أو الحافظة ، أن نقول : إن المرء يكتسب فى سنى حياته محصولا لغويا ضخما يختزنه مرتبا فى مخّه ترتيبا خاصا يعين على تذكره وتداعى بعضه مع بعض ، فكأن الله سبحانه قد أمدّ المخّ فى كل منا بجهاز كومبيوترى عجيب لا يكاد العلم الحديث يعرف عنه شيئا . ويكفل لنا هذا الاستعداد الفطرى اختزان المحصول اللغوى مرتبا فى نظام صوتى خاص ييسّر علينا تذكر ما نحتاج منه فى كلامنا ، كما ترتبط عناصره بعضها ببعض ، وتتداعى بعضها مع بعض كلما خطرت فى الشعور أو جرت فى الاستعمال . ولا نشك فى أن ذلك المحصول اللغوى لدى كل منا يتألف من سلاسل صوتية أغلبها ثلاثى الأصول أو الجذور ، وأن هذه السلاسل الصوتية تختلف فى نسبة شيوعها

فى الكلام العربى ؛ فمنها الكثير الشيوع ، ومنها المتوسط الشيوع ، ومنها النادر الشيوع .

فإذا خطرت فى الذهن إحدى تلك السلاسل الصوتية القليلة الشيوع فقد تستدعى إلى الشعور سلسلة أخرى تشبهها فى معظم معالمها . ونلحظ أن السلاسل الصوتية الأكثر شيوعا من الناحية الإحصائية هى أكثر السلاسل خطورا فى الاذهان ، وأسرع فى الاستجابة حين الحاجة . فإذا سمع السامع أو نطق الناطق بسلسلة من تلك السلاسل الصوتية القليلة الشيوع تداعت لها مسرعةً سلسلة أخرى أشبه بها أو أقرب إليها ، وهى فى نفس الوقت أكثر منها شيوعا وترددا فى كلام الناس ، فكأنما كانت تطفو على سطح الشعور ، ولذلك تبادر قبل غيرها فى الاستجابة إلى المتكلم أو السامع .

فحلول سلسلة صوتية محل أخرى ، وهذا هو القلب المكانى ، سرّه الحقيقى أن السلسلة الجديدة الطارئة أكثر شيوعا ودورانا فى الكلام من الأخرى .

هذا هو الذى يفسر لنا ظاهرة القلب المكانى فى معظم أمثلة العربية بوجه عام . فما يسمى أحيانا بتعثر اللسان أو زلة اللسان ليس مرضا عضويا فى كثير من حالاته ؛ ولعلّ التعبير بقولنا : «سبق اللسان» يكون أقرب إلى ما نحاول هنا بيانه ؛ فسبق اللسان ليس إلا صدى لسبق التذكر الذى مرجعه أن بعض السلاسل الصوتية فى حافظتنا أسرع استجابة للخاطر من غيرها .

فإذا نظرنا فى ضوء ما تقدم ، لمجرد زيادة التوضيح ، إلى مثل من الأمثلة المروية فى كتب اللغة للقلب المكانى تجلت لنا هذه الحقيقة .

خذ مثلا الفعل « يئس » مع مقلوبه « أيس » نجد أن التفسير العلمى لهذا القلب هو أننا نجد فى الإحصاءات التى بين أيدينا ، والتى استخدم فى استخراجها جهاز الكومبيوتر ، وهى الإحصاءات التى ندعوها هنا مسطرة اللغوى ، نجد أن الجذر

الثلاثى الذى يبدأ بالياء وبعدها الهمزة أقل شيوعا من الذى يبدأ بالهمزة وبعد ها الياء ، فبينما يرد الأول فى إحصاءاتنا مرة واحدة فقط يرد الثانى عشر مرات .

وكذلك نجد أن الجذر الثلاثى الذى ينتهى بالهمزة وبعدها السين أقل شيوعا من الذى ينتهى بالياء وبعدها السين ، فبينما يرد الأول فى إحصاءاتنا مرتين فقط يرد الاخر ثمانى مرات . وأخيرا نجد أن المادة الثلاثية التى تبدأ بالياء وتنتهى بالسين أقل شيوعا من تلك التى تبدأ بالهمزة وتنتهى بالسين ، فبينما ترد الأولى فى إحصاءاتنا سبع مرات ترد الأخرى خمس عشرة مرة .

وهكذا نرى أن الذى سوغ القلب المكانى فى الفعل « يئس » ليصبح « أيس » هو أن نسبة شيوع السلسلة الصوتية « أيس » فى الكلام العربى أكثر كثيرا من نسبة شيوع السلسلة الأخرى .

وبالله التوفيق ،،

مارس ١٩٧٢ م

ابراهيم انيس
المشرف على المجلة

لغة العلم فى الإسلام

للدكتور إبراهيم مدكور

للعلم لغة يؤدى بها ، ولا حياة له بدونها ، يلتقى عندها العلماء ، ويعوّل عليها الطلاب . وعلى أساسها يقوم الشرح والدرس ، ويعتمد التأليف والنشر . تسير بسير العلم ، وتقف بوقوفه ، ولا سبيل لأن توجد فى أمة جاهلة ، ولا لأن تحيا فى بيئة لا تغذّيها ولا تنميها . وعصور الازدهار العلمى فى التاريخ قديمه وحديثه هى عصور مجد الأمم ونهوضها ، فالعلم اليونانى وليد نهضة أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامى ثمرة من ثمار الصدر العباسى الأول ، ولا تزال الثقافة الفرنسية المعاصرة تحمل فى ثناياها جهود القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ولغة العلم صنيع أهله يصطلح عليها العلماء ، فتصبح لغتهم الخاصة . ولكل علم مصطلحاته ، وكلما تقدم البحث فيه نمت وتحددت ، تبدأ هزيلة مترددة ، ثم لا تلبث أن تقوى وتستقر ، وحياتها فى أن تستعمل وتتبادل . وتاريخ علم إلى حد ما هو تاريخ مصطلحاته ، لأنها جزء من منهجه ، وتعبير دقيق عما يشتمل عليه من آراء ونظريات . ويوم أن يصطلح العلماء على دوال معينة تضيق مسافة الخلف بينهم ، وقديما قال ليبنتز : «إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى اختلاف معانى الألفاظ ودلالاتها» . والعالم ، وهو الباحث عن الفكرة ، من حقه أن يضع لها اللفظ الذى يؤديها ، وقد درج العلماء على هذا باطراد ، فلم يكشفوا الحقائق وحدها ، بل قدموا لها ما استطاعوا من وسائل التعبير . وهم فى خلاف أحيانا مع اللغويين الذين ينكرون عليهم هذا الحق المطلق ، ويقيدونه ببعض القيود ، وربما اقترحوا لهم ألفاظا أخرى غير تلك التى ارتضوها ، ولكن العلماء دائما هم أصحاب الحق الأول

فى تخير اللفظ الملائم للمعنى الذى قصدوا إليه ، وبقدر تمكنهم من لغتهم يكون اختيارهم أدق وأحكم . وقدلا يجد الباحث الأول اللفظ الدقيق ، فيتدارك تلاميذه مافاته . وهكذا يسير العلماء ، الواحد منهم تلو الآخر ، فى ضبط المعانى وتحديد الألفاظ المعبّرة عنها ، وتطور العلم تطور لمصطلحاته بقدر اهو تطور لآرائه ونظرياته .

* * *

على هذا النحو تكوّنت لغة العلم فى الإسلام ، فلم تنشأ دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت على مر الزمن . بذرت بذورها فى القرن الأول الهجرى ، وظهرت مصطلحات فى الفقه والتفسير والكلام ، وتلتها فى القرن الثانى مصطلحات فى علوم اللغة والتاريخ ، فى الأخلاق والسياسة ، فى الطب والكيمياء ، فى الفلك والهندسة . واستكملت العلوم العربية فى القرن الثالث لغتها ، وتوفّرت لها أسباب الحياة . وما إن حل القرن الرابع الهجرى ، وهو العصر الذهبى فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، حتى استقر المصطلح العلمى ، وتنوسى معناه الاول ، وأصبح حقيقة عرفية لايفهم منها إلا مدلولها الجديد . وتداوله الباحثون فى المشرق والمغرب ، ولم يختلف من قطر إلى قطر . فكانت لغة العلم واحدة فى قرطبة والقيروان ، فى الفسطاط ودمشق ، فى بغداد وأصفهان . وبدئ بتسجيلها فى معجمات خاصة تحت اسم مفردات أو تعريفات . ويمكن أن نذكر منها «كتاب الحروف» للفارابى ، «ومفاتيح العلوم للخوارزمى» اللذين ظهرا فى القرن الرابع ، و «كتاب التعريفات» للجرجانى فى القرن الثامن ، و «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوى فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر . ومن المصطلحات العربية مانقل إلى الفارسية والتركية ، ومنها ماسرى إلى اللاتينية ، بل إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

واستعان علماء الإسلام على تكوين لغتهم بوسيلتين هامتين ، وهما النقل والوضع ، والنقل طريق سهل مألوف فى اللغات على اختلافها . ينقل اللفظ من مدلوله الأصلى إلى مدلول آخر جديد ، لايلبث أن يستقر ويصبح حقيقة عرفية. وقد عوّل عليه مفكرو الإسلام الأول

فيما وضعوه من مصطلحات ، ويلحظ بوضوح فى مصطلحات الفقه والتشريع كالصلاة والصوم والزكاة ، وفى علوم النحو واللغة كالتمييز والاستثناء، والجامد والمشتق . وكثيرا مادرج المؤلفون على شرح المصطلح فى جانبيه اللغوى والعلمى. وعن طريق النقل قد يؤدى اللفظ عدة معان باختلاف الموضوعات ، فالرجعة مثلا عند الفقهاء الرجوع فى الطلاق ، وعند الشيعة عودة الإمام بعد غيبته أو موته ، وعند المنجمين سير الكواكب المتحيرة على غير النظام المألوف .

وليس الوضع أقل شأنا من النقل فى تكوين المصطلح العلمى ، فيبتكر لفظ جديد لأداء معنى خاص عن طريق النحت أو التركيب أو الاختزال . والاشتقاق أيسر السبل لوضع المصطلحات لأنه يخضع لقواعد محددة ويؤدى معانى متعددة ، فمنه تؤخذ صيغة الفاعل والمفعول ، والصفة المشبهة وصيغة المبالغة، واسم الآلة والزمان والمكان ، وقد أفسح المصدر الصناعى المجال للدلالة على أسماء طوائف ومذاهب مختلفة كالقدرية والجبرية واللا أدرية. وإن لغة اشتقاقية كالعربية لا يعز عليها أن تؤدى المعانى فى صورها المختلفة ، وليست فى هذا أقل مرونة من بعض اللغات اللاتينية التى تعتمد على نظام السوابق (Tréfines) واللواحق (Suffines) .

على أن علماء العرب لم يقفوا عند النقل والوضع ، بل أخذوا بالتعريب كلما دعت إليه حاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عرّبوا عن اليونانية والسريانية. وربما آثروا المعرّب على العربى الأصيل إذا كان أدل على المعنى ، فأحلوّا كلمة «جوهر» الفارسية الأصل محل كلمة «عين» العربية للدلالة على لفظ «أوسيا» اليونانية . ويطول بنا الحديث لوتتبعنا هذه المعربات جميعها ، وفى «مفاتيح العلوم» للخوارزمى قدرمنها . ويكفى أن نشير إلى أن الألفاظ الفارسية كثيرة الورود فى مستحدثات الحضارة والنظم والإدارة ، وأن اليونانية والسريانية ملحوظة فى العلوم والفلسفة . وفى هذا مايدل على المصادر التى أخذ عنها العرب بوجه عام ، ويحمل المعنى معه عادة اللفظ الدال عليه . فمن الفارسية مثلا «الرُّزنامة» وهى

مسْك حساب الخراج ، « والدفتر » « والفِهرست » وهما من مستلزمات الديوان ، و « البريد » ، وهو فى الأصل دابة تحمل الرسائل ، أصبح نظاما متعدد الأشكال ، و « الدستور » ، وهو كلمة تنوسى اليوم تماما أصلها الفارسى . ومن اليونانية على سبيل المثال أيضاً « الناموس » « والسفسطة » فى الفلسفة ، « والارتماطيقى » « والأَسْطُرلاب » فى الرياضيات ، « والقولون » وهو المِعى الغليط « والتِرياق » وهو دواءُ السم فى الطب ، ومن السريانية الكِيان وهو الطبيعة فى الفلسفة ، والبُحرَان وهوداء معروف فى الطب .

* * *

والعلوم الإسلامية متعددة ومتنوعة ، بين دينية ولغوية ، طبيعية ورياضية ، ولكل علم لغته ومصطلحاته . ولا سبيل لأن ندرس الآن نشأة هذه المصطلحات وتطورها ، وما أجدرنا أن نفعل ، ففيها تراث الماضى وذخيرة الحاضر ، وعَوْن على تكوين لغة العلم المعاصر . وعسانا نوفق لعرض نماذج من ذلك فى فرصة تالية . وقد سبق لمجمع اللغة العربية أن وجه فى سنيه الاولى الباحثين لجمع المصطلحات العلمية القديمة من أمهات الكتب التى نشرت أو التى تعد للنشر ، ولا يأُخذ المحققون أنفسهم بذلك فى اطراد ، مع أنه جزء هام من أجزاء المنهج العلمى للنشر الدقيق . وينبغى أن يختم كل نص قديم يخرج للقراء بفهرس يشتمل على ماورد فيه من مصطلحات ، نحيى بها الماضى ونعين أبناء الحاضر على الدرس والبحث

ابراهيم مدكور
الأمين العام للمجمع

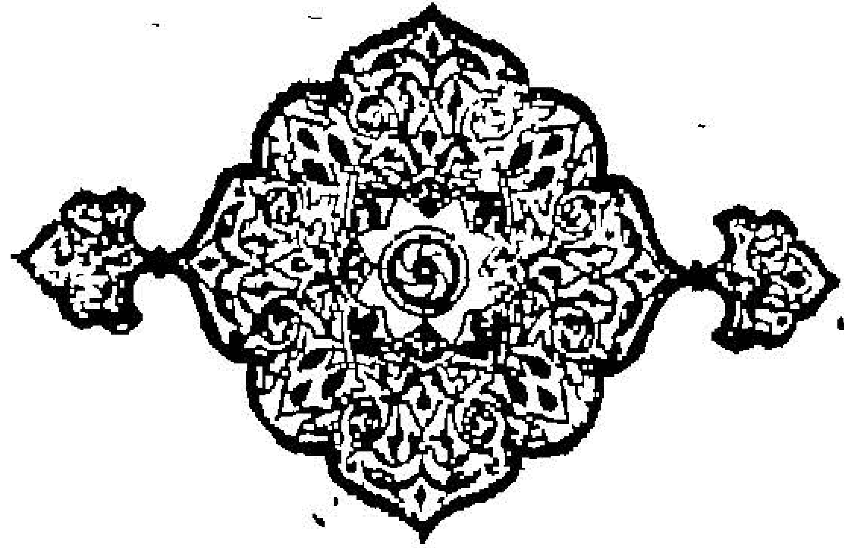

الطير الأبابيل
في واقعة الفيل
وما يراه الشيخ محمد عبده في ذلك

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

للإمام المغفور له الشيخ « محمد عبده » تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم .

وله فيما كتب على بعض سور هذا الجزء آراء خاصة ، انفرد بها ، لم يقل بها - فيما نعلم - أحد ممن سبقه من أئمة التفسير القدامى ، ولا من جاء بعدهم .

وليس على الباحث عيب ، ولا عليه تبعة إذا هو خرج من بحثه برأى لم يسبقه إليه أحد ، ما دام يعتمد فى هذا الرأى على حجة واضحة ، وما دامت تؤيده فيه اللغة الصحيحة .

أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فإن المطالع المتبصر لا يسوغ له أن يأخذ بذلك الرأى أو يعتمد عليه مهما كان شأن صاحبه ، فإنما ينبغى التعويل على القول ذاته وصحته وجودته ، لا على القائل ومكانته أو شهرته .

وإن من تلك الآراء الخاصة ، التى انفرد بها الأستاذ الإمام - عليه سحائب الرحمة - قوله فى الطير الأبابيل[1] التى أرسلها الله - سبحانه وتعالى - على جيش الأحباش فى حادثة الفيل - إنها جماعات البعوض والذباب ، التى كانت تحمل جراثيم مرض الحصبة أو مرض الجدرى ، وإنها ليست على ما يرويه المؤرخون والمفسرون من أنها أنواع من الطيور تشبه الخطاطيف ، وأن كل واحد منها كان يحمل ثلاثة أحجار على ما سنبينه فيما يلى بشىء من التفصيل .

(١) الأبابيل جمع إبيل أو إبول أو إبالة : القطعة من الطير والخيل والإبل . والإبالة أيضاً الحزمة من الحشيش أو الحطب ، استعملت فى جماعة الطير المتضامة التى فيها كثرة . وقيل إن الأبابيل جمع لا واحد له .

يرى الأستاذ الإمام رأيه الخاص في ذلك ويقول إنه الوجه الذى يصح اعتقاده والاعتداد به فى تفسير قوله تعالى « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » .

وسنعرف قيمة هذا الرأى بعد عرضه بالتفصيل ومقابلته برأى العلماء الآخرين .

قد ورد فى قصة الفيل – برواية الثقات – أن « أبرهة الأشرم » بن الصباح الحبشي – ملك اليمن من قبل « أصحمة النجاشى » ملك الحبشة – أنشأ كنيسة بصنعاء ، أحكم تشييدها ، وأبدع زخرفتها بالذهب والفضة وأنواع الجواهر الثمينة ؛ وقد أراد بإنشائها أمرين :

(الأول) المبالغة فى إرضاء النجاشى وإزالة ما قد يكون باقياً فى نفسه من الغضب عليه لما كان منه من قتل « إرياط » قائد الجيش الحبشى إلى اليمن واستبداده بملك اليمن من بعده .

(الثانى) أنه – انتصارا للمسيحية – أراد أن يحوّل إلى تلك الكنيسة جموع العرب الذين كانوا يقصدون إلى « مكة » فى موسم الحج ، وكتب بذلك إلى النجاشى .

وقد أثار هذا الأمر الثانى حفيظة العرب ، فخرج رجل من كنانة إلى تلك الكنيسة ليلا متخفياً وقعد فيها أى أحدث ، ثم لطخ محرابها بما أحدث . وقيل أيضاً : إن جماعة من العرب أوقدوا نارا فى موضع كان قريباً من الكنيسة ، فتطاير إليها الشرر فأحرقها . وقد يكون الأمران جميعاً.

أغضب ذلك « أبرهة » غضباً شديدا فأقسم ليهدمن الكعبة ، قبلة أولئك العرب ومتعبدهم ؛ وأرسل إلى النجاشى يبلغه ذلك ، ويسأله أن يرسل إليه الفيل الأعظم المعروف عندهم ؛ ويقال إن اسمه « محمود » .

ثم تجهز بستين ألفاً من الأحباش ، وقدم الفيل الذى أعده ليهدم به الكعبة وسار بالجيش ، فخرج له فى بعض الطريق ، ملك من ملوك اليمن ، يقال له « ذو نَفْر » ، فقاتله ، ولكن أبرهة هزمه وأسره بعد ما فتك بأصحابه ، وقد همّ بقتله ، فرجاه ألا يفعل ، فربما كان بقاؤه خيرا وأنفع من قتله ؛ فعدل عن قتله ،واكتفى بأن أوثقه وأخذه معه أسيرا .

---

(١) يقول المؤرخون : إن « أصحمة » هـذا هو جد النجاشى الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدرك زمن بعثته عليه الصلاة والسلام .

ثم سار حتى بلغ أرض « خثعم » ، فخرج له « نفيل » بن حبيب الخثعمى بقبيلته ومن انضم إليهم من العرب ، فقاتلوه ، ولكنه قهرهم أيضاً ؛ ووقع فى يده « نفيل » أسيرا ؛ ولما أراد قتله قال له لا تقتلنى ، وأكون لك دليلا بأرض العرب ، حتى تبلغ ماتريد. فعدل عن قتله ، واتخذه دليلا ، وسار حتى بلغ «الطائف» فخرجت له « ثقيف » برئيسها « مسعود ابن معتّب الثقفى » ، يستقبلونه ويحيونه ويظهرون له الطاعة والخضوع ، ويقولون له إن بيت « اللات » معبودتهم ليس هو البيت الذى يريده ، وإنما ذلك فى مكة ، وقدموا له رجلا منهم ، يقال له : «أبو رغال» ليكون دليله إلى ذلك البيت ، فانصرف عنهم ، وسار ومعه هذا الدليل حتى بلغ موضعاً يقال له « المُغَمّس » بضم الميم الأولى وفتح الغين المعجمة وتشديد الميم الثانية مفتوحة أو مكسورة . وهو فى طريق «الطائف» على بعد ثلثى فرسخ من مكة ؛ فمات هناك « أبو رغال » ودفن ، ثم صار قبره بعد ذلك يرجم بالأحجار .

ومن المغمس بعث « أبرهة » قطعة من الخيل بإمرة « الأسود بن مفصود » « بالفاء » للغارة على مكة ، فمضى واستاق إبلا لقريش فيها مائتا بعير لعبد المطلب وحده ، ولم تستطع قريش أن تصد هذه الغارة أو تعرض لها .

ثم أرسل « أبرهة » مرة أخرى — وهو بالمغمس — « حناطة الحميرى » رسولا إلى سيد مكة وشريفها يبلغه أن الملك لم يأت لحرب ، وإنما جاء لهدم البيت ، فإن لم يقاوم أهل مكة ولم يحولوا بينه وبين مقصده فسوف لا تكون حرب . وسينتهى الأمر بسلام ، فإنه ليس به حاجة إلى دمائهم .

وكان فيما أمر به ذلك الرسول أن يستصحب إليه سيد مكة إذا عرف منه أنه لا ينوى حربا ولا مقاومة . فدخل « حناطة » مكة وسأل عمن يكون سيد القوم ، فدلوه على «عبد المطلب بن هاشم» فبلغه الرسالة وذهب معه إلى « أبرهة » ، فاستقبله وأجله ، ونزل عن سريره ، وأجلسه بجواره على البساط لما قيل له إنه سيد مكة وشريفها . غير أنه عاب عليه أنه لم يهتم لذلك الأمر العظيم الذى قدم له أبرهة ، وأنه لم يطلب — لما سأله عن حاجته — إلا أن يرد إليه إبله ، ولم يبال بما اعتزم أبرهة أن يفعله بالبيت

الذى هو متعبد القوم ومحل عزهم وشرفهم ؛ فقال له « عبد المطلب » : إنى أنا رب الإبل ، وأما البيت فله رب يحميه .

ورجع عبد المطلب بالإبل فأهداها جميعها – فيما يروى – للحرم .

ثم أعد أبرهة الخيل والجند والفيل لدخول مكة ، فلم يستطيعوا سوق الفيل نحوها ، وكان كلما وجهوه إليها سقط إلى الأرض ؛ فإذا وجهوه إلى جهة أخرى أى جهة هرول .

ثم نزلت بهم الكارثة العظمى التى حدث عنها القرآن : أرسل الله عليهم أنواعاً من الطير ، لم يكن لأهل مكة عهد بها من قبل : فى أشكالها وألوانها وكثرتها وشدة هجومها ؛ وكانت ترد جماعات جماعات ، تحلق فوق الجيش وترميهم بحجارة من سجيل ، كما قال القرآن ؛ فقضت عليه ، ولم يبق منه إلا عدد قليل يحمل العبرة ، ويكون شاهدا بالهول الذى حدث ، وبعظم المعجزة التى أرادها الله إرهاصاً وتمهيدا لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحفظاً للبيت الذى هو كعبة الإسلام .

وفيما يروى أن أبرهة قد أصابه الله بمرض الجدرى الذى تساقطت منه أطرافه ، وانشق به صدره عن قلبه وكان به فى آخر الأمرحتفه ؛ أما وزيره الذى يدعى « أبا يكسوم » فقد فر راجعاً إلى « أصحمة » وطائر يتبعه وهو لا يدرى ؛ حتى إذا فرغ من إخبار الملك بما حدث للجيش ألقى عليه الطائر حجرا من تلك الحجارة فمات لساعته ، والملك ينظر فيعرف كيف كان هلاك الجيش .

ولقد كان هلاك الجيش بتلك الحجارة أمرا عجيباً حقاً .

لكن هل كان بتلك الحجارة ذاتها ومن غير توسيط شىء آخر ، كما يهلك إنسان بصخرة تقع عليه ، أو بطعنة رمح تنفذ منه فى مقتل ؟ أو أن الرمى بتلك الحجارة كان ينشأ عنه مرض فتاك ، يكون بسببه الهلاك ؟ ثم ما هى حقيقة تلك الحجارة ؟

الذى قاله المفسرون والمؤرخون أن هذه الحجارة كانت قطعاً صغيرة من طين يابس ، شديد صلب ، وذلك هو معنى السجيل ، فهى من طبيعة الطين ، وليست

من طبيعة أحجار الجبال ؛ وقد عبر عنها بحجارة نظرا إلى يبسها وشدتها وصلابتها.

هذا هو ما تشهد به اللغة فى معنى السجيل ؛ وهو ما تدل عليه آيات قرآنية تحدثت عما رمى به قوم « لوط » عليه السلام من مثل ذلك ، مما كان به هلاكهم كذلك : قال تعالى : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » . (٨٢ هود) وقال سبحانه : « فأخذتهم الصيحة مشرقين ؛ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » . (٧٣ ، ٧٤ الحجر) .

وفى سورة ثالثة بيان عن تلك الحجارة التى رمى بها قوم « لوط » أنها من الطين ، ذلك هو قوله تعالى : « قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ؛ لنرسل عليهم حجارة من طين » (٣١ ـ ٣٣ الذاريات) .

وقد حفظ أولئك المفسرون والمؤرخون ـ مما بلغهم عن حادثة الفيل ـ أن هلاك جيش « أبرهة » كان بتلك الأحجار ذاتها ، فكان الحجر يسقط على الرجل فى أعلاه فينفذ فيه ويخرج من أسفله ؛ حتى إنه إذا كان راكباً نفذ أيضاً فى مطيته .

روى « ابن كثير » بسنده عن عبيد ابن عمير قال : « لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرا أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار : حجرين فى رجليه ، وحجرا فى منقاره ، قال فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ، ثم صاحت وألقت ما فى رجليها ومناقيرها ، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شىء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر ، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة ، فزادتها شدة ، فأهلكوا جميعاً . (البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٧٤)

ثم إنه ليس فى كلمة « حجارة » ، ولا فى كلمة « سجيل » التى هى بمعنى الطين اليابس الصلب المتحجر كما قدمنا ، ولا فى التعبير بالرمى ما يشعر بشىء غير الذى قاله أولئك العلماء ، فهو الذى يتبادر إلى الذهن من تلك الكلمات .

وليس بغريب فى باب المعجزات وخوارق العادات ـ وحادثة الفيل ـ هى من هذا

القبيل – أن ينتقم الله من ذلك الجيش الجرار الجبار الذى سار ليهدم الكعبة المشرفة بيت الله الحرام ، فيرسل عليه جماعات عظيمة من الطير تحمل أحجارا صغيرة وشديدة ترمى بها ذلك الجيش فيكون فيها هلاكه . .

إن الآيات الكريمة من سورة الفيل لم تعين ذلك الطير ، ولم تبين نوعه ، وإنما أتت بكلمة طير منكرة ، لإفادة الكثرة التى قد تكون من أغراض التنكير ، لأنه لا يتعلق غرض خاص بتعيين ذلك الطير وبيان نوعه أو لونه ، إذ أنه يكفى فيما يقصدُ إليه الإعلام بالواقعة ، أن يحمل لفظ الطير على ما يتبادر إلى الذهن مما هو معهود ، أو مما يماثل ما هو معهود منه ، أى أنه يكفى فى تحقيق المقصود من الإخبار بواقعة الفيل أن يحمل الطير على نحو العصافير أو الحمام أو اليمام أو الهدهد أو الخطاف أو ما شاكل ذلك .

لكن هل يمكن أن يحمل لفظ الطير فى الآية الكريمة على البعوض أو الذباب ، وأن يكون المراد بحجارة السجيل ما يعلق بأرجل ذلك البعوض أو الذباب من المواد المسمومة ، التى تشتمل على جراثيم الأمراض الفتاكة ، ثم تكون ملامسة أرجل البعوض أو الذباب لجسم الإنسان هى المراد بالرمى بتلك الحجارة ؟

لا نظن أن أحدا من أئمة التفسير يجيز مثل هذه الاحتمالات ، لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز .

لكن الشيخ « محمد عبده » – رحمة الله عليه – قد أجازها وقال صراحة بها ، بل قال « إنه يجوز » أن يكون من جماعات ذلك الطير ما يسمى الآن بالميكروب ، فهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها » .

إنه جائز من ناحية اللغة ذاتها أن يطلق على البعوض « طير » وعلى الذباب « طير » ، وحتى الميكروب يمكن أن يحمل على ذلك ويطلق عليه أيضاً أنه طير ، فالطير – كما يقول الأستاذ الإمام – كل حيوان يطير فى الهواء مما يرى وما لا يرى .

لكن الكلام فى الطير المحدث عنه فى سورة الفيل : ذلك الطير الذى أخبر القرآن أنه كان يحمل أحجارا يابسة شديدة عبر عنها بالسجيل ، وأنه كان يرمى بها جنود جيش الحبشة فيكون فيها هلاكهم .

فهل يصح أن يفهم أن الذباب أو البعوض أو الميكروب هو المراد بذلك الطير ؟

إن السورة ليس فيها مايشعر بشىء من هذه الأنواع الثلاثة ، التى يريدها الشيخ « محمد عبده » من كلمة « طير » وليس فيها مايوجب صرف اللفظ إلى هذه الأنواع ؛ فما هو السبب الذى جعل الأستاذ الإمام يذهب فى التفسير ذلك المذهب البعيد ؟ لعله استنتاج يكون قد اعتمد فيه على ماجاء فى بعض الروايات عن حادثة الفيل أنه قد وقع فى الجيش الحبشى الإصابة بمرض الجدرى أو الحصبة . وقد اختار الشيخ « عبده » رواية وردت فى ذلك لم تسعد عند المؤرخين وعلماء التفسير بشهرة من مثل ما كان لكثير من وقائع تلك الحملة الحبشية . تلك الرواية تحكى أن ذلك المرض ـ الجدرى أو الحصبة ـ قد عم الجيش الحبشى كله وتفشى فيه .

فلعل « الشيخ » أراد أن يعلل هذا المرض بما يعلل به عادة فى عالم الطب ؛ وذلك بإسناده إلى الإصابة بالميكروب الخاص به .

ثم لم يرد أن يذهب ـ مع الاحتفاظ بذلك التعليل العلمى ـ مذهب أولئك العلماء الذين ثبت لديهم أن ما ورد فى السورة من ألفاظ « الطير والرمى والحجارة والسجيل » هى على معانيها الظاهرة ، التى لم يصرف عنها صارف . والتى على أساسها تكون واقعة الطير ورميه الجيش الحبشى بحجارة السجيل من باب المعجزات وخوارق العادات .

لم يذهب الشيخ هذا المذهب ، واقتصر على أن ما كان هنا لك من الطير هو من نوع البعوض والذباب الذى حمل للجيش جراثيم ذلك المرض .

وهنا نرى أنه لابد من وقفة بإزاء ما قرره الشيخ « محمد عبده » فى تفسير السورة لإبداء بعض ملاحظات ، وهى التى نورد ها فيما يلى :

١ ـ الملاحظة الأولى : « أنه ردد عبارات « التواتر » و « المتواتر » وما اتفقت عليه الروايات » بمناسبة ما يروى من وقائع حادثة الفيل ، ثم قال « إن الذى ذكره هو واقتصر عليه من تلك الوقائع فى تفسير السورة هو الذى ثبت بالتواتر »

وهو الذى يصح الاعتماد عليه . وما عداه فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته » .

وغريب أنه يرفض هكذا رواية أخبار الأحداث التاريخية إذا لم تكن متواترة ولو كانت صحيحة لا مطعن فيها .

إنه معقول أن يشترط التواتر فى الإخبار عن أمهات الأحداث وأصول الوقائع ، التى تتحقق لها موجبات الذيوع والشهرة ، كأن تكون مما تتوافر الدواعى على نقله والإخبار به ، والحديث عنه . وفى هذه الحالة لا يقبل من آحاد الناس ادعاء الانفراد بشهودها ومعرفتها والوقوف عليها .

أما فروع الأحداث وتفاصيلها التى لا تتوافر لها موجبات الذيوع والشهرة كما تتوافر لتلك الأصول فإنه يكون من الحيف ألا يقبل فيها ما يرويه الآحاد ولو كانوا عدولا صادقين غير متهمين بكذب ولا تدليس ولا تحريف ، وكان ما يخبرون به عن تلك الأحداث الفرعية لا يتعارض وما ثبت بالتواتر عن الوقائع الأصلية ، ولا يناقض روايات آحادية أخرى عن تلك الأحداث الفرعية ذاتها .

ونضرب لذلك مثلا ما روى من أن « عبد المطلب » جد الرسول صلى الله عليه وسلم لما ذهب إلى « أبرهة » حينما كان بالمغمس طلب منه أن يرد عليه إبله التى كان قد استولى عليها قائده « الأسود بن مقصود » فى غارته على سرح مكة ، وأن « أبرهة » قد رد عليه الإبل ، وكانت مائتى بعير ، وأنها كانت كلها لعبد المطلب ، وأنه أهداها جميعها للحرم .

فهل مثل هذه الوقائع الفرعية يلزم لقبولها أن تكون مروية بالنقل المتواتر فتكون مرفوضة إذا لم يتحقق لها هذا التواتر ولو كانت صحيحة لا طعن فيها ولا تجريح ؟ إن هذا يكون من لزوم ما لا يلزم ، وهو شىء لم يقل به أحد فيما نعلم .

هذا — ونريد ألا نقف هنا طويلا ، فإن هذه المسألة ليس لها من الأثر فى الموضوع الذى نحن بصدده إلا بالقدر الذى أشرنا إليه .

٢ — الملاحظة الثانية : أن الشيخ «محمد عبده » قد أورد فى القطعة التى قال إنها متواترة شيئاً لم يثبت بالتواتر ولم تتفق عليه روايات الرواة فإنه قال

ما نصه : « وفى اليوم الثانى – أى بعد وصول « أبرهة » إلى المغمس – فشا فى جند الجيش الحبشى داء الجدرى والحصبة قال « عكرمة » : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب . وقال « يعقوب بن عتبة » فيما حدث : إن أول ما رُئيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام ؛ وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين . وأصيب الحبشى ، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة ، حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء » .

ثم قال « الشيخ » : هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به » اهـ .

وهكذا يقرر الشيخ « محمد عبده » أن الإصابة بالجدرى والحصبة قد أفزعت الجيش كله ، وفشت فيه ، وأن هذا مما ثبت بالتواتر واتفقت عليه الروايات .

ونحن نقول : إن حادثة مرض الجدرى أو الحصبة وفشوه فى الجيش لم تتفق عليها الروايات ، ولم تثبت بالضرورة ثبوت التواتر ، فإن كثيرا من أعلام المؤرخين لم يذكروا شيئاً يدل على أن مرض الجدرى أو الحصبة قد عم الجيش وفشا فيه ، بل إنهم لم يذكروا شيئاً أصلا عن إصابة الجيش بهذا المرض . ومن ذكر من هؤلاء شيئاً عن مرض الجدرى أو الحصبة لم يذكر أنه أصيب به أحد غير أبرهة .

إنه بعيد جدا أن تكون إصابة الجيش الحبشى بمرض الجدرى هكذا إصابة عامة وبائية ثم يسكت عنها ويغفل أمرها أولئك العلماء الذين أشرنا إليهم(1) ، إذ أنها حينئذ تكون جديرة أن يروى أخبارها كل معنى بحفظ الأحداث التاريخية العظيمة ، ولا سيما حادثة كحادثة الفيل .

ويستند المرحوم الشيخ « محمد عبده » فى دعوى إصابة الجيش الحبشى بالجدرى إلى ما روى عن « عكرمة » أن ذلك كان أول جدرى ظهر ببلاد العرب ؛ ولكن هذه الرواية ليس فيها ما يفيد أن مرض الجدرى قد تفشى فى الجيش كله .

---

(1) من هؤلاء العلامة القسطلانى فى المواهب الدينية والإمام محمد بن عبد الباق الزرقانى فى شرح المواهب ؛ وابن كثير فى البداية والنهاية .

بل نحن نقول : إنه قد روى عن « عكرمة » ما هو أصرح من ذلك فى الدلالة على وقوع الجدرى فى الجيش وأنه قد تفشى فيه : ذلك هو ما أثبته « الفخر الرازى » فى التفسير الكبير إذ يقول : روى عكرمة عن ابن عباس قال : لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدرى ؛ قال : وهو قول « سعيد بن جبير » . ثم قال : وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة وأكبرها مثل الحمصة »[1] .

ولكن هذه رواية . فأين هى من دعوى التواتر أو دعوى اتفاق الروايات ؟

ثم إننا لا نمنع أن يكون جيش الحبشة قد وقعت فيه الإصابة بالجدرى ونفترض أن هذا المرض قد عم أفراد الجيش وتفشى فيهم ، وأنه كان أثرا لما رماهم به الطير الذى أرسله الله عليهم ؛ لكن يجب أن يكون ذلك كله على أساس أن تكون ألفاظ الطير والرمى والحجارة الواردة فى السورة مأخوذة فى معناها الظاهر الذى يتبادر إلى الذهن من تلك الألفاظ ، وهو الذى بيناه فيما سبق واتفق عليه جميع المفسرين ، والمؤرخين ، وهو الذى روى أيضاً عن « عكرمة » الذى يستند إلى روايته المرحوم الشيخ « محمد عبده » .

وهو غير ما ذهب اليه « الشيخ » الذى يحصر سبب إصابة الجيش الحبشى بالجدرى فيما نقل إليه من الجراثيم بواسطة الذباب أو البعوض .

٣ ـ الملاحظة الثالثة : أن الشيخ «عبده» ـ الذى يقرر أنه إنما يعتمد على المتواتر فى أخبار هذه الأحداث ، أو على ما اتفقت عليه الروايات ـ لم يأخذ بما اتفقت عليه الروايات جميعها فيما حدثت به عن الطير وعن الحجارة التى كان يلقى بها على الجند وكيف كان الهلاك بتلك الحجارة على ما بيناه فيما سبق ؛ بل نحا فى ذلك ناحية لم يذهب إليها أحد قبله ، فقال بالبعوض والذباب والميكروبات ، ولم يقل بما قاله سائر العلماء الذين نقلوا أن هلاك جيش « أبرهة » كان بذلك الحدث الذى هو من المعجزات وخوارق العادات .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٨ ص ٤٨٤

٤ ـ الملاحظة الرابعة : هى أن المرحوم الشيخ « عبده » يقول : وقد بينت لنا هـذه السورة الكريمـة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير ، مما يرسله الله مع الريح » .

ونحن نرجع إلى السـورة فلا نراها تبين شيئاً أو تقول شيئاً عن الجدرى أو الحصبـة . لم تعرض السورة لشىء من ذلك ، ولم تقل إن تلك الحصبة أو ذلك الجدرى كان من أثر الجراثيم التى كانت عالقة بحجارة سقطت على الجيش من الطير الذى يرسله الله مع الريح ، تعنى الذباب والبعوض .

فالسورة لم تذكر تعليلا للإصابة بمرض حصبة أو جدرى ، لأنها لم تذكر فى آياتها الحصبة والجدرى .

ثم لم يثبت ثبوتاً قاطعاً متواترا أن الجيش أصيب إصابة عامة بهذا المرض ، على ما يرى المرحوم الشيخ « محمد عبده » حتى يمكن أن يقال إن السورة قد عرضت لبيان العلة فى هذه الإصابة مكتفية بذلك عن التصريح باسم الحصبة أو الجدرى .

هذا ـ وفى ختام هذه الملاحظات نقول : إنه ليس بمثل تلك التكلفات والمحاولات : تكون الإجادة أو التجديد ، فى تفسير الآيات البينات ، من كتاب الله المجيد.

والحمد لله رب العالمين .

عبد الرحمن تاج

عضو المجمع

وديان و أودية

للدكتور ناصر الدين الأسد

(١)

يذهب بعض المُحْدَثين - ممن لهم عناية باللغة - إلى تخطئة استعمال « الوديان » جمعًا للوادى ، ونبّهوا على أنّ الصواب « أودية »[(١)] .

وحاولت أن أتتبّع جمع « الوادى » فى أساليب القدماء ، فرجعت إلى نحو ثلاثين ديوانا لشعراء العصور المختلفة : الجاهلية والأُموية والعبّاسية ، وقرأت جميع ما فيها من أبيات على قافية النون وقبلها ألف . فلم أجد فيها « الوديان » على كثرة الحاجة إليها فى مثل هذه القافية . ووجدت فى بعض هذا الشعر « أودية » فى دَرْج البيت . ثم رجعت إلى ما تيسّر لى من كتب المسالك والبلدان ومعاجم الجغرافيا . فلم أجد كذلك أحدًا من مؤلّفيها يستعمل « الوديان » ووجدتهم جميعاً يجمعون « الوادى » على « أودية » .

واشتد طلبى للوديان وحرصى على التنقيب عن هذا الجمع ، ولكنّى لم أجده فيما قرأت من كتب تراثنا فى اللغة أو الأدب أو التاريخ أو غيرها . حتى أفسدت علىّ شهوة البحث عن هذا الجمع لذّة قراءة تلك الكتب وربّما فوّتت علىّ فوائد أخرى كثيرة .

ولجأت إلى المعاجم وكتب اللغة لعلّى أجد فيها ما لم أجد فى غيرها ، فلم أفز بطائل .

فالأزهرى (ت ٣٧٠ هـ) اقتصر على إيراد جمع واحد للوادى هو « الأودية »[(٢)] .

---

(١) كتاب المنذر إلى المجمع العلمى العربى فى دمشق ١ : ١٢ ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٢٧ ؛ والكتابة الصحيحة ، لزهدى جار الله . ٣٢٩ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٨

(٢) تهذيب اللغة ١٤ . ٢٣٢

وكذلك فعل أبو بكر الزُّبَيدى (ت٣٧٩هـ) ولكنه أضاف فائدة جليلة ، قال :[١] « والوادى : كل بطن مطمئن من الأرض ، وربما استقر فيه الماء ، والجمع أودية ، على غير قياس . . . . »

وتابعه الجوهرى (ت ٣٩٣ ـ ٤٠٠ هـ في النص على مخالفة هذا الجمع للقياس ، ثم أضاف فائدة أخرى جليلة ، قال[٢] : « والجمع : الأودية ، على غير قياس ، كأنه جمع وَدِىّ ، مثل : سَرِىّ وأسْرية للنهر » .

ولم يذكر الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) الجمع ، واقتصر على ذكر المفرد[٣] .

وأورد ابن منظور (ت ٧١١ هـ) ثلاثة جموع ، قال[٤] : « والجمع : الأودية . . . وقال ابن الأعرابى : الوادى يجمع أوداء ، على أفعال . . . أسدية ، وطيئ تقول : أوداء ، على القلب » ، ثم أورد ما ذكره الجوهرى في صحاحه عن مخالفة الجمع « أودية » للقياس .

واقتصر الفيومى (ت ٧٧٠ هـ) على ذكر « أودية » في جمع واد[٥] .

أما مجد الدين الفيروزابادى (ت ٨١٦ أو ٨١٧ هـ) فقد أورد أربعة جموع ، هى : أوداء ، وأودية ، وأوداة ، وأودابة[٦] .

وكذلك فعل المرتضى الزَّبيدى (ت ١٢٠٥ هـ) فقد أورد هذه الجموع الأربعة وزادها بيانا مما ذكره الجوهرى وابن منظور[٧] .

أما في كتاب الله فقد جاءت كلمة « واد » منكَّرة ومعرَّفة ، مجرورةً

---

(١) لحن العوام ، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة دار العروبة بالقاهرة ١٩٦٤ ، ص : ٢٤٠

(٢) الصحاح (ودى) .

(٣) أساس البلاغة (ودى) .

(٤) اللسان (ودى) .

(٥) المصباح المنير (ودى) .

(٦) القاموس المحيط (ودى) .

(٧) التاج (ودى) .

ومنصوبة ، فى ثمانى آيات من ثمانى سور[1] ، ولم يجيء الجمع إلا فى صيغة « أودية » وحدها ، وذلك فى آيتين من سورتين ، قال الله تعالى : (أَنزَلَ من السَّماء ماءً فسالت أوديةٌ بِقَدَرِها)[2] وقال تعالى (فلمَّا رأوهُ عارضًا مُستَقْبِلَ أوديتِهِمْ قالوا هذا عارضٌ مُمطِرُنا)[3]

وكان فى كل هذا غناءٌ ومَقْنع ، وكان بعضه حريًّا أن يصرفنى عن متابعة البحث لولا اللجاجة وشهوة التنقيب .

(٢)

ثمَّ عثرت فى تاج العـــروس[4] — فى آخر مستدرك الزَّبيدى حيث لا يظنُّ أحد أنه سيعود إلى الحديث عن الوادى وجمعِه بعد أن طال حديثه فى أمور أخرى غيرهما — على قوله :

« . . . والوَدِيَّان مثنَّى وَدِىّ كغنىّ : أرض بمكة لها ذكر فى المغازى ، وقد يجمع الوادى أيضاً على وُدْيان بالضمّ . . . »

ولكنَّ انفراده وحده بهذا الجمع ، دون غيره من أصحاب المعاجم واللغة ، أمر يدعو إلى التوقُّف والبحث عن مظانّه ، فليست قيمة الزَّبيدى فى ذاته ، ولكنها فيما يجمع لنا عن غيره ممن سبقه ، ولا بدَّ من العثور على مصدره الذى استقى منه . وقد أورد عبارته دون نسبة إلى صاحبها ، وأنزلها منزلا مبهمًا . ولم يهدنى طول التنقيب إلى كتاب آخر قبل تاج العروس يُحتمل أن يكون قد أخذ منه .

ومع ذلك فهذا عالم أورد فى كتابه ما كان يحوك فى النفس . وليس أقلّ من أن أثبت هنا ما جمعته عن هذا الأمر عسى غيرى أن يصل إلى ما عجزت عنه من اليقين القاطع .

(٣)

لا نعرف أحدا من أصحاب اللغة والنحو ذكر أنَّ صيغة (فاعل) فى أىّ معنى من معانيها : سواءٌ أكانت صفة أم اسماً ، مذكَّرًا أم مؤنَّثاً ، تجمع على (أفعلة)

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٧٤٧

(٢) الرعد : ١٧

(٣) الأحقاف : ٢٤

(٤) الفضل فى ذلك للصديق العلامة الأستاذ حمد الجاسر .

سوى ما استدركه بعضهم من نصّهم على شذرة ثلاث كلمات ذكرها المرتضى الزَّبيدى نقلا عن غيره[1] . وهى ناد وأندية ، وناج وأنجية ، ووادٍ وأودية .

أما جمع ناد فقد استوفيت الحديث عنه فى مقالة نشرت فى هذه المجلّة[2] . ودهبت إلى أنَّ (أندية) جمع (نَدِىّ) بمعنى (ناد) ، أما جمع (النادى) فهو (النوادى) وهو جمع قياسىّ مطّرد لا ينكسر فى « فاعل » إذا كان اسما أو صفة غلبت عليها الاسمية لغير العاقل » .

أما (أنجية) جمع (ناج) فلم أعثر عليه فى شىء مما اطلعت عليه من المعاجم وكتب اللغة – سوى هذا الذى نقله الزَّبيدى فى التاج عن أبى العباس الحلبى المعروف بالسّمين فى كتابه عمدة الحفّاظ – فجميعها تنصُّ على أن الناجية هى «الناقة السريعة تنجو بمن ركبها ، والبعير : ناج »[3] ، ولا تورد له جمعًا . أما أنجية التى وردت فى هذه المعاجم فهى جمع نَجِىّ . والنص عليه وشرحه وأمثلته من الشعر وغيره ، كل ذلك واضح الدلالة على أن (أنجية) هم القوم الذين يتناجون فهى جمع (نجىّ) وليست جمع (ناج) بمعنى البعير .

أما جمع (واد) فهو موضوع الحديث فى هذا البحث . وقد رأينا أن المعاجم وكتب اللغة لم تنص إلا على جمع واحد هو (أودية) ، ولكننا رأينا كذلك أنها نصّت على أن هذا الجمع « على غير قياس » لأن صيغة (فاعل) لا تجمع على (أفعلة) وزاد الجوهرى فى صحاحه : « كأنّه جمع وَدِىّ ، مثل : سَرِىّ وأسْرية ، للنهر » .

فإذا كان هذا صحيحاً فنحن نعرف أن (أفعلة) من جموع القلة ، وأنها تطّرد فى صيغة (فعِيل) ، وأن جمع الكثرة لهذه الصيغة هى (فعلان) بضم الفاء أصلاً وكسرها أحياناً . وقد وضّح

---

(١) تاج العروس (ودى) .

(٢) الجزء السابع والعشرون ، ذو الحجة سنة ١٣٩٠ هـ ، فبراير سنة ١٩٧١ ، ص : ٩٠ – ١٠٣

(٣) انظر « اللسان » مثلا .

سيبويه وجوه استعمال هذا الجمع بما لا مزيد عليه[1] ، ومما قاله :

« . . . فأما ما كان من بنات الياء والواو فهو بمنزلة ما ذكرنا ، وقالوا : نَرِىّ وأَقْرِية وقُرْيان ، حين أرادوا بناء الأكثر ، كما قالوا جَرِيب وأجرِبة وجُرْبَان ، ومثله سَرِىّ وأَسْرِية وسُرْيان . . . »

وقال المبرّد (ت ٢٨٥ هـ)[2] .

« . . . ولكنّ باب جمع (فُعال) فى العدد الكثير (فِعْلَان) ، كما أن باب جمع (فعِيل) (فُعْلان) ، نحو : ظلِيم وظُلْمَان ، وقضيب وقُضبان . . . »

وقال ابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ[3]) :

« . . . وإذا سمّيت بصفة مما يختلف جمع الاسم والصفة فيه جمعتَه جمع نظائره من الأسماء ولم تُجْره على ما جمعو حين كان صفة إلا أن يكونوا جمعوه جمع الأسماء فتُجريه على ذلك ، كرجل سمَّيته بسعيد أو شريف تقول فى أدنى العدد : ثلاثة أشرفة وأسعدة ، وتقول فى الكثير : سُعْدان وشُرْفان وسُعُد وشُرُف ، لأن هذا هو الكثير فى الأسماء فى جمع هذا البناء ، تقول : رغيف وأرغفة ، وجَرِيب وأجربة ، وقالوا : رُغفان وجُربان . . . »

ونصّ السيوطى على الصيغ التى يستعمل فيها هذا الجمع فبدأها بقوله[4] :

« فُعْلان ، بالضم ، ويطَّرد جمعاً لاسم على فعيل . . . »

ونحن نرى من هذا كله أنهم حين نصوا على أنّ جمع (واد) على (أَودية) إنما هو على غير قياس ، ذكروا أيضاً « كأنه جمع وَدِىّ » ، مثل : سَرِىّ وأَسْرِية ، للنهر » ، وهذا سيبويه ينص ، كما رأينا ، نصًّا واضحاً على أن (سَرِىّ) يجمع على (أَسْرية) حين يريدون جمع القلّة ، ويجمع على (سُرْيان) حين يريدون جمع الكثرة . فإذا استعملوا لواد جمع قلّة هو فى الأصل لصيغته

(١) الكتاب ٢ : ١٩٢ – ١٩٤
(٢) المقتضب ٢ : ٢١٢
(٣) المخصص ١٧ : ٨٥
(٤) همع الهوامع ٢ : ١٧٨

(وَدِى) ، فهل لنا أن نتساءل لِمَ لا لا نستعمل جمع الكثرة لمثل هذه الصيغة ، فيكون (وديان) للكثرة و (أودية) للقلّة ؟

(٤)

وذكر رضى الدين الاستراباذى (ت ٦٨٨ هـ) أن (الوادى) لم يجمع الجمع القياسى المطّرد على (فواعل) وكذلك لم يجمع على (فُعْلان) ، وإنما جمع على (أفعلة) لعلّة محدّدة ، قال[1] :

« كأنهم استثقلوا الواوين فى أول الكلمة لو جمعوه على (فواعل) ، وانضمام الواو وانكسارها لو جمع على (فعْلان) »

وإذا سلّمنا بصحة العلة الأولى وهى استثقالهم الواوين فى أول الكلمة لو جمعوه على (فواعل)[2] فإن العلّة الثانية يصدق عليها قولهم : أوهى من حجة نحوى ! وذلك أن الواو : مضمومة أو مكسورة ، فى أول المفرد وفى أول الجمع كثير فى كلام العرب ، لم يجدوا فيها ثقلا ، أو لم يمنعهم ما فيها من ثقل أحس به رضى الدين الاستراباذى من أن تكثر فى كلامهم . وحسبنا أن نذكر من أمثلة الجمع ، وهى كثيرة على أبنية متعددة ، جمعين على بناء (فعلان) — وهو مدار حديثنا هذا — أحدهما بضم الواو والآخر بكسرها ، وهما : وحْدان (بضم الواو) جمع واحد ، ووِلدان (بكسر الواو) جمع وَلَد .

وقد استعمل العرب هذين الجمعين منذ أقدم ما نعرف من عصور العربية ، وما زلنا نستعملها إلى يوم الناس هذا ، وسنظل نستعملهما إلى ما شاء الله ، لا نحسّ فيهما ثقلًا يمنع من استعمالهما . فكيف

---

(١) شرح شافية ابن الحاجب ٢ : ١٥١ مطبعة حجازى .

(٢) وكانوا يتخلصون أحياناً من اجتماع الواوين فى أول الكلمة بقلب الأولى منهما همزة ، قال نشوان الحميرى (ت ٥٧٣ هـ) : « وإذا اجتمع فى أول الكلمة واوان قلبت الأولى منهما همزة ، وذلك فى جمع (واصل) وتصغيره ، فتقول فى جمعه : أواصل ، وفى تصغيره : أويصل . والأصل : وواصل ، ووويصل . وذلك لكراهية اجتماع واوين فى أول الكلمة وثقل النطق بهما . فأما قوله تعالى : (ما ووري عنهما) فانما ذلك على أن الواو الثانية مدت لأنها بدل من الألف (واريت) ، وقال الشاعر فى الهمزة « هو مهلهل بن ربيعة » :

ضربت صدرها إلى وقالت   يا عديا لقد وقتك الأواقى

والأصل الواو فى جمع واقية ، كباقية وعواف » . (الحور العين ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٨ ، ص : ٧٣) وانظر أيضاً المعاجم (وقى) .

نستثقل انضمام الواو أو انكسارها فى (وديان) جمع (واد) ، وهى مثل (وحدان) جمع (واحد) ؟ والجمع (وديان) بكسر الواو مستعمل فى عصرنا هذا على ألسنة العرب كافة فى أحاديثهم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . وقد سألت نفرا من أهل كل مصر من هذه الأمصار عمّا يستعملونه فى أحاديثهم اليومية جمعاً لوادٍ فلم أسمع من أحد منهم أنهم يستعملون (أودية)[1] ، وإنما يستعملون جميعاً كلمة (وديان) . والعامية تجنح دائماً إلى استعمال الأخفّ والأسهل والأبعد عن الاستكراه والاستثقال ليكون ذلك أعون على دوران الكلمة على الألسنة !

(٥)

فإذا كانت (وديان) جمع (وادٍ) هى وحدها المستعملة فى عاميّة العرب ، أو عاميّاتهم ، فى جميع ديارهم فى عصرنا هذا وربما فيما قبله من عصور ،

وإذا كان مثل هذا الجمع هو من مألوف كلام العرب الفصحاء ومن صحيح أبنيتهم وأساليبهم وقياسهم المطّرد فى جمع ما جاء على وزن (فعِيل) من الأسماء حين يريدون الكثرة ،

وإذا كانوا قد جمعوا لفظ (واد) على (أودية) على غير قياس ، كأنه جمع (وَدِىّ) مثل : سَرِىّ وأسرية ، بمعنى نهر.

فهل نستطيع نحن أن نقرّ استعمال (وديان) جمعاً لوادٍ ، حين يُشبّه جمعه بجمع وَدِىّ ، كما استعملوا لفظ (سُرْيان) ولفظ (أسرية) معاً جمعاً لسَرِىّ ، الأول للكثرة والآخر للقلّة ؟

ذلك كلّه إذا أخذنا بغير القياس ، على تشبيه بناء (فاعل) ببناء (فعيل) فنستعمل فى جمع (وادٍ) جمع (وَدِىّ)[2]

---

(١) سوى ما أخبرنى به – بعد طبع تجارب هذه المقالة – صديق ثقه من أنه سمع رجلا من السراة وآخر من بعض أنحاء نجد يستعملون « الأودية » جمعا للوادى فى حديثهما .

(٢) كان العرب يشبهون بناء ببناء ، ويجمعون أحد البناءين بجمع الآخر ، جاء فى اللسان (شعر) : « ... ورجل شاعر ، والجمع شعراء . قال سيبويه : شبهوا فاعلا بفعيل كما شبهوه بفعول ، كما قالوا : صبور وصبر ، واستغنوا بفاعل عن فعيل ، وهو فى أنفسهم وعلى بال من تصورهم لما كان واقعاً موقعه ، وكسر تكسيره ليكون أمارة ودليلا على إرادته وأنه مغن عنه وبدل منه » .

وفى المصباح المنير (شعر) : « ... قال ابن خالويه : وإنما جمع شاعر على شعراء لأن فى العرب من يقول شعر ، بالضم ، فقياسه أن تجىء الصفة على فعيل ، نحو : شرف فهو شريف ، فلو قيل كذلك لا لتبس بشعير ، الذى هو الحب ، فقالوا : شاعر ، ولحوا فى الجمع بناءه الأصلى ... » .

ولكنْ ما لنا نلجأ إلى هذا التشبيه والتغيير فى بناء المفرد التماساً لتعليل الجمع ؟ وما لنا لا نعود إلى أصل البناء وهو (فاعل) لنرى ما قال فيه علماء اللغة والنحو ؟ قال سيبويه[1] : «وما كان من الأسماء على (فاعل) أو (فاعَل) فإنه يكسَّر على بناء (فواعل) ، وذلك : تابَل وتوابل ، وطابق وطوابق ، وحاجِر وحواجر ، وحائط وحوائط .

« وقد يكسِّرون (الفاعل) على (فُعْلان) نحو : حاجر وحُجْران[2] ، وسالّ وسُــلَّان[3] ، وحائر وحُوْران[4] وقد قال بعضهم : حيران ، كما قالوا : جانٌّ وجِنَّان ، وكما قال بعضهم : غائط وغيطان ، وحائط وحيطان ، قلبوها حيث صارت الواو بعد كسرة ، فالأصل (فُعْلان) . وقد قالوا : غالٌ وغُلَّان[5] ، وفالق وفلْقــان[6] ، ومالٌّ ومُلَّان[7] . ولا يمتنع شيءٌ من ذا من (فواعل) .

« وأما ما كان أصله صفة فأُجرِى مُجرى الأسماء فقد يبنونه على (فُعْلان) كما يبنونها ، وذلك : راكب ورُكْبان ، وصاحب وصُحبان ، وفارس وفُرْسان ، وراعٍ ورُعْيان . . . فلما لم يخافوا الالتباس قالوا (فواعل) كما قالوا (فُعْلان) » .

فهل بعد هذا البيان بيان ؟ وهل يحتاج الأمر إلى مزيد من التمثل والاستشهاد وضرب الأمثلة ؟ إن ما أورد سيبويه يتردد بعبارات متقاربة فى كتب النحو الأُخرى ، وحسبنا أن نضرب مثلاً برضى الدين الاستراباذى الذى يقول[8] :

« قياس فاعَل — بفتح العين وكسرها — فى الاسم : فواعل ، قياساً لا ينكسر ....

---

(١) الكتاب ٢ : ١٩٨

(٢) الحاجر من مسايل المياه ومنابت العشب ما استدار به سند أو نهر مرتفع .

(٣) السال : المسيل الضيق فى الوادى .

(٤) الحائر : المكان المطمئن الوسط المرتفع الحروف .

(٥) الغال : نبت ، أو نبات الطلح ، أو الوادى الغامض فى الأرض فيه شجر .

(٦) الفالق : المكان المنحدر بين ربوتين ، والقضاء بين شقيقتين من رمل .

(٧) المسال : فى اللسان (ملل) : « وحكى سيبويه مال ، وجمعه ملان ، ولم يفسره » ..

(٨) شرح الشافية ٢ : ١٥١ — ١٥٢ ، وله رأى طريف وملحظ دقيق فى الفرق بين صيغتى الجمع فى المعنى ، قال : « وإذا انتقل فاعل من الصفة إلى الاسم ، كراكب الذى هو مختص براكب البعير ... وفارس المختص براكب الفرس ، وراع المختص برعى نوع مخصوص ، ليست كما ترى على طريق الفعل من العموم ، فانه يجمع فى الغالب على فعلان ، كحجران فى الاسم الصريح ... » .

وقد جاء فُعلان كحُجْران ، وفِعْلان كجِنّان ، والأول أكثر – أى مضموم الفاء – ويجوز أن يكون حيطان من الأول قلبت الضمة كسرة لتسلم الياء . . . »

وأورد ابن منظور فى تعليل جمع (راعٍ) على (رُعْيان) ما ذكروه من أنه مثل « شابّ وشُبّان ، كسّروه تكسير الأسماء ، كحاجر وحجران ، لأنها صفة غالبة[1] » .

وهذه العبارة توضّح ما جاء فى كلام سيبويه وما أورده سائر علماء النحو من أن الأسماء التى على وزن (فاعل) يجوز جمعها جمع تكسير على بناء (فُعلان) وأن الصفات حين تجرى مجرى الأسماء يجوز كذلك جمعها على (فعلان) كما جاز فى الأسماء .

وربما كان من المفيد أن نعيد ترتيب الأسماء والصفات التى وردت فى النصوص السابقة ترتيبا يكشف عن نوع هذه الأسماء والصفات من حيث حروفها الأصلية .

فمن أمثلة الأسماء والصفات ذات الحروف الصحيحة : فالق وفلقان ، وراكب وركبان ، وصاحب وصُحْبان ، وفارس وفُرْسان ، وحاجر وحُجْران .

ونضيف إليها : راهب ورهبان ، وراجل ورُجْلان .

ومن أمثلة المضعّفة اللام : شابٌّ وشُبّان ، وسالٌ وسُلّان ، وغالٌّ وغُلّان ، ومال ومُلّان ، وجانٌّ وجِنّان .

ومن أمثلة المعتلّة العين : حائط وحيطان ، وحائر وحُوْران أو حِيران ، وغائط وغيطان . ونضيف إليها : جائز وجُوزان[2] .

ومما يحسن أن يضاف كذلك استكمالا لمعالم هذا التقسيم :

من أمثلة المعتل الفاء : واحد ووُحْدان .

ومن أمثلة المهموز اللام : شاطئ وشُطآن .

(١) اللسان (رعى) .

(٢) الجائز : الخشبة التى يوضع عليها أطراف الخشب فى سقف البيت .

فهذه تسعة عشر لفظا من الأسماء والصفات التى أُجريت مجرى الأسماء ، من الصحيحة الحروف الأصلية ، أو من معتلّة الأول أو الوسط أو الآخِر ، أو من مضعَّفة الآخِر أو مهموزته . وكلها على وزن (فاعل) وتجمع على (فُعلان) بضم العين أو بكسرها ، مع أن لها كلِّها جمعًا آخر أو جموعًا أُخرى على أبنية مختلفة . وجمع هذه الالفاظ على (فعلان) ورد فى المعاجم وكتب اللغة وجرى به أسلوب الفصحاء .

(٦)

وبعد

فما كنت لأتكلّف ما تكلَّفت لو لم تكن كلمة (وديان) هى الجمع الجارى على ألسنة العرب فى هذا العصر فى مختلف ديارهم ؛ ولو لم يتصدّ نفر — من الحريصين على نقاء هذه اللغة وسلامتها — لتخطئة هذا الجمع .

ومن الطبيعى أن يتسرَّب الفساد ويتطرَّق الخطأ إلى بعض ألفاظ اللغة أو أساليب العبارة عند بعض الناس ، فى كل عصر من العصور ومنها هذا العصر الذى نعيش فيه ، خاصة بين جمهرة المتعلمين الذين يتأثَّرون بما يقرأون مما تدخله العجمة وتشوبه آثار الترجمة . أمَّا أن تُجمع الأمة كلها دون استثناء — فى أى عصر — على استعمال كلمة فى لغتها تجرى فى بنائها على بناء مثيلاتها التى تُعَدُّ من الكلام الصحيح الفصيح ، ثم يأتى من يخطِّئ تلك الكلمة ، فهذا أمر يدعو إلى التوقف أوّلا ، وإلى النظر ثانيا ، ثم إلى الإمساك عن العجلة فى التخطئة آخر الأمر .

وخلاصة كل ما تقدّم :

١ — أن كلمة (وديان) هى المستعملة جمعاً لوادٍ فى كلام العرب وأحاديثهم اليومية فى العصور الأخيرة ، وقد أنس

إليها ذوق جمهور المعاصرين ، وجرت على أقلام بعضهم [1] .

٢ ـ إن هذا الجمع (فعلان) من أبنية الجموع العربية التى نصّت عليها معاجمهم وكتب لغتهم ، ودارت على ألسنتهم وعلى أقلامهم فى شعرهم ونثرهم .

٣ ـ إن القدماء نصّوا على أن جمع (وادٍ) على (أودية) هو على غير قياس كأنما هو جمع (وَدِىّ) ، مثل : (سَرِىّ) . و (سَرِىّ) جَمْعُه : أَسْرِيَةٌ وسُرْيان . وهذه الصيغة (فعِيل) تجمع جمع قلّة على (أفعلة) وجمع كثرة على (فعلان) وأمثلة ذلك من كلام العرب كثيرة ، وهى قاعدة غالبة ، وإنْ لم تكن شاملة جامعة .

٤ ـ أن القدماء نصّوا على أن بناء (فاعل) للاسم أو للصفة التى تجرى مجرى الاسم ، قد يكون على (فعلان). وقد أوردنا أمثلة متعددة على ذلك . و (الوادى) على بناء (فاعل) .

* *

فهل من حرج ، بعد هذا ، على من لا تطمئنّ نفسه إلى تخطئة (وديان) إذا ما رآها فى بعض ما يُكْتَب أو سمعها فى بعض ما يقال ، حتى تقوم على تخطئتها بيّنة قاطعة ؟ وهيهات ! !

ناصر الدين الأسد

عضو المجمع

---

(١) وذلك كثير فى الشعر والنثر ، وحسبنا أن نسوق ثلاثة أمثلة من الشعر ، أحدها من مصر ، والثانى من لبنان ، والثالث من الجزيرة العربية .

قال حافظ إبراهيم (ديوانه ، طبع دار الكتب سنة ١٩٣٧ ، ج ١ ، ص : ٢٩) :

نظرت للنيل فاهتزت جوانبه ... وفاض بالخير فى سهل ووديان

وقال إلياس أبوشبكة (من صعيد الآلهة ، بيروت ١٩٥٩ ، ص : ٤١) :

يمشى وللنار فى أجفانه زبد ... على لظى الرمل ، من واد لوديان

وقال حسن عبد الله القرشى (فلسطين وكبرياء الجرح ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٠ ، ص : ١٠٢) :

يتنادون يا لغارات « مروا ... ن » فيسرى النداء فى الوديان

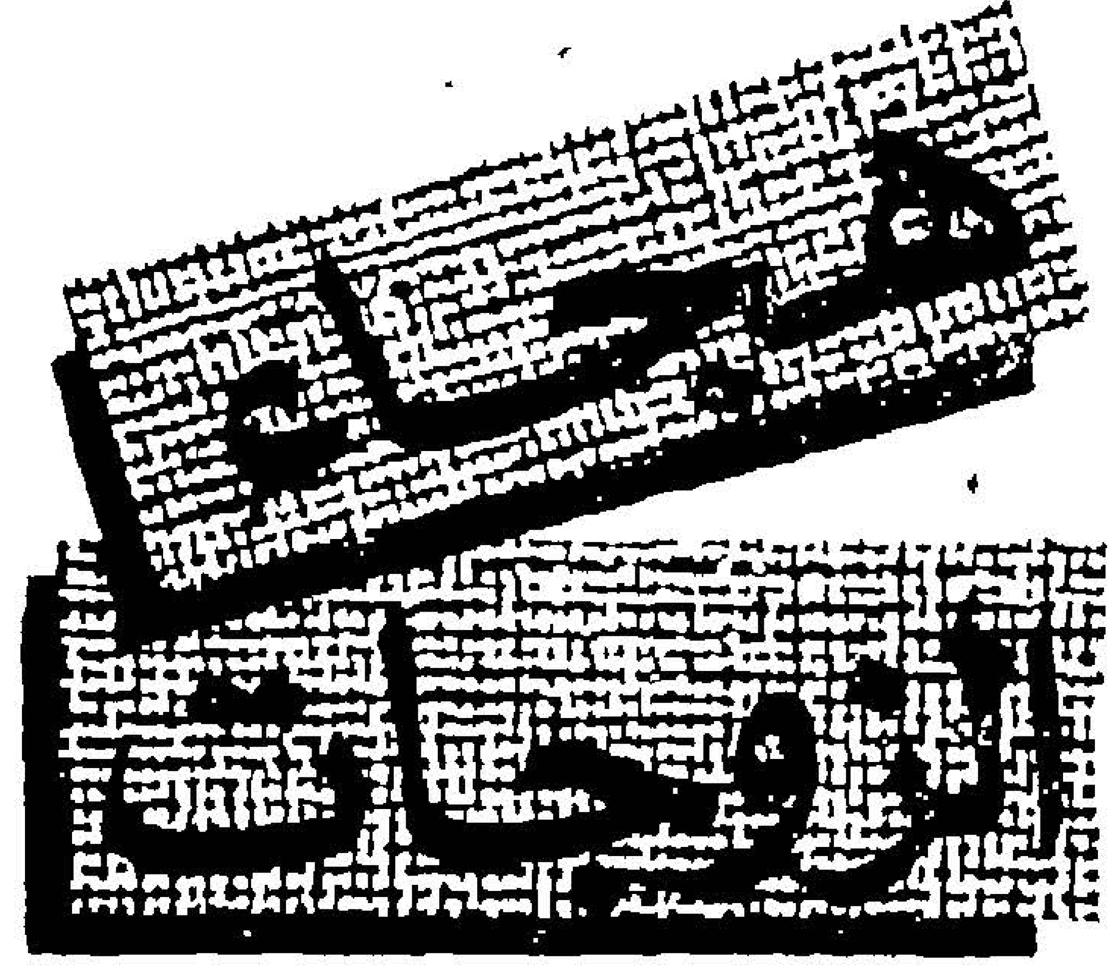

للأستاذ على الجندى

لست أدرى من فتح باب الشرّ، وإن كان يغلب على الظنّ : أنه الحطيئة بقوله :

أطوّفُ ما أطوّف ثم آوِى
إلى بيت قعيدته لَكاعِ

ومع أن هذا الشاعر كان خبيث اللّسان، كثير الفُحْش والبَذاء، حتى لم تسلم نفسه من شر نفسه ! فمن الإنصاف له أن نعترف : بأنه سلك سبيل القصد فى هجاء زوجه ! فلم يُمْعن فى الثَّلْب، ولم يَتقصَّ العيوب كما فعل غيره، ممّن وردوا هذا المستنقع الوَخِم !

وهذا اللّون من الأدب قد كشف لنا عن ضعف بيّن فى أخلاق هؤلاء الشعراء ! فلو أنهم كانوا على حظ من سموّ الخلق، ورِقّة الشعور، وسلامة الذوق، لكظموا غيظهم، ولَطوَوْا كَشْحا على المكروه، ولآثروا الصّمت على الكلام فى مثل هذه المواطن التى تُهجّن سمعة الفِراش، وتَشِى بمساوئ البيوت ! فكل ما يتعلّق بالنساء يجب ستره كالنساء ! ولو كان حَسَناً ! فما الظنّ به إذا كان ممّا يقبُحُ نَشْرُه !

ولكن لا عجب ! فمعظم هؤلاء الشعراء أعراب أجلاف ! لم تُغَذِّهم رِقّة الحضارة ! وبعضهم قد مَرّنوا على الهجاء، وغَرُوا به كدِعبِل الخُزاعىّ وأمثاله !

وإن صَحّ أن منهم أشرافاً ؛ فينضح عنهم اللّوم ! أنهم كانوا يُعانون ثورة نفسيّة عَزُب معها حِلْمهم، فنطقوا بما لا يريدون ! وكثيرا ما يَستفزّ النساء – بخُرْقهن وكيدهن – أرحب الرجال صدرًا ! وأكثرهم صبرا، وأبعدهم أناة !

ولكن ما لنا نلومهم، وهذه ساحات المحاكم الشرعيّة يقف فيها الزوجان

« الكريمان » بين سمع الجمهور وبصره ، يتراشقان بحصائد الألسنة ! ويهتكان الأستار عن مخبّآت تقنّعهما بالعار والشّنار ؟ !

قلت : إنّ هذا اللون من الأدب كشف لنا عن ضعف فى أخلاق الشعراء ! وقد يسوغ لى أن أقول : إنه كشف لنا كذلك عن ضعف فى أبدانهم ! فلو أنهم أوتوا بَسْطة فى الجسم ، وشدّة فى الأَسْر ؛ لأغنتهم بَسْطة أيديهم عن بسطة ألسنتهم ، ولعملوا بالحكمة العربيّة المأثورة :

« علّق سوطك حيثُ يراه أهالك » .

ولكن أنّى لهم العضل المجدول ، والساعد المفتول ، والتراكيب الموثّقة ، يُردِبون بها نساءهم ! وقد أنحل الشّعر أبدانهم ، ونزف قوتهم ، وأورثهم الضعف والذُّبول ! وألبسهم الهرم قبل الأوان ! فلو زيّن لأحدهم شيطانُ القوافى أن يمدّ يده بسوء إلى قعيدة بيته ، لراغت عليه ضرباً باليمين ! فأطارت مركز الشّعر من مخِّه ! وردّت إليه صُبابَة عقله !

فلما لم يجدوا ما يشفون به غيظ قلوبهم ، فزعوا إلى ألسنتهم يصبّونها صابًا وعلقمًا على الزوجات ! ولكنَّه انتقام الذَّليل ، وقدرة الخوْر التى يصوّرها أبو تمام فى قوله :

وضعيفة فإذا أصابتْ فرصةً
قتلتْ ، كذلك قُدْرةُ الضعفاء

وهل يستطيع الشاعر أن ينتقم بغير لسانه ؟ إذا ما ساق إليه القدر القاهر زوجة ككتاك التى يتحول فيها خالد الحذّاء : خطبت امرأة من بنى أسد ، فجئت لأنظر إليها — وبينى وبينها رِواق يَشِفّ — فدعت بجفنة مملوءة ثريدا ، مكلَّلة باللحم ، فأتت على آخرها ! وأتت بإناء مملوءٍ لبناً ونبيذا ، فشربته حتى كفأته على وجهها ! ثم قالت : يا جارية ، ارفعى السّجف ، فإذا هى جالسة على جلد أسد ! وإذا هى شابّة جميلة !

ثم قالت : يا عبد الله ، أنا أَسَدة ! من بنى أسد ! على جلد أسد ! وهذا مطعمى ومشربى ! فإن أحببت أن تتقدم فافعل !

فقلت : أستخير الله وأنظر ! فخرجت ولم أعد !

على أن هؤلاء الشعراء ، إن كانوا قد أساءوا من جهة ، فقد أحسنوا من

جهات ، فأفواههم قد حُشِيت مُلَحا وفُكاهات مستعذبة ، وظَرْفاً بارعاً ؛ يبسط النفوس المنقبضة ! ويُطلق بالضحك فم الثَّكْلى والثُّكلان !

وهى – إلى ذلك – تُرينا قدرة الشاعر على وضع لسانه حيث شاء ، وبراعته على قلب الزَّيْن شَيْنا ، وتبديله الحسنات سيئات !

وفيها وصف دقيق لكثير من أعضاء المرأة ، أكسبت البيان ثروة طائلة من التشبيهات الرائعة ، والاستعارات الجميلة !

وفيها تصوير للعلاقة الزوجية ، حين تستحكم النُّفْرة والشِّقاق ! ويستحيل غير الطلاق !

ويحسن أن نشير : إلى أنَّ هذا الشِّعر قد عرض لمذمّة النساء فى خَلقهن – بفتح الخاء وسكون اللام – أكثر من خُلُقهنَّ – بضم الخاء واللام – والحكمة من ذلك واضحة ، فهؤلاء النساءُ زوجات أو كنَّ زوجات ، ورمى الغرائب المحصنات جُرم شنيع ! وإسفاف ودناءة ! يَمَسّ عارها الرجلَ نفسه ؛ فكيف إذا كنَّ حليلات؟!

فلم يكن وَكْدُ الشعراء من هذا الهجو ، عَضْب النساء بِسُبّة لا تُمْحَى ! وإنما كان الغرض التَّشفِّى بإغاظتهنَّ ! ولا شى أشدَّ إيلاماً للمرأة ، ولا أسرع فى هدم كبريائها ، من وصفها بالقبح والدَّمامة !

هذا هو الوتر الحسّاس ، الذى يهزُّها من أعماقها هزّا عنيفاً ! ولو كانت تؤمن فى نفسها : بأنها خلقت على صورة القرد والخنزير ! ولن تنسى ما عاشت هذه الإساءة من مخلوق !

فممَّا ورد فى ذم الزَّوجات ؛ ما حكاه الأصمعى ؛ قال : كنت أختلف إلى أعرابىّ ، أقتبس منه الغريب ، فكنت – إذا استأذنت عليه – يقول : يا «أمامة» إيذنى له .

فاستأذنت عليه مرارا ، فلم أسمعه يذكر أمامة ؛ فقلت : يرحمك الله ! ما أسمعك تذكر أمامة !

قال : فوجم وَجْمة ! فندمت على ما كان منّى ! ثم أنشأ يقول :

ظَعَنت أمامـــــــةُ بالطَّـــلاقِ
وَنَجَوْت من غُـــــلّ الوَثاق

بانت فلم يَألمْ لها
قلبي ، ولم تبْك المآ قى

لَوْ لم أرِحْ بطلاقها
لأرحت نفسى بالإبآق[1]

ودواء ما لا تشتهيه النَّفس تعجيلُ الفراق

والعيشُ ليس يَطيب بين اثنَيْن من غير اتفاق

وقال أبو موسى فى زوجته – وقد طلّقها – :

تَجهّزى للطلاق وارتحلى
فذا دواءُ المجانِب الشَّرِس

ما أنت بالحُبّة الوَدُود ولا
عندك نفعٌ يُرجَى لملتمس[2]

للَيْلتى حينَ بتٌّ طالقةً
ألَذُّ عندى من ليلةِ العُرُس

بتٌّ لديها بشرِّ منزلةٍ
لا أنا فى لذّة ، ولا فرسِى

تلك على الخَسْف لا مُعينَ لها
وذا أنا لا يسوغ لى نَفَسى

ومن الملح : أنّ بعض الأدباء تزوّج امرأة فلم توافقه ! فقيل له : إنّ حُمَّى دمشق سريعة فى موت النِّساء !

فحملها إليها وأنشد هذه الأبيات :

دمَشقُ خُذيها وأعلمى أنّ ليلةً
تمرّ بعُودَىْ نَعشها ليلةُ القدر

أكلت دما إن لم أرُعكِ بضَرّة
بعيدةِ مَهوَى القرط طيّبة النَّشْر[3]

أما لك عُمْرٌ إنّما أنت حيّة
إذا هى لم تُقْتَل تَعش آخرَ الدهر

ثلاثين حولا لا أرى منك راحةً
لِهَنَّك فى الدنيا لباقيةُ العُمْر

فإن أنفَلتْ من حبل « صَعبَةَ » مرة
أكنْ من نساء الناس فى بيضة العُقْر[5]

---

(١) الإباق : الهروب والذهاب .
(٢) الحبة – كقبة – الحبيبة .

(٣) أكلت دما : كناية عن أنه يرضى بالدية عن أخذه الثأر وهو عندهم ضعف وذلة . وبعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق .

(٤) لهنك : لأنك ، أبدلت الهمزة هاء .

(٥) بيضة العقر : بضم فسكون – : آخر بيضة الدجاج ، أو بيضة الديك يبيضها فى السنة مره . يريد أنه لا يتزوج بعد ذلك .

وهذه الأبيات وما قبلها تجلو لنا حكمة الطلاق فى أبهى مِعْرَض ! فإنه وإن كان أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، فإنه كثيرا ما يكون نعمة على الزوجين ، لا تطيب لهما الحياة بدونه ! والشارع أعلم بمصالح العباد !

وقال آخر يهجو امرأته : بأنها مِضياع خرقاء ، وهما خصلتان عمّت بها البلوى فى عصرنا الحاضر ! فكل زوج منهما فى همٍّ مُقْعِدٍ مُقيم !

يقول :

وإنَّ بلائى من « رُدَيْنة » كلّما
رجوْت انتعاشا أدركتنى بعاثر
تُبرِّدُ ماء « السّعن[1] » فى ليلة الصَّبا
وتستعمل الكركور[2] فى شهر ناجر

أما الهجاء بذكر العيوب البدنية ، فقد قدّمنا أنه كثير ، وسنقتصر على أملحه وألطفه وأعفِّه !

فمن ذلك قول بعض الأعراب :

لها جسمُ برغوثٍ وساق بعوضةٍ
ووجهٌ كوجه القرد بل هو أقبح
وتبرق عيناها إذا ما رأيتها
وتعبَس فى وجه الضجيع وتَكْلَح
وتفتح – لا كانت – فما لو رأيتَه
توهّمتَه بابا من النار يُفتَحُ
فما ضحكت فى الناس إلاّ ظننتها
أمَامَهُمُ كلْبا يَهِرّ وينبَح
إذا عاين الشيطانُ صورةَ وجهها
تعوّذَ منها حين يُمْسى ويُصْبح
وقد أعجبتها نفسُها فتملّحت
بأىّ جمالٍ ليت شعرى تَمَلُّحُ[3]

وقال آخر :

ألامُ على بُغْضى لما بين حيّة
وضبع وتمساحٍ تَغَشّاك من بَحْر
تُحاكى نعيما زال فى قُبْح وجهها
وصفحتُها – لما بدت – سطوةُ الدهر

(١) السّعن – كسمن : قربة تقطع من نصفها وينبذ فيها .
(٢) الكركور : من أدوات التسخين . وناجر من شهور الصيف .
(٢) تملحت : تحسنت .

هى الضَّرَبَانُ فى المفاصـــل نازلا
وشُعبة بِرسام ضممتَ إلى النَّحر[1]

إذا سفرتْ كانت لعينك سُخْنَةً
وإن بُرْقعت فالفقرُ بل غايةُ الفقر

وإن حدَّثت كانت جميعَ مصائب
موفَّـرةً تأتى بقاصمة الظَّهْر

حديث كقلع الضرس أو نتف شارب
ودَلٌّ كخَطم الأنف عِيلَ له صبرى

وتَفتَرُّ عن قُلْحٍ ـ عَدمت حديثها ـ
وعن جَبَلَىْ طىٍّ وعن هرَمَىْ مصر[2]

وقال الحنفى :

مُنيت بِزَمَرْدَةٍ كالعصـــا
ألصُّ وأخبث من كُنْدُشٍ[3]

لها شَعـــر قرد إذا أزَّيَّنتْ
ولون كلون القَطَـــا الأبرش

وثـــدْىٌ يجول على نحـــرها
كقربة ذى انغُلَّـــة المُعْطِش

وساق مُخَلْخَلُهـــــا حَمْشَـــة
كساق الجـــرادة أو أحْمَشِ[4]

كأنَّ الثَّآليـــــل فى وجهها
إذا سفرت بِدَدُ الكِشْمِش[5]

لهـــا جُمَّـــةٌ فوقها جَثْلَةٌ
كمثـــل الخَوَافى من المرعَش[6]

وقد يكون للهجاء سبب ، لا تملك معه إلاَّ أن تمهِّد بعض العذر للشاعر ؛ فمن ذلك ما حكاه الكلاعىّ : من أن أعرابيًّا خطب شابّة بالبصرة ، فدسُّوا إليه عجوزا !

فلما دخل بها وأرخيت الستور ، وغُلِّقت الأبواب ، ضجر وطالت ليلته ! حتى إذا أصبح وأراد الخروج ، مُنع من ذلك ! وقيل له : لا ينبغى لك أن تخرج

---

(١) الضربان – كسرطان – : نخسة ووجعة . والبرسام – بكسر الراء – : علة يهذى منها .
(٢) قلح – كحمر – : أى أسنان صفر . من القلح – كسبب – وهو صفرة فى الأسنان .
(٣) كندش : – بضم فسكون – : العقعق ، وهو طائر خطاف .
(٤) حمشة الساق : دقيقتها .
(٥) الثآليل : بثر صغار صلب مستدير على صور شتى . والكشمش – كسمسم – : عنب صغار يكون أصفر وأحمر وأسود .
(٦) المرعش – كمكرم بفتح العين وكقعد – : جنس من الحمام يحلق فى الهواء .

إلا بعد سبعة أيام ! فقال – يشكو مصابه ويبكى حريته ! – :

أقول وقد شدُّوا عليها حجابَهـــا
ألا حبّذا الأرواحُ والبلدُ الْقفرُ
ألا حبّذا سيفى ورحلى ونُمْرُقى
ولا حبّذا منها الوِشاحان والشَّذْر[1]
أتَوْنى بها قبل المحاق بليلـــة
فكان محاقا كلُّـــه ذلك الشهر
عجوز تُرجِّى أن تكون فتيَّـــةً
وقد يَبِس الجنبان واحْدَوْب الظَّهر
وما غرّنى إلاَّ خضابٌ بكفِّهـــا
وكُحْلٌ بعينيْها وأثوابُها الصُّفْر
تُسائلنى عن نفسها هل أُحبّهـــا
فقلت ألا لا والذى أمْرُهُ الأمر
تفوح رياحُ المسك والعطرِ عندها
وأشهد عند الله ما ينفع العطـــر

ويشبه ذلك ما قصه عبد الملك بن عفّان ، قال : تزوّج ابن عَبْدَل امرأة من همْدان . فلما دخل بها ، لم تقع عنده بموقع ! فقال :

أعاذلتى – بربكما – دعانـــى
أقِلاَّ اللومَ إن لم تَعْـــذِرانى
فإنى قـــد دُلِلْت على عجـــوز
مُبَرْقَعَـــةٍ مخضَّبةِ الْبَنـان
تَغضَّن جِلدُها واخضــرَّ إلاَّ
إذا ما ضُرِّجَتْ بالزّعفـــران
فلما أن دخلت وحادثتنـــى
أظَلَّتنى بيوم أرْوَنـــان[2]
تـحدثُنى عن الأزمان حتّـــى
سمعت نِـدا المؤَذِّن بالأذان ؟
فقالت قد نكحت اثنين شتّى
فلما صاحبـانى طلّقـانى
وأربعـــة نكحتهم فماتـــوا
فليت عريف حىّ قـد نعانى[3]

---

(١) النمرق – كفندق – : الوسادة الصغيرة ، أو الطنفسة فوق الرحل . والشذر : قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة ، أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار .

(٢) يوم أرونان : صعب .

(٣) العريف : رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس .

وقالت ما تِلادُك قلت مالى
حمار ظالع ، ومَزادتان[1]
وبورىٌّ وأربعــــة زُيوف
وثوباً مُفْلِسٍ مُتَخــرّقان[2]
فقالت قـد رضيت فسَمِّ ألفا
ليسمعَ ما تقـول الشاهدان
ومالك عنـدنا ألف عَتيـد
ولا تِسْـع تُعَـدُّ ولا ثمان

ولدعبل الخزاعىّ فى هذا الباب قدم راسخة ، ولكن المبالغة والإغراق فى تصوير العيوب ، وإبرازها فى إطار من التهويل ، قد أفسد عليه قصده ، فاستحال هجاؤه ضربا من المفاكهة والتندر ، حتى ليخيل إليك أنه كان يقصد العبث والتلعب ، لا حقيقة الهجاء ! ولا أظنُّ زوجه وجاريته حين هجاهما بهذا الشعر الذى سنسوقه للقرّاء ، إلاّ قابلتاه بالضحك والسّخرية !

يقول فى امرأته .

يا رُكبتى جَزْر وساقَ نعامــة
وزبيل كنَّاس ورأس بعير[3]
يا من أُشَبِّهُها بحمّى نافض
قَطَّاعة للظهر ذاتُ زئيــر[4]
صُدغاك قد شَمِطا ونحرك يابس
والصدرمنك كجُؤْجُؤِ الطنبُور[5]
يا مَنْ مُعانقهـا يَبيت كأنّه
فى مَحْبِسٍ قَمِلٍ ، وفى ساجور[6]
قبَّلتها فوجــدت طعم لِثاتِها
فوق اللثّــام كلسْعَة الزنبور

ويقول فى جاريته « غربال » :

رأيت « غربا لا » وقـد أقبلت
فأبْدَت لعينى عن مَبْصَقـهْ

(١) ظالع : يغمز فى مشيه . والمزادة : ما يحمل فيه الماء « القربة » .
(٢) البورى : الحصير .
(٣) الجزر — كجمر — الشاه . والزبيل — كزميل — : القفة .
(٤) النافض من الحمى : ذات الرعدة .
(٥) شمطا : من الشمط — كسبب — وهو بياض الشعر يخالطه سواد . والجؤجؤ : الصدر . والطنبور من آلات الطرب « العود » .
(٦) قمل — كفرح — كثير القمل . والساجور : خشبة تجعل فى عنق الكلب .

قصيرة خَلْق ودَحْـداحــــة
تَدَحْرَجُ فى المشى كالبُنْدقة[1]
كأن ذراعاً علت كفُهــــا
– إذا حَسَرَت – ذنبُ الملعَقةْ
تُخَطِّط حاجبها بالمــــداد
وتربط فى عَجْزها مِرْفَقه
وأنفٌ على وجهها مُلصَق
قصير المناخِر كالفُستُقه
وثديان : ثدى كبَلوطــــة
وآخر كالقربــة المفهقه[2]
وصدر نحيف كثير العظـــا
م تَقعقعُ من فوقـه المِخنَقه[3]
وثغــر إذا كَشَرت خِلتَــــه
– يُخالج – ذاوية مُغلقـــــة

وقال آخر :

ألِمْ بجوهـرَ بالقضبان والمَدَرِ
وبالعصىِّ التى فى رأسها عُجَرُ[4]
ألِمْ بها لا لتسليم ولا مِقَـة
إلاَّ ليكسرَ منها أنفها الحجــر
ألِمْ برطباء فى أشداقها سَعَةٌ
فى صورة الكلب إلاَّ أنها بشر[5]
حَدْباءُ وَقصَاءُ صِيغت صيغةً عجباً
وفى تَرائبها عن صدرها زَوَرُ[6]

وقال آخر :

تمّت عُبَيْدَةُ إلاَّ من محاسنها
والمِلْحُ منها مكان الشمس والقمر[7]
قل للذى عابها من عائب حَنِق
أقصِرْ فرأس الذى قد عِبْتَ للحجر

وقال آخر :

لا تَنْكحنَّ الدهرَ ما عشت أيِّمَا
مُخرّمة قد مُلَّ منهــا وملَّتِ[8]
تَحُكُّ قفاها من وراء خمارها
إذا فقدت شيئاً من البيت جُنَّت

(١) دحداحة : قصيرة .
(٢) المفهقة : الممتلئة .
(٣) المخنقة : القلادة .
(٤) العجر : العقد جمع عقدة .
(٥) الرطباء : العظيمة الثديين .
(٦) الوقصاء : قصيرة العنق . والترائب : عظام الصدر . والزور – كسبب – : الميل .
(٧) الملح : الملاحة . أى تمت فى كل شىء إلا فى الملاحة ، وبعدت منها المحاسن بعد الشمس والقمر .
(٨) الأيم : التى فارقها زوجها بموت أو طلاق . مخرمة : كثر الدعاء عليها باخترام المنية لها .

ولنختم مقالنا بهذه الطرفة ؛ يذكر بعض أشياخ البصرة : أن رجلا وامرأته اختصما إلى أمير من أمراء العراق ؛ وكانت المرأة حسنة المتنقب ، قبيحة المنظر ، كانت ذات لسان فصيح !

فكأن العامل مال إليها ، وظن أن تحت القبيح غادة فاتنة ! فقال : يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ، ثم يسيء إليها !

فأهوى الزوج ، فألقى النقاب عن وجهها ! فقال العامل : عليك اللعنة ! كلام مظلوم ، ووجه ظالم !

على الجنـدى

عضو المجمع

ابن العوام

للدكتور عبد الحليم منتصر

هو أبو زكريا بن محمد بن العوام الأشبيلى، اشتهر بكتاب كبير فى الفلاحة عنوانه «كتاب الفلاحة» لانكاد نعرف شيئاً عن حياته، إلا أنه كان يعيش حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وأن أصله من أشبيليه، وقد ذكره ابن خلدون، دون أن يعرف له هذا المصنف، الذى كان يعتبره موجزا لكتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية، ولم يذكره «حاجى خليفة». ولا ابن خلكان.

وكان «كازيرى» فى فهرسه، أول من نبه الأذهان إلى المخطوط الكامل لهذا الكتاب المحفوظ بمكتبة الأسكوريال. وقد نشر بانكوير هذا الكتاب مع ترجمة أسبانية سنة ١٨٠٣. وينقسم الكتاب إلى أربعة وثلاثين فصلا، تبحث الفصول الثلاثون الأولى فى الفلاحة، بينما تبحث الأربعة الأخيرة فى تربية الماشية. وقد أعطى «مايرن» خلاصة لهذا الكتاب فى: "Geschichte der Botanik» ونشر كليمان ميرليه «ترجمة فرنسية لهذا الكتاب ١٨٦٤ ونقد «دوزى» ثم «هنكاده» كلا من المترجم والناشر.

وقد قدم ابن العوام لكتابه بمقدمة طويلة رائعة ضمنها بعض الأحاديث الشريفة مثل «أطلبوا الرزق فى حنايا الأرض» وقوله «من غرس غرساً أو زرع زرعاً. فأكل منه إنسان أوطائر أو سَبُع كان له صدقة» وقوله «من غرس غرساً فأثمر، أعطاه الله من الأجر بقدر مايخرج من الثمر» كما أورد بعض الأقوال المأثورة مثل قول قيس بن عاصم لبنيه «عليكم بإصلاح المال، فإنه منبهة للكريم ويستغنى به عن اللئيم» ومن ذلك أن يتفقد صاحب الضيعة ضيعته بنفسه، ولا يغيب عنها، ولا سيما فى وقت عملها وفلاحتها ومن الأمثال فى هذا تقول الضيعة لصاحبها «أرنى ظلك آعْمُر»

وقد سمى ابن العوام المراجع والمصادر التى استقى منها ، ورمز لمؤلفيها بحروف ، لا يفتأ يذكرها ، كلما أراد ، فهذا الغرناطى (غ) ، وجالينوس (ج) وقسطوس (ق) ، وأرسطوطاليس (ط ط) وطامترى (ط) وهكذا . ويقول إنه لم يُثبت إلا ما جرّبه مرارا فصحّ ، ويقول أحياناً إنه لم يقطع بأن هذا يصح فى بلادنا ، لبعد بلادهم عنا كما أنه حدد المقاييس وعرف المصطلحات كالطمر ، والكمخ ، والنبش .

وقسم الكتاب إلى جزأين ، يقع الأول فى ستة عشر بابا ، كما يقع الثانى فى ثمانية عشر بابا . وخص الجزء الأول فى معرفة أنواع الأراضى ، وأنواع الأسمدة ، وأنواع المياه ، والبساتين ، واتخاذ الأشجار والثمار ، ثم فى تطعيم الأشجار وتسمية الأشجار المعتاد زراعتها ، ويقول فى أغلب بلاد الأندلس . الجبلى والريفى والسهلى ، نحو خمسين نوعاً . ويتكلم فى الباب الثامن عن تركيب الأشجار بعضها فى بعض ، أوقاته وكيفية اختيار الأقلام ثم تقليم الأشجار ، وتحدث فى الباب العاشر عن حرارة الأرض المغترسة وتسمية الأشجار التى توافقها . ثم يذكر تزبيل الأرض والأشجار المغروسة وغير المغروسة وما يوافق كل نوع من الزبول ، وعلاج الأرض المالحة ، وكيفية التسميد ، ثم صفة العمل فى سقى الأشجار والخضر بالمياه ، وما يحتمل السقى الكثير ، ويصف عملية تذكير الأشجار ، ويتحدث عن الأشجار المتحابة والمتنافرة ، ويفرد بابا خاصا لعلاج الأشجار من الداء والأمراض وكذا علاج البقول والخضر . ويتحدث فى باب آخر : عما سماه مُلحاً مستطرفة تُعمل فى بعض الأشجار والخضر ، وتغيير لون الورد ، وتدبير فى الورد حتى يورد والتفاح حتى يثمر فى غير أيامه . ويشرح كيفية العمل فى اختزان الحبوب والفواكه الغضة واليابسة والتخليل وغيره مما يمكن أن يسمى الصناعات الزراعية .

ويتحدث فى الباب السابع عشر عن كيفية عمل القليب ومنفعته وإصلاح الأرض بعد كلالها وما يريح الأرض ويصلحها من الحبوب والقطانى واختيار البذور ، واختيار ما يصلح لكل نوع من أنواع الحبوب من أنواع الأرض ، ومعرفة أوقات الزراعة ، وصفة العمل فى زراعة الرز والذرة والدخن

والجلبان واللوبيا سقيا وبعلا ، ثم زراعة القطانى سقيا وبعلا ، وكذا الكتان والعنب والقطن وبصل الزعفران والفوّة ثم اتخاذ المباقل واختيار أرضها ، وذكر ما يصلح أن ينقل ، ويخصص أبواباً متتابعة لزراعة البقول ذوات الأصول مثل السلجم والجزر والفجل ثم القثاء والبطيخ والدلاع والباذنجان والحنظل ثم البذور المستعملة فى الأدوية كالكمون والكزبرة والكراوية.. مما يمكن أن نسميها النباتات الطبية . ويخصص فصلا للرياحين وثانى لأنواع النبات التى تتخذ منه الجنان وثالث لاختيار البيادر والمدارس حيث تجمع المحاصيل وتدرس . وخص الباب الثلاثين لاختيار مواضع البنيان ووقت قطع الخشب ومعاصر الزيت .

أما الأبواب الباقية من الكتاب فقد خصصها ابن العوام لما نسميه تغذية وتربية الحيوان وكذا أمراض الحيوان ، فتحدث عن كيفية اختيار الجيد ، ومدة الحمل ، وما يصلح من العلف . وعلاج بعض أدوائها ثم التسمين والعلف ،ورياضة الأمهار ثم علاج بعض علل الدواب ، مما يمكن أن يسمى بيطرة. وتحدث فى فصل خاص عن اقتناء الحيوان الطائر فى البيوت مثل الحمام والأوز والدجاج ونحل العسل ، ثم اقتناء الكلاب للصيد والزرع .

وكذلك نرى أن الكتاب على بعد عهده يعالج كل العلوم الزراعية تقريباً فى أسلوب سهل جذاب ، لا تمل قراءته إن اتسم بالأمانة فى العرض والاستشهاد ، ثم يتبع ذلك بقوله : لى ». وذلك حين يعرض رأيه هو . وفيما عدا ذلك فإنه ينسب الأقوال إلى قائليها من ابن حجاج إلى يونيوس أو قسطوس . . الخ

يقول ابن العوام أول مراتب علم الفلاحة معرفة الأرض ، والسواد دليل الحرارة كذلك الحمرة ، إلا أن حر الحمرة أقل من السودة ، ثم يتلوه الصفرة ، إن أنت مارست الطين بيديك فأصبته شبيهاً بالشمع يلصق شديدا فاعلم أنها أرض غير موافقة للبقول ولعله يقصد الأرض الطينية الناعمة ، ويقول هذا قول « يونيوس » ويقول إن بعضهم يستدل على طيب الأرض ودناتها بأعشاب نبتها ، لا تكاد نخطىء الاسعدلال بها ويمثل بنباتات لا تنبت إلا فى الأرض الجيدة ، وأخرى تنبت فى الأرض الدنيئة ، والبعض ينبت فى كليهما . وهذا ما يسمى فى العلم الحديث

أن النباتات كواشف للبيئة ، وهى كما يقول ابن العوام لا تخطىء أبدا .

يقول : وأجود الأرض البنفسجية ثم شديدة الغبرة ، فيها تخلخل وطعم ترابها عذب ، لعله يريد أن يقول إنها مسامية خالية من الأملاح . وأنه ليجرى التجارب ، وإن كانت بدائية إلا أنها تدل على اعتماده على المنهج التجريبى . فهو يطلب إليك أن تأخذ قدرا معيناً من التربة ، وترجه بالماء الحار ، وتتذوق الماء وتشم رائحته ،ويطلب أن تلاحظ ما ينبت بها من نبات برى ، إن كان قميئاً أو قوياً . ويقول إن البعض يكتفون فى امتحان الأرض بالنظر إلى ما ينبت فيها ولو بحشيشة واحدة مثل السوس والعوسج والشرك والعليق فيأخذون من أغصانها وأوراقها المتوسطة ، فيدقونه ويقيسون طعمه إلى طعم مثله مما ينبت فى أرض سليمة من الآفات . فيستدلون بالخلاف والوفاق . وهذه دراسة مقارنة لها قيمتها العملية. وعلى أسس علمية سليمة يقول ابن العوام . وهناك الأرض المالحة ، والنزه ، والغدقه ، والرخوة ، والدسمه المفرطه فى ذلك والقابضة والحامضة الحارة ،والمفرطة التخلخل ، والمفرطة الاستحصاف والمفرطة التكرز ، وما أظن علم الأراضى الحديث يزيد على هذه الأنواع ، وإنما ابتكر المقاييس والتعاريف المختلفة . ثم يذكر ما يصلح لكل منها من نبات . وكيفية معالجة كل نوع من هذه الأراضى. ويقول : والأرض المالحة ، وهى أنواع منها ما يشرب طعمها مع الملوحة حموضة ومنها ما يشوبه معها مرارة ، ومنها ما يشوبه معها قبض ، ويضيف وللملوحة علاج عام وعلاج خاص وإن زرع فى هذه الأرض حَبُّ الازادرخت واللوز المر والآس وشجر الغار ، لقطت هذه الأشياء المرارة كلها حتى تصلح صلاحاً تاماً ، ويتم صلاحها بتكرير التزييل الحصوف المرافق . ويقول اهرب كل الهرب من الأرض المالحة والرمل المالح ، يقول من صفات الأرض التخلخل والرخاوة والتكرز والتنكيد . ويذكر تجربة لمعرفة نوع الأرض ويقول يحفر ثلاث حفر ، عمق نصف ذراع ويجمع التراب فى آنية من الخزف بعناية شديدة ثم يأخذ من أرض متخلخلة غير مكتنزة ويوضع فى الحفاير فإن بقى شىء كانت مكتنزة ، يقول والأرض المتخلخلة تصلح للغرس . والصلبة المكتنزة لا تصلح ، وشديدة التلزز من طبعها تحبس الماء

فلا تمص كثيرا ، ولا تجذبه إلى باطنها ويقول : ويصلح فى الجبلية منها على حال مع كثرة العمارة ، شجر الزيتون والخروب والبلوط والشاه بلوط والغبيراء والكمثرى والأجاص والقراصيا . ثم يقارن بين أنواع الأسمدة البلدية. ويقول :هذا رأى يونيوس أما قسطوس فيرتبها الأزبال والأتبان والأرمدة ، إما مفردة أو مركبة . ويخصص فصلا لكيفية استعمال الأزبال فى الشجر والخضر.ويقول :وهذه مع منفعتها للنبات فإنها تنفع الأرضين التى فيها النبات والتى لا نبات فيها ولا شجر ، وذلك أنه إن طرحت فى أرض رديئة أصلحتها ، وإن كانت الأرض صالحة زادتها صلاحية فى طيبها وقوتها ، وكذلك هو فعلها فى النبات والشجر . التقوية والصلاح ودفع العوارض الردية عنها .

ويتحدث عن أنواع المياه المستعملة فى سقى الأشجار والخضر ، فيقول هناك الماء العذب ، والماء المر ، والماء المالح الزعاق . والماء القابض العفن ، والماء الذى غلب عليه طعم بعض المعادن .

يقول :ويستدل على قرب الماء بأنواع النبات وبلون وجه أرض وطعمه وريحه .

وأنه ليوصى بتجربة مشممة لمعرفة ما إذا كان فى البئر بخار مؤذى . وطريقة إخراج هذا البخار ، وهى طريقة مؤكدة صحيحة وأنه ليوصى فى غرس البساتين ، بالا يكون غرس الأشجار غرساً مختلطاً ، لكن يغرس كل واحد منها قريباً من جنسه ، لئلا يغلب القوى منها الضعيف ، فيعدم ذلك الضعيف منها ، وينبغى أن تكون الفرج التى بين الغروس على قدر طبع الأرض وقوتها ، ويضيف وأجود جميع الغروس التى تحوّل ، وخير غرس الشجر ما يكون من غصون ، وأن الغروس التى من البذور فى الجملة أضعف من جميع الغروس ولا تغرس الأشجار التى تعظم مع الأشجار التى لا تعظم ، ولا التى تتعرى من أوراقها مع التى لا تتعرى منها وكذلك ما يأتى منها فائدة فى وقت واحد ، يغرس معاً فى جهة واحدة ، مثل التفاح والأجاص والكمثرى والمشمش لتخف المؤونة فى حرازتها . وبعد أن يذكر ما يصلح غرس من نوى أو بذر ، يذكر إجماع حذاق الفلاحين على ألا تقر هذه الأشياء فى مواضعها ، بل تنقل ، وذلك مثل الجرز واللوز وشاه بلوط والخوخ والأجاص والنخل والصنوبر والسرو والغبيراء والغار والصنوبر والمشمش

والفستق ، فإذا حال عليها حولان ، حولت كلها إلى مكان آخر .

يقول : وما ينبغى أن يغرس من فروع تنزع من الشجر ، التفاح فالقراصيا ، والآس ، والزعرور ، ثم يضيف ؛ ومن الناس من يعمد إلى زرع هذه الأشجار فيميلها ويطمرها فى التراب ، حتى يصير لها أصول ثم ينقلها ، وهو بذلك يصف ما نسميه « الترقيد » . يقول والأشياء التى تغرس فى أوتاد التوت ، والأترج والسفرجل والزيتون والطرفا والحرر ، وهذه هى أيضا إن نقلت فغرست تكون أجود . وأما شجرة التين ، وإن كانت من الأشجار اللاثبة (المعمرة) فلتحريف عودها وخوره ، رأوا غرسه من القضبان الرقاق . ويتابع وصفه لطرائق التكاثر الخضرى فى الأشجار المختلفة ، فيقول : تقلع القضبان من الترميدانات (المشاتل) بطينها ، وتطمر ثلاثة أرباعها ويبقى الربع بارزا ، وينبغى أن تكون الترميدانات فى أرض لم تفلح ، جافة وأن تكون الشمس مشرقة عليها ، وتصل إليها الرياح الجارية ، وينبغى أن تقلب هذه الأرض قلبا مستقصى لتنزع أصول الحشائش ، ويحفر حول الغروس مرة كل شهر ، وأن تكون الآلات صغارا جدا لئلا يضر ذلك الحفر بالغرس ، وتلقط الفروع التى تنبت فى الغروس ، وهى غضة قبل أن تخشن وينبغى أن تكون الأرض التى تحول إليها الغروس من موضع تربتها مقاربة فى الصفة للأرضين التى ابتدأ زراعتها فيها أو مثلها ، ولا تحول من أرض جيدة إلى أرض رديئة .

ويقول : فى أوقات الغرس ، أنها تختلف على قدر اختلاف البلدان والأمم ، أو الربيع أو الخريف ويضيف : وإذا أردت أن تأخذ الغرس من أى نوع شئت كان ، قطعا ، أو خاها ، أو ملخا ، أو وتدا ، أو غرسا بأصله ، فلا تأخذ إلا ما يلى الشمس ، فهى تحره وتدبغه ، وكلما أحرق الشمس فهو أجود ولا تأخذ غرسا أبدا من ناحية الشمال ، وما جاوز الشمال فإنه ظايل قليل الحمل ، قليل التعلق . ينبغى أن تأخذ الأغصان من أعلى الشجرة . ويضيف قول سيداغوس : « ينبغى ألاّ ننقل ما كان من من الملاخ والقضبان والنوى والأوتاد منشوه على السقى والرطوبة الدائمة إلا إلى مثل ما كان عليه ، فينبغى أن ينقل السقى

إلى السقى ، والبعل إلى البعل ، وأنه ليقارن بين أقوال يونيوس وديمقراطيس ، وبنهاريس وتسطوس ، وابن حجاج ، والحاج الغرناطى وغيرهم ،ثم يقول : وتختار للغراسة من الأشجار أكثرها حملا وأطيبها طعماً ، فإن المؤونة والنفقة فى غراسة النوع الجيد وعمارته والردىء سواء ، فغراسة الجيد أولى ، وأنه ليذكر ما آثرت ذلك فيضيف : قالوا نغرس الأشجار فى زيادة القمر ، فإنها تطول وتغلظ وتفرط فى ذلك ويكثر حملها إذا غرست فى ذلك الوقت . وبالضد من ذلك فيما يغرس أو يزرع فى نقصانه ، وأنه ليؤيد آراءه أحيانا بقوله « قال ابن الحجاج رحمه الله : هذا إجماع من حذاق أصحاب الفلاحة على كراهة غدران الناس وكراهة الافراط فى الزبل لشجر الزيتون ، فبعد أن يذكر آراء سلفه يقول :لى : جربت ذلك فصح . كما يورد بعض الأحاديث النبوية أو بعض الوصفات البلدية ، أو الملح الطريفة ، ويقول لم أذهب إلا إلى التأنيس باتفاق المتقدمين على الأشياء التى قصصتها ، وليعلم أن هذا إجماع من حذاقهم ،ليعمل به ويعقد عليه . ولو أنى أوردت قول أحدهم دون أصحابه لم آمن أن يظن أنه قد شذ عن نظرائه ، فأوردت أقوالهم بحسب ما لقيتها ليكون الأمر أوكد عنده وألزم له . وفضلا عن ذلك فإنه حين يتحدث مثلا عن غراسة الخوخ والمشمش والنارنج والجوز والدردارو قصب السكر ... الخ يلزم فى كل حالة باختبار الأرض ، وطريقة الغرس ، وموعده ، وطريقة السقى والتعهد ، مما لا يبقى معه زيادةلمستزيد .

ذلك هو ابن العوام عالم الزراعة القديم ، وتلك طريقته فى البحث ، كما عرضها فى كتابه الفلاحة الذى نقدمه فى هذا الحديث .

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع

بين القافية في الشعر العربي
والقافية في الشعر الإنجليزي

للدكتور إبراهيم أنيس

تبين لنا فى بحث سابق أن الامية التى سادت فى شبه جزيرة العرب قبل الإسلام كان لها دور كبير فى صبغ ألفاظ اللغة العربية وأساليبها بصبغة موسيقية . وذلك لأن القوم قد اعتمدوا ، من حيث اللغة ، على الآذان فى تلقيها ، وعلى الألسنة فى أدائها ، فمرنت الآذان والألسنة ، وأصبحت الآذان مرهفة حساسة تميز الجرس الجميل المطرب من النابى النشاز ، كما أصبحت الألسنة ذلقة لبقة تنطلق بأصوات اللغة فى وضوح وتطريب. وترتب على كل ذلك كلف القوم بنغمات كلامهم ، وحرصهم على جرسه ، واستمتاعهم بجمال أصواته ، وتحاشيهم لكل ما يتعثر فيه اللسان وينبو فى الآذان[1]

وإذا كان هذا هو حكمنا على لغتنا العربية فى مجموعها ، أى من حيث أصواتها وصيغها وتراكيبها فى جل صنوف الكلام وأساليبه ، فأولى بهذا شعرها ، لأن الموسيقى أهم ما يتسم به الشعر. ليس من المغالاة إذن أن نتوقع فى تلك البيئة الجاهلية ، شعرا كملت موسيقيته فأطرب السامعين فى أسواقها ، وهز قلوبهم ونفوسهم هزا عنيفاً .

وحدث أن كنا أخيرا نتدارس بعض ظواهر الشعر الإنجليزى فى كتب الأدب والنقد فراعنا أن وجدنا شيئاً لا تسمح به قافية الشعر الإنجليزى ونعلم فى نفس الوقت أنه جائز فى شعرنا العربى . ولم يكن هذا الأمر قد خطر لى وأنا أؤلف كتابى « موسيقى الشعر » منذ ما يقرب من عشرين عاماً .

---

(١) دلالة الألفاظ : ص ١٩٥ — ٢٠٦

وإزاء تلك الظاهرة التى وقفنا عليها فى القافية الإنجليزية ، خيل إلينا لأول وهلة ، أن القافية الإنجليزية ، أدق فى موسيقيتها من القافية العربية .

فبدأنا نتساءل : هل يعقل مع ماقررناه من اتسام العربية بالموسيقية ، وحرص أهلها على تلك السمة أن تتسامح فيما لا تتسامح فيه لغة أخرى ؟ وأن يجوزشعرها ظاهرة مهما كانت لطيفة فى السمع ولا تكاد تدركها الأذن ، فى الوقت الذى تأباها لغة أخرى ؟ !

ثم اطمأنت النفس حين تذكرنا أن القافية العربية فى أغلب حالاتها من النوع الذى يسمى بالقافية المطلقة وهى التى يحرك فيها الروى بحركة قد تستطيل فى الإنشاد حتى تصبح حرف مد ، بل قد يكون حرف المد الذى تنتهى به قافيتنا العربية جزءا من بنية الكلمة التى ينتهى بها البيت . فلنستمع لأمير الشعراء «شوقى» يقول :

ريم على القاع بين البان والعلمِ
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرمِ

لما رنا حدثتنى النفس قائلة
يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمِىَ

فالروىّ فى هذه القصيدة هو حرف « الميم » وقد حرك بالكسرة التى قد تستطيل فى الإنشاد حتى تصبح ياء مد ، ولذلك قابلتهاوانسجمت معها ياءُ المد الأصلية فى الفعل « رمى » وهى جزءٌ من بنية الكلمة . ويعتمد الروى على هذه الحركة فى تردد وصدى القافية وحسن موسيقاها . ويتصور مَنْ لا دراية لهم بطبيعة الأصوات أن مثل هذه الحركة صوت تافه لا أثر له فى السمع ، غير أن الدراسة الصوتية الحديثة تبين بجلاء أنها أوضح فى السمع من الروى نفسه ،وتتلقفها الآذان فى وضوح وقوة لا تقل عن الروى. فهى مما يسميه الصوتيون بأصوات اللين أو الـ Vowels التى تعد أوضح الأصوات فى كل لغة وأقبل المتغنى بها . ليست العبرة هنا بوظيفتها النحوية وإنما العبرة بوقعها فى الأذن .

وقد تبين لنا فى إحصاء سابق أن نحو ٩٠٪ من الشعر العربى ، قديمه وحديثه وقعت فيه القافية المطلقة وهى التى لا يكاد يعرفها الشعر الإنجليزى الذى تنتهى أبياته بحروف ساكنة كما هو معروف ؛ أى أن المقارنة بين القافية العربية والقافية

الإنجليزية تقتصر على ما نسميه فى شعرنا بالقافية المقيدة التى لا تجاوز فى الشعر العربى ١٠٪ بل نحن هنا نقصر المقارنة على ما قبل الروى من حركة أو حرف مد فى تلك القافية المقيدة .

وقبل أن نعرض لتلك الظاهرة التى أزعجتنا لأول وهلة ، وقبل أن نحاول تفسيرها وبيان الحقيقة فى أمرها ،يجدر بنا أن نبين بما لا يدع مجالا للبس أو الوهم أن القافية فى الشعر العربى بوجه عام أكثر موسيقية وأجمل وقعا فى الآذان من القافية فى الشعر الإنجليزى مؤسسين هذه الحقيقة على الأسس الصوتية التالية :

أولا : أن القافية المطلقة أوضح فى السمع وأشد أسرا للأذن ، لأن الروى فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل فى الإنشاد وتشبه حينئذ حرف مدّ . ومن المقرر فى علم الأصوات أن حروف المدّ أوضح فى السمع من الحروف الأخرى كالعين والفاء مثلا . وإذا كان قد ثبت لنا عن طريق الإحصاء أن القافية العربية فى الكثرة الغالبة من صورها من النوع المسمى بالقافية المطلقة وأن القافية الإنجليزية لا تكاد تعرف هذا النوع ، اتضح من ذلك جنوحٌ أكثر نحو الموسيقية فى القافية العربية .

وقد يتوهم بعض الدارسين أن القافية المطلقة قد وقعت أيضاً فى الشعر الإنجليزى حين يقرأ تلك الأشعار الإنجليزية القليلة أو النادرة التى فيها يجد أن القافية قد انتهت بكلمتين مثل : Fro مع Free. So مع Blue. Sea مع Woe. Drew مع Below . ويتصور لذلك أن القافية هنا تشبه القافية العربية المطلقة لأنها تنتهى فى كل من القافيتين بحرف مد ! !

وفى الحق أن القافية المطلقة فى الشعر العربى لم تسمّ كذلك لمجرد انتهائها بحرف مدّ ، بل لا بد فيها من أمرين : الرويّ أولا وهو حرف عادى كالسين أو الميم مثلا ويضاف إليه حرف المدّ ، ففيها عنصران أساسيان هما : الروى + حرف المد فى حين أن الإنجليزية فى الأمثلة الآنفة الذكر قد اعتمد كل منها على حرف المد وحده . فكأن القافية العربية إذا قورنت بالإنجليزية ، تشبه ما يسمى بلزوم مالا يلزم ، أو بعبارة أدق يكثر فيها تردد

الأصوات فيكسبها جمالا موسيقياً أكثر مما قد يتصور فى نظيرتها الإنجليزية ، إذ ليس فى القافية الإنجليزية فى هذه الحالة ما يناظر الروىّ العربى .

ولعل الذى سوغ على كره ،قبول ذلك فى الشعر الإنجليزى أن النبر فى الأمثلة السابقة يقع على الحركة الطويلة أوحرف المد الذى تنتهى به القافية ، فى حين أن طبيعة اللغة العربية تأبى وقوع النبر على المد الأخير من الكلمة ، ولذلك لا يقنع به السامع فى الاعتماد عليه وحده لتكوين النغمة الشعرية ، ويتطلب معه ما يسمى بالروىّ . فإذا أريد فى بعض الحالات الوقوف على حرف المد الأخير من الكلمة العربية ونبره حينئذ ، استحسنت لغتنا العربية أن يوصل حرف المد بهاء السكت ، أو بهمزة الوقف، أو بما يسمى نون الترنم .

وهذا هو السر فى تردّد معظم العروضيين بصدد وقوع حروف المد روياً ، ولم يجوزوا منها إلا الألف استثناسا بتلك القصائد التى تسمى بالمقصورات وأشهرها مقصورة ابن دريد التى يروى أن مطلعها :

شمرّد عن عينى الكرى طيف سرى

من أم عمرو فى غياهيب الدجى

أما فى حالة واو المد وياء المد فيأبى معظم أهل العروض اعتبارهما روياً ،ويتطلبون أن يُسبق كل منهما فى القافية العربية بحرف عادى هو الروى الحقيقى للقصيدة كالدال أو النون مثلا .

ومع أننا لا نكاد نعثر على شعر عربى محقق النسبة فيه واو المد أو ياءُ المد بمثابة الروىّ ، نجد أن بعض المتسامحين من العروضيين يقبلون ذلك حين تكون واو المد أو ياءُ المدّ حرفاً أصلياً من بنية الكلمة ، فإذا كان زائدا رفضوا الاعتراف به روياً . ويستقبحون لذلك ما يروى عن مروان بن الحكم أنه قال :

وهل نحن إلا مثل من كان قبلنا

نموت كما ماتوا ونحيا كما حيُوا

وينقص منا كل يوم وليلة

ولا بد أن يلقى من الأمر مالقُوا

* * *

ومع أن معظم المستنيرين من العروضيين لا يسمحون بقبول حتى الأصلية من واو المد وياء المد بوصف كل منهما روياً ، نجد أن قلة من العروضيين يقنعون بذلك ويمثلون له ببيتين تبدو عليهما الصنعة

العروضية ، ويترددان بعينهما فى كتبهم وهما :

نروح ونغدو لحاجاتنا
وحاجات من عاش لاتنقضى
تموت مع المرء حاجاته
وتبقى له حاجة ما بقى

* * *

وفى الحق أننا لا نكاد نعثر فى الشعر العربى ، قديمه وحديثه ، على أمثلة محققة النسبة لهذا النوع الذى يعتبر فيه الروى واو مد أو ياء مد .

وهكذا نرى أن القافية العربية المطلقة وهى التى يتألف منها الكثرة الغالبة من الشعر العربى تعد فى الحقيقة إذا قورنت بالنادر من القوافى الإنجليزية التى فى مثل blue مع dew ، أكثر عناية بالموسيقى وأجمل وقعاً فى الأسماع .

ثانياً : تبين أن الكثرة الغالبة من الشعر الإنجليزى قافيته تشبه القافية المقيدة أى تنتهى بحرف ساكن مثل : Street مع Rough. Sweet مع Enough وتعتمد القافية فى هذه الحالة على ذلك لحرف الساكن اعتمادا كبيرا .

ولكننا نعرف من الدراسة الصوتية أن الحرف الساكن Consonant حين يقع فى نهاية الكلمة ثم يراد الوقوف على كلمته ، قد يتعرض ذلك الحرف الغموض أو الإبهام فيقل وضوحه فى السمع أو قد يسقط فى النطق ، ولا سيما حين يكون من الحروف المهموسة الشديدة كالتاء والكاف ، فلا يكاد يتضح فى الأذن ولا يكاد السامع يدرى حقيقة أمره ولا يحس بموسيقاه .

ومما تقدم نرى أنه ليس من الإسراف أو المغالاة أن نقرر أن القافية فى الشعر العربى بوجه عام تعد أدق حساسية بالموسيقى وأكثر عناية بإبرازها من القافية فى الشعر الإنجليزى التى تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليًّا على النوع المسمى بالقافية المقيدة .

نشرع بعد ذلك فى الحديث عن تلك الظاهرة التى راعتنا فى أثناء مدارسة حديثة محاولين تفسيرها تفسيرا موضوعيا ، وفى حيدة وإنصاف ، لكل من الشعر العربى والشعر الإنجليزى .

ولنبدأ بالقافية الإنجليزية ، حين يكون ما قبل الروى حركة قصيرة ، أى

ما يشبه الفتحة والضمة والكسرة مثل الكلمات :

dead, said, bed التي تنسجم معاً حين تكون في قواف متوالية ، مثل met مع set ، ومثل but مع cut ، ومثل bit مع sit ، ومثل rod مع tod ، ومثل ox مع rocks ، ومثل flex مع sex .

وهكذا نرى أن القافية الإنجليزية تُصرّ على التزام الحركة القصيرة قبل الروى ، فإذا كانت ما يشبه الفتحة التزمت ، وإذا كانت ما يشبه الضمة التزمت ، وإذا كانت ما يشبه الكسرة التزمت . ولا تسمح القافية الإنجليزية أن يرد فيها sex مع ox ، ولا مثل put مع met ، أو sit مع cut .

في حين أن الشعر العربي قد وقع فيه شيء من هذا ، فلنستمع إلى قصيدة شوقي تحت عنوان انتحار الطلبة :

ناشئ في الورد من أيامه
حسبه الله أبالورد عثَرْ ؟

راحلا في مثل أعمار المنى
ذاهباً في مثل آجال الزهَرْ

هارباً من ساحة العيش وما
شارف الغمرة منها والغُدُرْ

وكذلك قصيدته في أبي الهول :

أبا الهول طال عليك العصُرْ
وبلغت في الأرض أقصى العُمُرْ

فيالدة الدهر لا الدهر شاب
ولا أنت جاوزت حد الصِّغرْ

* *

ففي القصيدة الأولى وعدتها ٥٧ بيتاً نلاحظ أن ما يقرب من ٤٩ بيتاً سبق الروى فيها بالفتح ، وسبق الروى بالضم في خمسة أبيات ، وبالكسر في ثلاثة .

وفي مشهد من مشاهد مسرحية عبدالرحمن الناصر للشاعر الكبير عزيز أباظة نجد أن هذا المشهد القصير الذي يتألف من ١١ بيتاً ومطلعه :

بعض الحنان يا شفقْ
حطم قلبي يا شفقْ

يشتمل على ٧ فتحات ، ٣ كسرات ، وضمة واحدة قبل الروى .

وفي الحق أن جميع الشعراء المحدثين قد تناوبت الحركات الثلاث وبكثرة

فى قوافى شعرهم التى من هذا النوع ، فلا يكاد أحدهم يلتزم حركة واحدة فى قصيدة من قصائده .

ورأينا إزاء هذا أن نرجع إلى الشعر الجاهلى الذى نظمه أصحابه بآذانهم المرهفة ، واعتمدوا فيه على الجرس الموسيقى وحرصوا فيه إلى أبعد حدود الحرص على الانسجام بين نغمات القوافى . فدهشنا حين تبين لنا أن فى القدر القليل المروى من هذا النوع فى الشعر الجاهلى قد تناوبت الحركات الثلاث ، وإن التزم بعض الشعراء فى القليل من الأحيان حركة بعينها ولا سيما حين تكون الفتحة . ففى قصيدة من قصائد المفضليات عدتها تجاوز ثمانين بيتا التزمت الفتحة : مثل (وقَعْ ، نفعْ) ، إلا فى بيت واحد يؤكد لنا محققو الديوان أنه ينتهى بالكلمة « كنِعْ » بهذا الضبط. ولست أدهش حين يتضح لنا بالبحث فى المعاجم أن هذه الكلمة ينطق بها « كَنَعْ » أيضاً ، أو أن لام الكلمة هنا وهى من حروف الحلق ، تسمح بفتح الوسط كما هو الشأن فى كثير من الصيغ العربية .

ولما عرض أصحاب العروض لهذه الظاهرة فى كتبهم عدوها من عيوب القافية وسموها « سناد التوجيه » ، ثم رووا لنا فيه ثلاثة آراء :

(أ) رأى الأخفش وفيه يقرر أن سناد التوجيه لا عيب فيه ، أو على الأقل يمكن أن يعدّ رخصة شعرية ولا يلام الشاعر عليها .

(ب) رأى الخليل الذى يجوز التناوب بين الضمة والكسرة فقط . ولا شك حين نسترشد بعلم الأصوات نجد أنهما حركتان متشابهتان وأن الموجة الصوتية الأساسية معهما واحدة ، والاختلاف بينهما فى الموجات الفرعية . هذا إلى أنهما من الأصوات الضيقة التى يتخذ أول اللسان معها فى حالة الكسرة وضعا يشبه ما يتخذه أقصى اللسان مع الضمة . ولا غرابة لذلك أن الأذن تسمعهما وكأنهما أختان أو توأمان . ويقلل من قيمة الفرق بينهما أنهما حركتان قصيرتان تتطلبان زمناً قصيرا فى النطق بكل منهما ، مما قد يساعد على ضآلة الأثر السمعى فى تمييز الفرق بينهما .

ولذلك نطمئن كثيرا إلى رأى الخليل ونرى أنه استلهم فى هذا حسه الموسيقى المرهف .

فإذا كان من الضرورى المناوبة بين الحركات فى القافية المقيدة فليقتصر فى هذا على الضمة مع الكسرة ، وإن كان التزام إحداهما أحسن وأجمل .

(ج) أما الرأى الثالث وهو المنسوب لكراع فهو رأى عجيب غريب لا يستند إلى طبيعة الأصوات فى شىء ، ولا يبرره ما روى فعلا من الشعر ، ولذلك نؤثر أن نتجاهله إذ ليس له أى سند علمى .

فلنطمئن إذن على موسيقى القافية العربية ، ذلك لأن القافية المقيدة فى الشعر العربى قليلة أو نادرة ، والحكم على شعرنا يجب أن يؤسس على الشائع منه وعلى الكثرة الغالبة من حالاته ويتمثل هذا فى القافية المطلقة التى لا تكاد توجد فى الشعر الإنجليزى ، والتى يعتمد الروى فيها على الحركة التى بعده ويتجاهل الحركة التى قبله ، ولا عيب لذلك أن يقول شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلَم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحُرُم

لأن السمع فى هذه القافية يتعلق بالروى والصوت الذى بعده وهو الحركة .ولذلك لم يتحدث علماء العروض عما يسمى بسنادا لتوجيه إلا فى القافية المقيدة .

أما ما يزعمه بعض أصحاب العروض من وقوع تلك الظاهرة التى يسمونها بالإقواء حين تختلف حركة الروى فى القافية المطلقة بين الضمة والكسرة ، ويسمى بالإصراف حين يكون الاختلاف بينهما وبين الفتحة ، فليس كل هذا فى الحقيقة إلا صناعة عروضية ، أو مؤسساً على وهم منهم . فلا يعقل مطلقاً أن تقع مخالفة فى حركة الروى حتى بين المتشاعرين المبتدئين . فالشاعر فى القافية المطلقة يلتزم حركة واحدة لا يحيد عنها أبدا ، ولكنه فى الأمثلة المروية مما يسمى بالإقواء أو الإصراف قد حاد عن الحركة الإعرابية التى يتطلبها الوضع الإعرابى ، وضحى بهذا فى نظير التزام حركة واحدة ،

أى كما يقضى النظام الشعرى وتقضى موسيقاه ، أو بتعبير آخر يمكن أن يقال إن الشاعر فى هذه الأمثلة أخطأ فى الإعراب ولم يخطىء فى موسيقى الشعر . وسواء كان هذا الخطأ الإعرابى كما يقول النحاة من الضرورة الشعرية أى يقع من الشاعر عن عمد وهو مدرك لهذا الانحراف الإعرابى مستغلا فى ذلك الضرورة الشعرية ، أو أن الشاعر وقد ملكت عليه الموسيقى عقله وقلبه لم يفطن إلى ما قد تتطلبه القاعدة الإعرابية ، أقول سواء هذا أو ذاك فالنتيجة واحدة وهى اتحاد حركة الروى فى كل أبيات القصيدة.

ومع قلة أو ندرة القافية المقيدة فى الشعر الجاهلى ، فلا أظن أن ما روى فيه من أمثلة هذه القافية يجاوز نسبة ٢ ٪ من مجموع الشعر الجاهلى ، ومع أن العروض العربى يصِم اختلاف الحركة هنا ويعده من عيوب القافية ، لا يزال فى النفس شىء من تلك الأمثلة القليلة أو النادرة التى انحدرت إلينا ونسبت لشعراء جاهليين ! ! إذ نتساءل كيف يقع هذا فى شعرهم وهم الذين كانوا يعتمدون فى النظم على الآذان المرهفة ، ويحرصون كل الحرص على كمال الموسيقى فى التقفية ؟ ! ومن واجبنا إزاء ذلك أن نلتمس مسوغاً معقولا مقبولا لورود تلك الأمثلة على قلّتها أو ندرتها .

وليس من الضرورى هنا أن نشير إلى ما يقرره كثير من الدارسين من أن بعض الشعر الجاهلى قد وقع فيه الانتحال ، لأن كل ما يمكن أن يترتب على ذلك هو أن النسبة تقل ولا تنعدم ، ولا مفر من الاعتراف بصحة بعض المروى من هذه القافية ، وأننا لا نزال بحاجة إلى تفسير هذا الصحيح ، وإن كان من العسير فصله فصلا تاماً عن المنتحل .

وفى رأيى المتواضع أن الشاعر الجاهلى برىء من هذا النوع فى القافية المقيدة ، أى لم يقع فى شعره ما يسمى بسناد التوجيه ، وأما ما ظنه المتأخرون تخالفاً فى حركة ما قبل الروى من القافية المقيدة فيشبه ما تصوره بعض العروضيين مما يسمى بالإقواء أو الإصراف ، وهو التخالف فى حركة الروى نفسه ، وقد أنكرنا آنفاً وقوع التخالف فى حركة الروى من القافية المطلقة ، وتبين لنا أن الشاعر حرص دائماً على حركة واحدة بعد الروى،

مضحياً فى سبيل موسيقاه سواء عن عمد أو عن غير عمد، بما تقضى به قواعد الإعراب.

وكذلك الشأن مع القافية المقيدة نتصور أن الشاعر الجاهلى حرص دائماً على وحدة الحركة التى قبل الروى ، وأن رواة النصوص فى عصر التدوين هم المسئولون وحدهم عن إبراز أمثلة التخالف، التى نراها فى دواوين الشعر الجاهلى ، لأنهم ربما اعتمدوا على رأى واحد فى نطق الكلمة العربية ثبت لديهم أنه وحده الصحيح .

ولا بد لنا هنا أن نفترض أحد فرضين:

١ - بأن نقول كما قلنا فى القافية المطلقة إن الشاعر قد ضحى بشىء من بنية الكلمة وأحدث فيها تغييرا طفيفاً اقتضته القافية وموسيقاها ، وهكذا نطق بالكلمة المضمومة الوسط مفتوحة أو مكسورة على على حسب ما جاء فى معظم أبيات القصيدة. فالذى لا شك فيه أن كل مثل من الأمثلة التى قيل إن التخالف فى الحركات قد وقع فيها ، يعتمد فى معظم الأبيات على حركة بعينها ، وأن قدرا ضئيلا جدا من الأبيات جاء مخالفاً لهذه الحركة . ففى مثل من تلك الأمثلة المروية يلحظ بوضوح أن معظم أبيات القصيدة التزمت فيه الفتحة ، ووقعت الضمة أو الكسرة فى القليل أو النادر من أبياتها . وقد نجد فى مثل آخر أن الضمة التزمت فى معظم الأبيات قبل الروى ونجد معها الكسرة أو الفتحة فى حالات قليلة أو نادرة .

٢ - والفرض الثانى هو أن نقرر ونحن مطمئنون أن الشاعر فى كل مثل من هذه الأمثلة المروية ، قد اتخذ حركة معينة ليؤسس عليها القصيدة ، وأنه أنشد جميع الأبيات بحركة واحدة قبل الروى ، مستلهماً فى هذا حسه الموسيقى ومعتمدا على نطق آخر للكلمة جائز أو سائد فى لهجة قومه .

ولم يزعم أحد من اللغويين أن ما ورد فى المعاجم التى بين أيدينا هو كل الوجوه الجائزة فى ضبط الكلمات ، بل يكادون يجمعون على أن كثيرا من الوجوه الصحيحة فى ضبط الكلمات العربية ، قد ندّ عنا وافتقدناه فيما روى لنا .

وإذا سلمنا بصحة القول المشهور عن أبى عمرو بن العلاء (ما انتهى إليكم من كلام العرب إلا أقله ، ولو قد جاءكم كله

لجاءكم علم وأدب كثير) ، فلا شك أن مما فقدناه بعض الوجوه الجائزة فى ضبط الكلمة العربية .

ليس من الإسراف إذن أن ندعو الدارسين للشعر الجاهلى إلى إنشاد تلك الأمثلة المروية من القافية المقيدة بحركة واحدة أى قبل الروى ، وإلى أن ينزهوا هذا الشعر عن ذلك العيب الموسيقى

أما ما جاء فى شعر المحدثين والمولدين مما يشبه تلك الأمثلة المنسوبة للجاهليين فليس فى الحقيقة إلا نوعاً من التقليد على توهم أن ما جاز للقدماء أصحاب اللغة يجوز من باب أولى للمحدثين أو المولدين. أى أن الشعراء المحدثين والمولدين لم يستلهموا فى هذا قريحتهم الشعرية وحدها ، بل اعتمدوا أيضا على المروى من شعر نسب للقدماء فقلدوه وحذوا حذوه . ولو قد استلهموا قريحتهم الشعرية وحدها واحتكموا إلى آذانهم المرهفة ما وقع فى شعرهم هذا التخالف فى حركة القافية المقيدة ، ولكانوا كابن الرومى الذى التزم فى كل شعره حركة بعينها اعتمدت عليها قصائده التى من القافية المقيدة ، فلا يكاد يشذ عن هذا ، فلم نعثر فى ديوانه على مثل واحد فيه تختلف الحركة قبل الروى من القافية المقيدة .

وكنا نتوقع أن تسترعى هذه الظاهرة الموسيقية فى شعر ابن الرومى انتباه أستاذنا العقاد رحمه الله فى كتابه المشهور عن ابن الرومى ، غير أنا لم نجد فى كتابه سوى بضعة سطور فى فصل من الكتاب بعنوان (صناعة ابن الرومى) فيها يقول العقاد[1] (كان ابن الرومى يركب القوافى الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية فيذل له أعصاها ، حتى الثاء والخاء والذال والزاى والظاء والغين والهاء ، وغيرها من الحروف المتروكة فى الروى الناقصة فى شعر أقدر الشعراء . . .) ثم يقول فى موضع آخر من نفس الفصل[2] (نقول إن ابن الرومى كان من أقل الشعراء تجوزا فى عروضه وأكثرهم حرصا على أوزانه) ، ثم يدافع عن ابن الرومى فى بيتين رويا عنه وهما :

أبا عثمان أنت قريع قومكْ
وجودك للعشيرة دون لومكْ

تمتع من أخيك فما أراه
يراك ولا تراه بعد يومكْ

(١) ص ٣١٠
(٢) ص ٣٢٣

ذلك لأن أبا العلاء المعرى فى رسالة الغفران قد عاب على هذين البيتين أن القافية فيهما مقيدة وأن هذا الوزن (يعنى الوافر) لم يجىء عن الفصحاء مقيدا إلا حين يكون فى القافية ألف التأسيس . ولكن الأستاذ العقاد يرى ونحن معه أنه لا عيب فى موسيقى البيتين ، مخالفاً بهذا الرأى ، رأى أبى العلاء .

ويعدّ ابن الرومى من هذه الناحية فريدا بين الشعراء القدماء منهم والمحدثين ، فقد تخيرنا من بين أعظم شعراء العربية « البحترى » وهو الذى تروى فى شأنه كتب الأدب أنه – فى رأى المتنبى وقيل فى رأى أبى العلاء – حين سأل سائل عن شعر أبى تمام والبحترى والمتنبى فكان الجواب المشهور فى كتب النقد الأدبى « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى » ! !

ولسنا ندعى القطع أو الجزم فى فحوى هذه القولة المشهورة ، فقد تكون الموازنة هنا مقصورة على الصور والأخيلة والأغراض والموضوعات . على أنا مع هذا نفترض أن وصف البحترى بأنه الشاعر يتضمن أيضاً عنايته بموسيقى الشعر . وعلى أساس هذا الفرض نظرنا فى ديوانه لنتبين موقفه من القافية المقيدة التى سبق رويها بحركة فلم نجده يختلف عن الشعراء الآخرين فى شىء ، فنسبة القوافى المقيدة فى ديوانه فى حدود ٣٫٠٪ والكثرة الغالبة منها من النوع الذى سبق فيه الروى بحركة مثل قوله :

(ا) من أى ثغر تبتسمْ
وبأى طرف تحتكمْ (مجزوء الكامل)

(ب) مخلفٌ فى الذى وعدْ
سيل وصلا فلم يجُدْ (خفيف)

(ج) قلت للائم فى الحب أفِق
لا تهوّن طعم شىء لم تذُقْ (الرمل)

*

نكتفى بهذا القدر فى القافية المقيدة حين يكون قبل الروى حركة ، وننتقل إلى تلك التى يكون قبل رويها حرف مد . وهنا نشهد فى الشعر الإنجليزى ما يشبهها فالكلمات الإنجليزية cat ، flat ، mat ، sat تنسجم موسيقاها حين تقع فى القافية الإنجليزية . ويشبه هذا فى القافية العربية

وقوع ألف المد قبل روى القافية المقيدة مثل قول البحترى :

إن رقَّ لى قلبكِ مما ألاقْ
من فرط تعذيب وطول اشتياقْ
وجُدتِ بالوصل على مغرم
فزوديني منك قبل انطلاقْ

* *

وهنا نرى كل شعراء العربية ، قديمهم وحديثهم، قد التزموا هذه الألف ولم يشذوا عنها مطلقاً ، لأنها أوضح حروف المد فى السمع ، وأن أى انحراف عنها تدركه الأذن حتى غير المدربة أو المرهفة . ولذلك لم تختلف القافية الإنجليزية عن العربية فى هذا النوع .

أما الذى اختلفت فيه القافية الإنجليزية عن العربية فهو حين يكون حرف المد قبل روى القافية المقيدة واو مد أو ياء مد . ففى هذه الحالة نجد أن القافية الإنجليزية تلتزم إحداهما ولا تسمح بأن يتناوبا فى قوافى القصيدة الواحدة :

فالكلمات الإنجليزية intrude, conclude, crude ينسجم بعضها مع بعض فى القافية الإنجليزية . والكلمات الإنجليزية creed, breed, lead ينسجم بعضها مع بعض . ولا تسمح القافية الإنجليزية بأن يقع فيها مثلا mood مع lead ، فى حين أن القافية العربية ، تسمح بواو المد مع ياء المد ، وهذه هى الظاهرة التى أزعجتنا حقاً. فإذا كنا قد تجاوزنا عن اختلاف فى الحركة قبل روى القافية المقيدة لصغر هذه الحركة وسرعة النطق بها وقصر زمنها فلا تكاد تشعر بها الأذن ، فكيف يتأتى هذا مع واو المد وياء المد ، مع طول زمن النطق بهما ووضوحهما فى السمع وضوحاً كبيرا ؟!.

وهنا ننوه بابن الرومى مرةً ثانية لأنه لم يقع فى شعره شىء من هذا لا فى القافية المقيدة وحدها ، بل حتى المطلقة . ففى قصيدة له عنوانها « وحيد المغنية » وعدتها ٥٧ بيتاً ومطلعها :

يا خليلى تيمتنى وحيدُ
ففؤادى بها معنًّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قدٌّ
ومن الظبى مقلتان وجيدُ

* * *

ففى هذه القصيدة وبرغم قافيتها المطلقة قد التزم ابن الرومى ياء المد فى كل

الأبيات وهو ما يشبه لزوم ما لا يلزم . ذلك لأنه فى القافية المطلقة نلحظ بعد الروى حركة تستطيل عند الإنشاد وهى التى يعتمد عليها الروى وتعلق الأذن بها متجاهلة ما قد يكون قبل الروى إلى حد ما ، ولذلك جاز فى القافية المطلقة وقوع واو المد مع ياء المد قبل الروى لما بينهما من تشابه صوتى كما أشرنا آنفاً مع الضمة والكسرة . ويرى معظم العروضيين جواز تناوب واو المد مع ياء المد قبل روى القافية المطلقة . ومع هذا يقول الصبان ما نصه (إنه يجوز من غير قبيح وقوع الواو ردفاً فى بعض أبيات القصيدة الواحدة والياء فى بعضها الآخر ، وإن كان الاتفاق أحسن) . فهذا هو عالم كبير من علماء العروض يرى أن التزام واو المد أو ياء المد أحسن من التناوب بينهما حتى مع القافية المطلقة ، أى على نحو ما التزم به ابن الرومى فى شعره .

أما جواز وقوع التناوب بين واو المد وياء المد فى القافية المقيدة فأمر عجيب حقاً ، ولا ندرى كيف سمح به الشعر العربى ؟ بل أشنع من هذا أن هذه الظاهرة قد كثرت نسبياً بين المولدين والمحدثين . فيقول مهيار الديلمى :

ردوا لها أيامها بالغميمْ
إن كان من بعد شقاء نعيمْ
قلوبهم رق لأهل الحمى
حيث النواصى حرة والجسومْ

* *

ويقول العقاد تحت عنوان « حسناء عمياء » :

قرة العين عزاء
لك فى الكون المنيرْ
إن طرفا يأسر النا
س هو الآن أسيرْ
صدت الشمس ضياها
عنك يا أخت البدورْ

وجاء فى قصيدة شوقى على قبر نابليون وهى القصيدة المؤسسة على ياء المد والتى مطلعها :

قف على كنز بباريس دفينْ
من فريد للمعالى وثمينْ

عدة أبيات فيها واو المد قبل روى القافية المقيدة .

ولكن يبدو أن شوقى حين استلهم قريحته الشعرية وحدها التزم ياء المد فى كل قصيدته لأم المحسنين ومطلعها :

ارفعى الستر وحيّى بالجبينْ
وأرينا فلق الصبح المبينْ
وقفى الهودج فينا ساعة
نقتبس من نور أم المحسنينْ

* * *

وبصدد هذه الظاهرة نجد أن أبا العلاء المعرى وهو الشاعر المكفوف الذى يعتمد على أذنه الموسيقية المرهفة وحدها يقول فى مقدمة ديوانه « لزوم ما لا يلزم » ما نصه : « ولم يفرقوا بين المقيد والمطلق فى مجىء الواو المضموم ما قبلها مع الياء المكسور ما قبلها ... » إلى أن يقول : « وأنا أفرق بين المطلق والمقيد وأعده فى المقيد أشد ؛ لأن الروى لا يكون بعده ما يعتمد عليه ، أما فى المقيد فهذا عندى أقبح منه إذا استعمل فى الشعر المطلق » !

ونحن إذا أخذنا أفعل التفضيل فى فى الكلمة « أقبح » على بابه ، كان معنى كلام أبى العلاء أن تناوب واو المد وياء المد فى قوافى القصيدة الواحدة قبيح سواء كانت القافية مطلقة أو مقيدة ، غير أنه أقبح مع المقيدة ، وهذه هى التى تشبه القافية الإنجليزية .

ويعزينا عن هذا الذى استنكره أبو العلاء وعده أقبح أن أمثلته فى كل الشعر العربى قديمه وحديثه لا تكاد تجاوز نسبة ½ ٪

ولا شك أن تناوب واو المد وياء المد فى القافية المقيدة ظاهرة قبيحة من حيث الموسيقى الشعرية ، ولذلك يأباها الشعر الإنجليزى كل الإباء .

وكنا نتوقع ألا ترد لها أمثلة فى الشعر الجاهلى ذلك الذى نظمته آذان مرهفة ، وحرص أصحابه على موسيقيته كل الحرص غير أنا عثرنا على عدة أمثلة من قطع شعرية صغيرة نسبت فى ديوان الحماسة والمفضليات والأصمعيات لشعراء جاهليين .

مثل المقطوعات الآتية :

(ا) لامرئ القيس :

وجاملٍ خوّع من نيبه
زجرُ المُعلى أُصُلا والمنيحْ

وهى من بحر السريع ، وورد فيها واو المد أيضاً .

(ب) للمرقش الأصغر :

لابنة عجلان بالجو رسومْ
لم يتعفَّين والعهد قديمْ

وهى من مجزوء البسيط .

(ج) لثعلبة بن عمرو :

أأسماءُ لِمْ تسألى عن أبيّك
والقوم قد كان فيهم خطوبْ

وهى من المتقارب ، وورد فيها ياء المد أيضاً .

(د) للخنساء :

دلّ على معروفه وجهه
بورك هذا هاديا من دليلْ

وهى من السريع ، وورد فيها «مايحول» ، «الشليل» .

(هـ) لامرئ القيس :

أبلغ بنى أود فقد أحسنوا
أمس بضرب الهام تحت القنوسْ

وهى من السريع ، وورد فيها «جلوس» ، «القليس» ، «النفيس» .

(و) للمهلهل :

جارت بنو بكر ولم يعدلوا
والمرءُ قد يعرف قصد الطريقْ

وهى من السريع، وورد فيها «الوسوق» ، «بالمطيق» ، «الحقوق»

(ز) للخرنق أخت طرفة :

يارب غيث قد قرى عازب
أجش أحوى فى جمادىمطيرْ

وهى من السريع ، وورد فيها «عثور» «القرور» ، «بالبشير» .

(ح) للمرقش الأصغر :

الزق مُلك لمن كان له
والمُلْك منه طويل وقصيرْ

وهى من مجزوء البسيط (مستفعلاتْ) ، وورد فيها «صبور» .

فكيف نفسر وقوع هذا القدر الضئيل جدا فى شعر الجاهليين ؟

كان من رأيى دائما أن المحدثين أكثر تسامحا ، أو إن شئت قلت أكثر جرأة على موسيقى الشعر العربى من القدماء . ولعل فيما يسمى فى الوقت الحالى بالشعر الحر أكبر دليل على هذا الاتجاه وقد عثرت أخيرا على نص لأبى العلاء يؤكد لى هذا الرأى ، إذ يقرر فى مقدمة ديوانه لزوم مالا يلزم أن القدماء كانوا أكثر عناية بموسيقى الشعر من المحدثين الذين أباحوا فيه بعض الرخص ، ثم يوازن بين

شعر لأبي تمام نظم على نسق قصيدة الشنفرى الأزدى التى مطلعها :

أرى أم عمرو أزمعت فاستقلتِ
وما ودعت جيرانها إذْ تولتِ

وقصيدة الأعشى :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى
وراكُبها يوم اللقاء وقلّتِ

ثم يقول أبو العلاء إن أبا تمام – وهو فى رأى أبى العلاء من المحدثين – لم يلتزم شيئاً قبل التاء .

ونحن مع موافقتنا لقول أبى العلاء نلاحظ أن الشنفرى لم يلتزم اللام قبل التاء فى كل قصيدته التى عدتها ٣٦ بيتاً ، بل وقع فيها ما يقرب من نصفها خلوا من اللام قبل التاء . وكان أولى بأبى العلاء أن يمثل مع قصيدة الأعشى بقصيدة كثير عزة التى مطلعها :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا
قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّتِ

وما أظن أن أبا العلاء يريد أن قصيدة أبى تمام لم يقع قبل التاء فيها ولا لام واحدة ، فالحقيقة أن عدد هذه القصيدة ٤٤ بيتاً ووقعت اللام قبل التاء فى ١٤ بيتاً منها ، ومطلع هذه القصيدة :هو

نسائلها أى المواطن حلّتِ
وأى ديار أوطنتها وأيّتِ ؟

* *

وفى تفسيرنا لتلك الأمثلة الضئيلة القدر التى وردت فى الشعر الجاهلى من القافية المقيدة وتناوبت فيها واو المد مع ياء المد ، نلاحظ أنها مقطوعات قصيرة وأن كلا منها يتألف من عدد من الأبيات لا يجاوز أصابع اليدين عدا ، وأن معظمها من بحر واحد هو السريع (خمس من القطع الثمانية) ، واثنتان من مجزوء البسيط وواحدة من المتقارب ! !

وهنا يخامرنا شك فى صحة هذه الأمثلة ونؤثر أن نعدها مما انتحل فى العصور الإسلامية ، ونسب للجاهليين . وما أظننا الآن نتردد فى قبول تلك القضية التى نادى بها بعض الدارسين قديماً وحديثاً من أن بعض ما روى من الشعر الجاهلى منتحل . وبهذا ننزه شعر القدماء الذى نظم بالسليقة ومع الرعاية التامة لحسن الموسيقى عن أن يكون أدنى مرتبة من الشعر الإنجليزى فى العناية بموسيقى القافية .

ابراهيم انيس
عضو المجمع

تخريج نصوص أرسطالية

في كتاب الحيوان للجاحظ

للدكتور محمد طه الحاجري

منذ عهد غير قريب كنت أخذت – استكمالا لدرس الجاحظ، وتحقيقا لمصادر معرفته – أتقصى نقوله عن صاحب المنطق، فى كتاب الحيوان خاصة، وأحاول أن أتعرف مواضع هذه النقول فى كتب أرسطو، وأوردها عنها، كما جاءت فى ترجمة سانتيلير لها. وقد أتيح لى من ذلك قدر صالح، منها ماجاء مصدرا بعبارة الجاحظ: «قال صاحب المنطق»، ومنها ماجاء غفلا من ذلك، لسقط أو اضطراب أو ما إليه. وأخذت فى وضع نص حيوان الجاحظ بإزاء نظيره فى كلام أرسطو، متخذا ذلك أساسا للمقارنة بينهما. وقد أتاحت هذه المقارنة أشياء لها خطرها، منها أنها صححت بعض الأخطاء التى وقعت فى النشرة المحققة التى أخرجها الأستاذ الجليل عبدالسلام هارون. وماكان النص الصحيح ليأخذ مكانه لولا هذه الوسيلة، ومنها أنها رجحت بعض القراءات على بعض، فوضعت القراءة المرجوحة مكان القراءة الراجحة. ومنها، فوق ذلك، أنها ألقت بعض الضوء على قراءات النص اليونانى واحتمالاته المختلفة، كما أثبتها المترجم فى هوامش ترجمته، ولعلها بذلك يمكن أن ترجح بعضها على بعض.

وكنت نشرت من هذه النصوص طائفة تبلغ الثلاثين، فى مجلة كلية الآداب بجامعة الأسكندرية[1]، ثم صرفتنى بعض الصوارف عن نشر سائرها، ثم توالت بعض الشواغل التى صرفتنى عنها، حتىَ كدت أنساها، إلى أن فرضت على طبيعة الحياة إلى التفت إلى الوراء أراجع

(١) المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ – ١٩٥٣) والمجلد الثامن (ديسمبر ١٩٥٤).

ماضىّ ، فاذا هذه الدراسة بين يدى ، تدعونى اليها ، لتأخذ فى الحياة العلمية مكانها .

وانى إذ أستأنف اليوم نشر هذه النصوص أتقدم بصادق الشكر لمجلة مجمع اللغة العربية أن أتاحت لى ولهاهذه الفرصة .

٣١ ـ قال الجاحظ : «قال : ويستبين خلق الفراخ إذا مضت لها ثلاثة أيام بلياليها ، وذلك فى شباب الدجاج ؛ ⌐وأما فى المسان منها فهو أكثر . وفى ذلك ⌐الوقت توجد الصفرة من الناحية العليا من البيضة ، عند الطرف المحدد ، وحيث يكون أول نقرها ، فثم يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم ، وهى تختلج ⌐وتتحرك . والفَرخ انما يخلق من البياض ، ويغتذَى الصفرة ، ويتم خلقه لعشرة أيام ، والرأس وحده يكون أكبر من سائر البدن»[١]

ويقع هذا النص من حيوان الجاحظ فى سياق القول فى الحمام . وقد أسند بعض القول فيه إلى من يطلق عليه إسم «صاحب الحمام» ، وإلى «مثنى بن زهير» . كما استطرد فيه من الحديث عن بيض الحمام إلى الحديث عن بيض الدجاج ، دون أن يرد ذكر «صاحب المنطق» فى شئ من ذلك ، مع أن المقارنة دلت على أن من الأقوال التى أوردها ماهو مأخوذ عن أرسطو ، كما نرى ذلك فى النصوص السبعة السابقة[٢] على هذا النص الذى تتصدره أيضا كلمة : «قال» مرسلة دون تعيين صاحب القول ، وهو صاحب المنطق ، الذى تقع هذه الجملة من كلامه فى أعقاب النص السابق ، فى أول الفصل الثالث من الكتاب السادس ، وفى أثنائه ، بعد مقدمة فى أن جميع الطير يتولد من البيض ، فى مدة تختلف باختلاف أنواعه . وذلك إذ يقول :

«وفى الدجاج يكفى ثلاثة أيام وثلاث ليال ليبدأ الفرخ فى الاستبانة ، فأما الطيور الكبرى فيلزمها أكثر من ذلك ، كما يلزم الصغرى أقل . وفى تلك الفترة تصعد الصفرة شيئا فشيئا إلى أعلى

---

(١) ٣ : ١٧٧ — ١٧٨

(٢) انظر مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الثامن ، ص ٨٢ — ٩٠

البيضة ، وهو طرفها المحدد ، حيث مبدأ البيضة ، وحيث تنكسر . وفى البياض يوجد شئ كنقطة من دم ، وهى القلب . وهذه النقطة تخفق وتضطرب ، لأنهاحية »

وبعد أن يتكلم فى شئ من التفصيل عن خلق الفرخ ، يقول : «ويخرج الفرخ من البياض ، وغذاؤه من الصفرة من خلال السرة ، وفى عشرة أيام يتم خلق الفرخ ، ويتميز تماما بأعضائه التى يتكون منها جميعها ، ولايزال رأسه أكبر من سائر جسده[1] »

وبين النصين من الخلاف مايرجع إلى اختلاف الفهم ، كما فى عبارة النص الجاحظى : «وذلك فى شباب الدجاج ، وأما فى المسان منها فهو أكثر » ، وليس الأمر فى النص الآخر خاصا بالدجاج ، وإنما هو فى الطير عامة . كما أن من الخلاف مايرجع إلى النساخ وتصرفهم فى النص ، كما فى قوله : «فثم يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم » ، فهناك نسخة أخرى من الحيوان لم يرض الناشر قراءتها فى هذا الموضع فلم يأخذ بها ، تجعل الكلام فى هذه الجملة عن القلب : « والقلب يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم ، وبذلك تتفق تماما مع النص الآخر .

على أنه — إلى جانب مافى النصين من خلاف — يوجد شئ من الاتفاق الدقيق فى بعض المواضع . فالتعبير عن النقطة الدموية بأنها تختلج وتتحرك يبدو لأول وهلة كأنه شئ من الفضول أن يورد الفعلان معا فى النص الجاحظى ، ومعناهما واحد . ولكنا نجد الأمر كذلك فى الترجمة الفرنسية : "Ce point bat et s'agite" ، كما نجد مثل ذلك فى ترجمة دارسى ونتورث طومسون الانجليزية ويصرح سانتلير فى التعليق على هذا الموضع أن الكلمتين موجودتان فى النص اليونانى . فليس الأمر إذن فى مثل أمر شرح أو فضول أو تزيد فى التعبير ، وانما هو أمر دقة وتحر للحرفية .

٣٢ — قال الجاحظ : «وقال صاحب المنطق : وقد باضت فيما مضى دجاجة ثمانى عشرة بيضة ، لكل بيضة محتان ،

(١) v. II, p. 268-270

ثم سخنت وحضنت ، فخرج من كل بيضة فروجان ، ماخلا البيض الذى كان فاسدا فى الأصل . وقد يخرج من البيضة فروجان ، ويكون أحدهما أعظم جثة »[1]

ونظير هذا النص عند أرسطو يقع فى آخر الفصل الثالث من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . وذلك إذ يقول ، بعد أن ذكر أنه قد شوهد من الدجاج ما لا يبيض إلا بيضا مزدوجا ، أى له محتان :

« وقد باضت دجاجة ثمانى عشرة بيضة ، وخرج من كل بيضة فروجان ، ماعدا بيض الذنب أو بيض البول les oeufs de queue ou d'urine أما الباقى فكان جميعه مخصبا . وإذا كان أحد الفرخين أكبر جثة جاء الآخر أصغر ، ويكون الفرخ الأخير مشوها »[2]

ولعل أول مايلفت النظر فى هذا النص هو عبارة « بيض الذنب أو بيض البول » التى يقابلها فى النص الجاحظى « الذى كان فاسدا فى الأصل » ، فالترجمة الفرنسية تبدو غامضة غير مفهومة ، ومن هنا لاتظهر لنا العلاقة بينها وبين الترجمة العربية .

على أن مما يجدر ذكره هنا ماجاء فى تعليقات سانتيلير ، مما قد يكون له دلالته ، أن هذا النص قد عانى فى غير موضع منه غموضا واضطرابا دعيا إلى إدخال بعض التصحيحات عليه ، كما فعل جسنر gessner . كما حملا سانتيلير على التردد فى ترجمة بعض الكلمات ، وهى : أحد الفرخين ، أو أحد الصفرتين .

ويتصل بالنص العربى هذه الفقرة ، كأنها تكملة له : « وكذلك الحمام . وما أقل مايغادر الحمام أن يكون أحد الفرخين ذكراً والآخر أنثى » ، ولانظير لها عند أرسطو ، فهل سقطت من كلامه ، أم هى من كلام الجاحظ وصلها بكلام أرسطو ؟

٣٣ـ قال الجاحظ : « قال : وربما باضت الحمامة وأشباهها من الفواخت ثلاث بيضات ، فاما الاطرغلات والفواخت فانها تبيض بيضين ، وربما باضت ثلاث بيضات ، ولكن لايخرج منها أكثر من فرخين ، وربما كان واحدا فقط . قال : وبعض الطير لا يبيض الا بعد

---

(١) ٣ : ١٧٨

(٢) v. II, p. 276-277

مرور الحول عليه كملا. والحمامة فى إكثر أمرها يكون أحد فرخيها ذكرا والآخرأنثى ، وهى تبيض أولا البيضة التى فيها الذكر ، ثم تقيم يوما وليلة ، ثم تبيض الأخرى . وتمضى ما بين السبعة عشر يوما إلى العشرين ، على قدر اختلاف طباع الزمان والذى يعرض لها من العلل . والحمامة أبرّ بالبيض والحمام أبرّ بالفراخ[1] »

وهذا النص يقع ، منثورا ، فى الفصل الرابع من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان لأرسطو . ولا أدرى أكذلك كان بوصفه هذا فى الأصل الذى نقل الجاحظ عنه ، أم أن الجاحظ كان يتخير : يأخذ جملة من هنا وجملة من هنا ، أم أن مانقله أبو عثمان قدعرض له من البتر ماجعله على هذه الصورة ؟

ومهما يكن من أمر فها هوذا مايقابل هذا النص فى ذلك الموضع من كتاب أرسطو :

« وجميع الطير من جنس الحمام كالفواخت le ramier والاطرغلات la tourterelle تبيض عادة بيضتين ، وأكثر مايمكن أن تبيض الاطرغلات والفواخت ثلاث ... ولكنها لا تربى أكثر من فرخين ، بل لا تربى أكثر من فرخ واحد فى بعض الأحيان .... ومعظم الطير لا يبيض فى عامه الأول... والحمام يبيض عادة ذكرا وأنثى ، وتكون بيضة الذكر غالبا قبل الأخرى ، وبعد تستريح فترة يوم ، ثم تبيض الأخرى... وتبلغ البيضة التى بيضت أولا نضجها ثم تفقس فى عشرين يوما .... والأنثى أسوأ من الذكر خلقا أثناء تربيتها بصغارها[2] »

وبين النصين بعض الخلافات الطفيفة التى لانريد أن نقف عندها ، التماسا لتعليلها ، كتحديد مدة الحضن فى النص الارسطالى بعشرين ، وتفاوتها بين العشرين والسبعة عشر فى النص الجاحظى وكالخلاف فى التعبير عن موقف أنثى الحمام وذكرها من الفراخ ، فالأول يكتفى بالقول بان الانثى أسوأ خلقاً من الذكر أثناء تربيتها لصغارها ، فى حين يأخذ الآخر بمفهوم ذلك ، فيجعل الأمر

(١) ٣ : ١٧٨ - ١٧٩

(٢) v. II, p. 277-279

قسمة بين الذكر والأنثى ، فالذكر أبرّ بالفراخ ، والأنثى أبرّ بالبيض

٣٤ ـ قال الجاحظ : «قال : وأما جميع أجناس الطير مما يأكل اللحم ، فلم يظهر لنا أنه يبيض ويفرخ أكثر من مرة واحدة ، ماخلا الخطاف فانه يبيض مرتين[1] »

ويقع هذا النص عند أرسطو فى الفصل الخامس من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، حيث عقد الكلام عن العقاب. قال :

« والطيور الأخرى آكلة اللحم لاتبيض أكثر من مرة واحدة فى العام ، قدرما يمكن أن يرى . والخطاف l'hirondèlle وحده بين آكلة اللحم هو الذى يبيض بيضتين فى السنة[2] »

والنصان يتفقان ، كما نرى ، اتفاقا تاما ، فليس لنا غير ذلك من تعليق عليهما .

٣٥ ـ قال الجاحظ : «وقالوا : وأما الفرخ الذى يخرجه العقاب ، فان المكلفة ، وهى طائر يقال لها كاسر العظام ، تقبله وتربيه . والعقاب تحضن ثلاثين يوما ، وكذلك كل طائر عظيم ، مثل الأوز وأشباه ذلك . فأما الوسط فهو يحضن عشرين يوما ، مثل الحدأة ، ومثل أصناف البزاة ، كالبواشق واليآيىء والحدأة تبيض بيضتين ، وربما باضت ثلاث بيضات ، وخرج منهن ثلاثة أفراخ . قالوا : وأما العقبان السود الالوان فانها تربى وتحضن . وجميع الطير المعقف المخالب تطرد فراخها من أعشاشها عند قوتها على الطيران ، وكذلك سائر الأصناف من الطير ، فانها تطرد الفراخ ثم لا تعرفها ، ماعدا الغداف ، فانها لاتزال لولدها قابلة ، ولحاله متفقدة[3] »

وهذا النص أرسطالى خالص صريح ، وان صدر بكلمة : «وقالوا» فانما حقها أن تكون : «وقال صاحب المنطق ، كما يبدو من مقارنتنا هذا النص من تاريخ الحيوان ، فى الفصل الخامس من الكتاب السادس . قال :

«والنسر (l'effraie) يقبل (resçoit) فرخ العقاب الذى

(١) ٣ : ١٧٩
(٣) ٣ : ١٨٠ ــ ١٨١

(٢) v. II, p. 281

الذى طرد ويغذوه . والعقاب يحضن ثلاثين يوما تقريبا ، وهذه هى مدة الحضانة عند الطيور العظام ، مثل الأوز والحبارى (l' outorde) ، وأما الطير المتوسطة الجثة فقلّ أن تحضن غير عشرين يوما ، مثل الحدأة والبازى . والحدأة لاتبيض فى أغلب الأحوال غير بيضتين ، ومع ذلك ففى بعض الأحيان يبلغ صغارها ثلاثة ... والعقبان السود ، على العكس من ذلك ، تغذو صغارها باهتمام كبير . ومهما يكن من أمر ، فانه يمكن القول بأن جميع الطيور ذوات المخالب المعقوفة تطرد صغارها وتضربها منذ تصبح قادرة على الطيران . ونكرر القول بأن جميع الطير الأخرى شأنها ذلك تقريبا ، أو على الأقل لاتولى صغارها أدنى عناية بعد أن تغذوها بعض الوقت . ويجب أن نستثنى من ذلك الغداف الذى لايزال معينا بها زمنا ، وحين تطير يغذوها ويطير بجانبها[1]

وهكذا نرى أن النص العربى يساير النص الآخر مسايرة دقيقة ، الا فى أشياء لاوزن لها ، كوضعه عبارة «وما أشبه ذلك» موضع كلمة «الحبارى» ، وكالتمثيل لأصناف البزاة بالبواشق واليآيىء ، ولانظير لهما فى نص أرسطو الذى ترجمه سانتيلير . على أن احدى مخطوطات الحيوان قد أغفلتهما. فاذا نحن لم نقف عند حد النسخة التى اعتمدها ناشر الحيوان فى هذا الموضع ، واعتبرنا تلك النسخة الأخرى ، وهى مخطوطة كبريلى ، أمثل النسخ وأجدرها بالثقة ، فان الاتفاق بين النصين يكاد يكون تاما. وقد أشرنا فى موضع سابق إلى أن هذه المخطوطة وضعت فى هذا النص ، فى موضع كلمة «كاسر العظام» كلمة «فينا» ، وهى بعينها الكلمة اليونانية Phéné المستعملة فى هذا الموضع[2]

٣٦ــ قال الجاحظ : «(قال : وقالوا : فراخ البزاة سمينة طيبة جدا). وأما الأوزة فانها التى تحضن دون الذكر ، وأما الغربان فعلى الاناث الحضن ، والذكورة تأتى الاناث بالطعمة ، وأما الحجل ، فان الزوج منها يهيئان للبيض

(١) v. II, p. 283-284

(٢) انظر مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد السادس والسابع ، ص ٢٠ – ٢١.

عشين وثيقين مقسومين عليهما ، فيحضن أحدهما الذكر ، والآخر الأنثى ؛ وكذلك هما فى التربية . وكل واحدمنهما يعيش خمسا وعشرين سنة . ولا تلقح الأنثى بالبيض ، ولا يلقح الذكر إلا بعد ثلاث سنين [١] »

وهذا النص – كما نرى – مضطرب فى مبدئه وفى آخره . وانما أوردناه بصورته هذه ليكون مقالا لماعاناه كتاب الحيوان من اضطراب وماداخله من خلط . فصدر هذا النص ناب فى موضعه ، منقطع الصلة بما قبله ومابعده . وظاهران عبارة : «وقالوا فراخ البزاة سمينة طيبةجدا » مقحمةفى غير موضعها ، وأكبر الظن انها كانت مما جرى به قلم أحد القراء على هامش إحدى النسخ ، عند الكلام على البزاة وحضنها ، فجاء بعد ذلك أحد النساخ فأدخلها فى هذا الموضع . وكذلك الأمر فى آخر هذا النص ، ففيه من الخلط مانستطيع أن نتبينه من المقارنة بينه وبين نظيره فى كلام أرسطو ، كما جاء فى الفصـل الثامن من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . قال :

«وانـاث الأوز هى التى تحضن وحدها ... وإناث الغربان هى التى عليها وحدها أن تحضن ، فلاتدع أن تكون على البيض لحظة واحدة ، والذكورة تحمل اليها ماتطعمه ... والحجلان تكوّم بيضها كومتين ، فتقوم الأنثى على احداهما ، ويقوم الذكر على الأخرى . وبعض الفقس يربى كل منهما ماحضنه خاصة [٢] »

ثم يتحدث بعدذلك قليلا عن سفاد الحجل ، وبهذا ينتهى الفصل الخاص به ، ليبدأ فصل جديد عن الطاووس ، دون أن نرى أثرا لهذه الجملة التى جاءت فى آخر النص العربى ، «وكل منهما يعيش خمسا وعشرين سنة .. الخ » ولكنا سنجدها فى الفصل التالى ، عن الطاووس ، وقد اقتبس منه الجاحظ ، عقب كلامه عن الحجل مباشرة .

٣٧ – قال الجاحظ : «قال : وأما الطاووس فأول ماتبيض فانها تبيض ثمانى بيضات ، وتبيض أيضا بيض الريح . والطاووس يلقى ريشه فى زمن الخريف ، إذا بدأ أول ورق الشجر يسقط . وإذا

(١) ٣ : ١٨٢ – ١٨٣

(٢) v. II. p. 287-288

بدأ الشجر يكتسى ورقا ، بدأ الطاووس فاكتسى ريشا [(١)] »

ويقع هذا القول – كما قلنا فى الفقرة السابقة – فى الفصل التالى ، وهو الفصل التاسع من الكتاب السادس . ويبدأ هذا الفصل بالكلام عن مدة حياة الطاووس ، فيقول : « الطاووس يعيش إلى خمس وعشرين سنة تقريبا ، ويلقح ، عامة ، فى الثالثة من عمره » . ثم يقول :

« وأنثى الطاووس التى تبيض للمرة الأولى قلما تبيض غير ثمان بيضات ، وتبيض أيضا بيضا رائقا (Oeufs-clairs)

. . . ويلقى الطاووس ريشه مع سقوط أول أوراق الشجر التى تسقط ، ثم يأخذ فى استرداد ريشه حين تسترد الأشجار أيضا خضرتها [(٢)] »

ومن هذا نرى أن العبارة التى جعلت فى آخر الكلام عن الحجل فى النص العربى ، إنما هى من جملة الكلام عن الطاووس ، أخطأت موضعها وزحلت عنه ، فأدمجت فيما قبلها ، ووهب عمر الطاووس ، وهو خمس وعشرون عاما للحجل ، وقد قال أرسطو فى موضع آخر أنه ستة عشر عاما أو فوقها [(٣)]

أما وضع كلمة بيض الريح فى النص الجاحظى للتعبير عن البيض الرائق ، فقد عرضنا له فى موضع له سابق [(٤)] .

٣٨ – قال الجاحظ : « قال : وما كان من الطير الثقيل الجثة فليس يهئ لبيضه عشا ، من أجل أنه لا يجيد الطيران ، ويثقل عليه النهوض ، ولا يتحلق مثل الدراج والقبج ، وإنما يبيض على التراب [(٥)] »

وهذا المعنى نجده عند أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب السادس من تاريخ الحيوان ، إذ يقول :

« والطيور تبيض بصفة عامة فى أعشاش ، ولكن التى لاتطير كثيرا لاتعمل أعشاشا ، مثل الحجل والقبج les perdrix et les cailles التى تبيض على الأرض ، وتغطى بيضها ببعض الأغصان [(٦)] »

---

(١) ٢ : ١٨٣   (٢) II, V. II, p. 289-290   (٣) V. II, p. 280

(٤) مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية . المجلد الثامن ص ٨٦ – ٨٧

(٥) ٢ : ١٨٤   (٦) V. II, p. 266

وبين النصين ، وإن كانا يتفقان فى المعنى العام ، شيئ من التفاوت ، فى النص العربى إسهاب فى التعبير عن العجز عن الطيران ، بما هو شبيه بأسلوب الجاحظ . وفيه أيضا وضعت أيضا كلمة الدراج فى مقابل ماترجم قبل بالحجل perdrix

٣٩ ـ قال الجاحظ : « قال : وإذا دنا الصياد من عش القبجة ، ولها فراخ ، مرت بين يديه مرا غير مفيت ، وأطمعته فى نفسها ليتبعها ، فتمر الفراخ فى رجوعها إلى موضع عشها . والفراخ ليس معها من الهداية مامع أمها . وعلى أن القبجة سيئة الدلالة والهداية ، وكذلك كل طائر يعجل له الكيس والكسوة ، ويعجل له الكسب فى صغره . وهذا إنما اعتراها لقرابة مابينها وبين الديك

قال : فاذا أمعن الصائد خلفها وقد خرجت الفراخ من موضعها ، طارت وقد نحته إلى حيث لا يهتدى الرجوع منه إلى موضع عشها . فإذا سقطت قريبا دعتها بأصوات لها ، حتى يجتمعن إليها .

قال : وإناث القبج تبيض خمس عشرة بيضة إلى ست عشرة بيضة .

قال : والقبج طير منكر ، وهى تفر ببيضها من الذكر ، لأن الأنثى تشتغل بالحضن عن طاعة الذكر فى طلب السفاد . والقبج الذكر يوصف بالقوة على السفاد ، كما يوصف الديك والحجل والعصفور قال : فإذا شغلت عنه بالحضن ، طلب مواضع بيضها حتى يفسده . فلذلك ترتاد الأنثى عشها فى مخانى ، إذا أحست بوقف البيض . وإذا قاتل بعض ذكورة القبج بعضا فالمغلوب منها مسفود ، والغالب سافد . وهذا العرض يعرض للديكة ولذكور الدراريج ، فإذا دخل بين الديكة ديك غريب ، فما أكثر ماتجتمع عليه حتى تسفده[1] »

ونستطيع أن نجدما يناظر هذا النص فى الفصل التاسع من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان ، فى الحديث عما ترجم أولا بالحجل ، ثم ترجم ثانيا ، كما رأينا فى النص السابق ، بالدراج ، وماترجم فى هذا النص بالقبج ، وهو مايسمى بالفرنسية ، كما يذكره سانتيلير ،

(١) ٣ : ١٨٤ - ١٨٦

perdrix . وأكبر الظن أن هذا النوع من الخلط يرجع إلى سوء صنيع النساخ ، إذ يبعد عندنا أن يقع من مترجم واحد قال :

« وإذا وقع الصائد على العش استدارت الحجلة la perdrix ، لتنجو بنفسها ، كما لو كانت ستدعه يمسكها ، ثم تطمعه فى إمساكها ، فتجتذبه إليها ، فتتيح لصغارها الوقت ليهربوا . وبعد هذا التدبير تطير وتدعو الصغار إليها . والحجلة لا تبيض أقل من عشر بيضات ، وأحيانا تبيض إلى ستة عشربيضة . والحجلة ، كما قيل طير خبيث ماكر.... وإذ كانت الذكورة شديدة الغلمة ، فإنها ، لكى تمنع الأنثى من الحضن ، تبعثر البيض وتكسره حيث تجده ، والأنثى تدافع قدر ما تستطيع عنه ، تخلص بنفسها لتبيض فى مكان آخر .

وكثيرا مايحدث ، حين يعجلها البيض ، أن تضع بيضها حيثما اتفق ، بشرط أن يكون الذكر غير مطيق . ومن أجل أن تنقذه جملة واحدة ، فإنها لاتعود إليه... وإذا تقابلت الذكورة ، فالذكر المنهزم يتبع غالبه ، ولا يدع لغيره أن يسمه ، وإذا هزم الذكر وسمه الثانى ، أو أى واحد آخر فى خفية عن الغالب ... ومثل هذا يحدث عند القبج les cailles ، كما يلاحظ هذا أحيانا عند الديكة . وفى المعابد التى تربى فيها الديكة بدون إناثها ، تتتابع جميعا على وسم القادم الجديد[1] .

وبين النصين – كما نرى – تفاوت واضح ، وإن اتفقا فى الجملة . فبينما نرى النص الجاحظى يتبسط أحيانا بالشرح والتنظير نراه يتجاوز عن بعض التفصيلات التى وردت فى النص الآخر ولا يعنينا الآن التماس مرجع هـذا التجاوز . أما البسطة فى النص الجاحظى فربما كانت ترجع – فيما يخيل الينا – إلى أنه قد داخل كلام أرسطو بعض التعليقات التى أقحمها الجاحظ عليه ، وفصل بها بين أجزائه ، كقوله ، فى سياق ذلك النص ، فيما نحسب : «والفراخ ليس معها من الهداية مامع أمها ... » إلى قوله : «وهذا إنما اعتراها لقرابة مابينهما وبين الديك .

(٢) V. III, p. 166-168

كما نحسب أن شيئا من هذا التفاوت يرجع إلى غموض النص اليونانى فى بعض مواضعه . فوسم الذكر الغالب للذكر المغلوب أو حزء شئ يعترف سانتيلير بأنه غير مفهوم . ولكنه يقول أن النص لايعطى غير هذا المعنى ، والمخطوطات لاتقدم أى قراءة أخرى . أما المترجم العربى فقد فهمه على أن المراد به السفاد ، وجاء المعنى على هذا واضحا .

أما المعابد التى تربى فيها الديكة المقدسة ، فأكبر الظن أن المترجم العربى لم يكن ليستطيع إدراك المراد بها ، لذلك أغفل ذكرها ، وعبر عن المعنى بعبارة عامة .

٤٠ ـ قال الجاحظ : «زعم صاحب المنطق أن البزاة عشرة أجناس ؛ فمنها مايضرب الحمامة والحمامة جاثمة ، ومنها مالا يضرب الحمام إلا وهو يطير ، ومنها مالا يضرب الحمام فى حال طيرانه ، ولا فى حال جثومه ، ولا يعرض له إلا أن يجده فى بعض الأغصان ، أو على بعض الأنشاز والأشجار . فعدد أجناس صيدها . ثم ذكر أن الحمام لا يخفى عليه فى أول ما يرى البازى فى الهواء : أى البزاة هو ، وأى نوع صيده ، فيخالف ذلك . ولمعرفة الحمام بذلك من البازى أشكال : أول ذلك أن الحمام فى أول نهوضه يفصل بين النسر والعقاب ، وبين الرخمة والبازى ، وبين الغراب والصقر ، فهو يرى الكركى والطيرزين ولا يستوحش منهما ، ويرى الزرق فهتضاءل ، فان رأى الشاهين فقد رأى السم الذعاف الناقع »[1]

وهذا النص الذى يبدو أن الجاحظ أورد فيه كلام أرسطو بمعناه ، وعبر عنه بعبارته هو ، يقع فى الفصل الرابع والعشرين من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان حيث يقول :

«يقال أنه يوجد عشرة أجناس من البزاة على الأقل ، تمثل الفروق الكبرى بينها ، فبعضها ينقض على الحمام وهو على الأرض ، ويحتمله ، ولايمسه وهو يطير ؛ وبعضها يطارد الحمام وهو متشبث بشجرة أو أى شئ آخر ، ولكنه لايمسكه وهو على الأرض ، ولا حين يكون متشبثا ؛ وبعضها لايهاجمه وهو على الأرض ولا حين يكون متشبثا ، بل لايحاول

(١) ٣ : ١٨٧

إمساكه الا وهو يطير . ويؤكدون أن الحمام تستطيع معرفة هـذه الأنواع المختلفة من البزاة ، حين يطير البازى نحوها ؛ فإذا كان من البزاة التى لاتصطاد إلا فى الهواء ، فانها لا تترك مكانها الذى هى فيه ، ولكن إذا كان البازى الذى ينقض فوقها من البزاة التى تضرب على الأرض ، فإنها لاتنتظره ، بل تسارع بالطيران[1] .

وظاهر أن الجاحظ لخص فى هذا النص شيئا وأشار إلى شئ . ولكن فيه زيادة لانجدها فى النص الآخر ، وذلك قوله : « ولمعرفة الحمام بذلك من البازى أشكال » إلى آخر النص ، فهل هى زيادة سقطت من النص الآخر ، إذ لم توجد فى المخطوطات التى ترجم عنها فى أوربا ؟ أم هى زيادة غير أرسططالية ، وقد أوردها الجاحظ عن مصدر آخر من مصادره الكثيرة لكتاب الحيوان ؟ ذلك ما لا يمكن القطع به الآن فيما يبدو .

٤١ ـ قال الجاحظ : « وقد قال صاحب المنطق : أقول بقول عام : لابد لجميع الحيوان من دم ، أو من شئ يشاكل الدم[2] .

وقد كرر الجاحظ هذا النقل فى موضع آخر ، فقال : « وأما صاحب المنطق فإنه قال باضطرار أنه لايعيش حيوان إلا وفيه دم أو شئ يشاكل الدم[3] »

وقد جاء هذا القول فى الفصل الثانى من الكتاب الثانى ، من أعضاء الحيوان إذ يقول :

« دعامة الحيوان منه ماله دم ، ومنه سائل يشبه الدم ، يحل محله »[4] .

٤٢ ـ قال الجاحظ : « وقد قال صاحب المنطق وزعم فى كتاب الحيوان أن لكل طائر يعشش شكلا يتخذ عشه منه ، فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع ، وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص . وزعم أن الهدهد من بينها يطلب الزبل ، حتى إذا وجده نقل منه ، كما تنقل الأرضة من التراب ، ويبنى منه بيتا كما تبنى الأرضة ، ويضع جزءا على جزء ، فاذا طال مكثه فى ذلك البيت ،

---

(١) V.III, p. 212-213 (٢) ٣ : ٣٦٩ (٣) ٦ : ١٢٩

(٤) Traité des parties des animaux . . . V. I, p 83

وفيه أيضا ولد ، أو فى مثله ، وتربى ريشه وبدنه بتلك الرائحة ، فأخلق به أيضا أن يورث ابنه النتن الذى علقه ، كما أورث جده أباه ، و كما أورثه أبوه . قال : ولذلك يكون منتنا[1] »

ولم نجد نظير هذا النص ، بهذه الصورة فيما بين يدينا من حيوان أرسطو ، ولم نجد هذه المعانى ، بهذا الوضع ، لديه . وإن يكن أرسطو تكلم عن الأعشاش فى غير موضع ، وعن اختلافها باختلاف أصحابها ، كما تكلم عن الهدهد وعشه خاصة ، وذكر أصل القول هنا فيه ، أما ماعدا ذلك من تفصيلات وصور فلم يقع لنا منها شئ فيما أتيح لنا ، فإما أن يكون ذلك قد كان فى حيوان أرسطو الذى نقلت نسخته إلى العربية ، ثم سقط وضاع ، وإما أن يكون شيئا أقحم عليه ، أقحمه المترجم ، أو أقحمه الجاحظ نفسه . وكل ذلك جائز محتمل فيما نحن فيه .

وهذا هو نص كلام أرسطو عن عش الهدهد ، كما جاء فى الفصل السادس عشر من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان :

«والهدهد يصنع عشه كله تقريبا من زبل الإنسان[2] »

٤٣ ـ قال الجاحظ : «وذكر صاحب المنطق أن الطير الكبير ، الذى يسمى باليونانيـة : أغتيولس ، يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديرا مداخلا كأنه كرة معمولة . وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدار صينى من موضعه ، فيفرش به عشه ؛ ولايعشش إلا فى أعالى الشجر المرتفعة المواضع . قال : وربما عمد الناس إلى سهام يشدون عليها رصاصا ، ثم يرمون بها أعشتها ، فيسقط عليهم الدارصينى ،فيلتقطونه ويأخذونه[3] »

ويقع نظير هذا النص فى آخر الفصل الرابع عشر من كتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول أرسطو :

«ويؤكد أهل البلاد أن الطائر المسمى سيناموم le cinnamome يجلب أيضا من حيث لا يعرف أحـد المـادة المسماة

(1) ٣ : ٥١٣ – ٥١٤

(2) V. III, p. 185

(3) ٣ : ٥١٥

بهذا الاسم ، ويصنع منها عشه ، وهو يجعله فوق الأشجار وفى أعلا الأغصان . والأهالى يسقطون هذا العش بضربه بالسهام المشدود إليها الرصاص ،فيجمعون ماجلبه هذا الطائر من الدار صينى »[1] .

وبين النصين – كما نرى – بعض الفروق ، وإن كان أصل المعنى واحدا ، وجملة الصورة متفقة فيهما .

ولعل أول مايلفت النظر ويثير التساؤل من وجوه الخلاف هو الخلاف فى اسم ذلك الطائر ، إذ يجعله النص الجاحظى «أغتيولس» ، ويجعله النص الآخر «سيناموم» . فهل يرجع هذا الخلاف إلى أن الاسم ، كما جاء فى النص الأول ، تعرض للتحريف الذى حوله من «سيناموم» إلى «اغتيولس» ؟ ذلك فرض بعيد ، إذ لا تكاد الكلمتان تلتقيان بوجه من الوجوه فى الصورة الخطية ، إلا أن تكون الكلمة الأولى قد مرت فى مراحل مختلفة من التحريفات والتصحيفات انتهت بها إلى أن فقدت كل صلة بصورتها الأولى .

أم أن الاسم الذى جاء به النص الجاحظى أو مايشبهه ضاع أو انبهم فى الأصول اليونانية المخطوطة التى كانت مادة الترجمة الأوربية ، وبذلك أطلق على الطائر اسم النبات الذى يصنع منه عشه ؟

أم أنه – قبل الاسترسال فى الفروض – لابد من الرجوع إلى الأصول اليونانية ، فلعلها تحتفظ بهذا الاسم أو مايشبهه ؟

ولعل من تمام القول فى هذا النص أن نذكر ماعلق به الجاحظ عليه ، وذلك إذ يقول :

«ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدار صينى ، وإن كنت لأعرف الوجه فى أن طائرا ينهض من وكره فى الجبال ، أو بفارس ، أو باليمن ، فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصينى ، وهو لم يجاور موضعه ولا قرب منه . وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد أو من القواطع ، وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأملس ، وبطون الأودية ، وأهضام الجبال ،

---

(1) V. III, p. 182

بالتدويم فى الأجواء، وبالمضى على السمت، لطلب مالم يره ولم يشمه ولم يذقه. وأخرى فإنه لايجلب منه بمنقاره ورجليه مايصير فراشا له ومهادا، إلا بالاختلاف الطويل. وبعد فإنه ليس بالوطىء الوثير، ولا هو له بطعام. فأنا وإن كنت لاأعرف العلة بعينها، فلست أنكر الأمور من هذه الجهة، فأذكرهذا »[1].

وقبل أن ندع هذا النص نقول إن الترجمة العربية التى وضعت كلمة « الدار صينى » بإزاء كلمة « cinnamome » قد فصلت فى حيرة سانتيلير حين قال فى تعليقه على هذه الكلمة: إنه لايدرى، على وجه الدقة، ماذا كان القدماء يعنون بها: أهو المر (myrhe) أم هى القرفة (Cannelle)

٤٤ ـ قال الجاحظ: « وقدزعم صاحب المنطق أن ذوات الأربع كلها تحيض، على اختلاف فى القلة والكثرة، والزمان، والحمرة والصفرة، والرقة والغلظ »[2].

٤٥ ـ قال الجاحظ: « وقد زعم صاحب المنطق أن الكلاب السلوقية كلما دخلت فى السن كان أقوى لها على المعاظلة »[3].

وقد سبق للجاحظ أن ذكر هذا المعنى، حاكيا له عن أرسطو، فى سياق فصل طويل خاص بالكلاب، نقله عنه، ونص عبارته هناك:

« ويعرض للكلاب السلوقية عرض خاص، وهى أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد »[4].

ونظيرها فى كلام أرسطو قوله: « وللكلاب اللقونية خاصية تمتاز بها، وهى أنها كلما تعبت كانت أقوى على السفاد من التى لم تتعب ».

وقد لاحظنا أن فى عبارة أرسطو ـ كما أوردها الجاحظ ـ تحريفين: أولهما فى كلمة « السلوقية »، فينبغى أن تكون محرفة عن « اللقونية »، والآخر فى كلمة « بقيت »، فينبغى أن تكون محرفة عن « تعبت »[5].

---

(١) ٣ : ٥١٧ – ٥١٨
(٢) ٣ : ٥٢٩ – ٥٣٠
(٣) ٣ : ٥٣٣
(٤) ٢ : ٢٢٢
(٥) مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، المجلد الثامن، ص ٧٧

وهنا نستطيع أن نقول إن هذا التحريف الأخير ليس تحريفا فى نسخ حيوان الجاحظ التى بلغتنا ، وإنما كان تحريفا فى نسخة حيوان أرسطو التى كانت بين يدى الجاحظ ينقل عنها ، بدليل أنه ، حين روى هنا بالمعنى ماكان أورده قبل نصا ، قال : «كلما دخلت فى السن» بدلا من قوله : «كلما بقيت» ومن ذلك كان تعليقه على كلام أرسطو بقوله :

«وهذا غريب جدا . وقد علمنا أن الغلام أحدّ مايكون وأشيق وأنكح وأحرص عند أول بلوغه ، ثم لايزال كذلك حتى يقطعه الكبر ، أو إصفاد ، أو تعرض له آفة» .

محمد طه الحاجرى

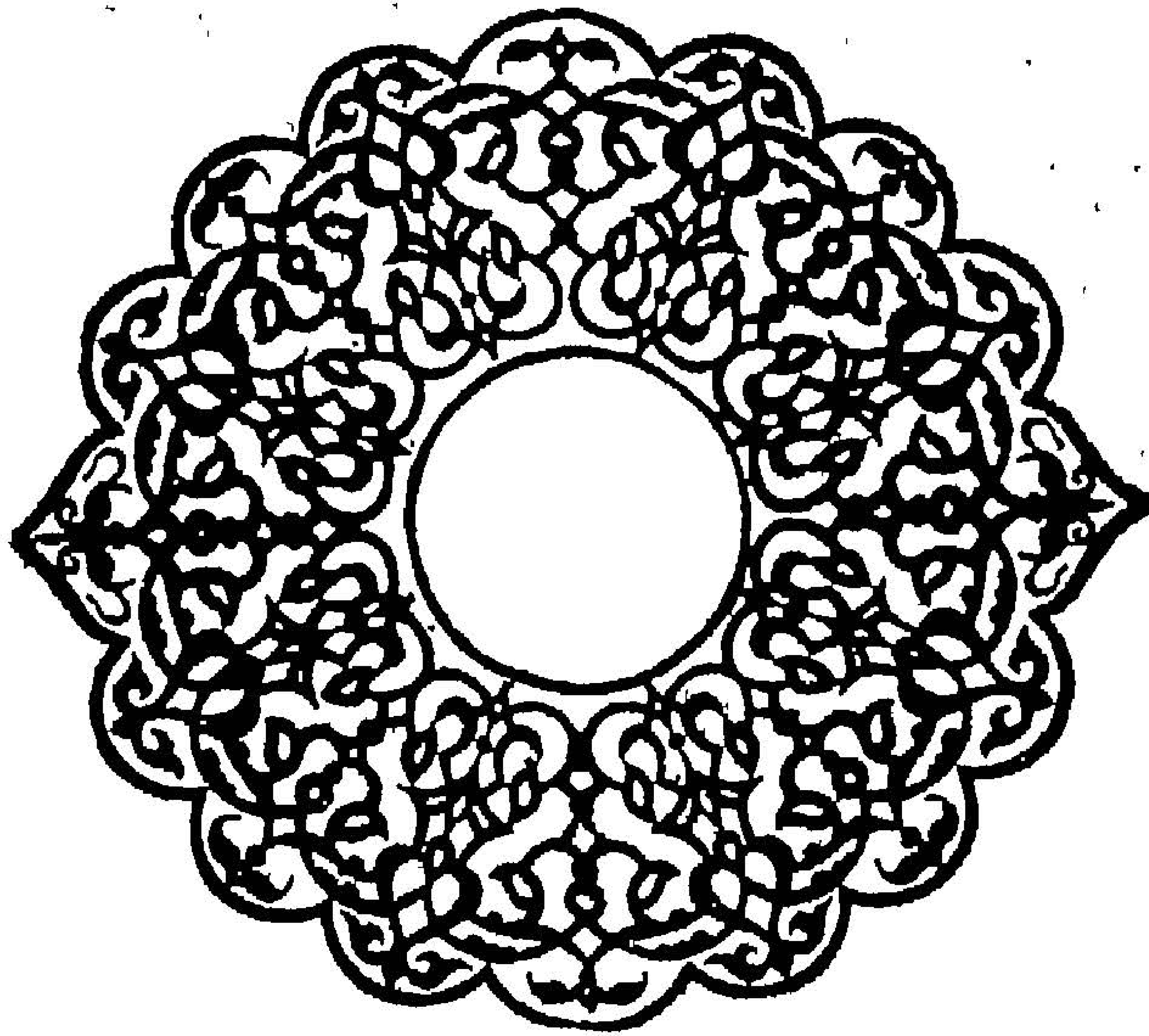

سجع القرآن فريد

للدكتور أحمد الحوفى

عرضت في البحث السابق(*) بعض خصائص السجع القرآني، وهذا طرف آخر من تلك الخصائص.

٤ - قد يتداخل في القرينتين سجع آخر غير سجعهما، فيتضاعف نغم التعبير، وتعلو موسيقاه، ويعظم في السمع وقعه، ويعمق في النفس أثره، كقوله سبحانه وتعالى: «ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما، فاستقيما، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون»(١).

فهاهنا سجع داخلي بين أموالهم وقلوبهم. ومثل قوله سبحانه: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا. وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا»(٢).

وهنا سجع داخلي بين مترفيها وفيها.

ومثل قوله تعالى: «وما تفرقوا إلا من من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا، وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير»(٣)

فالسجع الداخلي واضح في الآيتين.

٥ - ولقد ترد الفاصلة مسبوقة بلفظ يمهد لها ويكاد يعينها، سواء أكان هذا اللفظ الممهد في أول الآية مثل قوله تعالى:

(*) نشر بالجزء السابق من المجلة (٢٨).

(١) سورة يونس ٨٨ - ٨٩

(٢) سورة الإسراء ١٦ - ١٧

(٣) سورة الشورى ١٤ - ١٥

« ولقد فتنّا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسدا ، ثم أناب . قال رب اغفر لى ، وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب »[1] ، أم كان فى صدر الآية نحو قوله سبحانه : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ، فيُسْحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى »[2] ، ونحو قوله سبحانه : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون »[3] .

فإن كلمتى الوهاب وهبْ ، وكلمتى لا تفتروا وافترى ، وكلمتى اختلفوا ويختلفون ، تلائم كل منهما الأخرى .

٦ — وأحيانا تأتى الفاصلة موافقة لمعنى ما قبلها وإن لم تتفق معه فى لفظه ، مثل قوله تعالى : « وآية لهم الليل نَسْلَخُ منه النهار فإذا هم مظلمون »[4] ، لأن الفواصل السابقة للآية نون ، وانسلاخ النهار من الليل ومجيئه بعده يرشح أن تكون الفاصلة كلمة (مظلمون) .

وكذلك قوله سبحانه : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »[5] ، لأن كلمة اللطيف هى التى تناسب الذات العلية التى لايدركها بصر ، وكلمة الخبير هى التى تلائم الخالق القدير الذى يدرك أبصار الخلق وأحوالهم جميعها .

وقوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم »[6]

لأن الأجر الكريم هو الذى يناسب مضاعفة الأجر ، والفوز العظيم هو الذى يناسب النور الهادى والنعيم فى الجنات .

٧ — وكثيرا ما ترافق الفواصل أغراض بلاغية أصيلة تتجلى من نسق الآية أو من إيثار لفظ على لفظ ، وهذا مجال رحب لدراسة متأنية مفصلة .

(١) سورة ص ٣٤ — ٣٥
(٢) سورة طه ٦١ — ٦٢
(٣) سورة يونس ١٩
(٤) سورة يس ٣٧
(٥) سورة الأنعام ١٠٣
(٦) سورة الحديد ١١ — ١٢

فنى قوله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر . وربَّك فكبر . وثيابك فطهر . والرُّجْزَ فاهجر . ولا تَمْنُنْ تستكثر . ولربك فاصبر »[1] قدمت المفعولات (ربك وثيابك والرجز) على الأفعال (كبر وطهر واهجر) للقصر البلاغى من ناحية ، ولتحقيق موسيقى الفواصل من ناحية ، وقدم الجار والمجرور (ولربك) على الفعل (اصبر) للغرض نفسه .

وفى قوله سبحانه وتعالى : « قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألْقَى . قال : بل ألْقُوا ، فإذا حبالهم وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تَسْعَى . فأوجس فى نفسه خِيفَةً موسى ، قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى . وَألْق ما فى يمينك تلْقَفْ ما صنعوا ، إنما صنعوا كَيْدُ ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى »[2] .

قدم الضمير وهو الهاء فى كلمة (نفسه) على (موسى) لسبب معنوى هو الدلالة على أن خوف موسى كان يجيش فى نفسه ولكنه خفى على السحرة ، مستور عنهم وهذا التقديم أدق من التأخير ، والسبب لفظى هو أن الفاصلة ألف مقصورة ناسبها أن تجىء كلمة موسى فى آخر الآية .

وفى قوله تعالى : « سَأُصْلِيه سَقَر . وما أدراك ما سقر ؟ لا تُبْقِى ولا تَذَر . لوَّاحَةُ للبَشَر . عليها تسعة عشر »[3]

حذف المفعول بعد الفعل (تذر) للدلالة على التعميم وأن سقر لا تبقى شيئا ، ولتحقيق الفاصلة وهى الراء .

كذلك حذف المفعول فى قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودَّعك ربك وما قَلَى »[4] لإيناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفى هجر الله تعالى له نفيا قاطعا يتضمن الرفق والرحمة والمحبة ، ولهذا لم يذكر الضمير وهو الكاف حتى لا يتصل بالهجر وإن كان منفيا ، ومع هذا حقق حذف الضمير موسيقى السجع .

أما الذين ذهبوا إلى أن حذف الضمير فى الآية رعاية للفاصلة كالحموى وغيره[5] فإن نظرتهم محتاجة إلى تصويب ، لأن

(١) سورة المدثر ١ — ٧

(٢) سورة طه ٦٥ — ٦٩

(٣) سورة المدثر ٢٦ — ٣٠

(٤) سورة الضحى ١ — ٣

(٥) خزانة الأدب للحموى ٥١٧

الحذف لرعاية الفاصلة وحدها يؤدى إلى إيثار اللفظ على المعنى ، وإلى التكلف فى التعبير ، وإلى الغفلة عما تقتضيه بلاغة البشر ، فما بالنا بالقرآن الكريم؟ وأما قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبَى . فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تَعْرَى . وأنك لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَى (١) » .

فقد جاء الفعل (تشقى) بدلا من تشقيان ، للدلالة على أن فى شقاء آدم شقاء لحواء ، لأن الحياة الزوجية شركة بين الزوج والزوجة ، تسعد فيها الزوجة أو تشقى بسعادة زوجها وشقائه ، ولأن الرجل هو القوام على المرأة ، وفى هذا رعاية للفاصلة أيضا .

٨ - على أن الفاصلة قد تجىء وليس لها رجحان فى المعنى ولا طغيان عليه ، مثل ما ف ياء المتكلم فى قوله تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صَرْصَرا فى يوم نحس مستمر (٢) » .

فإن الياء حذفت من (نذرى) ولا أثر لهذا فى المعنى .

ومثل حذف الياء من الاسم المنقوص المعرف فى قوله سبحانه : « ويقول الذين كفروا : لولا أُنْزِل عليه آيةٌ من ربه ، إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد . الله يعلم ما تحمل كل أُنثى ، وما تَغِيضُ الأَرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٣) » .

فقد حذفت الياء من (المتعال) وليس لحذفها أى أثر فى المعنى .

وشبيه بهذا الحذف إثبات هاء السكت فى قوله تعالى : « يومئذ تُعْرَضون لا تَخْفَى منكم خافية . فأما من أُوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤُم اقرأُوا كِتَابِيَهْ . إنى ظننت أنى ملاقٍ حسابِيَهْ . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية (٤) » . إذ جاءت كلمة (كتابيه) بدلا من كتابى ، وكلمة (حسابيه) بدلا من حسابى ، وليس فى هذا جور على المعنى .

(١) سورة طه ١١٦ - ١١٩ .
(٢) سورة القمر ١٨ - ١٩
(٣) سورة الرعد ٧ - ٩
(٤) سورة الحاقة ١٨ - ٢٣

على أن فى القرآن الكريم كثيرا من الأساليب المرسلة ، فلماذا لم ينزل مسجوعا كله ؟

أجاب ابن الأثير على هذا بقوله : « وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار ، والسجع لا يواتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب »

وهذا تعليل متهافت ، لأنه إن صدق على الأديب غير المتمكن لا يصدق على الأديب اللبق المجيد ، وإذا جاز على البشر فليس بجائز على رب البشر . وكأنما أحس ابن الأثير بضعف تعليله ، فعقب عليه بقوله : « وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع ، لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا (١) »

على أننى أزيد على هذا أن الكتاب الكريم نزل هاديا ، ومشرعا ، ومبطلا لعقائد ، ومؤسسا لعقائد ، يجادل ، ويقص ، ويعد ، وينذر ، ويبشر ، ويرغب ، ويستميل ، فلا بد أن يراوح فى عباداته بين مجمل ومفصل ، وبين مسجوع ومرسل ، مراعاة للموضوع وللمقام .

لهذا نزل منثورا ، وتصرف أسلوبه تصرفا بديعا ، فهو آنا مرسل ، وحينا مسجوع ، وطورا مزدوج أو متوازن لا تتحد فواصله ، بل تجىء من أحرف متقاربة المخارج كقوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين (٢) »

وقوله سبحانه : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما (٣) »

(١) المثل السائر ١ — ٢٧٧

(٢) سورة الحاقة ٣٨ — ٤٣

(٣) سورة الإنسان ٢٨ — ٣٠

وقوله تعالى : « كلا ، بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين[1] » على أن المزدوج قد يرد من أحرف متباعدة المخارج ، ولكن وحدة الوزن كفيلة بالترنيم والتنغيم ، مثل قوله تعالى : « والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ . فلينظر الإنسان مم خُلق ؟ خُلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر يوم تُبلَى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر »[2] . وقوله سبحانه : « قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا[3] »

(٤)

وبعد ، فقد كان للعرب نثر مرسل ، وكان لهم نثر مسجوع ، وكان لهم نثر مزدوج ، وكانوا فى فنون مقالهم نثرا وشعرا أصحاب براعة وافتنان ، فلما نزل القرآن الكريم مرسلا ومسجوعا ومزدوجا تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ودانوا ببلاغته التى لا تلحق ، وتطامنوا لروعته التى لا تجحد ، فصدقوا قول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[4] » .

احمد الحوفى

---

(١) سورة الفجر ١٧ – ١٨

(٢) سورة الطارق ١ – ١٠

(٣) سورة الجن ١ – ٦

(٤) سورة الإسراء ٨٨

دراسة تفصيلية

فى كتابة الأعلام الإغريقية والرومانية بحروف عربية

للدكتور محمد محمود السلامونى

إن كتابة الأعلام الإغريقية والرومانية وكذلك الأعلام الأجنبيــة التى وردت فى أعمــال الكتّاب الإغريق والرومان بحروف عربيـة موضوع جدير بالعناية ، ولهذا حاول بعض الأعلام المحدثين وضع قواعد تيسر على المعربين نقل أسماء الأعلام بما يقرب جرسها فى اللغة العربية من نطقها فى اللغتين اليونانية واللاتينية وتوّج هذه المحاولة مجمع اللغة العربية فى مصر ، فأصدر قرارات تضمنت القواعد التى تساعد على تحقيق هذا الغرض [1] .

ولما كانت اللجنة الموقرة التى ألفها المجمع لدراسة هذا الموضوع قد ذكرت فى تصديرها للقواعد التى وضعتها «أنها لاتقيد باحثاً مختصاً بالآداب اليونانية

(١) لقد تناول هذا الموضوع الأستاذ الجليل الفريق أمين المعلوف فى مقتطف يونيو ويوليو سنة ١٩١١ (وقد أعاد نشر هذا البحث فى مقتطف فبراير سنة ١٩٣٣) وكذلك الأســتاذ الجليل الدكتور أحمد عيسى فى كتاب التهذيب فى أصول التعريف » ، القاهرة ١٩٢٣ .

وأما مجمع اللغة العربية بمصر (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) ، فقد عنى بهذا الموضوع كذلك ، فأصدر قرارات فى « كتابة الأعلام اليونانية واللاطينية بحروف عربية » ، (انظر الدورة الرابعة ، الجلستين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين ، ص ٤٠٤ — ٤٢٦ ، ١٩٣٧) وقد نشرت هذه القرارت فى مجلة مجمع اللغة العربية (مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية) ، الجزء الرابع ، ص ٣١ — ٣٨ ، ١٩٣٩ ، خلوا من الأمثلة ثم ذكرت الأمثلة فى مكان آخر من المجلة فى ص ١٢٤ — ١٤٠ . ونشرت هذه القرارات مرة ثالثة فى مجموعة القرارات العلميــة — ٣ — بعنوان « مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاماً ، ١٩٣٢ — ١٩٦٢ » خلوا من الأمثـلة ، ص ١٠١ — ١١١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

وأضيف إلى هذا كتاب الأستاذ الجليل الأمير مصطفى الشهابى « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية فى القديم والحديث » ، باب كتابة الحروف اليونانية واللاطينية بحروف عربية — ص ١٠٦ — ١١٣ — حيث نقل قرارات المجمع الموقر ثم أضاف إليها بعض ملاحظات قيمة جديرة بالنظر ، ص ١١٣ — ١١٤ ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ولما كانت اللجنة الموقرة المؤلفة لكتابة الأعلام اليونانية والاتينية قد استعانت ببحثى الأستاذ الفريق أمين المعلوف والأستاذ الجليل الدكتور أحمد عيسى واستمدت من هذين البحثين قواعد كثيرة (انظر د ٤ ح ٣٣ ص ٤٠٦) ، فقد رأيت أن أقصر ملاحظاتى على ما ورد فى قرارات المجمع فى ص ٤٠٤ — ٤٢٦ من الدورة الرابعة (ح ٣٣ ، ٣٤) ، فهى المصدر الرئيسى لهذه القرارات .

واللاتينية ولا تمنعه من أن يتبع قواعد أخرى إن أراد التقصى فى ضبط هذه الأعلام ضبطا أدق [2] فقد تركت بهذا، مشكورة الباب مفتوحا للمختص ليدلى بدلوه فى هذا الموضوع، ولكنى أختلف معها فى فصل أعلام الآداب اليونانية واللاتينية عن أعلام العلوم المختلفة الذين ورد ذكرهم فى الترجمات العربية القديمة، ذلك أن القواعد التى تنقل على أساسها أسماء هؤلاء الأعلام ينبغى أن تكون موحدة، وهذا ما سأحاول القيام به فى هذه الدراسة المتواضعة حيث استأنس فيها بما ورد فى قرارات المجمع الموقر وأناقش بعض مضامينها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وأرجو أن يتفضل المجمع الموقر، ممثلا فى أعضائه المختصين بالصوتيات، بمناقشتى فيما أثرته من آراء تخالف ماورد فى بعض قراراته، حتى إذا وافق هؤلاء الأعضاء الأجلاء على رأى من آرائى أو صححوا رأياً واتفقت آخر الأمر وجهات النظر، صدر ملحق للقرارات السابقة، وذلك بغية توحيد طريقة النقل ليسترشد بها السادة المعربون، ومن أولى بالمجمع الموقر فى مواصلة تبنيه لهذا الموضوع وأجدر منه فى إصدار مرشد يُتوخى فيه النقل الدقيق لأصوات الحروف فى هاتين اللغتين، اليونانية واللاتينية، بقدر الإمكان. فالحاجة ملحة إلى هذا المرشد، فإن غالبية المعربين المحدثين لا يتبعون قاعدة ثابتة فيما ينقلون من أسماء الأعلام الإغريق والرومان إلى العربية، بل إن بعضهم ينقل أسماء هؤلاء الأعلام عن طريق اللغة الفرنسية مع اختلاف أصوات الحروف الجامدة [3] فى هذه اللغة عن نظائرها فى اللغتين اليونانية واللاتينية، والأمثلة على ذلك ليست بالقليلة.

منهج البحث

لما كان هدفى الإسهام فى وضع قواعد تيسر نقل الأعلام الإغريقية والرومانية إلى العربية، أرى من الضرورى أن ألقى نظرة سريعة على أسلوب القدامى

(٢) د ٤، ـ ٣٣، ص ٤٠٥

(٣) أطلق على الحروف اليونانية واللاتينية المقابلة للحروف العربية (الباء والتاء والدال والجيم إلى آخره) اسم الحروف الجامدة كما أطلق على الحروف المقابلة للحروف المعتلة فى العربية اسم اللينة، وذلك بناء على توجيه السيد الأستاذ الدكتور طه حسين الذى كان قد تفضل بمراجعة كتاب «اللغة اللاتينية» وهو من تأليفى وتأليف زميلين كريمين آخرين، القاهرة، ١٩٤٨

فى نقل الحروف اليونانية واللاتينية إلى العربية لتكون تمهيداً للطريقة التى سأتبعها فى نقل هذه الحروف أو بعضها إلى العربية ، وهذه الطريقة تعتمد أساسا على أصوات الحروف فى اللغتين المذكورتين . ولهذا ينبغى علىَّ أن أعرّف أولاً بحروف الأبجدية اليونانية ،جامدها ولينها وبأصواتها الأصلية وأعطى ما يقابلها من أصوات حروف الأبجدية العربيةأوما يكون أشد قرباً من جرسها ، إذا لم يكن فى العربية أصوات مشابهة تماماً ، وسأخصص لكل حرف تعليقاً مستقلاً أناقش فيه قاعدة المجمع الموقر المتصلة بالحرف الذى سأتناوله وسأشير إلى قاعدة المجمع بجانب كل تعليق . وستكون هذه التعليقات مرقمة ومسلسلة لسهولة الرجوع إليها . فإذا انتهيت من ذلك سقت أمثلة من أسماء الأعلام المختارة بغية التطبيق على ماتضمنته بعض التعليقات ، وحتى يكون التطبيق واضحاً سأشير أسفل الأعلام المختارة إلى التعليقات التى أرى تذكير القارئ الكريم بها . ثم أنتقل بعد ذلك إلى التعريف بحروف الأبجدية اللاتينية وأنتهج معها نفس المنهج الذى اتبعتهمع حروف الأبجدية اليونانية تماماً ثم أختتم دراستى بإبداء بعض ملاحظات عن طريقة الأقدمين فى تعريف الأعلام عن طريق أمثلة أسوقها مما عرب قديماً منها

وأفصل هذا المنهج تحت رؤوس الموضوعات الآتية :

١ـ نظرة سريعة فى أسلوب القدامى فى النقل .

٢ـ الطريقة المقترحة لكتابة الأعلام بحروف عربية .

٣ـ كتابة الأعلام الإغريقية بحروف عربية .

٤ـ كتابة الأعلام الرومانية بحروف عربية .

ملاحظة : إن ما دعانى إلى تناول الأعلام الإغريقية (٣) والرومانية (٤) كل على حدة ، هو اختلاف أصوات بعض الحروف اليونانية عنها فى اللاتينية ولأسباب أخرى سأذكرها فى مواضعها إن شاء الله .

٥ـ ملاحظات على طريقة القدامى فى النقل .

١ — نظرة سريعة فى أسلوب القدامى فى النقل

عندما بزغ فجر العصر العباسى وأخذ خلفاؤه يشجعون حركة ترجمة العلوم من لغات الأمم القديمة ومنها علوم الإغريق بخاصة ، قام المترجمون ابتداء من القرن الثامن الميلادى بترجمة هذه العلوم إلى السريانية أولاً ثم إلى العربية ثانياً ، كانت اللغتان ، اليونانية واللاتينية قد أصابهما الاضمحلال[٤] ، أما أصوات بعض حروف هاتين اللغتين ، وهى ماتعنينا فى هذه الدراسة ، فقد فقدت جرسها الأول الأصيل وأصبح لها أصوات جديدة بعيدة كل البعد عن أصواتها الأولى وكان من نتيجة ذلك أن الصورة الصوتية للأسماء الإغريقية والرومانية لم تعد نفس الصورة الأصلية التى نُطق بها من قبل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء المترجمين القدامى الذين لاينكر فضلهم فيما أنجزوه من أعمال جديرة بالتقدير العظيم ، لم يلتزموا بالقواعد الصوتية للحروف الجامدة واللينة اليونانية واللاتينية — وحتى المتأخرة منها — فى نقلهم الأعلام الإغريقية والرومانية ، ففيما يتعلق بأصوات الحروف الجامدة ، فخموا أصوات بعض الحروف ، فأحالوا ، على سبيل المثال ، صوت الحرف الذى يقابل حرف التاء فى العربية طاء . أمّا ما يقابِل صوت حرف الباء فقد جعلوه فاء على مقتضى قواعد النطق والخط السريانى ومن العجيب أن المترجمين غير السريان قد جروا على عرفهم (إلى غير ذلك مما سأناقشه فى موضعه) ، كذلك لم يعن هؤلاء النقلة بأصوات الحروف اللينة فلم يميزوا بين أصوات حروف المد واللين ولم يتنبهوا إلى وظيفة الحركات فلم يَضبطوا الأعلام عند نقلها . وهذه ظاهرة

(٤) أعنى باللغة اليونانية لهجتها النموذجية ، وهى الأتيكية ، لهجة أثينا فى عصر زعامتها الأدبية والعلمية ابتداء من القرن الخامس ق . م ، وهى ما كتبت بها أعمال الشعراء والكتاب المجيدين فى أكثر من فن ؛ وكانت تعد فى نفس الوقت أكثر اللهجات جمالا وأبدعها صقلا . أما قواعدها اللغوية — وكذلك الصوتية إلى حد ما — فاتخذت أساساً فى دراسة اللهجات الأخرى . ومثل هذا يقال عن اللغة اللاتينية فى القرن الأول ق . م فى عصرها الذهبى ، عصر الشعراء والكتاب الفحول . إلا أن هاتين اللغتين قد عانتا الكثير مع تعاقب الأجيال والقرون ، فأخذتا تفقدان مزاياهما اللغوية الأولى شيئاً فشيئاً حيث تحرر كتاب العصور المتعاقبة من قواعد اللغتين الأساسية فحرفوا بعضها وانصرفوا عن بعضها الآخر وذلك لانتشار هاتين اللغتين فى بقاع بعيدة ولأسباب أخرى ، منها محاولة كتاب ليسوا إغريق ولا رومان الكتابة باليونانية واللاتينية .

لايستطاع معها التعرف على الاسم فى لغته الأصلية (إلى غير ذلك مماسأذكره فى موضعه) ، وهم عندما فعلوا ذلك قد باعدوا بين صورة الاسم الإغريقى والرومانى وصورته فى العربية ، وماكان ينبغى لهم أن يتخطوا حدودهم فيطوعوا أصوات حروف لغة ليست بلغتهم ، ويفرضوا عليها أصواتا سريانية أو عربية لاتقابل أصوات الحروف التى ينقلونها إلى العربية . إن هذا الذى فعلوه غير مقبول علمياً طالمَا كان المقصود نقل الاسم إلى العربية وفق صورته الأصلية ولا يسعنى الآن إلاَّ أن أطالب بالحد من مبدأ «القديم على قدمه» فإن لهذا المبدأ نتائجه الخطيرة على مدى العصور خصوصاً وأن بعض الكتاب المحدثين المحاكين للقدامى قد بالغوا فى محاكاتهم لهم وأساءوا إليهم ، ولأضرب مثلا يقوم دليلاً على ما أقول : لقد ورد فى كتب العرب الأقدمين الاسم «قليوبطرة» – وهو لملكة مصر البطلمية المعروفة – وبالرغم من أن أصوات حروف الاسم الجامدة العربية لاتقابل أصوات حروفه فى اليونانية أو اللاتينية تماما ، إلا أنه يعتبر أقرب مايكون إلى صورته الأصلية إذاما قورن بالصورة التى نقلها أحد الكتاب المحدثين لهذا الاسم ، فقد نقلها « قلاو فطرة » (٥) ويبدو لى أن ما لم يكن هذا الكاتب قد أخذ بأسلوب القدامى بطريقة غير ذكيةلما تجرأ على على هذا النقل المعيب .

ومجمل القول : إن قدامى النقلة : فى رأيى مجتهدون ، قاموامشكورين بكل ما استطاعوا ولكن المجتهد قد يصيب وقد يخطئ ولن يقلل من شأنهم إعادة النظر فى أسلوبهم فى النقل والإبقاء على ما نراه صحيحاً والانصراف عمانراه لايمثل أصوات الحروف فى اللغتين المنقول عنهما ومحاولة التصحيح

(٥) انظر الأستاذ الأمير مصطفى الشهابى ، نفس الكتاب ، ص ١١٥

والآن فإن ماذكرته فى هذه النظرة السريعة – وهو قل من كثر – فى أسلوب القدامى فى النقل جعلنى أحاول طريقة أخرى فى نقل الأعلام إلى العربية أكثر دقة ، لأنها تعتمد أساساً على أصوات الحروف الجامدة واللينة فى اللغتين اليونانية واللاتينية المنقول عنهما . وهذه الأصوات هى ما أقرها معظم علماء فقه اللغة الذين قاموا بجهود جبارة فى الوصول إلى خصائص هذه الحروف وأصواتها .

ولما كانت اللغتان اليونانية واللاتينية تنتميان إلى أسرة اللغات «الهندية – الأوروبيـــة » أو « الآرية » وتنتمى العربية إلى السامية ، فلاينتظر أن تكون طبيعة اللغتين اليونانية واللاتينية من ناحية ، وطبيعة اللغة العربية من ناحية أخرى ، واحدة أو متسقة ، بل إن من المحقق أن هناك خلافاً بين بعض أصوات الحروف الجامدة واللينة اليونانية واللاتينية وبين نظائرها فى العربية ؛ أضف إلى هذا أن باليونانية واللاتينية مايسمى بالحروف اللينة المزدوجة [٦] ، وهى غير واضحة فى العربية كما يجب بالرغم مما يقال من أن العرب تصوروا « المزدوج » الذى يوجد فى لسانهم والذى لم يسموه قط [٧] ، فإن كل هذه الخلافات ستكون موضع مناقشة ، وقد أصل فى بعض الحالات إلى حل وسط ولكن ذلك لن يكون على حساب أصوات الحروف اليونانية واللاتينية لأن هذا يبعدنا كل البعد عن نطق الأسماء كما نطق بها أصحاب اللغتين .

أما الأصوات السريانية لبعض الحروف فسوف أتحاشاها وكذلك سأصرف النظر عن تفخيم بعض الحروف الجامدة التى فخّمها القدامى ون مبرر صوتى لا فى اليونانية ولا فى اللاتينية ولا فى العربية .

---

(٦) انظر حـ – الحروف اللينـــة المزدوجة اليونانية وخصائصها ، ص ١١٣ – ١١٦ ؛ حـ – الحروف اللينة المزدوجة اللاتينية وخصائصها ، ص١٣٠ – ١٣٤ .

(٧) انظر « التفكير الصوتى عند العرب فى ضوء سر صناعة الأعراب لابن جنى » للدكتور الأب هنرى فليش ، تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين ، مجلة اللغة العربية ، الجزء الثالث والعشرون ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٧٤ .

٣ – كتابة الأعلام الإغريقية بحروف عربية

١ – أصوات حروف الأبجدية اليونانية الجامدة :

تنبيه : الحرف الجامد اليونانى صوت واحد لا يتغير (فيما عدا حرف (جاماً ، γ ,Γ) انظر التعليق (٢) .

وفيما يلى بيان بهذه الحروف وما يقابلها من حروف الأبجدية العربية :

الحروف اليونانية: الصغيرة	الحروف اليونانية: الكبيرة	أسماء الحروف باللاتينية	أسماء الحروف بالعربية	الحروف العربية المقابلة	التعليق
β	B	Beta	بيتا	الباء	(١)
γ	Γ	Gamma	جاما	الجيم	(٢)
δ	Δ	Delta	دلتا	الدال	(٣)
ζ	Z	Zeta	زيتا	الزاى	(٤)
θ	Θ	Theta	ثيتا	الثاء	(٥)
κ	K	Kappa	كابا	الكاف	(٦)
λ	Λ	Lambda	لامبدا	اللام	(٧)
μ	M	Mu	مو	الميم	(٨)
ν	N	Nu	نو	النون	(٩)
ξ	Ξ	Xi	إكسي	ينطق كْس بسكون الكاف	(١٠)
π	Π	Pi	بي	(الباء)	(١١)
ϱ	P	Rho	رو	الراء	(١٢)
σ,ς	Σ	Sigma	سيجما	السين	(١٣)
τ	T	Tau	تاو	التاء	(١٤)
φ	Φ	Phi	في	الفاء	(١٥)
χ	X	Chi	خي	الخاء	(١٦)
ψ	Ψ	Psi	إبسي	ينطق بس بسكون (الباء)	(١٧)

ملاحظة : ليس فى اليونانية حرف جامد يقابل حرف الهاء فى العربية ، ولكن هناك علامة تمثل صوت هذا الحرف . انظر التنبيه الخاص بعلامة التنفيس أو الجرس الهائى ، ص ١١٦ – ١١٧

التعليقات

التعليق (١) :

فى الحرف (بيتا ، β ، B) ، لم يأت ذكره فى قواعد المجمع .

بالرغم من أن صوت هذا الحرف صار فى العصور المتأخرة مثل صوت الحرف (V) فى الإنجليزية ، إلا أن النقلة القدامى انصرفوا عن هذا الصوت لأنه غير موجود فى الأبجدية العربية ، وعلى ذلك يرسم باء خفيفة فى العربية .

التعليق (٢) :

قارن المجمع ، القاعدة التاسعة ، فى الحرف (جاما ، γ ، Γ) — د ٤ . حـ ٣٤ ، ص ٤١٦—٤١٧ .

لم أصل إلى أن الإغريق القدامى قد نطقوا هذا الحرف بمايشبه صوت حرف الغين فى العربية كما ينطق الآن فى اللغة الحديثة ، ولعله كان نطقاً دارجاً جرى على ألسنة العامة فى عصور الترجمة أو أن المترجمين قد خلطوا بين أصوات الحروف فى اللغات المختلفة التى كانوا يترجمونها . وعلى هذا أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

«يرسم هذا الحرف جيما شديدة (غيرمعطشة) »

ملاحظة : يلاحظ أن هذا الحرف يحل محل الحرف (نو ، ν ، N) ، أى ينطق نوناً فى العربية قبل الحروف الآتية (جاما γ . كابا κ ، خى ، χ ، إكسى ξ) وأقترح أن تكون هذه الملاحظة بديلا للفقرة الثانية من القاعدة .

التعليق (٣) :

قارن المجمع ، القاعدة الخامسة ، فى الحرف (ديلتا ، δ ، Δ) — د٤ . حـ ٣٤ ص ٤١٣ .

كان صوت هذا الحرف حتى القرن الرابع الميلادى يقابل فى العربية صوت حرف الدال المهملة ثم أصبح صوته يقابل صوت حرف الدال الأعجمية كما ينطق الآن فى اللغة الحديثة .

وأرى من الأفضل أن نُبقى على صوته الأول فيرسم دالاً مهملة .

التعليق (٤) :

قارن المجمع . القاعدة الثالثة والعشرون ، فى الحرف (زيتا ، ζ ، Z — د ٤ . ج ٣٤ ، ص ٤٢٦ .

إن صوت هذا الحرف لايقابل تماماً صوت حرف الزاى العربية ، فهو مركب من حرفى (الديلتاوالسيجما ، δ + σ,ς) ، ومع ذلك فالزاى العربية قريبة الشبه به ، ولهذا أقر رأى المجمع ،فى إثبات هذا الحرف زايا .

التعليق (٥) :

قارن المجمع ، القاعدة الثامنة عشرة ، فى الحرف (ثيتا ، θ ، Θ) ـ د ٤ ـ ح ٣٤ ص ٤٢٣ .

أقر رأى المجمع فى نقل هذا الحرف إلى العربية ثاء .

التعليق (٦) :

قارن المجمع ، القاعدة الثالثة ، فى الحرف (كابّا ، κ ، K) ـ د٤ ح ٣٤ . ص ٤١١ – ٤١٢ .

إن صوت هذا الحرف يقابل فى العربية حرف الكاف تماماً ولذلك لا أرى رسمه قافاً ، فهذا لايقابل صوت الحرف فى لغته الأصلية ثم إنه لايتفق مع قواعد الصوتيات العربية ، فابن جنى[8] يقول إن القاف أصل لابدل ولاداعى لقلب الكاف قافاً . ويسرنى أن بعض أعضاء اللجنة بالمجمع قدقال بهذا ولكن لم يؤخذ برأيه . ومازلت أعتقد أن القرار فى حاجة إلى مراجعة ، وأقترح على أية حال التعديل الآتى :

«يثبت هذا الحرف كافاً فى العربية»

التعليق (٧) :

فى الحرف (لامبدا ، λ ، Λ) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع

«يرسم هذا الحرف فى العربية لاماً»

التعليق (٨) :

فى الحرف (مو ، μ ، M) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع

«يرسم هذا الحرف فى العربية ميماً»

التعليق (٩) :

فى الحرف (نو ، ν ، N) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع

«يرسم هذا الحرف فى العربية نوناً»

(٨) انظر سر صناعة الإعراب لابن جنى ، الجزء الأول ، تحقيق الأساتذة : مصطفى السقا وآخرين ، طبعة سنة ١٩٥٤م ، ص ٢٧٨

التعليق (١٠) :

قارن المجمع ،القاعدة الحادية والعشرون ، فى الحرف (إكْسى ، ξ ، Ξ) — د ٤ . جـ ٣٤ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

هذا حرف جامد مركب ، يتركب من حرفى (كا پا وسيجما ، σ, ς, k) وأتفق مع المجمع الموقر فى أن يؤدى صوتِ هذا الحرف فى العربية كما ينطق . كافاً ساكنة متبوعة بحرف السين . وأيسر نقلها إلى العربية كالآتى :

١ — يرسم فى أول الاسم (إكْس) طبقاً لقاعدة الابتداء بالساكن (انظر التنبيه الخاص بالأعلام المبدوءة بالساكن ص ١١٧)

٢ — يرسم فى وسط الاسم (كْس) بسكون الكاف ؛ (أما حرف السين فيحرك وفقاً لحركة الحرف اللين التالى له) .

التعليق ١١ :

قارن المجمع ، القاعدة الرابعة عشرة ، فى الحرف (پى ، π ، Π) — د ٤ . جـ ٣٤ ص ٤٢٠ — ٤٢١ خلافا لما ورد بهذه القاعدة فى الأرقام (١ — ٣) فإن صوت هذا الحرف فى لغته الأصلية يقابل صوت باء شديدة لا فاء (فالصوت الأخير سريانى لا يونانى) وعلى ذلك أرى الاحتفاظ بصوته اليونانى دون تحفظ .

وهنا يتعين إدخال صوت الحرف باء الشديد فى العربية أسوة بما قرره المجمع الموقر بقبول صوت الحرف (V الانجليزى) ونقله فى العربية فاء بثلاث نقط[9] ، فيكتب باء أسفلها ثلاث نقط (پ) . إن الحاجة ماسة إلى هذا الحرف لأنه سيرفع اللبس بين صوت الحرفين الباء والفاء . وأسوق المثل التالى الذى يقوم دليلا على ضرورة التمييز بين الباء والفاء : انظر إلى الاسمين الآتيين Πάρος — وبالحروف اللاتينية Paros) ، (Φάρος — وبالحروف اللاتينية Pharos) فأولهما يبدأ بالحرف (پى Π) والثانى بالحرف (فى Φ) وينطقان بطريقة السريان « فاروس » مع أنهما علمين مختلفين تمام الاختلاف ، فالاسم الأول علم على جزيرة فى بحر إيجة والثانى علم على جزيرة مصرية

---

(٩) انظر د ٤ . جـ ٣٢ ، ص ٣٩٨

تجاه مدينة الإسكندرية القديمة ، وعلى هذا أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف باء شديدة (پ) وذلك فى جميع الأحوال »

التعليق (١٢) :

فى الحرف (رو ، ρ ، P) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع .

هذا الحرف منفّس فى اليونانية ، أى هائى الجرس ولكن نقله بصوته اليونانى متعذر فى العربية ، ولهذا يرسم راء كما نصت قاعدة المجمع بذلك .

التعليق (١٣) :

قارن المجمع ، القاعدة السادسة عشرة ، فى الحرف (سيجما ، ς , σ ، Σ) – د ٤ جـ ٣٤ ، ص ٤٢٢

ملاحظة : للحرف سيجما الصغير شكلان : أولهما (σ) يكتب فى أول الكلمة اليونانية وفى أى موضع آخر منها إلا نهايتها . أما الثانى (ς) فيكتب فقط فى نهاية الكلمة ، مثال ذلك : σύστασις .

أرى أن يكتفى برسم هذا الحرف سينا وصرف النظر عن حرفى الصاد والشين المعجمة ، لأن صوت الصاد والشين لا تقابلان صوت الحرف اليونانى بحال من الأحوال . ولهذا أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف سيناً فقط »

التعليق (١٤) :

قارن المجمع ، القاعدة السابعة عشرة ، [فى الحرف (تاو ، τ ، T) – د ٤ حـ ٣٤ ، ص ٤٢٣

أرى أن نقل هذا الحرف طاء فى العربية بسبب غلبة استعماله كذلك عند العرب لاستدله لغوياً وصوتياً. أضف إلى هذا أن أصحاب اللغة أنفسهم لم يعرفوا هذا الصوت فى جميع عصور اللغة ، ولهذا يجب التخلى عن هذا الصوت وأقترح تعديل القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فى العربية تاء »

التعليق (١٥) :

قارن المجمع ، القاعدة الثامنة ، فى الحرف (فى ، φ ، Φ) – د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٦

هذا الحرف منفّس فى اليونانية ، أى له جرس حرف (پى ، Π) الهائى . وهو فى حقيقة الأمر لا يقابل صوت الحرف

المركب (Ph) فى اللغات الأوروبية ولا الفاء فى العربية ، ولكن تيسيرا لنطقه اصطلح على أن يكون صوته مثل صوت (Ph) فى اللغات الأوروبية ، ولهذا يرسم فاء فى العربية .

التعليق (١٦) :

قارن المجمع ، القاعدة الرابعة ، فى الحرف (خِى ، χ ، X)ــ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٢ .

أوافق على نقل هذا الحرف اليونانى خاء فى العربية ، ولكن لما كانت القاعدة قد قرنته بالحرف اللاتينى المركب (kh، ch) ، الذى لا يقابل صوتُه صوت الخاء فى العربية لأن الأبجدية اللاتينية ليس بها مثل هذا الصوت (انظر ــ ا ــأصوات الحروف الجامدة اللاتينية ، التعليق (٢٠) الخاص بالحرف المركب (Ch) ، فإنى أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

«يرسم هذا الحرف اليونانى خاء فى التعريب » :

القاعدة (١٧) :

فى الحرف المركب (إپسى ، ψ ، Ψ) لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر .

هذا حرف جامد مركب ، يتركب من (پى ، π ، σ,ς) ، أى إپس بسكون الباء الشديدة ، وهو يرسم كالحرف المركب (إكْسى ، ξ ، Ξ) أى كما ينطق ، پاء ساكنة متبوعة بالحرف سين . وأيسّر نقلها إلى العربية كالآتى :

١ ــ يرسم فى أول الاسم (إپس) طبقا لقاعدة الابتداء بالساكن (انظر التنبيه الخاص بالأعلام المبدوءة بحرف ساكن ، ص ١١٧ ــ ١١٨) .

٢ ــ يرسم فى وسط الاسم (پس) بسكون الباء (أمّا حرف السين فيحرك وفقا لحركة الحرف اللين التالى له) .

(ب) أصوات حروف الأبجدية اليونانية اللينة :

ملاحظة : للحرف اللين اليونانى صوت واحد لايتغير ولكنه يكون ممدوداً أو مخففاً .

وهذه الحروف السبعة هى :

(ألفا ، α ، A) ، (إيپسيلون ، ε ، E) ، (إيتا ، η، H) ، (إيوتا ، ι، I) ، (وأميكرون ، o ، O) ، (أوپسيلون ، υ، Y) ، (أوميجا ، ω، Ω) ؛ وهى إما ممدودة أو مخففة على النحو الآتى :

١ ــ (H,η)، (Ω,ω) حرفا مد بطبيعتهما .

٢ ـ (E, ε) ، (O, o) حرفان مخففان (قد يكونان ممدودين فى بعض المواضع) .

٣ ـ (A, α) ، (I, ι) ، (Y, υ) إما ممدودة أو مخففة .

وفيما يلى بيان بهذه الحروف وأصواتها اليونانية مقربة بأصوات إنجليزية أو فرنسية ، أما الأصوات العربية المقابلة فستذكر فى التعليقات ؛ انظر ، (١) إلى (٧) .

الحروف اليونانية		أسماء الحروف باللاتينية	أسماء الحروف بالعربية	أصوات الحروف مقربة بأصوات إنجليزية أو فرنسية	التعليق
الصغيرة	الكبيرة				
α	A	Alpha	ألفا	الحرف الممدود : مثل صوت (a) فى كلمة (father) الإنجليزية .	(١)
ε	E	Epsilon	إبسيلون	الحرف المخفف : مثل صوت (e) فى كلمة (met) الإنجليزية .	(٢)
η	H	Eta	إيتا	الحرف الممدود : مثل صوت الحرف (a) فى كلمة (mate) الإنجليزية .	(٣)
ι	I	Iota	إيوتا	الحرف الممدود : مثل صوت الحرفين (ee) فى كلمة (feed) الإنجليزية .	(٤)
				الحرف المخفف مثل صوت (i) فى كلمة (fit) الإنجليزية .	
o	O	Omicron	أوميكرون	الحرف المخفف : مثل صوت (o) فى كلمة (not) الإنجليزية .	(٥)
υ	Y	Upsilon	أوبسيلون	الحرف الممدود : مثل صوت (u) فى كلمة (tue) الفرنسية .	(٦)
				الحرف المخفف : مثل صوت (u) فى كلمة (du pan) الفرنسية .	
ω	Ω	Omega	أوميجا	الحرف الممدود : مثل صوت الحرفين (oa) فى كلمة (broad) الإنجليزية .	(٧)

تنبيه : أصوات الحروف اللينة كما أقترحها :

إن حروف الرقمين (٢) ، (٣) وهى مخففة بطبيعتها بعامة ، قد تكون ممدودة أيضاً إذا تلا أى حرف منها حرفان جامدان أو حرف جامد مركب وفى حالات أخرى معقدة وحافلة بالاستثناءات التى لايستطيع الوقوف على أسرارها إلا مختص ، وبالرغم من أن صوت الحرف الممدود اليونانى يقابله الألف والواو والياء فى العربية بحسب صوت الحرف اللين اليونانى وبالرغم من أن صوت الحرف اليونانى المخفف يؤدى بالفتحة والضمة والكسرة ، فإن المعربين القدامى — وكذلك المحدثين — لم يعنوا بنقل أصوات هذه الحروف فى العربية كما يجب ، فإنهم أحياناً يجعلون الممدود مخففاً والمخفف ممدوداً ؛ ولهم عذرهم فى ذلك لأن التمييز بين الممدود والمخفف يتطلب دراسة صوتية متخصصة وعميقة . ثم إن هؤلاء المعربين ، قدامى ومحدثين ، فى نقلهم الأعلام إلى العربية لايعنون بالتشكيل ، كالفتحة والضمة والكسرة التى تمثل ما يقابلها من الحروف اليونانية المخففة ، الأمر الذى لايمكن القارىء من قراءة الاسم وفقاً لأصوات الحروف اللينة اليونانية ولا من الاهتداء كذلك إلى صورة الاسم الحقيقية فى لغته . كل هذا حدا بى إلى أن أعتبر جميع الحروف اللينة حروف مد . وهذا الاتجاه ، وإن كان غير دقيق صوتيا من حيث طبقة الصوت للحرف ، مدا وقصرا ، إلا أنه فى اعتقادى أفضل بكثير من الطريقة العشوائية التى اتبعها المعربون القدامى ويتبعها الآن المعربون المحدثون بجعل الممدود مخففاً والمخفف ممدوداً ، وهو كذلك أفضل من عزوفهم عن التشكيل . وأضرب مثلا يقوم دليلا على سلامة هذا الاتجاه نسبياً : فالأصل عند تعريب العلم (Αργος — وبالحروف اللاتينية Argos) أن توضع ضمة على الحرف السابق على الحرف اللين المخفف (ο) ، فاذا أهمل وضع الضمة على هذا الحرف ونقل الاسم إلى العربية (أرجس) ، فان القارىء لهذا الاسم لا يستطيع معرفة العلم ولا صورته الأصلية فى لغته ، وبالعكس إذا استعيض عن الضمة بالواو وكتب الاسم (أرجوس) لاستطاع أن يهتدى إلى الاسم المقصود والرجوع إليه فى لغته الأصلية بسهولة .

التعليقات

التعليق (١) :

قارن المجمع ، القاعدة الثانية ، فى الحرف (ألفا ، α ، Α) — د ٤ ج ٣٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

أحاول فى هذا التعليق أن أكون قريبا من أصوات الحروف اليونانية وأن أبسط عرض الحرف فى الوقت نفسه . وأرى أن ينقل إلى العربية كالآتى :

١ — يُرسم هذا الحرف فى أول الاسم همزة مفتوحة .

٢ — يُرسم فى وسط الاسم ألفاً .

٣ — يُرسم فى آخر الاسم ألفاً لينة .

٤ — يُرسم تجوزا فى آخر الاسم تاء مربوطة إذا سبقه الحرف (ι) أو المزدوجان (ει) أو الحرف الجامد (رو ، ρ ، Ρ) الذى يعتبر وسطاً بين الجامد واللين لميوعته .

التعليق (٢) :

قارن المجمع ، القاعدة السادسة ، فى الحرف (إپسيليون ، ε ، Ε) ، الرقمان

(١) ، (٢) – د ٤ ح ٣٤ ، ص ٤١٣–٤١٤

صوت هذا الحرف يشبه فى العربية الألف الممالة فى سكارى ، وأقترح أن ينقل إلى العربية كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة (وليس همزة مفترحة كما ورد فى قاعدة المجمع) .

٢ – يرسم فى وسط الاسم ياء (أوكسرة إذا عنى بالتشكيل) .

ملاحظة : إن مادعانى إلى مخالفة المجمع الموقر فى الرقمين (١) ، (٢) هو حرصى الشديد على تجنب اللبس بين صوت هذا الحرف وصوت الحرف (ألفا A ، α) – انظر التعليق رقم (١)– وأضرب مثلا يوضح حرصى هذا : إذ نقل الاسم (Eqεσos – بحروف لاتينية Ephesos) إلى العربية (أفاسوس) كما ورد فى قاعدة المجمع (١) ، أصبح صوت الحرف (ε) فى أول الاسم وفى وسطه هو صوت الحرف (α) ، وفى هذا لبس شديد . إن كتابة هذا الاسم فى العربية (إفيسوس أو إفسوس) لأقرب إلى صورة الاسم الأصلية . ولهذا أرجو أن يأخذ المجمع الموقر برأيى هذا أو يتفضل بمناقشتى فيما ذهبت إليه .

التعليق (٣) :

قارن المجمع ، القاعدة السادسة ، رقم (٣) فى الحرف (إيتا H ، η) – د ٤ ح ٣٤ ص ٤١٤ – ٤١٥

صوت هذا الحرف الممدود بطبيعته يقابل صوت الألف الممالة الممدودة فى كلمة ضحى وأقترح أن ينقل إلى العربية كالآتى :

١ – فى أول الاسم يرسم ألفاً مكسورة بعدها ياء (ذلك لأن الإمالة أن تميل بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء) .

٢ – فى وسط الاسم يرسم ياء ممدودة .

٣ – فى آخر الاسم يرسم ياء ممدودة أو ألفاً لينة .

ملاحظة : الألف اللينة هنا تقابل (الحرف α) وهو نهاية الكلمة المؤنثة المفردة فى اللهجة الدورية (ذلك أن الأسماء المؤنثة المفردة فى اللهجة الأتيكية ، إذا ما انتهت فى حالة الرفع بالحرف (η) انتهت فى اللهجة الدورية بالحرف (α) ويصح فى هذه الحالة عند التعريب أن يحل صوت الحرف (α) محل الحرف (η) وذلك لخفة الحرف الأول عن الثانى . وهذا ما حدا بالأستاذ الجليل الدكتور طه حسين إلى تعريب مأساة (Ἀντιγόνη) بالاسم (أنتيجونا) بدلا من (أنتيجونى) .

وأما ما ذكره المجمع الموقر فى رقم (٣) برسم هذا الحرف – η – بياء وتاء مربوطة (ية) أسوة بالقلة القدامى فهو لا يمثل صوت الحرف فى لغته ولا يعتمد على قاعدة صوتية عربية .. وأرى أن (أفريكا) أصح من (أفريقية) و (روما) أصح من (رومية) .

التعليق (٤) :

قارن المجمع ، القاعدة الحادية عشرة ، فى الحرف (ايوتا ι ، I) ـ د ٤ ، ﺣ ٣٤ ، ص ٤١٨ ـ ٤١٩

أقترح أن يرسم هذا الحرف كالآتى :

١ ـ يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة ، وهذا ما قال به المجمع الموقر .

٢ ـ يرسم فى أى جزء من بنية الاسم ياء (مخافة إغفال وضع الكسرة تحت الحرف الذى قبله ، إذ بالرغم من أن المجمع الموقر قد قرر أن يمثل هذا الحرف بكسرة تحت الحرف الذى قبله ، فإنى لم أر أثرا لهذه الكسرة فى الأمثلة التى صاحبت القاعدة ، وهذا ما يجعلنى أتمسك مضطرا باتجاهى فى هذا الصدد) .

التعليق (٥) :

قارن المجمع ـ القاعدة الثالثة عشرة فى الحرف (أوميكرون ο ، O) ـ د ٤ ﺣ ٣٤ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠

خشية إهمال وضع حركات التشكيل ، أخالف المجمع الموقر فى رقم (١) ، (٢) الذى صحبته أسماء لم يظهر فيها أى أثر للحركات التى تنص القاعدة عليها .

وأقترح أن يكون صوته كالآتى :

١ ـ يرسم فى أول الاسم همزة مضمومة فقط أو بعدها واو .

٢ ـ يرسم فى أى جزء من بنية الاسم واوا .

وأود أن يأخذ المجمع الموقر برأيى ويتنازل عما ذكره فى رقم (١) ،(٢) من القاعدة لأنه لا يمثل قاعدة صوتية يونانية .

وأقترح حذف ما ذكر فى رقم (٣) لأن الكلام هنا عن حرف (أوميكرون) لا الحرف (أوميجا) وسوف أناقش هذا عند الكلام عن صوت الحرف (أوميجا) الذى لم يعالج هنا بطريقة علمية انظر التعليق (٧) ، ملاحظة .

التعليق (٦) :

قارن المجمع ، القاعدة الثانية والعشرون ، فى الحرف (أوبسيلون υ ، Y) ـ د ٤ ، ﺣ ٣٤ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦

ليس لصوت هذا الحرف شبيه فى اللغة العربية إذ أن صوته واو مائلة إلى الياء ،

وهذا ما حدا بالمعربين القدامى إلى نقله إلى العربية واوا حينا وياء حينا آخر . وعلى هذا يمكن رسم هذاالحرف تجوزا واوا أو ياء . ويكون صوته كالآتى :

١ – يرسم هذا الحرف فى أول الاسم «هُو» وذلك لأنه بطبيعته هائى الجرس فى أول الكلمة (انظر التنبيه الخاص بعلامة التنفيس أو الجرس الهائى ، ص١١٦–١١٧)

٢ – يرسم فى أى جزء من بنية الاسم واوا أو ياء .

ملاحظة : لكى يكون نطق العلم مستساغاً فى العربية أقترح أن يرسم هذا الحرف ياء فقط إذا كان فى بنية الاسم صوت أو أكثر يقابل حرف الواو . مثال ذلك الاسم (Λικομήδης) فكتابة هذا الاسم بالعربية (ليكوميديس) أخف فى النطق من (لوكوميدس) .

التعليق (٧) :

قارن المجمع ، القاعدة الثالثة عشرة ، فى الحرف (أوميجا Ω، ω) ، رقم (٣) – د ٤ . حـ ٣٤ ، ص ٤٢٠

ليس لهذا الحرف الممدود بطبيعته صوت مقابل فى اللغة العربية ، إلا أنه يمكن القول بأن صوته قريب من صوت الواو المائلة إلى الألف فى كلمة (عون ، النطق الدارج للفظ العربى عوْن) . ويرسم هذا الحرف فى العربية كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مضمومة ممدودة (مائلة إلى الألف) أو همزة مضمومة بعدها واو وذلك للتيسير .

٢ – يرسم فى أى جزء من بنية الاسم واوا (مائلة إلى الألف) .

ملاحظة : لاحظت أن صياغة ماورد فى رقم (٣) – وهو عن هذا الحرف – غير واضحة ومضطربة فى نفس الوقت . وأغلب الظن أنه وقع فيها بعض الأخطاء المطبعية ، ذلك لأنه من المستحيل أن يرسم هذا الحرف واواً ونوناً إلا إذا كان حرف (ν) أحد حروف الاسم ، وأذكر على سبيل المثال الاسم (Σαπφω) فهو ينطق (سافو) لا سفون (كما ورد فى الأمثلة المصاحبة لهذه القاعدة ، فمن أين أتت هذه النون التى لا وجود لها فى بنية الاسم ؛ انظر ، ١ – أصوات الحروف اللاتينية اللينة ، التعليق – ٤ – ، فما ذكرته هناك يعتبر تصحيحاً لما ورد فى هذه القاعدة .

ج – أصوات الحروف اللينة المزدوجة اليونانية :

ملاحظة : المزدوج هو وحدة صوتية تتألف من حرفين لينين معينين ويشترط عند النطق بها أن يحس كلا الحرفين المكونين لها على أن يكون ذلك مختلساً ، وقد ظل صوت المزدوج ممدوداً فى عصور اللغة المختلفة .

والحروف اللينة المزدوجة هى : αι ، αυ ، ει ، οι ، ευ ، ου ، . أما جرسها اليونانى فسأحاول تقريبه بأصوات إنجليزية أو فرنسية ، وسوف أذكر الأصوات العربية المقابلة فى التعليقات ، انظر ، (١) – (٦) .

تنبيه : لقد اعترى بعض أصوات هذه الحروف التغيير والتحريف عبر الأجيال والقرون ، فأخذت تنحرف عن أصواتها الأولى الأصيلة التى كانت تمثل صوت المزدوج كأحسن ما يكون التمثيل فأصبح صوت المزدوج (αι ، ει) يقابل صوت الحرف (ε الممدود) وصار صوت المزدوجين (οι ، ου) يقابل صوت الحرف (υ الممدود) ومما لاريب فيه أن عدم التمييز بين أصوات المزدوجين (αι ، ει) ثم بين المزدوجين (οι ، ου) كما رأينا يسبب لبساً شديداً للمعرب ولا يساعده على الوصول إلى الاسم المعرب فى لغته . لقد اكتفى المجمع الموقر فى قراراته بوضع قواعد عن المزدوجين (ει) (١٠) ، (αι) (١١) ولم يتعرض لأصوات الحروف المزدوجة الأخرى التى ذكرتها ، ولو أنه فعل لوقف على هذه الظاهرة المؤسفة . وأغلب الظن أنه لم يتناولها بالبحث لأن أصوات هذه الحروف المزدوجة اليونانية ليس لها نظائر فى العربية فيما عدا صوت المزدوج المكون من الهمزة أو الألف المفتوحة بعدها ياء ساكنة مثل (أى) وهى تقابل فى اليونانية المزدوج (αι) والمزدوج المكون من الألف المفتوحة بعدها واو ساكنة مثل (أو) وهى تقابل فى اليونانية المزدوج (αυ) وقد توافق صوتا هذين المزدوجين فى العربية وفى اليونانية كما سنرى على أساس أن مجىء الياء أو الواو بعد الفتحة أمر ممكن (١٢) .

وبالنسبة لأصوات المزدوج الأصلية والمتأخرة ، فأرانى أجنح إلى التمسك بالأصوات القديمة الأصلية لأنها وحدها التى تساعد على النطق الصحيح للأعلام كما نطقها أصحاب الأعلام أنفسهم ، ومع ذلك سأعرض تعليقاً فى الأصوات الأصلية والمتأخرة ، وأناقش ما أراه جديراً بالمناقشة وأترك للمعرب تخير ما يحلو له من هذه الأصوات ، أصلية كانت أو متأخرة .

ولأول مرة سأذكر بعض الأعلام فى صورتها اليونانية وأنقلها إلى العربية ، بعد أن انتهيت من الكلام عن الحروف اليونانية ، جامدة ولينة

وفيما يلى بيان بهذه الحروف .

المزدوج	صوته الأصلى مقربا بأصوات إنجليزية	صوته المتأخر	التعليق
αι	مثل صوت الحرف (i) فى كلمة (idle) الإنجليزية .	تغير صوته فى القرن الثانى الميلادى إلى صوت الحرف (e) الممدود	(١)
αυ	مثل صوت الحرفين (ou) فى كلمة (house) الإنجليزية .	احتفظ بصوته الأصيل	(٢)
ει	مثل صوت الحرفين (ee) فى كلمة « meet » الإنجليزية أو صوت الحرفين (ey) فى كلمة (grey) الإنجليزية .	تغير صوته إلى صوت الحرف (e الممدود) أو صوت الحرف (ı الممدود) فى القرن الأول ق . م	(٣)
ευ	مثل صوت الحرفين (ew) فى كلمة (new) الإنجليزية .	احتفظ بصوته الأصيل	(٤)
οι	مثل صوت الحرفين (oi) فى كلمة (boil) الإنجليزية .	تغير صوته إلى صوت الحرف (u الممدود) فى القرن الثالث الميلادى	(٥)
ου	مثل صوت الحرفين (oo) فى كلمة (moon) الإنجليزية أو صوت الحرفين (ou) فى كلمة (youth) الإنجليزية .	تغير صوته إلى صوت الحرف (u الممدود) ، عام ١٥٠ ق.م	(٦)

(١٠) انظر القاعدة الثانية ، د ٤ ، ح ٣٣ ، ص ٤٠٩ — ٤١٠

(١١) انظر القاعدة السابعة د ٤ ، ح ٣٤ ، ص ٤١٥ — ٤١٦

(١٢) انظر ص ٧٦ من بحث « التفكير الصوتى عند العرب فى ضوء سر صناعة الإعراب لابن جنى » انظر كذلك الحاشية رقم (٧) .

التعليقات

التعليق (١) :

قارن قرار المجمع . القاعدة الثانية فى المزدوج (αι) رقم (١) – د ٤ ، حـ ٣٣، ص ٤٠٩ – ٤١٠ .

يُرسم هذا المزدوج كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة ممدودة مفتوحة بعدها ياء ساكنه ، وهذا ممكن فى العربية (وليس همزة مكسورة كما ورد فى قاعدة المجمع) ؛ مثال ذلك :

آيْسوپوس Αἴσωπος

٢ – يرسم فى أى جزء من بنية الاسم ألفاً بعدها ياء (الصوت الأصلى) أو ياء مكسورة (الصوت المتأخر) ، مثال ذلك

أريستايوس (الصوت الأصلى) ، أريستيوس (الصوت المتأخر) Ἀρισταῖος

التعليق (٢) :

فى المزدوج (αυ) ؛ لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر . صوت هذا المزدوج الذى احتفظ بصوته الأصلى كالآتى :

١ – يرسم هذا الحرف فى أول الاسم همزة ممدودة مفتوحة بعدها واو ساكنة وهذا ممكن فى العربية . مثال ذلك :

آوْليس Αὖλις

٢ – يرسم فى وسط الاسم ألفاً بعدها واو ، مثال ذلك :

تاوْروس Ταῦρος

التعليق (٣) :

فى المزدوج (ει) ؛ لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر ، وصوته كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة بعدها ياء مكسورة (الصوت المتأخر) مثال ذلك :

إيراس Εἰράς

٢ – يرسم فى وسط الاسم ياء مكسورة (الصوت المتأخر) ، مثال ذلك :

بوسيدون Ποσειδῶν

التعليق(٤) :

قارن المجمع القاعدة السابعة في المزدوج (ευ) – د٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٥ – ٤١٦. وصوت هذا المزدوج كالآتي :

١ – يرسم هذا الحرف في أول الاسم همزه مكسورة بعدها ياء مضمومة أو يرسم ياء مضمومة بعدها واو (أمّا ما أقره المجمع برسمها همزة مضمومة بعدها واو ففيه لبس يأتي من عدم التمييز بين صوت هذا المزدوج وبين صوت الحرف (أوميجا ω) ، مثال ذلك :

إيوكليديس أو يوكليديس (إقليدس) Εὐκλείδης

٢ – يرسم في وسط الاسم ياء مضمومة بعدها واو ، مثال ذلك :

تيُوكروس Τεῦκρος

التعليق (٥) :

في المزدوج (οι) ، لم يأت ذكره في قرارات المجمع الموقر ، وصوته

١ – يرسم هذا المزدوج في أول الاسم همزة مضمومة بعدها ياء ساكنة (الصوت الأصلي) ، أو يرسم ألفاً مضمومة بعدها واو (الصوت المتأخر) ، مثال ذلك :

أيْنُوني (أيْنونا) (الصوت الأصلي) ، أونوني (أونونا) (الصوت المتأخر) ، Οἰνώνη

٢ – يرسم في وسط الاسم واوا بعدها ياء ساكنة (الصوت الأصلي) أو واوا (الصوت المتأخر) مثال ذلك :

فويْنيكس (الصوت الأصلي) ، فونيكس (الصوت المتأخر) Φοῖνιξ

ملاحظة : يلاحظ أن صوت هذا المزدوج أصبح مثل صوت الحرف اللين (ι) في عصور متأخرة ولكني لا أستطيع الأخذ بهذا الصوت لأن أحداً من المعربين سوف لا يلتفت إليه عند التعريب ، ثم إنه صوت مفتعل .

التعليق (٦) :

في المزدوج (ου) ، لم يأت ذكره في قرارات المجمع الموقر .

إن صوت هذا المزدوج يتفق في صوته الأصلي والمتأخر مع صوت الواو في العربية ، صوته كالآتي :

١ – يرسم في أول الاسم همزة مضمومة بعدها واو ، مثال ذلك :

أورانوس Οὐρανς

٢ – يرسم في وسط الاسم واوا ممدودة .

بوسيريس . Βούσιρις

تنبيه : علامة التنفيس أو الجرس الهائي :
ليس في الأبجدية اليونانية حرف يقابل حرف الهاء في العربية ، ولكن هناك علامة تشبه القوس الصغير المفتوح من الجهة اليمنى توضع عن يسار الحرف اللين

الأول من الاسم مثل (Ἁ) وعلى الحرف الثانى من المزدوج ، مثل (Αἱ) لتكسب الحرف اللين أو المزدوج صوتاً هائياً . وبهذا ينطق الحرف (Ἁ) على سبيل المثال (ها) ، وينطق المزدوج (Αἱ) (هاى) . وهذه العلامة إذا إن صاحبت الحروف اللينة والمزدوجة التى يبدأ بها الاسم وكذلك الحرف الجامد (رو ، ρ ، Ρ) أكسبته جرساً هائياً ، مثال ذلك :

هالوس	Ἅλος
هيكتور	Ἕκτωρ
هيراكليس (هرقل)	Ἡρακλῆς
هوميروس	Ὅμηρος
هوروس (حورس)	Ὧρος
رودوپى (رودوپا)	Ῥοδόπη

(يلاحظ أن حرف (Ρ) لم يظهر معه الجرس الهائى فى التعريب ، وذلك لصعوبة النطق به فى العربية .)

هايمون (الصوت الأصلى) ، هيمون (الصوت المتأخر) . Αἵμων

ملاحظة : الحرفان (أوپسيلون υ ، رو Ρ) هما الوحيدان اللذان تصاحبهما علامة التنفيس دائماً ، وأما الحروف الأخرى فقد تكون هائية الصوت كما رأينا أو لا تكون ، مثال ذلك :

أكاديميا ، أكاديمية . Ἀκαδημεία

تنبيه : الابتداء بالساكن :

قارن المجمع ، القاعدة الأولى — د٤ ، حـ ٣٣ ، ص ٤٠٧ — ٤٠٨

إذا استحال النطق بالمبدوء بالساكن فى العربية ، فالأمر غير كذلك فى اليونانية ، وعلى ذلك إن طبقت قاعدة الابتداء بالساكن على الأعلام الإغريقية فسوف تكون صورة هذه الأعلام فى العربية مختلفة عن صورتها فى اليونانية ومادام بعض المعربين العرب لم يأخذوا بهذه القاعدة ، فأرى أن يرسم طبقاً للقاعدة العربية فى حالة واحدة فقط ، وهى رقم (١) وفيما عدا هذا يُتبع أسلوب صوتى آخر فى رقمى (٢) ، (٣) كالآتى :

١ — تزاد همزة مكسورة فى أول الاسم إذا كان أول حرف لين فيه هو (ε) أو (ι) أو (η) ، مثال ذلك :

إفريكسوس	Φρίξος
إكسيركيس	Ξέρξης

٢ — تزاد همزة مفتوحة فى أول الاسم ، إذا كان الحرف اللين الأول منه حرف (α) ، مثال ذلك :

أپلاتون (أفلاطون) Πλάτων

٣ — يضم الحرف الأول من الاسم إن كان الحرف اللين الأول منه هو حرف (ο أو υ أو ου أو ω)، مثال ذلك :

بُروميثيوس	Προμηθεύς
أُسيخا	Ψύχη

بُلوتارخوس Πλούταρχος

بروتاجوراس Πρωταγόρας

تنبيه : نطق الحروف المشددة (المضعفة) فى الاسم : ينطق الحرفان الجامدان اللذان من ، نوع واحد مثل (μμ ، λλ ،) فى العربية حرفاً واحدا مشدداً ، مثال ذلك :

كالّيماخوس Καλλίμαχος

ليسّوس Λισσός

نماذج من الأعلام للتطبيق على التعليقات[13]

أرخيميديس (أرشيمدس) Ἀρχιμήδης

(انظر (ا – أصوات الحروف الجامدة : التعليق – ١٦ –) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٣ –)

أفروديتى ، أفروديتا . Ἀφροδιτη

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٣ – ، رقم – ٣ –)

أندروميد Ἀνδρομέδα

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٣ –)

أنخيسيس Ἀγχίσης

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٢ – ملاحظة)

أبراسيداس Βρασίδας

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ٢ – ، ص ١١٧)

جورجياس Γοργίας

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٢ –)

جورجو Γοργώ

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، تعليق – ٧ – ، ملاحظة)

ديونيسوس Διόνυσος

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٣ –) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٦ – ، رقم – ٢ –)

إيندوميون Ἐνδυμίων

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – رقم – ١ – ٢)

هيلوس Ἕλος

انظر (التنبيه الخاص بعلامة التنفيس أو الجرس الهائى ، ص ١١٦)

زينون Ζήνων

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٤ –) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٧ –)

إيليكترا ، إيليكتره Ἠλέκτρα

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٣ – ، رقم – ١ –) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٤ –)

(١٣) عن المزدوج ، انظر : حـ – أصوات الحروف اللينة المزدوجة والتعليق على كل مزدوج منها .

ثيسّاليا ، ثيسّالية Θεσσαλία

انظر (التنبيه الخاص بالحروف المشددة فى الاسم ، ص ١١٨) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٤ –)

إيونيا ، إيونية Ἰωνία

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٤ –)

كادموس Κάδμος

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة التعليق – ٦ – ، – ٤ –)

إكليوپاترا ، كليوپاترا ، كليوپاترة . Κλεοπάτρα

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٤ –)

ليبيا Λιβύη

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٦ – رقم – ٢ –)

ماراثون Μαραθῶν

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٨ –)

ميديا ، ميديّة Μήδεια

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٣ ، ٤ –)

ناكسوس : Νάξος

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٩ – ، – ١٠ –)

إكسينوفون Ξενοφῶν

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ١ – ، ص ١١٧)

أوسيريس (أزيريس) Ὄσιρις

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٥ –)

بيثاجوراس (فيثاغورس) Πυθαγόρας

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١١ –)

رودوس (رودس) Ῥόδος

انظر (التنبيه الخاص بعلامة التنفيس أو الجرس الهائى ولاحظ تعذر نطق الراء المنفسة فى العربية)

إستيسيخوروس Στησίχορος

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ١ – ، ص ١١٧)

تيموكراتيس Τιμοκράτης

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٤ –)

إفريجيا ، فريجيا ، فريجية Φρυγία

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق ، – ١٠ –)

فيليپوس (فليب) Φίλιππος

انظر (التنبيه الخاص بالحروف المشددة فى الاسم ص ١١٨)

خيمَايْرا ، خيمايرة ، خيميرا ، خيميرة ، (الصوت الأصلى والأخير) Χίμαιρα

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٦ –) ، (ﺤ – أصوات الحروف اللينة المزدوجة – التعليق ، – ١ –)

أوريون Ὠρίων

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٧ – ، رقم – ١ – ، – ٢ –)

٤ ـــ كتابة الاعلام الرومانية بحروف عربية

(ا) أصوات حروف الأبجدية اللاتينية الجامدة :

ملاحظة : أسماء الحروف اللاتينية ، جامدها و لينها هى تقريباً الأسماء التى تطلق على حروف اللغة الإنجليزية .

تنبيه : للحرف الجامد اللاتينى صوت واحد لايتغير مطلقاً .

وفيما يلى بيان بهذه الحروف وما يقابلها من حروف الأبجديه العربية :

الحروف الجامدة: الصغير	الحروف الجامدة: الكبير	الحروف العربية المقابلة والأصوات المقترحة	التعليق
b	B	الباء	(١)
c	C	الكاف	(٢)
d	D	الدال	(٣)
f	F	الفاء	(٤)
g	G	الجيم (غير المعطشة)	(٥)
h	H	الهاء	(٦)
i,j	I,J	(الياء)	(٧)
k)	(K	(الكاف)	(٨)
l	L	اللام	(٩)
m	M	الميم	(١٠)
n	N	النون	(١١)
p	P	(الباء)	(١٢)
q	Q	الكاف	(١٣)
r	R	الراء	(١٤)
s	S	السين	(١٥)
t	T	التاء	(١٦)
u(v)	V	واو أو فاء بثلاث نقط	(١٧)
x	X	تنطق كس بسكون الكاف	(١٨)
z	Z	الزاى	(١٩)
الحروف المركبة			
ch	Ch	الكاف	(٢٠)
ph	Ph	الفاء	(٢١)
th	Th	الثاء	(٢٢)

التعليقات

التعليق (١) :

الحرف (B, b) لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر . وصوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف باء فى العربية »

التعليق (٢) :

قارن المجمع ، القاعدة الثالثة ، فى الحرف (C, c) — د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١١ — ٤١٢

ملاحظة : كان هذا الحرف ينطق فى العصور الأولى للغة كحرف (G) جيما غير معطشة ، يشهد بذلك أن اختصار بعض الأعلام التى تبدأ بالحرف (G) كان يمثله الحرف (C) مثل (Gaius) . وأصبح هذا الحرف ينطق كحرف (K) ، أى كافا وعند هذا اختفى الحرف الأخير من الاستعمال فيما عدا بضع أعلام احتفظت فى بنيتها بهذا الحرف مثل (Kaeso) .

صوت هذا الحرف يقابل فى العربية حرف الكاف ولا أجد مبررًا صوتياً يسمح بقلب الكاف قافاً ، لأن أصحاب اللغة لم ينطقوه كذلك ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن ابن جنى يقول إن القاف أصلا لا بدلاً ويقول كذلك بأنه ليس هناك داع لقلب الكاف قافاً ، (١٤) فإذا كان قلب الكاف قافاً معترضاً عليه فى العربية ، فهل يفرض على لغة أخرى ، لهذا أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف كافاً فى العربية »

التعليق (٣) :

قارن المجمع القاعدة الخامسة ، فى الحرف (D,d) — د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٣ .

صوت هذا الحرف لا يقابل دالاً معجمة ، فإن صح هذا تجوزا على الحرف (Δ, δ) اليونانى فلا يصح على هذا الحرف بالمرة ، وعلى ذلك أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف دالا مهملة »

التعليق (٤) :

قارن المجمع ، القاعدة الثامنة ، فى الحرف (F, f) — د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٦ .

---

(١٤) انظر « سر صناعة الاعراب » ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧٨ . انظر كذلك الحاشية (٨) .

صوت هذا الحرف يقابله فى العربية حرف الفاء ، وهو وقف على اللاتينية دون اليونانية ، ويرسم هذا الحرف كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فاء فى العربية » .

التعليق (٥) :

قارن المجمع ، القاعدة التاسعة ، فى الحرف (G,g) — د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٦ — ٤١٧ .

صوت هذا الحرف حتى القرن السادس الميلادى يقابل صوت الجيم العربية غير المعطشة ، وليس هناك دليل على أنه نطق غنيا بالمرة ، وعلى هذا أقترح تعديل هذه القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف جيماً غير معطشة »

التعليق (٦) :

قارن المجمع ، القاعدة العاشرة ، فى الحرف (H,h) — د ٤ حـ ٣٤ ، ص ٤١٧ — ٤١٨ .

صوت هذا الحرف كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فى العربية هاء »

التعليق (٧) :

قارن المجمع ، القاعدة الثانية عشرة فى الحرف (J,j) — د ٤ ، ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٩ .

ملاحظة : الحرف (I,i) ، أحد الحروف اللينة ، هو أيضاً حرف جامد (أو نصف جامد كما يسميه النحاة المحدثون) . وهذا الحرف يكون جامداً إذا سبقه حرف لين أو تلاه آخر . وينطق ياء مثل (iam) وينطق (يام) ، (eius) وتنطق (إيوس) . وللتمييز بين الحرف (i) اللين والجامد روئى فى عصور متأخرة أن يمثل الحرف (J) — وهوليس أحد حروف الأبجدية اللاتينية — الحرف (I,i الجامد) على أن ينطق ياء مثل (jam) فهى تنطق (يام) كما لو كانت قد كتبت (iam) .

وبالنسبة للأعلام الرومانية ، أرى أن يكون صوت الحرف (J) مقابلا لصوت الحرف جيم (المعطشة) وذلك لسهولة الرجوع إلى الأعلام المبدوءة بهذا الحرف فى المعاجم الكبرى التى خصصت له باباً خاصاً به . ولكن لا مانع من نطقه ياء أيضاً . ولهذا أود أن يقرنى المجمع الموقر على التعديل الآتى :

« يرسم الحرف (J) الممثل للحرف (I , i الجامد) جيماً معطشة إذا بدأ به علم من الأعلام الرومانية فقط ولا مانع من رسمه ياء أيضاً » .

التعليق (٨) :

قارن المجمع ، القاعدة الثالثة فى الحرف (K, k) ـ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١١

لقد أهمل استعمال هذا الحرف وحل محله الحرف (C, c) ؛ انظر التعليق ـ ٢ ـ ، ملاحظة .

التعليق (٩) :

فى الحرف (L, l) ؛ لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر ، وصوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فى العربية لاماً »

التعليق (١٠) :

فى الحرف (M,m) ؛ لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر ، وصوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فى العربية ميماً » .

التعليق (١١) :

فى الحرف (N, n) ؛ لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر ، وصوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فى العربية نوناً »

التعليق (١٢) :

قارن المجمع ، القاعدة الرابعة عشرة ، فى الحرف (P, p) ـ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

صوت هذا الحرف يقابل صوت الباء لا الفاء فى العربية وذلك فى جميع الأحوال والمواضع ؛ انظر ما ذكرته عن حرف (پى اليونانى) ـ (أ ـ أصوات الحروف الجامدة اليونانية ، التعليق ـ ١١ ـ) ، وأود أن يوافق المجمع على تعديل القاعدة كالآتى :

« يرسم هذا الحرف باءً شديدة (أى باءً تحتها ثلاث نقط) » .

التعليق (١٣) :

قارن المجمع ، القاعدة الخامسة عشرة ، فى الحرف (Q, q) ـ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

ملاحظة : يتبع هذا الحرف دائماً بالحرف اللين (U) ويعتبران حرفاً واحداً .

صوت هذا الحرف يقابل صوت الحرف (C) تماماً ، أى يرسم كافاً لا قافاً (انظر ، أ ـ أصوات الحروف الجامدة اللاتينية ،

التعليق ٢ –) ، ولهذا أقترح أن تعدل القاعدة كالآتى :

«يرسم هذا الحرف فى العربية كافاً شأنه فى ذلك شأن الحرف (C) .

التعليق (١٤) :

فى الحرف (R , r) ؛ لم يأت ذكر فى قرارات المجمع الموقر فصوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف فى العربية راء» .

التعليق (١٥) :

قارن المجمع ، القاعدة السادسة عشرة ، فى الحرف (S , s) – د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٢ .

يقابل هذا الحرف السين العربية ولا علاقة له البتة بصوت الصاد أو الشين المعجمة كما كتبه بعض النقلة القدامى ، ولهذا أقترح أن تعدل القاعدة كالآتى :

«يرسم هذا الحرف سيناً فقط»

التعليق (١٦) :

قارن المجمع ، القاعدة السابعة عشرة ، فى الحرف T , t) – د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٣

هذا الحرف يقابل التاء لا الطاء فى العربية (انظر أ – أصوات الحروف الجامدة اليونانية ، القاعدة – ١٤ –) ولهذا أقترح أن تعدل القاعدة كالآتى :

«يرسم الحرف فى العربية تاء فقط »

القاعدة (١٧) :

قارن المجمع ، القاعدة العشرون ، فى صوت الحرف (V , u) – د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٤ .

ملاحظة : الشكل (V) فى اللغة اللاتينية يمثل الحرف الكبير للحرف الصغير (u) ، أى أنه لايمثل الحرف (V , v) ، أحد حروف الأبجدية الإنجليزية مثلا .

وهذا الحرف ، وإن كان أحد الحروف اللينة ، إلا أنه حرف جامد كذلك (أو نصف جامد كما يسميه النحاة المحدثون) . ويكون هذا الحرف جامداً إذا تلاه حرف لين وينطق واواً ، مثل (Venio,uenio) وتنطق فى العربية (وينيو) . والتمييز بين صوتى الحرف (V, u) اللين والجامد روى فى عصور متأخرة أن يمثل الحرف (V, v) – وهو ليس أحد حروف الأبجدية اللاتينية – الحرف (V, u) الجامد على أن ينطق واواً أو فاء بثلاث نقط وذلك للتيسير ، وعلى هذا تكتب الكلمة المذكورة (Venio, venio) وتنطق (وينيو أو ڤنيو) . ويسرنى أن المجمع الموقر قد قبل صوت الحرف (V – ڤ) وأوصى برسمه فاء بثلاث نقط (١٥) .

---

(١٥) انظر : د ٤ ، حـ ٣٢ ، ص ٣٩٨

وبالنسبة للأعلام الرومانية ، أرى أن يكون صوت الحرف (V,v = V, u) مقابلاً لصوت الحرف (V ـ ف) ، وذلك لسهولة الرجوع إلى الأعلام المبدوءة بهذا الحرف فى المعاجم الكبرى . ولكن لا مانع من نطقه واوًا أيضاً ولهذا أود أن يقرنى المجمع الموقر على التعديل الآتى :

١ ـ يرسم الحرف (V) الجامد الكبير فى أول الاسم فاء بثلاث نقط أو واوا .

٢ ـ يرسم الحرف (v) الجامد الصغير وسط الاسم فاء بثلاث نقط .

التعليق (١٨) :

قارن المجمع ، القاعدة الحادية والعشرون ، فى الحرف (X , x) ـ د ٤ حـ ٣٤ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

هذا الحرف مركب ، يتركب من (S , c) وينطق «كْس» بسكون الكاف ، وصوته كالآتى :

١ ـ يرسم فى أول الاسم (إكْس) طبقاً للتنبيه الخاص بالابتداء بالساكن ، انظر ص ١٣٣ ـ ١٣٤) .

٢ ـ يرسم فى وسط الاسم (كْس) بسكون الكاف ، أما حرف السين فيحرك وفقاً لحركة الحرف اللين التالى له .

التعليق (١٩) :

قارن المجمع ، القاعدة الثالثة والعشرون ، فى الحرف (Z , z) ـ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٦ .

هذا الحرف من الحروف الأبجدية اليونانية التى دخلت الأبجدية اللاتينية (انظر ، أ ـ أصوات الحروف الجامدة اليونانية ، التعليق ـ٤ـ) وهو يقابل فى العربية زايا .

التعليق (٢٠) :

قارن المجمع القاعدة الرابعة فى الحرف المركب (Ch, ch) ـ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤١٢

هذا حرف مركب ، يتركب من حرفى (h, c) وصوته فى اللاتينية كاف منفَّسَة ذات جرس هائى . وأقرب صوت له فى العربية هو صوت الكاف لا الخاء ،

لأن صوت الخاء ليس صوتاً لاتينيا ، وعلى هذا أقترح تعديل القاعدة كالآتى :

١ - يرسم فى الأعلام الرومانية كافاً .

٢ - قد يرسم فى الأعلام الإغريقية المكتوبة بحروف لاتينية خاءً ، وذلك للاحتفاظ بالصورة الصوتية للعلم الإغريقى.

التعليق (٢١) :

فى الحرف المركب (Ph, ph) ؛ لم يأت ذكره فى قرارات المجمع .

هذا الحرف مركب ، يتركب من (p ، h) وصوته فى لغتة صوت الباء المنفّسة أو الباء ذات الجرس الهائى . وأقرب صوت له فى العربية هو صوت الفاء ، وعلى هذا أقترح أن يكون صوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف المركب فاءً فى العربية »

التعليق (٢٢) :

قارن المجمع القاعدة ، الثامنة عشرة ، فى الحرف المركب (Th, th) ـ د ٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٣ .

هذا الحرف مركب ، يتركب من (t ، h) وصوته فى لغته هو صوت التاء المنفّسة أو التاء ذات الجرس الهائى . وأقرب صوت له فى العربية هو صوت الثاء ، وعلى ذلك أقترح أن يكون صوته كالآتى :

« يرسم هذا الحرف المركب ثاءً فى العربية »

(ب) أصوات حروف الأبجدية اللاتينية اللينة :

ملاحظة : الحرف اللين اللاتينى صوت واحد لايتغير ولكنه يكون ممدوداً أو مخففاً .

وهذه الحروف الستة هى :

y, u, o, i, e, a

وفيما يلى بيان بهذه الحروف وأصواتها اللاتينية مقربة بأصوات إنجليزية أو فرنسية . أما الأصوات العربية المقابلة فستذكر فى التعليقات ، انظر (١) ـ (٦)

الحروف اللينة		أصواتها اللاتينية مقربة بأصوات إنجليزية أو فرنسية	التعليق
الصغيرة	الكبيرة		
a	A	الممدود : مثل صوت الحرف (a) الثانى فى كلمة (Papa) الإنجليزية . المخفف : مثل صوت الحرف (a) الأول فى كلمة (Papa) الإنجليزية .	(١)
e	E	الممدود : مثل صوت الحرفين (e e) فى كلمة (feet) الإنجليزية . المخفف : مثل صوت الحرف (e) فى كلمة (net) الإنجليزية .	(٢)
i	I	الممدود مثل صوت الحرف (i) فى كلمة (caprice) الإنجليزية . المخفف : مثل صوت الحرف (i) فى كلمة (Pin) الإنجليزية .	(٣)
o	O	الممدود : مثل صوت الحرف (o) فى كلمة (note) الإنجليزية . المخفف : مثل صوت الحرف (o) فى كلمة (not) الإنجليزية .	(٤)
u	V	الممدود : مثل صوت الحرفين (o o) فى كلمة (shoot) الإنجليزية . المخفف : مثل صوت الحرفين (o o) فى كلمة (Took) الإنجليزية .	(٥)
y	Y	الممدود : مثل صوت الحرف (U) فى كلمة (pure) الفرنسية . المخفف : مثل صوت الحرف (U) فى كلمة (pu) الفرنسية .	(٦)

تنبيه : أصوات الحروف اللينة كما اقترحها :

الأصل فى نقل حروف المد أن ترسم ألفاً أو واواً أو ياء بحسب صوت الحرف اللين اللاتينى . أما المخففة فتقابلها الحركات : الفتحة والضمة والكسرة بحسب صوت الحرف اللين اللاتينى ، ولكن لما كان التمييز بين الحرف الممدود والمخفف يتطلب دراسة متخصصة لا تخلو من الصعوبة التى أشرت إلى بعضها سابقاً (انظر التنبيه الخاص بأصوات الحروف اللينة اليونانية ، ص١٠٨) فأرى أن تعتبر الحروف كلها حروف مد بدامة ، مادام ذلك لايغير طبيعة صوت الحرف وإن كان يغير طبقته ، مداً وقصراً ، وإذا كان هذا الاتجاه غير دقيق نسبياً إلا أنه أفضل من التخبط فى نقل صوت الحرف وهو كذلك أفضل من اغفال وضع الحركات وكثيراً مايحدث هذا ، بل إن ذلك يحدث فى معظم الأحيان . وأسوق مثلا يقوم دليلا على سلامة هذا الاتجاه نسبياً : فالأصل فى نقل الاسم (Balbus) الذى ينتهى بحرف (u المخفف) أن توضع ضمة على الحرف السابق على هذا الحرف اللين ، فاذا أغفل وضع هذه الضمة ونقل الاسم إلى العربية (بالبس) ، فان القارىء لهذا الاسم لا يستطيع معرفة صورة العلم فى لغته ، ولكن إذا استعيض عن الضمة بالواو وكتب الاسم (بالبوس) استطاع أن يهتدى إلى الاسم المقصود والرجوع إليه بسهولة فى مراجعه .

التعليق (١) :

قارن المجمع ، القاعدة الثانية :
فى الحرف (A, a) – د ٤ ، حـ ٣٣ ،
ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

صوت هذا الحرف كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مفتوحة .

٢ – يرسم فى وسط الاسم ألفاً .

٣ – يرسم فى نهاية الاسم ألفاً لينة .

٤ – يرسم فى آخر الاسم تجوزا تاء مربوطة إذا سبقه الحرف اللين (e) أو (i) أو الحرف الجامد (r) (لأنه حرف مائع ، وسط بين الجامد واللين).

التعليق (٢) :

قارن المجمع ، القاعدة السادسة :
فى الحرف (E, e) ، – د٤ حـ٣٤ ،
ص ٤١٣ – ٤١٤ .

صوت هذا الحرف يشبه فى العربية الألف الممالة فى كلمة سكارى ، وأرى أن ينقل إلى العربية كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة (لا مفتوحة كما ورد فى قاعدة المجمع) .

٢ – يرسم فى وسط الاسم ياء (أو يؤدى بكسرة إذا عنى بالتشكيل) .

٣ – يرسم فى آخر الاسم ألفاً ممالة أو ألفاً لينة للتخفيف .

ملاحظة : إن مادعانى إلى مخالفة المجمع الموقر فيما ورد فى رقمى (١) ، (٢) هو حرصى على تجنب اللبس بين صوت هذا الحرف وصوت الحرف (A, a) ، انظر التعليق – ١ – (وأضرب مثلا يقوم دليلا على سلامة هذا الاتجاه : إذا نقل الاسم (Ephesus) إلى العربية (أفاسوس) ، كما ورد فى قاعدة المجمع رقم (١) ، أصبح صوت الحرف (e) فى أول الاسم وفى وسطه هو نفس صوت الحرف (a) وسيسبب هذا لبسا للقارىء ، أضف إلى هذا أنه لايوجد حرف لين يتفق صوته مع صوت حرف لين آخر ، وهكذا فكتابة هذا الاسم فى العربية (إفيسوس أو إفسوس) صحيحة صوتياً وأقرب إلى صورة الاسم الأصلى المعرب .

ولهذا أرجو أن يأخذ المجمع الموقر بهذا الرأى أو يناقشنى فيه .

التعليق (٣) :

قارن المجمع ، القاعدة الحادية عشرة ،
فى الحرف (I, i) – د ٤ ، حـ ٣٤ ،
ص ٤١٨ – ٤١٩ .

ملاحظة : (انظر ، أ – أصوات الحروف اللاتينية الجامدة ، التعليق – ٧ – ، ملاحظة ، حيث تناولت هذا الحرف بالتعريف بوصفه جامداً) .

هذا الحرف حرف لين ، ويكون ليناً إذا كان أساساً فى تكوين مقطع مثل (in)

وصوت هذا الحرف كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة أو همزة بعدها ياء ، (كما ورد فى قاعدة المجمع) .

٢ – يرسم فى وسط الاسم ياء .

التعليق (٤) :

قارن المجمع ، القاعدة الثالثة عشرة ، فى الحرف (O, o) – د٤ ، حـ ٣٤ ، ص٤١٩ –٤٢٠ .

صوت هذا الحرف كما أقترحه كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مضمومة أو بعدها واو .

٢ – يرسم فى وسط الاسم أو فى آخره واوا .

ملاحظة : أود أن يأخذ المجمع الموقر برأيي ويتنازل عما ورد ذكره فى الرقمين (١) ، (٢) من القاعدة لأنه لايمثل قاعدة صوتية لاتينية .

ملاحظة : ورد فى رقم (٣) من هذه القاعدة النص الآتى « فى وسط الاسم يرسم الحرف (o) واواً فى الغالب ، إلا فى الأسماء اللاتينية ؛ فيرسم واواً ونوناً » ويؤسفنى أن أقول إن هذه ليست قاعدة صوتية ولاتنطبق فى نفس الوقت على الأمثلة المصاحبة للقاعدة ، وأغلب الظن أنه وقع خطأ فى كتابة العبارة بدليل أن المقصود هو الأسماء بحروف يونانية لا لاتينية وبعبارة أوضح أسماء إغريقية ؛ لهذا أقترح تعديل القاعدة أو تصحيحها كالآتى :

« قد يمثل الحرف (o) فى آخر الاسم المقطع (ων) فى اللغة اليونانية ؛ ومع ذلك فينبغى الالتزام عند التعريب بالصوت اللاتينى مادام الاسم مكتوباً بحروف لاتينية ، مثال ذلك :

أبولو لا (أبولون) Apollo = Απόλλων

التعليق (٥) :

قارن المجمع ، القاعدة التاسعة عشرة ، فى الحرف (V, u) – د٤ ، حـ ٣٤ ، ص ٤٢٣ – ٤٢٤ .

ملاحظة : (انظر أ – أصوات الحروف اللاتينية الجامدة ، التعليق – ١٧ – ، ملاحظة ، حيث تناولت هذا الحرف بالتعريف بوصفه جامداً) ؛ وهذا الحرف لين كذلك ، ويكون ليناً إذا كان أساساً فى تكوين مقطع مثل (nuno) .

وصوت هذا الحرف كالآتى :

١ – يرسم فى أول الاسم همزة مضمومة أو همزة بعدها واو .

٢ – يرسم فى وسط الاسم وفى المقطع الأخير منه واوا .

ملاحظة : لما كانت قاعدة المجمع الموقر لم تحدد صوت هذا الحرف فى أول الاسم وفى وسطه ، أود أن تعدل القاعدة كما وردت فى هذا التعليق .

التعليق (٦) :

قارن المجمع ، القاعدة الثانية والعشرون ، فى حرف Y ، y) – د ٤ ، حـ ٣٤ ص ، ٤٢٥ – ٤٢٦ .

هذا الحرف ليس من حروف الأبجدية اللاتينية أصلا وقد صار بعد عصور اللغة الأولى أحد حروفها. وصوت هذا الحرف هو تماماً صوت الحرف اليونانى (أو يسيلون υ ، Υ) – (انظر ب – أصوات الحروف اللينة اليونانية ، التعليق – ٦ –) ، وهو لا يأتى فى أول الأعلام الرومانية ويرد فقط فى أول الأعلام الإغريقية ، وصوته كالآتى :

١ – يرسم هذا الحرف فى أول الاسم الإغريقى المكتوب بحروف لاتينية (هو = Hy) ، (انظر التنبيه الخاص بعلامة التنفيس أوالجرس الهائى ، ص١١٦–١١٧)

٢ – يرسم فى أى جزء من بنية الاسم واواً أو ياء .

ملاحظة : لكى يكون نطق العلم مستساغاً فى العربية ، أقترح أن يرسم هذا الحرف ياء فقط إذا كان فى بنية الاسم صوت أو أكثر يقابل حرف الواو ، مثال ذلك : اسم العلم (Myconus) فكتابة هذا الاسم بالعربية (ميكونوس) أخف فى النطق من (موكونوس) .

(ج) أصوات الحروف اللينة المزدوجة اللاتينية :

ملاحظة : المزدوج هو وحدة صوتية تتألف من حرفين اثنين معينين ويشترط عند النطق بها أن يحس كلا الحرفين المكونين لها ، على أن يكون ذلك مختلساً .

والحروف اللينة المزدوجة هى :

ae ، au ، ei, ، eu ، oe. أما جرسها اللاتينى فسأحاول تقريبه بأصوات إنجليزية ، أو فرنسية وسوف أذكر الأصوات العربية المقابلة فى التعليقات ، انظر ؛(١)–(٥) .

تنبيه : لقد تناول بعض أصوات هذه الحروف التغيير عبر الأجيال والقرون ، فأخذت تنحرف بسرعة عن أصواتها الأولى الأصلية التى كانت تمثل صوت الوحدة الصوتية كأحسن ما يكون التمثيل ، ومع ميلى إلى الأخذ بالأصوات الأولى فى بعض الأحيان لأصالتها ووضوحها ودقتها ، إلا أنى سأحاول فى تعليقاتى عرض الأصوات الأصلية والمتطورة ومناقشة ما أراه جديراً بالمناقشة مراعياً فى هذا تخير الأصوات المحققة لنقل العلم بدقة ، وأترك للمعرب حرية تخير مايحلو له من الأصوات ، أصلية كانت أو متطورة .

ولأول مرة سأذكر بعض الأعلام فى صورتها اللاتينية وأنقلها إلى العربية بعد أن انتهيت من الكلام عن الحروف اللاتينية ، جامدة لينة .

وفيما يلى بيان بهذه الحروف المزدوجة :

المزدوج	صوته الأصلى مقربا بأصوات إنجليزية	صوته المتطور	التعليق
ae	صوته مثل صوت الحرف (i) فى كلمة (island) الإنجليزية	صار صوته مثل صوت الحرف (e) فى القرن الثانى ، ق.م	(١)
au	صوته مثل صوت الحرفين (ou) فى كلمة (our) الإنجليزية	صار صوته مثل صوت الحرف (o) فى القرن الأول ق.م وفى العصور المتأخرة صار صوته مثل الحرف (a) ومن الصعب الأخذ بالصوت الأخير	(٢)
ei	صوته مثل صوت الحرفين (ay) فى كلمة(pray) الإنجليزية	صار صوته مثل صوت الحرف (i) أو (e) فى القرن الثانى .ق.م.	(٣)
eu	صوته مثل صوت الحرفين (ew) فى كلمة (few) الإنجليزية	صار صوته مثل صوت الحرف (u) ابتداء من القرن الثالث ق.م.	(٤)
oe	صوته مثل صوت الحرفين (oy) فى كلمة (toy) الإنجليزية	صار صوته مثل صوت الحرف (u) فى القرن الثانى ق.م. ثم أصبح صوته مثل صوت الحرف (e) فيما بعد وأرى أن الصوت الأخير يسبب لبسا كبيرا	(٥)

التعليقات

التعليق (١) :

قارن المجمع ، القاعدة الثانية المزدوج (ae) ، رقم (١) ـ د ٤ حـ ٣٤ ، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠

صوت هذا المزدوج كالآتى :

١ ـ يرسم فى أول الاسم همزة ممدودة مفتوحة بعدها ياء ساكنة (الصوت الأصلى) أو همزة مكسورة بعدها ياء مكسورة (الصوت المتطور) ، مثال ذلك : آيْنياس (الصوت الأصلى) ؛ إينياس (الصوت المتطور) Aeneas

٢ ـ يرسم فى أى جزء من بنية الاسم ألفاً بعدها ياء ساكنة (الصوت الأصلى)

أو ياءً مكسورة (الصوت المتطور) ، مثال ذلك :

كايكوبوم (لصوت الأصلى) ، كيكوبوم (الصوت المتطور) Caecubum

٣ - يرسم فى آخر الاسم ألفاً ممالة (الصوت المتطور) أو ألفاً لينة للتخفيف، مثال ذلك :

أثينى (الصوت المتطور) ، أثينا (الصوت المقترح) Athenae

التعليق (٢) :

فى الحرف (au) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر .

وصوت هذا المزدوج كالآتى :

١-يرسم فى أول الاسم همزة ممدودة مفتوحة بعدها واو ساكنة (الصوت الأصلى) أو همزة مضمومة بعدها واو ، مثال ذلك :

آوْجوستوس (الصوت الأصلى) ، أوجوستوس (الصوت المتطور) Augustus

ملاحظــــة : إن كتابة أوغسطس أو أغسطس لا تتفق والقواعد الصوتية .

٢-يرسم فى وسط الاسم ألفاً بعدها واو ساكنة (الصوت الأصلى) أو يرسم واوا ممدودة ، مثال ذلك :

كاوْكاسوس (الصوت الأصلى) ، كوكاسوس (الصوت المتطور) Caucasus
وقد عرب الاسم قديماً بالقوقاز .

التعليق (٣) :

فى المزدوج (ei) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر .

صوت هذا المزدوج كالآتى :

١-يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة بعدها ياءٌ ساكنة (الصوت الأصلى) أو همزة مكسورة بعدها ياءٌ مكسورة (الصوت المتطور) ، مثال ذلك :

إيْدوثيا ، إيْدوثية (الصوت الأصلى) ، إيِدوثيا ، إيدوثية (الصوت المتطور) Eidothea

٢-يرسم فى وسط الاسم ياءٌ ساكنة (الصوت الأصلى) أو ياءٌ مكسورة (الصوت المتطور) مثال ذلك :

إيْليْثويا ، إيْليْثوية (الصوت الأصلى) ، إيليثويا ، إيليثوية (الصوت المتطور) Eileithyia

التعليق (٤) :

قارن المجمع ، القاعدة السابعة ، فى المزدوج (eu) ـ د ٤ ، ﺣ ٣٤ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦

صوت هذا المزدوج كالآتى :

١ـ يرسم فى أول الاسم همزة مكسورة بعدها ياء مضمومة أو يرسم ياءً مضمومة بعدها واو ، مثال ذلك .

إيوتروپيوس (الصوت الأصلى) ، يوتروپيوس (الصوت المتطور) Eutropius

٢ـ يرسم فى وسط الاسم ياءً مضمومة بعدها واو (وليس كما ورد فى قاعدة المجمع برسم هذا الحرف واوا) ، ذلك أن الصوت المتطور لا يمثل المزدوج بالمرة ؛ مثال ذلك

ديُوكاليون (الصوت الأصلى) ، دوكاليون (الصوت المتطور) Deucalion

التعليق (٥) :

فى المزدوج (oe) ، لم يأت ذكره فى قرارات المجمع الموقر

صوت هذا المزدوج كالآتى

١ـ يرسم هذا المزدوج فى أول الاسم همزة مضمومة بعدها ياءٌ ساكنة (الصوت الأصلى) أو يرسم ألفاً مضمومة بعدها واو (الصوت المتطور) ، مثال ذلك :

أُيْبالوس (الصوت الأصلى) ، أوبالوس (الصوت المتطور) Oebalus

٢ـ يرسم فى وسط الاسم واوا بعدها ياءٌ ساكنة (الصوت الأصلى) أو يرسم واوا فقط (الصوت المتطور) مثال ذلك :

فويْبوس (الصوت الأصلى) ، فوبوس (الصوت المتطور) Phoebus

يلاحظ أن المزدوج (oe) فى هذاالاسم يقابل أيضاً الحرف (e) فينقل على هذا الأساس فيبوس .

ملاحظة : يؤسفنى أن الصوت المتطور للمزدوج (eu) ، المزدوج (oe) يقابل صوت (u) ، أى يقابل واواً فى العربية ، أما صوت المزدوج (oe) الذى يقابل صوت الحرف (e) فهو يدعو إلى أسف أعظم . إن هذا يجعل مهمة الباحث عسيرة إذا أراد الرجوع إلى اسم علم من الأعلام فى لغته (اللاتينية) ، وهذا ما يجعلنى أجنح إلى النقل على أساس الأصوات الأصلية .

تنبيه : الابتداء بالساكن :

قارن المجمع ، القاعدة الأُولى ـ د ٤ ، ﺣ ٣٣ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨

تيسيرا لهذه القاعدة التى لم يعمل بها بدقة قديماً ، أقترح تعديل صياغتها بما

يتفق وأصوات الحروف اللاتينية (انظر أيضاً التنبيه الخاص بالابتداء بالساكن فى الأسماء الإغريقية ص١١٧ ، فالقاعدة بالنسبة للأعلام الإغريقية والرومانية واحدة) :

١ – تزاد همزة وصل مكسورة فى أول الاسم إذا كان أول حرف لين فيه هو (e) أو (i) ، مثال ذلك :

إپلينوس Plinus

٢ – تزاد همزة مفتوحة فى أول الاسم ، إذا كان الحرف اللين الأول منه هو (a) ، مثال ذلك :

أفلاڤيوس Flavius

٣ – يضم الحرف الأول من الاسم ، إذا كان الحرف اللين الأول منه حرف (o) أو (u) أو ou (١٦) ؛ مثال ذلك :

پُلُوتينوس Plotinus

بلوتو Pluto

تنبيه : الحروف المشددة فى الاسم :

ينطق الحرفان الجامدان اللذان من نوع واحد مثل (nn) ، (ss) ، (ll) فى العربية حرفاً واحداً مشددا ، مثال ذلك :

راڤينّا Ravenna

مولوسُّوس Molossus

لوكيلّوس Lucillus

نماذج من الأعلام للتطبيق على التعليقات

أجريِّپا Agrippa

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٥ –) ؛ (التنبيه الخاص بالحروف المشددة ، ص١٣٤)

الإسكندرية (أليكساندرية)

Alexandrea, Alexandria

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٤ –)

أفروديتى ، أفروديتا Aphrodite

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٣ –) ، (ب – أصوات الحروف اللينة – التعليق – ٢ – ، رقم – ٣ –)

أكوينوس Aquinus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٣ –)

أسوريا (آشور) Assyria

انظر (التنبيه الخاص بالحروف المشددة) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٦ – ، رقم – ٢ –)

آوْجوستينوس ، أوجوستينوس

Augustinus

انظر (حـ – أصوات الحروف اللينة المزدوجة ، تعليق – ١ –)

---

(١٦) عن المزدوج ، انظر (حـ – أصوات الحروف المزدوجة والتعليق على كل مزدوج منها) .

باكتريا ، باكترية Bactria

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٢ –)

بيثينيا ، بيثينية Bithynia

انظر (أ – أصوات الحروف المركبة الجامدة ، التعليق – ٢٢ –)

بروندیسیوم (برنديزى) Brundisium

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٥ –)

بيزانتيوم (بيزنطة) Byzantium

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٦ –)

كيكيرو (شيشرون) Cicero

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٤ – ، ملاحظة – ٢ –)

إكنيدوس ، كنيدوس Cnidus

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ١ – ، ص ١٣١–١٣٤)

كوركيرا ، كوركيرة Corcyra

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٤ –)

كوبروس (قبرص) Cyprus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٢ –)

ديميتير Demeter

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، رقم – ٢ – ، ملاحظة)

دروسوس Drusus

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ٣ – ، ص ١٣٤)

إيلايوس ، إيليوس Elaeus

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، رقم – ١ –) ، (حـ – أصوات الحروف اللينة المزدوجة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٢ –)

إيليفانتيس Elephantis

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، ملاحظة)

فابيوس Febius

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٤ –)

أفلاكوس Flaccus

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ٢ –) ، (الحروف المشددة ، ص ١٣٤)

فلوڤيوس Fluvius

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ٣ – ، ص ١٣١ – ١٣٤) ، (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٧ – ، ملاحظة)

جونّوس Gonnus

انظر (التنبيه الخاص بالحروف المشددة ، ص ١٣٤)

هيلينا (هيلانة) Helena

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، رقم – ٢ – ، ملاحظة)

يابيتوس Iapetus (='Ιαπετός)

إيونيا ، إيونية Ionia (='Ιωνία)

* هذان الاسمان يونانيان كتبا بحروف لاتينية ، ولهذا فان الحرف (I) حرف لين فلا يعامل معاملة الحرف (I) الجامد فى اللاتينية ، انظر (ب – أصوات الحروف اللينة اليونانية ، التعليق – ٣ –)

إيليبا ، إلِيبا Ilipa

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة اللاتينية ، التعليق – ٣ – رقم – ١ ، ٢ –)

جانوس ، يانوس

Janus (= Ianus)

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٧ – ، ملاحظة)

جوبيتير ، يوبيتير

Jupiter (= Iupiter)

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٧ – ملاحظة)

ليجوريا ، ليجورية Liguria

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٥ –)

ماجو Mago

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٤ – ، ملاحظة – ٢ –)

ميلامبوس Melampus

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ملاحظة)

أوروسيوس ، أُروسيوس (هروثيوس؟)

Orosios

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٤ – ، رقم – ١ ، ٢ –)

أورتيجيا ، أورتجية Ortygia

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٦ – ، رقم – ٢ –)

بيرجاموم Pergamum

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، ملاحظة)

بولّا Polla

(انظر التنبيه الخاص بتشديد الحروف ، ص ١٣٤)

كوينتوس Quintus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٣ –)

روما (رومية) Roma

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ١ – ، رقم – ٣ –)

سيميراميس Semiramis

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، ملاحظة)

سيليوكوس ، سيلوكوس (سلوقس)

Seleucus

انظر (حـ – أصوات الحروف اللينة المزدوجة ، التعليق – ٤ –) وقارن صوت (eu) بصوت الحرف (u) ، انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٥ – ، رقم – ٢ – حيث أشرت إلى اللبس)

سيرڤيوس Servius

انظر (أ– أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٧ –) ، (أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٥ – ، رقم – ٢ –)

تارينتوم Tarentum

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٦ –)

توركواتوس Torquatus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٣ –)

أتيكا ، أوتيكا Utica

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٥ – ، رقم – ١ –)

سُولاّ Sulla

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٥ – ، رقم – ٢ –) ، (انظر التنبيه الخاص بتشديد الحروف ، ص ١٣٤)

ڤاليريا ، ڤاليرية Valeria

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٧ –) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – : ملاحظة) .

ڤارُّو Varro

انظر (التنبيه الخاص بالحروف المشددة) ، (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٤ – ملاحظة – ٢ –)

إكسانثوس Xanthus

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ٢ – ، ص١٣٣)

إكسينوفانيس Xenophanes

انظر (التنبيه الخاص بالأسماء المبدوءة بحرف ساكن ، رقم – ١ – ، ص ١٣٣)

زاما Zama

انظر (أ –أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ١٩ –)

زينوبيا ، زينوبية Zenobia

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٢ – ، رقم – ٢ –)

إزميرنا (أزمير) Zmyrna

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٦ – ، رقم – ٢ –)

زوپيروس Zopyrus

انظر (ب – أصوات الحروف اللينة ، التعليق – ٦ – ، رقم – ٢ – ، ملاحظة)

كلوروس Chlorus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة المركبة ، التعليق – ٢٠ – ، رقم – ١ – ؛ ورسم هذا الحرف كافاً لأنه ورد فى اسم رومانى ، وكما قلت فإن اللاتينية لا تعرف صوت الخاء)

خريسيپوس Chrysippus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة المركبة ، التعليق – ٢٠ – ، رقم – ٢ – ، وصوت هذا الحرف (Ch) هنا يقابل صوت الخاء لأن الاسم يونانى)

فوسفوروس Phosphorus

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٢١ –)

ثيسّاليا ، ثيسّالية Thessalia

انظر (أ – أصوات الحروف الجامدة ، التعليق – ٢٢ –) ، (التنبيه الخاص بالحروف المشددة ، ص ١٣٤)

٥ – ملاحظات على طريقة القدامى فى النقل

ولا يسعنى الآن بعد هذه الدراسة إلا المناداة بإعادة النظر فى أسلوب القدامى أو غالبيتهم فى تعريب الأعلام الإغريقية والرومانية ، فإنها فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر والفحص . وإنى لعلى يقين أن هذه الصيحة لن تجد آذاناً صاغية من البعض ، فقد طالب ، على سبيل المثال ، الأستاذ نلينو ، وهو المستشرق الفذ ، بأن يبقى القديم على قدمه ، وها هو ذا يقول بالحرف الواحد « يجب أن يبقى القديم مما عرف عن العرب على قدمه ، ونحن لا نتصرف إلّا فيما يجد وفيما لم ينطق به العرب ولم يكتبوه »(١٧) ومثل هذا القول يعنى أن النقلة القدامى الأجلاء أو بعضهم كانوا على دراية تامة بأصوات الحروف اليونانية واللاتينية ، جامدة ولينة وكانوا كذلك على علم تام بقواعد اللغتين ، اليونانية واللاتينية النحوية ، وهذا للأسف غير صحيح فإن الكثير من الأعلام المعربة ثبت أن أخطاء وقعت فى التعريب

وأسوق مثلا استقيته من تصدير اللجنة الموقرة التى ألفها المجمع لوضع قواعد « لكتابة الأعلام اليونانية واللاتينية بحروف عربية » ، فقد أشارت هذه اللجنة إلى أن بعض الأعلام عربت على غير قاعدة أو غلطا وذكرت أن معرباً قد أخطأ فى تعريب الاسم Hypsicles ونقله إلى العربية (أبسقلاوس) لأنه عربه فى صيغة الجر (المضاف إليه) بدلا من أن يعربه فى صيغة الرفع (وهى الصيغة الوحيدة التى ينبغى نقل الاسم على أساسها) وقد عجبت لأن اللجنة رأت أن تحافظ على مثل هذا النقل الشاذ(١٨) لأن هذا التعريب ليس شاذا بل خطأ ، والعلم لا يقر الخطأ وينبغى تصحيحه لا الإبقاء عليه ، وهذه مسئولية المختصين ولا مهرب منها بأى حال من الأحوال حتى يقدموا يد العون إلى الباحث الذى يرغب فى الوصول إلى الاسم المعرب صحيحاً ليرجع إلى أصله فى لغته فى يسر .

---

(١٧) انظر ، د ٤ ، ﺟ ٣٤ ، ص ٤١٢

(١٨) انظر ، د ٤ ، ﺟ ٣٣ ، ص ٤٠٦

ولما كنت أدرك أن ما أنادى به من إعادة النظر والفحص فى طريقة القدامى فى النقل لن يلقى ترحيباً بالدرجة الأولى ما لم أقنع المختصين بوجهة نظرى بأسلوب علمى والتدليل على ما أقول بالأمثلة ، فقد حرصت على عرض طائفة من النماذج من الأعلام التى عربت قديماً ، وهذه سوف أناقشها مناقشة موضوعية بغية الوصول إلى الهدف الذى أنشده . وسبيلى فى المناقشة سيكون على أساس ما اتبعته فى ثنايا دراستى . وهو مراعاة الأمانة فى نقل أصوات الحروف الجامدة واللينة فى اللغتين المذكورتين إلى العربية وعدم الأخذ بالأصوات الدخيلة التى فرضت على حروف اللغتين المذكورتين وتحاشى تفخيم الحروف ، لأنى أعتقد أن هذا وحده هو الذى يحفظ للاسم المعرب صورته الأصليه . وقد يقول البعض إن الوقت قد تأخر للأخذ بطريقة جديدة — وسيقولون أكثر من ذلك مما لا أود الخوض فيه الآن أو بعد الآن — إلا أنى أرى أن تأخر الوقت يجب ألّا يدخل فى حساب الدارسين التقليديين ما دام الغرض هو التصحيح وهو هدف له وزنه وكيف يقال إن الوقت قد تأخر وقد عنى ويعنى القرن الذى نعيشه بإحياء التراث القديم وتحقيقه ، ولا يخفى أن بعض هذا التراث قد ترجم عن اليونانية واللاتينية أو يتصل اتصالا مباشرا أو غير مباشر بعلوم الإغريق والرومان. ومما لا ريب فيه أن أعلاماً إغريقية ورومانية قد وردت فى ثنايا نصوص هذا التراث والكثير منها لا يسير على القواعد الصوتيه للغتين المذكورتين . أفليس من الواجب إذا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه ونعيد النظر فيما نراه فى حاجة إلى التصحيح؟ وإذا تساءل البعض عن الطريقة التى تتبع لتصحيح ما عرب قديماً ، فإنى أقترح الآتى :

(أ) بالنسبة للأعلام الواردة فى نصوص التراث القديم المحقق المراد تصحيحها ، أرى الإبقاء على المعرب القديم فى مكان من النص بين حاصرتين وكتابة الاسم المصحح فى الحاشية وحبذا لو كتب بجانبه الاسم الإغريقى والرومانى بحروف لاتينية للمقابلة بين المعرّب وأصله فى لغته .

(ب) وبالنسبة للأعلام الواردة فى الكتب المؤلفة حديثاً التى يرجع فيها المؤلف إلى المخطوطات القديمة أو إلى مراجع حديثة تحوى هذه الأعلام (المراد تصحيحها) أرى ان يكتب العلم فى النص صحيحاً ويكتب بجانبه الاسم الإغريقى والرومانى بحروف لاتينية للمقابلة بين المعرب وأصله فى لغته على أن يكتب المعرّب القديم بين حاصرتين فى الحاشية .

وأود قبل مناقشة بعض النماذج أن أؤكد بأنى لا أزرى بالنقلة القدامى الأجلاء ولا أنتقص من جهودهم الجديرة بكل تقدير، بيد أنى أنظر إليهم بوصفهم روادا مجتهدين قاموا بكل ما استطاعوه وليس علينا ، نحن المحدثين ، إلّاأن نكمل ما نقص بما يحقق ما قصدوا إليه ولم يحالفهم الصواب .

وها أنذا أسوق طائفة من النماذج من الأعلام الإغريقية والرومانية وكذلك الأعلام الأجنبية التى وردت فى أعمال الكتاب الإغريق والرومان بحروف يونانية ولاتينية ، ولن أتقيد بالنسبة للأعلام الأخيرة ، بأصوات الحروف فى لغاتها الأصلية .

وفيما يلى هذه الطائفة من الأعلام التى سأناقشها وأقترح تصحيحها [١٩]

"Aρης (= Lat. Arés)

نقل هذا العلم قديماً (أرس) ؛ونلاحظ أن المعرب قدأهمل صوت الحرف (η) الذى يقابل فى العربية ياء ممدودة ، ثم أغفل وضع الحركات على الحروف . وما أقترحه نقلا لهذا العلم هو (أريس) .

'Aγάθων (= Lat. Agathon)

نقل هذا العلم قديماً (أغاثن)ونلاحظ أنالمعرب قد نقلحرف (γ) غيناً وأغفل صوت الحرف (ω) وهو يقابل الواو الممدودة . وما أقترحه نقلا لهذا العلم هو (أجاثون) .

'Aσσυρία (= Lat. Assyria)

نقل هذا العلم قديماً (أشور) ويلاحظ أن المعرب قد نقل الحرفين (σσ) شينا

---

(١٩) المرجو الرجوع إلى أصوات الحروف ، جامدة ولينة ولينة مزدوجة (يونانية ولاتينية) فى التعليقات الواردة فى هذه الدراسة .

ثم أهمل صوت الحرفين اللينين (ι، α) ، وما أقترحه نقلا لهذا العلم هو) أسوريا ، أسورية) .

Βυζάντιον (= Lat. Byzantium)

نقل هذا العلم قديماً (بيزنطة) ويلاحظ أن المعرب قد نقل الحرف (τ) طاء ونقل الحروف (ium) تاءا مربوطة ولا أدرى على أية قاعدة فعل هذا ؛ وما أقترحه نقلا لهذا العلم هو (بيزانتيون)

ويلاحظ أن النهاية (ον) فى اليونانية يقابلها فى اللاتينية النهاية (um) .

Δάρειος (= Lat. Dareus)

نقل هذا العلم قديما (دارا) وهذا يخالف صورة الاسم فى اليونانيةوخاصة فى النهاية (ειος) ؛ وما أقترحه نقلا لهذا العلم هو (داريوس) .

Ἑλένη (= Lat. Helene, Helena)

نقل هذا العلم (هيلانة) ، أى أن الحرف (ε) الأول نقل ياء وأما الثانى فنقل ألفاً مع أن صوت هذا الحرف لا يتغير ثم إن الحرف (η) فىنهاية الكلمة نقل تاء مربوطة وكان يجب أن ينقل ألفاً ممالة أو ألفاً لينة ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (هيليني أو هيلينا) .

Ἐμπεδοκλῆς (= Lat. Empedocles)

نقل هذا العلم قديماً (أمفاد قليس) ، أى أن الحرف (ε) الأول والثانى نقلا ألفاً ، وصوت هذا الحرف يقابل كسرة ممالة أو كسرة مشربة بالفتحة وليست على كل حال ألفاً صريحة ، أمّا الحرف (π) فقد نقل فاء على طريقة السريان ونقل الحرف (κ) قافاً وهذا غير صحيح ؛ وما اقترحه نقلا لهذا العلم هو (إمپيدوكليس) .

Θεοδέκτης (= Lat. Theodectés)

نقل هذا العلم قديماً (ثاو داقطس) ، أى أن الحرفين (εο) يقابلان (أو) وهذا خطأ ثم إن صوت الحرف (ε) نقل ألفاً ، وأما الحرف (κ) فنقل قافاً ، ونقل الحرف (τ) طاء وأهمل صوت الحرف (η) مع أنه حرف لين ممدود . وعلى ذلك فالنقل أبعد مايكون عن الأصل ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (ثيوديكتيس) .

Ἶσις (= Lat. Isis)

نقل هذا العلم قديماً (إيزيس) أى نقل الحرف (σ) الأول زايا وهذا خطأ ، أما الثانى فنقل صحيحاً .

والسؤال الآن : كيف يتغير صوت الحرف الواحد فى الكلمة الواحدة ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (إيسيس) .

Καμβύσης (= Lat. Cambyses)

نقل هذا العلم قديماً (قمبيز) ، أى نقل صوت الحرف (K) قافاً ونقل صوت الحرف (σ) الأول زاياً وسقط المقطع (ης) فى نهاية الاسم مع أن الحرف (η) حرف لين ممدود ، ولهذا فإن النقل لا يطابق صورة الاسم فى اللغة اليونانية ، وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (كامبيسيس أو كامبوسيس) .

Κλεοφων (= Lat. Cleophon)

نقل هذا العلم قديماً (قلافون) ، أى نقل الحرف (K) قافاً ونقل صوت الحرفين (εο) (أوْ) فى العربية وهذا يخالف القاعدة ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (إكليوفون) مع ملاحظة أن الاسم مبدوء بساكن .

Κῦρος (= Lat . Cyrus)

نقل هذا العلم قديماً (قورش) ، وذلك بنقل الحرف (K) قافاً ونقل الحرف (ς) شيناً وهذا أمر يدعو إلى العجب ، وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (كيروس) .

Ὅμηρος (= Lat. Homerus)

نقل هذا العلم قديماً (أوميروش) فانصرف المعرب عن جرس الهاء فى الاسم ونقل الحرف (ς) شيناً وهذا لا يتفق مع أصوات اللغة المنقول عنها . وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو(هوميروس) وقد سبقنى إلى ذلك بعض الدارسين والمعربين المحدثين .

Περικλῆς (= Lat. Pericles)

نُقل هذا العلم قديماً (بركليز) ، فأغفل المعرب صوتى الحرفين اللينين (ε، ι) ونقل الحرف (ς) فى آخر الاسم زايا ولايتفق هذا مع أصوات اللغة المنقول عنها ، وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (پيريكليس) .

Πορφυρίων (= Lat. Porphorion)

نقل هذا العلم قديماً (فورفوريون) . فنقل المعرب صوت الحرف (π) فاء وجعل بذلك صوت الحرفين (π الباء Φ الفاء) واحداً وهو الفاء ، وأعتبر أن هذا أسوأ مثل للنقل على طريقة السريان ، فكيف يهتدى الباحث إلى

الاسم الأصلي على هذه الصورة . وماأقترحه نقلاً لهذا العلم هو (بورفوريون) .

Πρωτάγορας (= Lat. Protagoras)

نُقل هذا العلم قديماً (فروطاغورس) . إن هذا التعريب حافل بالأخطاء ، فقد نقل الحرف (π) فاءونقل الحرف (τ) طاء ونقل الحرف (γ) غيناً وأغفل صوت (α) في آخر الاسم وكان لابد من نقله ألفاً ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (بروتاجوراس) .

Σαλαμίς (= Lat. Salamis)

نُقل هذا الالم قديماً (سالامينا) وسالامينا هذه ليست إلا صيغة المفعول به للعلم والتعريب لا يكون إلا في صيغة الرفع للعلم ، ويدل هذا على أن المعرب لم يميز بين صيغتيْ الرفع والنصْب ؛ والنقل الصحيح لهذا العلم هو إذا (سالاميس) .

Σέλευκος (= Lat. Seleucus)

نقل هذا العلم قديماً (سلوقوس ، سلوقس) ، فأغفل المعرب صوت الحرف (ε) عند التعريب ونقل المزدوج (ευ) واواً وهو ، وإن كان جائزاً ، إلا أنه يسبب اللبس مع أصوات الحروف (ο) ، (υ) ، عند النقل ثم نقل الحرف (κ) قافاً ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (سيليوكوس) .

Σθένελος (= Lat. Sthenelos)

نقل هذا العلم قديماً (اسثانلس) فنقل المعرب الحرف (ε) الأول ألفاً وأغفل صوت الحرف (ε) الثانى ، وباعد بذلك بين الأصل والمعرَّب ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (اسثينيلوس) .

Σίσυφος (= Lat. Sisyphos)

نقل هذا العلم قديماً (سيوسيفوس) وقد دهشت لهذا النقل الغريب ووددت أن يكون خطأً مطبعياً ، إذ ليس في بنية العلم ما يقابل الصوت (يو) ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (سيسيفوس) .

Σοφοκλῆς (= Lat. Sophocles)

نقل هذا العلم قديماً (سوفقلس) فنقل المعرب الحرف (ο) الأول واواً وأما الحرف (ο) الثانى فقد أهمل صوته . ونقل الحرف (κ) قافاً وأهمل صوت الحرف اللين (η) الممدود .

بطبيعته ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (سوفوكليس) .

Τηλέμαχος (= Lat. Telemachus)

نقل هذا العلم قديماً (طيلاماخوس) فنقل المعرب الحرف (T) طاء ونقل الحرف (ε) ألفاً مع أن الحرف اليونانى (ε) هو حرف لين مخفف للحرف (η) ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (تيليماخوس) .

Africa

نقل هذا العلم قديماً (افريقية) فنقل المعرب الحرف (c) قافاً ونقل الحرف (a) فى آخر العلم ياء وتاء مربوطة ؛ ولا تسمح القواعد الصوتية بذلك ، فالحرف المقابل للحرف (a) فى العربية هو الألف اللينة ؛ وعلى ذلك فإن ما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (أفريكا) كما نقول الآن (أمريكا) .

Augustus

نقل هذا العلم قديماً (أوغسطس ، أغسطس) ، فنقل المعرب صوت المزدوج (au) فى المعرّب الأول ألفاً مضمومة بعدها واو ونقله فى المعرّب الثانى ألفاً وأرى أن نقل المزدوج همزة ممدودة مفتوحة بعدها واو ساكنة أقرب إلى الصوت الأصلى له ، أما نقله ألفاً ففيه من اللبس مافيه ، إذ يكون صوته مثل صوت الحرف (a) تماماً ومع أن صوت المزدوج صار فى الأزمنة الأخيرة مثل صوت الحرف (a) فإن هذا يدعو إلى بلبلة المعرب المعاصر على الأقل . ثم إن نقل صوت الحرف (g) غيناً وهذا لا يتفق مع صوت الحرف فى لغته ، وأهمل كذلك صوت الحرفين (u) فى وسط العلم وفى آخره ولم يضع على الأقل ضمة على كلا الحرفين الجامدين السابقين عليهما . ونقل التاء طاء كالعادة . ويعتبر هذا كله خروجاً على القواعد الصوتية اللاتينية ؛ وما أقترحه نقلا لهذا العلم هو (آوجوستوس ، أوجستوس) .

Brundisium

نقل هذا العلم قديماً (برنديزى) ، فأهمل المعرّب صوت الحرف (u) ونقل صوت الحرف (s) زاياً ثم نقل الحروف (ium) ياء . وهذا لا يسير على أية قاعدة صوتية لا فى العربية

ولا فى اللاتيبية ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (بروندیسیوم) .

Cicero

نقل هذا العلم قديماً (شيشرون) ، فنقل المعرب صوت الحرف (c) شيناً ونقل الحرف (o) فى نهاية العلم واواً ونوناً وهذا عجيب حقاً لأن النون ليست من حروف العلم فى صيغة الرفع ؛ وما أقترحه نقلاً لهذا العلم هو (كيكيرو).

Latium

نقل هذا العلم قديماً (لاطيوم) ، فنقل المعرب صوت الحرف (t) طاء ، وصوت الطاء ، كما قلت مراراً وتكراراً ليس صوتاً لاتينياً . وبالمناسبة فإن (اللاطينية) بوصفها صفة مشتقة من Latium ، ينبغى أن تنطق طبقا لصوت الحرف (t) فى هذا العلم الذى أقترح نقله (لاتيوم) وعلى هذا الأساس يقال (اللاتينية) (لا اللاطينية) .

Orosins

نقل هذا العلم قديماً (هوروشيوس) ولا أعرف من أين أتى المعرب بالجرس الهائى فى أول العلم ، وَنقل الحرف (s) الأول شيناً ونقل الحرف (s) الثانى سيناً ، إن ما أقترحه على أية حال أن ينقل هذا العلم (أوروسيوس) .

Roma

نقل هذا العلم قديماً (رومية) ، فنقل المعرّب الحرف (a) فى آخر العلم ياء وتاء مربوطة وهذا مالا تسمح به القواعد الصوتية ، فالحرف المقابل للحرف (a) فى العربية هو الألف اللينة ، وعلى ذلك فإن ما أقترحه نقلا لهذا العلم هو (روما) .

والآن أليس تعريب النقلة القدامى للأعلام الإغريقية والرومانية فى حاجة إلى إعادة النظر ؟

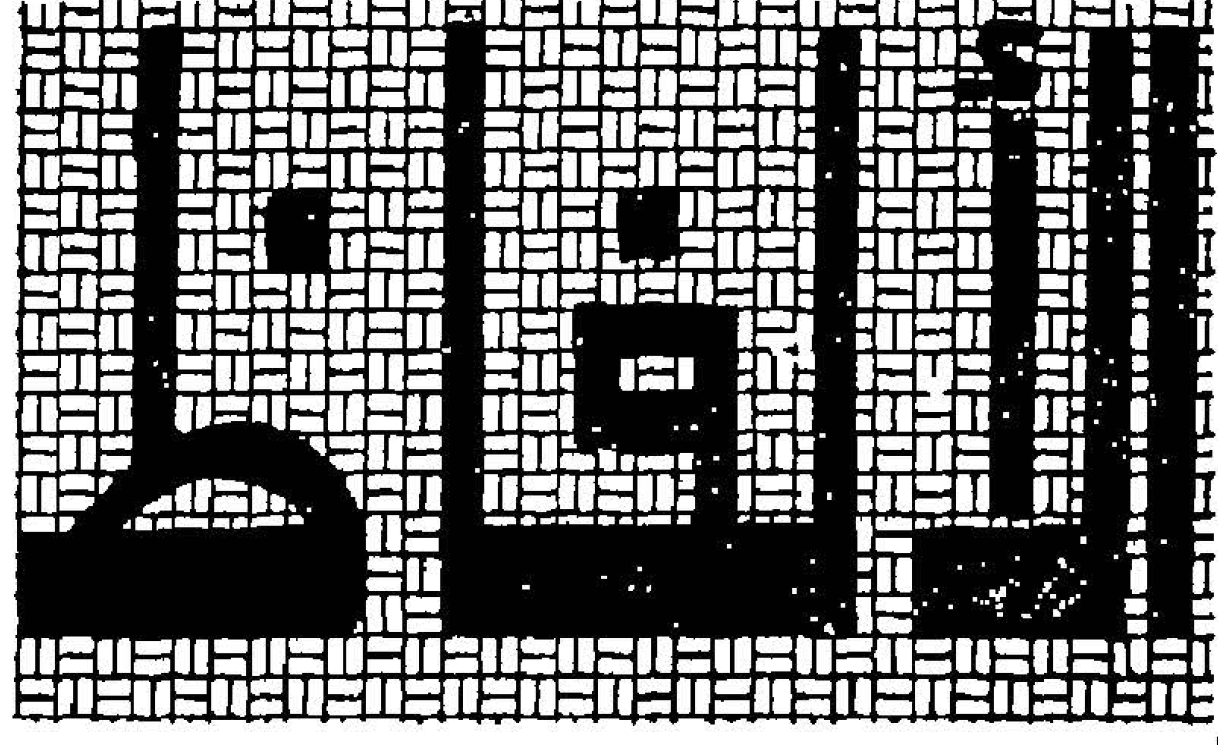

ذات الأصل العربي الدخيلة فى اللغة الرومانيـة بواسطة اللغة التركية

للأستاذ نيقولا دوبريشـان

رزحت البلدان الرومانية[1] ما يقارب خمسة قرون تحت نير الإمبراطورية العثمانية ، إذ يتشابه تاريخها فى هذه المدة الطويلة مع تاريخ أغلبية مناطق العالم العربي ، لكنها لم تصبح أبداً أقاليم تابعة لهذه الإمبراطورية رغم أنها كانت تدفع الأتاوات ورغم أن الباب العالى كان يعيّن قادة هذه البلاد . وطوال عصور الاحتلال العثمانى للبلدان الرومانية تأثرت اللغة الرومانية باللغة التركية تأثرا ملحوظا ، فقد وصل إليها عدد كبير نسبيا من الألفاظ التركية . ومما يلفت النظر فيما يتعلق بهذه الألفاظ أن أغلبيتها أصلها عربى . ومن المعروف – وهو جدير بالذكر هنا – أن اللغة التركية بدورها تأثرت تأثرا هامًّا باللغة العربية ، إذ كانت هذه الأخيرة حاملة ثقافة وحضارة متطورة غنية ، بينما كانت لغة العثمانيين لغة فقيرة غير قادرة على التعبير عن منجزات الحياة المتحضرة لذلك العصر .

وبالإضافة إلى هذه الألفاظ دخلت فى اللغة الرومانية ألفاظ عربية أخرى–وعددها

---

(١) أراضى رومانيا الحالية كانت مقسمة إلى ثلاث دويلات : « مولدوفا » و « فالاهيا » (أو البلاد الرومانية) و « ترانسيلفانيا » .

واتحدت « مولدوفا » مع « فالاهيا » فى دولة واحدة سنة ١٨٥٩ وحصلت الدولة الرومانية القومية على استقلالها الوطنى إذ تحررت من السيطرة العثمانية سنة ١٨٧٧ . ووقعت الدويلة المسماة بـ « ترانسيلفانيا » لمدة قرون تحت سيطرة الامبراطورية النمساوية المنغارية وحصلت هذه المنطقة الرومانية على استقلالها بعد الحرب العالمية الأولى ، أى بعد انهيار هذه الامبراطورية ، وانضمت إلى الدولة الرومانية الموحدة .

أصغر – عن طريق اللغة الأسبانية ولغات غربية أخرى ، ولا نرغب فى أن نحلل هذه الألفاظ فى مقالنا هذا لأن وضعها فى اللغة الرومانية يختلف اختلافا كبيرا عن وضع الكلمات الدخيلة بواسطة اللغة التركية. إن أغلبية الكلمات الدخيلة بواسطة الأسبانية واللغات الغربية الأخرى أصبحت مصطلحات علمية ولها مواضع ثابتة فى اللغة فى الوقت الحاضر كذلك .

وأصبحت الألفاظ ذات الأصل العربى موضع البحث من جانب الباحثين الرومانيين فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية قرننا العشرين ولكنهم كانوا يعتبرون جميع الكلمات التى لها أصل شرقى (ومنها ألفاظ أصلها فارسى أو تركى أو تترى) « كلمات تركية » أو بمصطلح أوسع وغير واضح « كلمات شرقية » أو « عناصر لفظية شرقية[1] » .

(١) ونذكر بين أهم الدراسات فى هذا المجال :

(أ) بحث « التأثير الشرقى على اللغة والثقافة الرومانية » للعالم اللغوى « لا زار شينيانو » الذى صدر فى بوخارست سنة ١٩٠٠ (العنوان باللغة الرومانية : Lazar Seineanu; Influenta orientala asupra limbei si culturei române Bucuresti, 1900) وهو إكمال لبحث آخر عنوانه : « ألفاظ تركية فى اللغة الرومانية » صدر فى سنة ١٨٥٥ (العنوان باللغة الرومانية : Elemente turcesti in limba româna, Bucuresti, 1885) ويعتبر بحثا « لا زار شينيانو » من أكمل البحوث التى وضعت حتى الآن فى هذا الموضوع رغم أن مؤلفهما لم يوضح ما هى مكانة الألفاظ العربية والتركيه والفارسية بين هذه الكلمات . أما الجزء الثانى من هذا البحث ، فهو قائمة بالكلمات الشرقية وفى هذا الجزء يشير الباحث إلى الأصل العربى لعدد من الكلمات الشرقية . أما أغلبيتها فهو يشير إلى الكلمة التركية فقط بدون أى إشارة إلى أصلها العربى أو الفارسى . ونذكر كذلك أن « لا زار شينيانو » لم يسجل فى القائمة التى حددها عددا كبيرا من الألفاظ العربية . و هو يقع فى كثير من الأخطاء لأنه لم يعرف اللغة العربية ومن المحتمل أنه لم يعرف الفارسية ولا التركية . ولهذا السبب يعتبر عددا من الكلمات العربية فارسية أو العكس كما أنه لا يشير بصورة صحيحة إلى اللفظ العربى الذى كان أصلا للكلمة الرومانية .

(ب) بحثا « تيوفيل ليوبيل » : « ألفاظ تركية وعربية وفارسية فى اللغة الرومانية » الصادر فى ليبزيغ سنة ١٨٩٤ (العنوان باللغة الرومانية : Elemente turcesti arabesti si persane in limba româna, 1894) و « اسهام فى تحديد الأصل الشرقى لعدد من الألفاظ الرومانية » الصادر فى بوخارست سنة ١٩٠٨ (العنوان باللغة الرومانية Contributiuni la stabilirea originii orientale a unor cuvinte românesti, Bucuresti, 1908.) ويكمل هذان البحثان عمل « لازار شينيانو » وتكون أغلبية تصحيحاته سليمة على الرغم من أنه يقع فى بعض الاخطاء كذلك . وكان « تيوفيل ليوبيل » يجيد اللغة التركية كما عرف شيئا ما العربية . ومما يثير الاهتمام أنه اعتبر الكلمات ذات الأصل العربى عربية وما كان منها تركى الأصل ألفاظا تركية وما كان منها فارسى الأصل ألفاظا فارسية (البحث الأول ص ١٧٠ – ١٨ ، البحث الثانى ص ٣٠) =

واعتبرت «قضية الألفاظ العربية الأصل» محلولة من خلال هذه الأبحاث ولم يتناولها بالبحث اللغويون خلال نصف قرن تقريبا وأشار مؤخرا « ألكساندرو روسيتى » عضو أكاديمية العلوم الرومانية والأستاذ « بوريس كازكو » فى كتابهما (تاريخ اللغة الرومانية) ، أشارا إلى ضرورة إعادة بحث هذ الكلمات فى ضوء الإنجازات الجديدة فى ميدان علم الاستشراق[1] .

ويبدو أن عددا من الباحثين لا يزالون يعدون جميع الألفاظ الشرقية الأصل الدخيلة إلى اللغة الرومانية عناصر لفظية تركية بصرف النظر عن أصلها العربى أو الفارسى .

إن الأصل المباشر لهذه الكلمات من اللغة الرومانية يوجد فى اللغة التركية ، ولكن دراسة عميقة دقيقة لأصل الألفاظ يجب ألا تكتفى بالإشارة إلى اللغة التى جاءت الكلمة منها مباشرة ، بل يجب أن تتابع الطريق الذى سارت عليه الكلمة وأن تصل إلى اللغة التى خرجت الكلمة المعنية منها . إن مثل هذه الدراسة تشير إلى إسهام اللغات فى نقل منجزات ثقافة مختلف الشعوب كما تشير إلى أن لغات شعوب متباعدة ظاهريًا كانت بينها روابط ربما لا تزال قائمة ، كما توضح تحقيق التبادل بين مختلف الحضارات .

وقد نبّه اللغوى السوفياتى (ر. أ. بوداغوف)ـ حين أشار إلى هذه الفكرة ـ إلى أصل مختلف الألفاظ الدخيلة ، فنص على أنها تؤخذ مباشرة وغير مباشرة أى بواسطة لغة ثالثة أوحتى رابعة أوخامسة[2]

= (ج) بحث « بعض الألفاظ الرومانية ذات الأصل العربى والتركى والفارسى والعبرى » لـ « غيورغى بوبيسكو تشوكانيل » ، باريس ، ١٩٠٧ (العنوان باللغة الفرنسية : Quelques mots roumains d'origine arabe, turque, persane et hebraique

وهذا البحث يجافى المنهج العلمى الصحيح إذ يعتبر مؤلفه عددا من الكلمات التى لا يوجد أى شك بصدد أصلها ، يعتبرها شرقية انطلاقا من التشابه اللفظى أو الدلالى فقط بدون أن يأخذ فى الاعتبار تاريخها والبحوث الأخرى التى وضعت إلى ذلك التاريخ والتى تشير بوضوح إلى أصلها .

(١) الكساندرو روسيتى وبوريس كازكو ، تاريخ اللغة الرومانية ص٣٤١ (Al. Rosetti, B.Cazacu, Istoria limbii române literare, Bucuresti, 1961, p. 341

(٢) ر . أ . بوداغوف : مقدمة فى علم اللغة (الطبعة الرومانية) ، بوخارست ١٩٦١ ، ص ١٣٧٠ .

أما الكلمات العربية الأصل الدخيلة فى اللغة الرومانية فقد وصلت إلى اللغة الرومانية بواسطة لغة ثالثة أى اللغة التركية ولكن هناك كلمات عربية وصلت إلى اللغة الرومانية بواسطة لغة رابعة (العربية ـ فالتركية ـ فالبلغارية (أو الصربية أو اليونانية) ـ فالرومانية) أو (العربية ـ فاللاتينية ـ فالفرنسية ـ فالرومانية) أو (العربية ـ فالأسبانية ـ فالفرنسية ـ فالرومانية) .

واعتبرت المستشرقة السوفيتية (ج. ف. زافا وفسكايا) الكلمات العربية الدخيلة فى اللغة الفرنسية مثلا اعتبرتها عربية ـ حتى لولم تدخل إلى اللغة الفرنسية مباشرة من اللغة العربية[١] .

وأشار (لويس ديروا) حيث تحدث عن كلمة magasin الموجودة فى اللغة الفرنسية إلى أنها عربية الأصل وأصلها كلمة (مخازن) جمع (مخزن) بالرغم من أنها وصلت إلى اللغة الفرنسية بواسطة الإيطالية أو البروفانسية[٢] . ، وأشار فى موضع آخر من نفس مؤلفه إلى أن بعض الكلمات الأجنبية قد دخلت الفرنسية عن طريق مباشر أو غير مباشر . » ومن الممكن أن نقول إن الفرنسية أخذت كلمات من جميع لغات العالم تقريبا إذا لم نأخذ فى الاعتبار أن عددا منها وصل إليها بواسطة لغة أخرى[٣] » .

وفى رأينا أنه يجب أن نعتبر الألفاظ ذات الأصل العربى الدخيلة فى اللغة الرومانية ألفاظا عربية لا تركية ولا شرقية تحريا للدقة فى التعبير .

وليس فى نيتنا أن نتناول التغيرات الصوتية التى حدثت عند انتقال الكلمات العربية إلى اللغة التركية إذ أشار إليها اللغوى الفرنسى (جان ديونى) فى كتابه « مبادئ النحو التركى[٤] » . كما أشار (لازار شاينيانو) فى كتابه (التأثير الشرقى على اللغة والثقافة الرومانية) المذكور إلى التغيرات الصوتية التى حدثت عند انتقال الكلمات من اللغة التركية إلى اللغة الرومانية[٥] .

(١) اللغات السامية (Semitskie iazîki) « الطبعة الروسية » ، موسكو ، ١٩٦٣ ص ٩٩ .

(٢) Louis Deroy, L'emprunt linguistique, Paris, 1956, p. 20

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٨٠

(٤) Jean Deny, Principes de grammaire turque, Paris, 1955, P. 26

(٥) لازار شاينيانو ، العمل المذكور ، ص ٤١٠ – ٤٥ .

ويلفت النظر أن اللغة التركية قد أثّرت بخصائصها الصوتية فى الكلمات العربية الدخيلة وعملت الرومانية بدورها نفس الشئ عند انتقال هذه الكلمات إليها . وفى حالة الكلمات الطويلة الحجم أو بعض التركيبات تم تقصيرها عند دخولها فى الرومانية . وفيما يلى بعض الأمثلة : ع . استفتاح > ت. siftah > ر. saftea. ؛ ع . مصادرة > ت. (mu) sadere > ر. satara. ؛ ع. دار الصناعة > ت . tersane > ر . tersana ؛ ع . ما شاء الله > ت . masallah > ر . masala ؛ ع . سلام عليكم > ت . selamlic > ر . selamlic .

وجرى تغيير آخر فى مجال الصوتيات كذلك ، ألا وهو فقد الحروف العربية المشدَّدة تشديدَها عند انتقالها من اللغة التركية إلى اللغة الرومانية وذلك أن التشديد ليس من خواصّ اللغة الرومانية ، فمثلا : ع . بطّال > ت. battal > ر. batal ؛ ع. جلّاد > ت. gellad > ر. gealat ؛ ع. حمّال > ت. hammal > ر. hamal ؛ ع. محلّة > ت . mahalle > ر . mahala ؛ ع. مقلّد > ت. mukallit > ر. mucalit إلى آخرها .

وهناك عدد من الأدلّة تشير إلى أن أغلبية الكلمات التى أخذتها اللغة التركية من اللغة العربية أخذتها من اللهجات الدارجة ولم تأخذها من اللغة الفصحى . والدليل الأول على ذلك أنها كلمات تحمل أسماء أدوات ملموسة لها انتشار واسع ، وقليل منها فقط يسمى عناصر للحياة الروحية .

والدليل الثانى هو فقد التنوين الذى الذى يمثل سمة للأغلبية الساحقة من الأسماء والصفات فى اللغة الفصحى ، ولا يصدر إلا فى حالات نادرة فى اللهجات الدارجة . وقد تركت التنوين جميع الكلمات العربية الأصل التى أخذتها الرومانية بواسطة التركية ، فمثلا :

ع. بلاءٌ > اللهجة بَلَا > ت. bela > ر. belea ؛ ع . كيفٌ > اللهجة كَيْف > ت. keiyf > ر. chef ؛ ع . ترتيبٌ > اللهجة ترتيبْ > ت. tertip > ر. tertip .

والدليل الثالث أنه لا يوجد هناك لفظ واحد وصل إلى اللغة الرومانية مسبوقا بـأداة التعريف (ال) ، إن كل الألفاظ من اللغة الدارجة ولها استخدام واسع وهذا مما يفسر نقص أداة التعريف [1] .

والدليل الرابع أن أغلبية الألفاظ التى تنتهى فى اللغة العربية بتاء مربوطة قد فقدت هذه التاء عند انتقالها إلى اللغة التركية : ع . عقيدة > ت . akydo > ر . acadea ؛ ع . لقمة > ت . lokma > ر . locma ؛ ع . نفقة > ت . nafaka > ر . nafaca (وجرى عند الانتقال إلى اللغة الرومانية كما يبدو تغيير لترتيب الحروف الأصلية) .

وفى عصر التأثير التركى الطويل على البلدان الرومانية ـ وبالتالى على اللغة الرومانية ـ لم يُمَسّ ما يسمى بالتركيب الأساسى للغة الرومانية . ونفس الشئ من الممكن أن نقوله بصدد التركيب النحوى والتركيب الصوتى . إن الكلمات ذات الأصل العربى الدخيلة فى اللغة الرومانية والتى بلغ عددها بعض المئات ترتبط بالحياة السياسية والعسكرية والإدارية للبلدان الرومانية وبالأتاوات التى كانت هذه البلاد مضطرة إلى دفعها ، وبالثياب الشرقية الأصل من ذلك العصر .

ودخل عدد من هذه الكلمات اللغة الرومانية بالعادات والعلاقات التى كانت تسميها بينما كان عدد منها يسمى العلاقات القائمة فى الامبراطورية العثمانية ولما زالت العلاقات التى كانت تسميها هذه الألفاظ وتبدلت الأدوات التى دخلت معها اللغة الرومانية ، فإن هذه الألفاظ أصبحت غير معروفة وغير مستعملة وتعتبر فى عصرنا هذا كلمات قديمة لا تستخدم إلا فى كتب التاريخ أو كتب الأدب ذات الطابع التاريخى .

(١) والجدير بالذكر أنه دخل فى اللغة الرومانية بواسطة اللغات الغربية كثير من الألفاظ العربية التى كانت مصطلحات علمية فى اللغة العربية . وقد وصلت إلى اللغة الرومانية مسبوقة بأداة التعريف ومن هذه الألفاظ مثلا : alambic, alcali, alcool, algebra, alidada وغيرها ، ويبدو أن استخدام أداةالتعريف كان يشير إلى أن هذه الكلمات مصطلحات علمية إذا أخذنا فى الاعتبار أن هناك كلمات من اللغة الدارجة وصلت بغير أداة التعريف إلى اللغة الفرنسية ومنها إلى الرومانية ، مثل ع . فقير > ف . faguir > ر . fachir ؛ ع . مسكين > ف . mesquin > ر . meschin ؛ ع . فلاح > ف . fellah > ر . felah .

وفيما يلى قائمة بالألفاظ العربية الأصل التى كانت تسمى علاقات سياسية وإدارية وعسكرية من عصر السيطرة التركية وأدوات ملموسة لها ارتباط بهذه العلاقات.

ascher, cadiascherº,[1] caid, caimacamº, calem, carar, cișt, dandana, gerid, hanger, harșa, hatișerifº, havalea, hochim, huzmet, leafa, mazdrac, menzil, merchez, mertepea, meterez, mucaesea, mucarer, muchealemea, muhafiz, muhaserea, muhemat, muhur, mumbașir, murahaș, mușir, muteveliu, naip, nazir, nefer, nizam, nobet, raia, redif, regeal, reiz, rusumat, rușfet, sacat sadrazanº saltanat, seleaf, seraschierº, serhatº, sultan, tabie, tacrir, talhîs, tarapanaº, teșcherea. teșrifat, umur, ușur, validea, valiu, vechil, vilaet, vizir, zabet, zaherea, zaim.

ولا يستخدم من هذه القائمة الطويلة إلا بعض الألفاظ فى أيامنا ، بعضها نتيجة للتطور الدلالى وبعضها فى الأدب ذى الطابع التاريخى

dandana, hanger, leafa, meterez, raia, sultan, tarapana, vechil, vizir.

ومن الممكن أن يجرى هذا التغير لأن العلاقات التى كانت تسميها تغيرت تغيرا مستمرا كبيرا .

ولا يزال يستخدم فى عصرنا عدد من الكلمات التى كانت تسمى أنواعا من المنسوجات أو الثياب ، مثل :

aba, anteriu, burnuz, catifea, cutnie, fes, giubea, halat, imamea, iminei, marama, melez ولكن معناها قد تغير فى خلال القرون .

وقد وصل إلى اللغة الرومانية عدد من الألفاظ التى لها وزن « فَعَّال » الذى يشير إلى المهنة أو الحرفة :

bacal, casap, cavaf, gealat, gerah, hamal, telal, zaraf ولكنها وصلت إلى اللغة الرومانية بحرف عين غير مشدد . وبالإضافة إلى هذه ، وصلت كذلك كلمات أخرى تشير إلى الحرف أولها صلة بالحرف :

alvitar, calfa, badîmb, halvagiu, isnaf, mămular, nalbar, rufet, tergiman, seiz, surugiu ولا يزال يستخدم بعض هذه الألفاظ : casap التى اشتق منها فى اللغة الرومانية الفعل căsăpi الذى له انتشار واسع و gealat, و surugiu و zaraf, .

ومن الجدير بالذكر أن أغلبية الألفاظ التى لها صلة بالحياة المالية والتجارية

---

(١) الكلمات التى تتبعها هذه الإشارة(ه) تكونت فى اللغة التركية من كلمتين عربيتين أو من كلمة عربية وكلمة فارسية

تستخدم كذلك فى عصرنا :

aiar, amanet, calp, chesat, chila, mezat, magazie, mofluz, musteriu, oca, raft, saftea, tarapana°, telal, zaraf,

كما تحتفظ اللغة الرومانية الحالية بأغلبية الألفاظ العربية الأصل التى كانت تسمى أطعمة ومشروبات

acadea, cafea, cataif, chebap, ciorba halva, locma, magiun, musaca, rachiu, rahat, serbet, tahin ، كما وصلت إلى الرومانية بعض الألفاظ التى لها صلة بالأطعمة ومنها : mutpah, nastrapa, sahan, satîr, sofra, sufertas°, tain ولاتزال تستخدم منها satîr, sufertas°, tain.

ووصلت إلى اللغة الرومانية كذلك بعض الكلمات العربية الأصل التى تسمى نباتات ومواد مثل :

afion, cafea, cafea, cana, catran,(1) chibrit, chimen, cîrmîz, cubeba, hardal, haşiş, liliac, mucava, sabur, sidef, tahîn, zambac, zof, zambila

وكثير من هذه الكلمات يوجد فى اللغة الرومانية الحديثة ويستخدم بعضها كمصطلحات علمية .

ويستخدم كذلك جزء من الألفاظ التى كانت تدل على أسماء الأعيان :

alem, acaret, bagdadie, bina, cafas, calup, canat, cherpedin, chiub, cîlîf, cubea, cula, halca, hap, havuz, hazna, hurtum, mahmudea, macaz, maden, magazie, mahala, maidan, masala, matara, aba, anteriu, burnuz catifea, cutni, fes, giubea, halat mehlem, merea, minaret, nastrapa, sel, saca, satîr, zaraf, imamea, iminei, marama, melez

ولبعض هذه الألفاظ انتشار واسع فى أيامنا أيضا .

والجدير بالذكر أن ١٥ كلمة من مجموع الـ ٢١ (٢) كلمة التى دخلت إلى اللغة

---

(١) دخلت كذلك بواسطة الفرنسية بشكل gudron

(٢) وسجل هذه الكلمات الـ ٢١ « الكساندرو روسيتى » و « بوريس كازاكو » فى كتابهما المذكور ، ص . ٢٣٨

الرومانية عن اللغة التركية وكانت تحمل دلالات مجردة أصلها عربى

belea, berechet chef, cusur, dandana, habar, hal haltir, huzur, mahmur, marafet,nuri, sart, tabiet, tertip

وبالرغم من أن مجال الديانة لم يُمَسّ بالتأثير الإسلامى خلال القرون الماضية فقد دخل إلى اللغة الرومانية عدد من الكلمات التى كانت تسمى الأمور التى لها علاقة بالدين الإسلامى . ومن الطبيعى أن يكون أصل هذه الكلمات عربيا إذا أخذنا فى الاعتبار أن العرب[1] هم الذين أسسوا هذه الديانة . ولا تزال تستخدم أغلبية الألفاظ التى تسمى وقائع لها صلة بالدين الإسلامى :

cadiu, Coran, geamie, gheaur,hagialic, hagiu, hurie, imam, mecet, muezin, musulman, rama - zan, salavat, segedea. seic, seitan, ulema, vacuf

ومن المتوقع أنه جرت تغيرات كبيرة فى (دلالة) الألفاظ العربية الأصل الدخيلة فى اللغة الرومانية باعتبار أنها وصلت إلى الرومانية بواسطة لغة أخرى قبل قرون كثيرة . وعلى الرغم من هذه الظروف فإن هذه الألفاظ لم تتغيرمعانيها إلا فى حالات نادرة وبصورة ضئيلة .

ودخل إلى الرومانية الألفاظ التى كانت تسمى علاقات سياسية أو شرعية أو إدارية أو عسكرية فى عصر معين أى فى عصر الاحتلال العثمانى فى نفس الوقت مع العلاقات التى كانت تسميها . أما اللغة التركية فأخذتها فى أغلب الحالات من العربية بدون أن تحدث فيها أى تغيير أو محدثة فى بعضها تغييرات ضئيلة صغيرة . وأغلبية هذه الكلمات لها نفس المعانى فى العربية والتركية والرومانية ونذكر من بينها : حكم < hochim ، محافظ < muhafiz ، مباشر < mumbaşir ، محاصرة < muhaserea ، متولى < mutevelia ، مسلّم < muselim ، نائب < naip ، سلطان < sultan ، تقرير < tacrir ، تذكرة < teschereaa ، والى < valiu ، ولاية < vilaet ، وزير < vizir ، ضابط < zabet ، زعيم < zaim كما لم تحدث تغيرات فى معانى الكلمات التى تسمى أسماء الأعيان مثل :

acaret, alem, cafas, calup, havuz, hurtum, muşama, nastrapa

(١) لم نعن هنا بالسكان الأتراك والتتار الذين يعيشون فى رومانيا حاليا والذين يتجاوز عددهم ٤٠ ألفا والذين يعتنقون الإسلام .

وغيرها . وكذلك فى معانى أسماء النباتات والمواد مثل :

afion, cafea, cana, cafea, catran, chimen, cirmîz, cubeba, hardal, haşiş, liliac, sabur, sidef, şofran, tahîn, zambac

وفى المصطلحات الدينية مثل :

Cadiu, Coran, geamie, hagiu, imam, mecet, muezin, ramazan, şeic, segede, vacuf

أما الألفاظ التى تسمى أصحاب الحرف وأشياء أخرى تتصل بهم ، فلم تجر فيها إلا تغييرات طفيفة

bacal (bacan), casap, cavaf, gerah, halvagiu, hamal, isnaf, rufet, seiz, telal, tergiman, zaraf

وقد جرت أهم التغيرات فى معانى الألفاظ التى تسمى صفات أو عيوبا ولكن مدلولات هذه الألفاظ أيضا كانت أقرب إلى المدلولات الموجودة فى اللغة التركية أو فى اللغة العربية فى عصر قديم من تاريخ اللغة الرومانية . فمثلا كلمة عجمىّ > ت acemi بالمعانى الآتية : «فارس ؛ بربرى ؛ جاهل ، خشن ، غليظ ؛ مبتدئ ؛ شخص ليست له خبرة > ageamiu بالمعنى «مبتدئ ، شخص ليست له خبرة بالحياة أو لا يحسن التصرف » ؛ ع . خائن > ت hain بنفس المدلول الموجود فى اللغة العربية > ر . hain ، وكان للفظ الرومانى المعنى العام الموجود فى العربية والتركية ولكنه اكتسب كذلك معنى آخر «قاس» ؛ ع . مقلّد > ت . mukallit > ر . mucalit وبالإضافة إلى الدلالة الأصلية تطوّرت هذه الكلمة فى اللغة الرومانية إلى معنى «مضحك وهو جادّ ، متندر » . وفى ع . «تلبيس» نجد أنها أصبحت فى الرومانية telpiz وأنها صفة فى هذه اللغة ولها معنى «ماكر ، [متكلّف ، متصنّع » . [illegible]

وجرت التغيرات التى تتصل بمعانى هذه الكلمات فى اللغة الرومانية بعد أن انقطعت علاقاتها المباشرة مع اللغة التركية . إن حالة من حالات تطوّر الدلالة يمثلها فقط عدد من المدلولات الأصلية حيث يقتصر اللفظ على معنى واحد وحسب ، دون المدلولات الأخرى التى كانت له فى التركية أو العربية . وهذه الظاهرة تحدث فى أغلبية الألفاظ العربية الأصل الدخيلة فى اللغة الرومانية . كما يحدث فى بعض الحالات أن التركية بدورها قد اقتصرت على أحد مدلولات اللفظ دون غيرها . وفيما يلى بعض الأمثلة :

ع . عوائد (جمع العائدة) [1] > ت . avait ؛ « مداخيل ، ضرائب » > ر . avaet « ضريبة كانت تدفع لمداخيل معينة » . ونلاحظ أن الكلمة « عوائد » التى لها معان كثيرة فى اللغة العربية دخلت فى اللغة التركية ببعضها بينما لم تحتفظ الرومانية إلا بمعنى واحد . ونفس الظاهرة جرت بكلمات أخرى : ع . قيد > ت kayd > ر . caid « ملف ، أرشيف » ؛ ع . خاطر > ت . > hatır > ر . hatîr « رغبة » ؛ ع . مسافر > ت musafir > ر . musafir « ضيف » وغيرها .

وهناك طبعا ألفاظ وصلت إلى الرومانية واحتفظت بمعانيها المختلفة من اللغة المانحة ، مثل اللفظ « حريم » الذى له فى الرومانية المدلولان الموجودان فى اللغة الأصلية : « زوجات رجل مسلم متعدد الزوجات » و « جزء من البيت الخاص بالنساء » .

ومن الطبيعى أن تتغير مدلولات كثير من الكلمات الدخيلة إذ أنها أصبحت ذات سمات جديدة تتسم بها ألفاظ اللغة التى وصلت إليها وتطورت فى ظروف تاريخية جديدة تحدّد تطوّر اللغة فى مجموعها . وهناك فى اللغة الرومانية كلمات عربية الأصل ابتعدت معانيها عن المعانى الموجودة لها فى اللغة العربية وحتّى فى اللغة التركية . وهذا ما حدث مثلا فى اللفظ « أبرش » الذى كان يشير فى اللغة العربية إلى صفة من صفات الحصان والذى أصبح فى الرومانية (وشكلها abraş) يشير إلى صفة أخرى بالنسبة للحصان ألا وهى « جامح » وبالإضافة إلى هذه يشير إلى صفة من صفات الإنسان ألا وهى « عنيف وشرير » وإلى صفة لأعمال الإنسان ألا وهى « فاشل وخائب » . ومن الملاحظ أنه بينما كان يدل فى العربية والتركية على صفة من صفات الإنسان فقط ، توسع فى الرومانية نطاق الدلالة وأصبح يشمل بالإضافة إلى صفة الحصان صفات أخرى خاصة بالإنسان . إن تطورا مشابها جرى بالنسبة لكلمة « خفيف » والتى أصبحت تدل فى الرومانية (وشكلها sfif) على صفة « المفلس » .

وفى حالات أخرى لا يقتصر تطور اللفظ الدخيل على التعبير عن معان جديدة بل فى

---

(١) لا تسجل هنا معانى الكلمات فى العربية اعتبارا أن الباحث يجدها فى القواميس العربية .

إمكانها أن تكسب قيما بلاغية معينة وطابعا اجتماعيا معينا . وقد أشار « لازارشاينيانو » فى عمله المذكور إلى بعض هذه الكلمات [1] ونحن نضيف إليها أمثلة أخرى :

afif (ع . خفيف) بمعنى « مفلس » و ageamiu (ع . عجمىّ) بمعنى « مبتدىء » و berechet (ع. بركة) بمعنى « مكّار » و ciorba (ع . شربة) فى المثل « a te băga în ciorba cuiva » بمعنى « تدخل فى شؤون شخص آخر » و fes (ع . فاس) فى المثل « a turti fesul cuiva » بمعنى « خيب آماله » و fitil (ع . فتيل) فى المثل « a băga fitiluri » بمعنى « دس الدسائس » و hap (ع. حبّ) فى المثل « a înghiți hapul » بمعنى « فتسل » إلى آخرها .

وفيما يتعلق بالقيمة الاجتماعية التى تكسبها كلمة فى مرحلة من مراحل تطورها ، أبلغ مثل هو مثل اللفظ chiabur (ع . كبير) . وقد أصبح لهذا اللفظ استخدام واسع جدًا فى مرحلة انتقال رومانيا من الرأسمالية إلى الاشتراكية أى فى سنوات الكفاح ضد ملاك الأراضى الكبار ومن أجل الإصلاح الزراعى والتحول الاشتراكى للزراعة . واكتسبت هذه الكلمة فى تلك السنوات معنى الكلمة الروسية « كولاك » تحت تأثير اللغة الروسية طبعا وكانت لا تدل على الإقطاعيين بالضبط ، بل على فئة ريفية أخرى — فئة برجوازية الأرياف وصغار الملاك الذين لم تقم الدولة الاشتراكية بتأميم ممتلكاتهم أو بتوزيعها على الفلاحين الفقراء ولكنها ضغطت عليهم لكى يتجهوا إلى الاشتراكية . ونتيجة لاكتساب هذا المعنى أصبح لهذه الكلمة انتشار واسع إذ كان يستخدمها جميع متحدثى اللغة الرومانية واشتق منها أحد عشر مشتقا جديدا بوسائل اشتقاقية خاصة للغة الرومانية وهى : صفة chiaburesc واسم chiaburan واسم se chiaburime وفعل se chiaburi واسم chiaburoi ومصدر deschiaburire وفعل deschiaburi ومصدر deschiaburire وصفة închiaburit .

---

(١) لازار شاينيانو ، الكتاب المذكور ، ص . ٤٧

ومما يلفت النظر أن الانتشار الواسع لهذه الكلمة ومشتقاتها كان محدودا زمنيا ، ولا يستخدمها متحدثو الرومانية اليوم إلا عندما يتحدثون عن وقائع تلك الفترة التى تجاوزها المجتمع الرومانى .

وحصلت الكلمة vechil (وكيل) كذلك فى مرحلة معينة من تاريخها على ظل دلالى اجتماعى . وكان من بين معانى الكلمة العربية معنى « منتدب » و « مفوّض » و « نائب » واحتفظت الكلمة بنفس الدلالات فى اللغة التركية بينما بدّلتها فى اللغة الرومانية إذ أصبحت تعنى فيها بالإضافة إلى « نائب قائد الدولة » و « المحامى » معنى آخر ألا وهو « الشخص المفوّض بالإشراف على العمل فى إقطاع » أى « نائب الإقطاعى » و « مشرف » . ويعرفها متحدثو الرومانية بهذه المعانى الأخيرة نتيجة لاستخدامها فى فترة طويلة من الزمن بهذه المعانى .

إن كثيرا من الكلمات العربية الأصل الموجودة فى اللغة الرومانية اكتسبت ظلا دلاليا فكاهيا . فمثلا كلمة berechet (بركة) اكتسبت بالإضافة إلى معنى « زيادة الخير » الأصلى معنى « مكّار ، شاطر » وكذلك الكلمة « fudul (فضول) التى لها بالإضافة إلى معنى يكون ممكنا تفسير ارتباطه بالمعنى الأصلى اكتسبت معنى آخر فى المثل fudul de-o ureche أى « أصم » ، وكذلك الكلمة hap (حبّ) لها معنى جديد فكاهى فى المثل a înghiti hapul بمعنى « تحمل شيئا غير محبوب » .

هذا ، وقد اكتسبت ألفاظ أخرى ظلا دلاليا ممزوجا بالفكاهة ، ومنها gealat (جلّاد) بمعنى « فتوة ، جدع » mahala (محلّة) بمعنى « ساحة ، خاصّة فى ضواحى المدن ، تجمع فيها الزبالة أو يستخدمها الأطفال للعب » . ويعرف كذلك متحدثو الرومانية هذه الكلمة فى عصرنا هذا بمعانيها الجديدة هذه .

وأشار اللغوى الفرنسى « لويس ديروا » فى إحصاء عامّ للكلمات الدخيلة إلى أن أغلبيتها (ما بين ٧١ فى المئة و ٧٥ فى المئة) أسماء وما بين ١٨ — ٢٣ فى المئة أفعال ، وما بين ٣ — ٤ فى المئة صفات ، و ١ فى المئة حروف . [1] ونلاحظ أن

(١) Louis Deroy ، الكتاب المذكور ص ٦٧ .

هذه الإحصائيات تؤكدها كذلك حالة الكلمات العربية الدخيلة إلى اللغة الرومانية: حوالى ٨٥ فى المئة منها أسماء وحوالى ١٠ فى المئة منها صفات وحوالى ١٠ فى المئة تكون حروفا وأدوات تعجب . ومما يلفت النظر كذلك أنه لم يصل إلى الرومانية فعل واحد وربما ذلك بسبب الشكل المقيد للفعل العربى .

وكثيرا ما يحدث عند انتقال لفظ من لغة إلى لغة أخرى تغير له من أجل إدخاله فى نوع صرفى معين كما يحدث تنقله من الاسم إلى الصفة أو العكس . وهناك بعض الأمثلة من هذه الناحية : اللفظ « فضول » كان اسما فى العربية والتركية وأصبحت fudul فى الرومانية صفة واشتقت الرومانية من هذه الصفة اسما جديدا حسب نظامها فى الاشتقاق fudulie . واللفظ « تلبيس » telpiz الذى هو مصدر فى العربية أصبح فى التركية اسما وصفة وفى الرومانية صفة فقط . والحالة العكسية : اللفظ chiabur الذى تحدثنا عن معانيها أعلاه .

وبين الألفاظ العربية الأصل هناك بعض الصفات التى تدل على خواص أو عيوب . ومن الجدير بالذكر أنها كانت فى اللغة العربية أسماء ومنها hain (خائن) بمعنى « شرير » و « قاس » و mofluz (مفلس) بمعنى « غير مرض » و siret (شرّة) بمعنى « ماكر ، مخدع » وغيرها.

وهناك بعض الحالات التى لا تعتبر فيها اللغة التركية الجمع جمعا بل تعتبره مفردا وتشتق منه جمعا جديدا حسب نظام اشتقاقها للجمع كما تحدث هذه الظاهرة عند انتقال عدد من هذه الجموع إلى الرومانية . فمثلا acaret (عقارات جمع عقار) يشتق منها جمع رومانى acareturi ، وكذلك catair (قطائف جمع قطيفة) يشتق منها جمع cataifuri . وكذلك من havadis (حوادث جمع حادثة) يشتق جمع havadisuri وغيرها . وهذا هو دليل آخر على أن هذه الكلمات وصلت إلى الرومانية عن طريق الحديث لا عن طريق الكتابة .

وأصبحت بعض أسماء المدن والمناطق العربية تسمى فى الرومانية بأشياء ملموسة أصلها فى هذه المناطق ، ومنها fes (مدينة فاس) بمعنى « طربوش » و misir

(مصر) بمعنى «حصان عربى» و şama (شام) بمعنى «منسوج معين». واحتفظت هذه الكلمات لفترة بعد دخولها الرومانية بالمعنى الأصلى وفى مرحلة أخرى فقدت هذا المعنى وأصبحت تعرف بمعانى هذه الأشياء الملموسة التى اعتبر أصلها فى هذه المناطق العربية المذكورة .

كما وصل إلى اللغة الرومانية عدد من النسب المشتقة من أسماء مناطق أو مدن عربية كذلك . ومنها iminei (يمنىّ) ويدل اللفظ على نوع خاص من الأحذية يعتبر أصلها فى اليمن و bagdadie (بغدادىّ) الذى يدل على أسلوب معين فى طلاء المبانى يتشابه مع الطلاء الذى كان يستخدم فى بناء البيوت ببغداد وغيرها . وفى أغلب الحالات أصبحت هذه النسب أسماء فى الرومانية .

وليست الألفاظ التى تسمى ظروفا أو أدوات تعجب ليست فى أغلب الحالات كذلك فى العربية ، بل هى إما أسماء وإما مصادر وإما تركيبات لفظية ، فمثلا اللفظ hareci (حراج) بمعنى «صوت يستخدمه قائد بيع المزاد» و maşala (ماشاء الله) بمعنى «أحسنت ، برافو عليك» و tiptil (تبديل) بمعنى «خفية» . ونذكر كذلك أن عددا من الألفاظ العربية الأصل احتفظت بها الرومانية فى عبارات مركّبة فقط على الرغم من أن لها معان خاصة فى العربية وفى التركية ، ومنها : cherem (كرام) فى المثل la cheremul cuiva بمعنى «تحت أمر شخص» و chelemet (كلمة) فى المثل a face chelemet cu cineva بمعنى «اتّصل بشخص اتصالا وديّا» و naht (نقد) فى العبارة în naht بمعنى «نقدا» و naiba (نائبة) فى العبارة la naiba بمعنى : فى الداهية وغيرها .

وتعتبر أغلبية هذه الأمثال قديمة ومن الممكن أنه فى فترة معينة من تاريخ اللغة الرومانية كانت لهذه الكلمات معان خاصة . ويبدو أن هذا سيكون مصير ألفاظ لها معان خاصة وهى منفردة ولكن أغلبية المتحدثين يعرفونها فى أمثال . ومن هذه الألفاظ: aman, abraş, habar, har, hal, halal, haram, hatîr, hap, iaca, mertepca, nazar, ramazan, saftea, şart

وكان عدد الألفاظ العربية الأصل التى دخلت فى اللغة الرومانية بواسطة التركية يتجاوز ٤٠٠ لفظا . ويحتوى هذا الرقم

على الألفاظ الأصلية فقط ولا يشمل المشتقات المختلفة التى تكونت من هذه الألفاظ على التربة الرومانية ولا الأشكال اللهجية التى كانت متعددة فى بعض الحالات . وتستخدم فى الوقت الحاضر أغلبية هذه الألفاظ فى لغة الكتابة ولكنها غير شائعة فى الاستعمال العادى للغة .

إن عددا من هذه الألفاظ استخدم فى قرون السيطرة العثمانية فقط وفى أغلب الحالات زالت فى نفس الوقت بزوال الأدوات والمؤسسات والعلاقات التى كانت ترتبط بها .

إن كثيرا من الألفاظ التى حللناها لا تزال تستخدم فى عصرنا الحديث استخداما واسعا ، وهذه قائمة لها :

abraş, acaret, ageamiu, bina, calp, catifea, catran, chef, chibrit, chirie, ciorba, cusur, dandana, fes, fitil, fudul, furtun, gealat, get-beget, habar, hac, hal, halal, halat, halva, hamal, haram, hatîr, haz, hazna, huzur, leafa, liliac, macaz, magazie, magiun, mahala, mahmur, marafet, marama, meremet, mezat, mofluz, mosor, mucalit, mucava, musaca, muşama, muşteriu, naiba, năframa, oca, rachiu, rahat, ramazan, raft, şaca, saftea, satîr, sidef, sofa, sufertas, şerbet, şiret, tabiet, tacîm, taman, talpiz, tertip, tiptil, vechil, zaiafet, zambila, zarzavat, zurliu.

وهناك ألفاظ أخرى تستخدم فى اللغة الدارجة بصورة خاصة .

والجدير بالذكر أن عددا منها لايزال يستخدم نتيجة للمعانى الجديدة التى حصل عليها فى اللغة الرومانية ، مثل :

abraş, ageamiu, avan, berechet, bina, dandana, fudul, gealat, halat, hatîr, leafa, magazie

وهناك ألفاظ أخرى بقيت فى اللغة نتيجة لدخولها فى أمثلة لها استعمال واسع ، ومنها : hac, habar, halal, hatîr, naiba وغيرها .

ومن أهم الملاحظات أن هناك عددا من الكلمات العربية الأصل التى وصلت إلى رصيد اللغة الأساسى أى أنها تُعدّ بين الآلاف القليلة من ألفاظ اللغة الرومانية التى تعتبر أساس متن اللغة وهذه الألفاظ هى cafea, chef, chirie, hal . وهناك كلمة خامسة ـ cîntar ـ التى نشك فى أن أصلها عربى ولكنها دخلت بالمعنى

الموجود فى اللغة الرومانية من اللغة العربية بواسطة التركية وتسجل قواميس اللغة الرومانية عددا من المشتقات التى اشتقت من هذه الألفاظ إما باللغة التركية وإما بالرومانية .

إن اللفظة cafea (قهوة) مثلا لها ثمانية مشتقات فى اللغة الرومانية : الاسم cafegi-bașa < ت . kahvegi-bașa والاسم cafegiu < ت. kahveci والاسم cafegioaica والفعل cafeli والاسم cafeluța واسم المكان cafenea < ت. kahvehane واسم المكان المصغر cafeneluța والصفة cafeniu

أما اللفظة chef (كَيْف) فلها خمسة مشتقات ولكنها تستخدم فى اللغة الحديثة استخداما واسعا إذ أن اللفظة تدل فى الرومانية على الاجتماع المصحوب بالشراب والرقص ،والرومانيون مشهورون بهذه الأفراح التى يأكلون فيها ويشربون الخمر ويرقصون . وهذه المشتقات هى : الفعل chefălui والصفة chefliu < ت. keyfli والفعل chefui واسم التصغير chefuleț واسم التصغير chefușor .

أما اللفظة chirie (كراء) فلها تسعة مشتقات ويُعدّ بعضها مهجورا : الاسم chiriaș والاسم chirigiu < ت. kiragy والفعل închiria والمصدر închiriere والمفعول închiriat والفعل reînchiria والمصدر reînchiriere والفعل subînchiria والمصدر subînchiriere

أما اللفظة hal (حال) فبالرغم من أنه ليست لها مشتقات فلها استعمال جدّ واسع نتيجة لدخولها فى عدد من الأمثال الواسعة الاستخدام .

وفيما يخص اللفظة cîntar فلها ستة مشتقات وكلها تستخدم بصورة خاصة فى لغة التجارة ، وهى اسم الحرفة cantaragiu < ت. kantaragy والفعل cîntări والمصدر cîntărire والمفعول cîntărit والصفة necîntărit والصفة recîntărit .

إن كثيرا من الألفاظ التى ذكرناها أعلاه دخلت فى لغة الأدب نتيجة لظلالها

البلاغية أو نتيجة لقوتها التعبيرية الكبيرة ، كما دخل عدد آخر منها فى رصيد الألفاظ المهجورة للغة الرومانية والتى تخرج من مخفاها وتستخدم لوصف وضع خاص من ماضى التاريخ .

ومن المفترض أن جزءا من الكلمات العربية الأصل الدخيلة إلى اللغة الرومانية سوف يستمر استخدامها لمدة طويلة بعد إما نتيجة لأنه لا يوجد هناك مترادفات تنافسها وإما نتيجة للظلال الدلالية الجديدة التى اكتسبتها .

هذا ، ونقدم فيما يلى قائمة كاملة بالألفاظ العربية الأصل الدخيلة فى اللغة الرومانية بواسطة اللغة التركية ولأسباب من السهل فهمها نقتصر على الإشارة إلى الأصل العربى والوسيط التركى من غير أن نشير إلى معانيها . إن الراغبين فى بحث هذه الكلمات فى إمكانهم أن يجدوا دلالاتها مسجلة فى قواميس اللغة الرومانية . ولا نسجل فى هذه القائمة كذلك إلا الشكل الأساسى لكل كلمة أى الشكل الذى يستخدم فى اللغة الفصيحة أو الذى كان له أكبر انتشار فى حالة الكلمات التى لا تستخدم فى الوقت الحالى . ولانسجل الأشكال اللهجية الأخرى التى لها استخدام محلى أو محدود زمنيا رغم أنه فى عدد من الحالات تكون هذه الأشكال أقرب من الأصل وتساعدنا فى فهم التطور الدلالى . ولانتناول المشتقات الأخرى المكونة فى اللغة الرومانية . ورتبنا الألفاظ فى هذه القائمة حسب الحروف الأبجدية الرومانية .

اللغة العربية >	التركية >	الرومانية
عيار	aiar	aiar
علم	alam	alem
أمّا	amma	ama
أمان	aman	aman
أمانة	amanet, emanet	amanet
عرب	arab	arap
عرض	arz	arz
عرض حال	arzi hal	Arzihal°

اللغة العربية >	التركية >	الرومانية
عباء	aba	aba
أبرش	abraş	abraş
عقيدة	akyde	acadea
عقارات	akaret	acaret
عادة	âdet	adet
خفيف	hafif, afif	afif
عجمىّ	agemî	ageamiu
عجم	Agem	agem

الرومانية	< التركية	< اللغة العربية
ascher(iu)	asker	عسكر
atlaz	atlaz, atlas	أطلس
avaet	avait, avaid	عوائد
avan	havan	خوّان
bacal	bakkal	بقّال
bagdadie	bagdadi	بغدادىّ
batal	battal	بطّال
băcan	bakkal	بقّال
bacan	bakkam	بقّم
becher	bekâr	بكر
belea	belâ	بلاء
berechet	bereket	بركة ؛ بركات
bidiviu	bedevi	بدوىّ
bina	bina	بناء
budala	budala	بدلاء
burnuz	burnuz, burnus	برنس
cabul	kabul	قبول
cadiascher	kadyasker	قاضى عسكر
cadiu	kady	قاضى
cafas	kafas	قفص
cafea	kahve	قهوة
caiafet	kiyafet	كيفية
caid	kayd	قيد
caimacamo	kaymakam	قائم مقام
caimea	kayme	قائمة
calem	kalem	قلم
calfa	kalfa	خليفة
calp	kalp, kalb	قلب
canat	kanat	كنّة
carar	karar	قرار
casap	kasab, kassab	قصّاب
cataif	kataif	قطائف
catifea	katifa	قطيفة
catran	katran	قطران
cavaf	kavaf	خفّاف
cavas	kavas	قوّاس
căneala,cana	kana	حنّاء
chebap	kebap	كباب
chef	kef, keiyf	كيف
chelemet	kelimet	كلمة
cherem	kerem	كرام
cherpedin	kerpedin	كلبتان
chesat	kesat, kesad	كساد
chiabur	kebir	كبير
chiafir	kyafir	كافر

الرومانية	< التركية	< اللغة العربية
chiatip	kyatib	كاتب
chibrit	kibrit	كبريت
chila	kile	كيلة
chilîf	kîlîf, gylaf	غلاف
chirie	kira	كراء
chiup	kup, kub	كوب
ciorba	ciorba	شربة
cîntar	kantar	قنطار
cîrîmîz	kîrmîz	قرمز
cîştiu	kyst	قسط
Coran	Koran	القرآن
cubea	kubbe	قبّة
cubeba	kebâbe	كبابة
cula	kula	قلعة
cumaş	kumaş	قماش
cusur	kusur	قصور
cuschebap°	kuş-kebaby	كسكس+كباب
cutnie	kutnie	قطنيّة
dahiu	dahi	دهيّ
dairea	daire	دائرة
dandana	tantana	طنطنة
dava	dava	دعوى
dever	devir	دور
devlet	devlet	دولة
duhan	duhan	دخان
duva	duva	دعاء
ecpaia	etba	أتباع
farfara	farfara	فرفرة
fes	fes	فاس
fesfesea	fesfese, vesvese	وسوسة
fil	fil	فيل
fudul	fudul	فضول
furtun	hortum	خرطوم
gealat	gellât, gellâd	جلّاد
geamala	gemal	جمال
geamie	gami	جامع
gelep	gelep	جلّاب
gerah	gerrah	جرّاح
geremea	gereme	جريمة
get-beget	ged-bi-ged	جدّ بجدّ
ghiaur	gâvur	كافر
ghiordie	kurdiye	كرديّة
giol	gul	جلّ
giubea	ǧubbe	جبّة
habar	habar, haber	خبر
hac	hak	حقّ

الرومانية	التركية >	العربية >
hadîm	hadym	خادم
hagiu	hagi	حاجّ
hain	hain	خائن
hal	hal	حال
halal	halâl	حلال
halat	halat	خلعة
halat	alât	آلات
halca	halka	حلقة
halva	halva	حلوى
hamal	hammal	حمّال
hanger	hanger	خنجر
hap	hap	حَبّ
haraci	haraci	خراج
haram	haram	حرام
hareci	hareč	حراج
hardal	hardal	خردل
harem	harem	حريم
harşa	haşa	غاشية
hasa	hasa	غشاء
hat	hatt	خط
hat	hat	حلّ
hata	hata	خطأ
hatîr	hatir	خاطر

الرومانية	التركية >	العربية >
havadis	havadis	حوادث
havaiu	havayi	هوويّ
havalea	havale	حوالة
havuz	havuz	حوض
haz	haz,hazl	هزل
hazna	hazine	خزينة
helbet	elbet, elbette	البتّ
hochim	hüküm	حكم
hurie	hurie	حوريّة
hurtum	hortum	خرطوم
huzmet	hyzmet	خدمة
huzur	huzur	حضور
ififliu	afifli, hafifli	خفيف
imam	imam	إمام
iminei	yemeni	يمنيّ
inat	inat, inad	عناد
indruş aim	ytri-şahi	عطر شاهي
isnaf	esnaf	أصناف
leafa	olefe, ülefe	علوفة
liliac	leylak	ليلك
locma	lokma	لقمة
macat	makat	مقعد
macaz	makas	مقصّ

اللغة العربية >	التركية >	الرومانية
مادّة	madde	madea
معدن	meden	madem
مخزن	mağaza	magazie
معجون	mağun	magiun
مغمور	magmuz	magmuza
محلّة	mahalle	mahala
محمود	mahmudiye	mahmudea
مخمور	mahmur	mahmur
ميدان	meydan	maidan
منصب	mansup, mansip	mansub
معرفة	marifet	marafet
محرمة	mahrama	marama
مرض	maraz	maraz
مشعلة	masal	masala
مسد	masat	masat
مسخرة	maskara	mascara
ما شاء الله	maşaallah	maşala
مطرة	matara	matara
معتوه	matuf, matuh	matuf
مزراق	mizrak	mazdrac
معزول	mazul	mazil
معاملة	mamele	mămular
مسجد	mecid	mecet
مكتوب	mektup	mehtup
ملس	melez	melez
منزل	menzil	menzil
مركز	merkez	merchez
مرعى	mera	merea
مرمّة	meremet, melamet	meremet
مرتبة	mertebe	mertepea
متاع	metah, meta	metah
متراس	meteriz	meterez
مزاد	mezat	mezat
منارة	minare	minarea
ميراث	miraz	miraz
مصر	Misir	misir
مفلس	muflus	mofluz
مسلم	moslim	moslim
مزوّر	muzevvir	mozavir
مبايعة	mubaya	mubaia
مكدّم	mukadim	mucadin
مقايسة	mukayese	mucaesea
مقلّد	mukallit	mucalit
مكرّمة	mukarreme	mucaremea
مقوّى	mukavva	mucava
مكالمة	mukâleme	muchealemea,

الرومانية	التركية >	العربية >	الرومانية	التركية >	العربية >
muchelef	mukellef	مكلّف	nacaşlîc	nakaşlik	نقش
mudir	mudir	مدير	naht	nakt, nakd	نقد
muezin	muezzin	مؤذّن	naiba	nayba	نائبة
moftiu	mufti	مفتي	naip	naip, naib	نائب
muhafiz	muhafiz	محافظ	nastrapa	meşrebe	مشربة
muhaserea	muhasere	محاصرة	nazar	nazar	نظر
muhemat	muhimmat	مهمّات	nazir	nazir	ناظر
muhur	muhur	مهر ، مهور	nălbar	nalbant	نعل + بند
mumbaşir	mubaşir	مباشر	nefer	nefer	نفر
murahaş	murahhas	مرخّص	netegea	netige	نتيجة
musaadea	musaade	مساعدة	nisfia	nisfiyet	نصف
musaca	musakka	مسقّع	nizam	nizam	نظام
musafir	musafir	مسافر	nobet	nobet, nevbet	نوبة
musaip	musahip	مصاحب	nur	nur	نور
muselim	musellim	مسلّم	oca	okka	أقّة
muşama	muşama	مشمّع	olmaz	elmas	ألماس
muşaverea	muşavere	مشاورة	raft	raf	رفّ
muşir	muşir	مشير	ragea	reğa	رجاء
muşteriu	muşteri	مشترى	rageal	rigal	رجال
muteferica	muteferrika	متفرّكة	rahat	rahat	راحة
mutpah	mutbah	مطبخ	rahatlocum	rahatlokum	راحة الحلقوم
muteveliu	mutevelli	متولّى	raia	raya	رعايا
nafaca	nafaka	نفقة	ramazan	ramazan	رمضان

الرومانية	> التركية	> اللغة العربية
satîr	satir	ساطور
saxana°	seysane	سائس+خانه
segedea	seggade	سجّادة
seiz	seyis	سائس
sel	sel	سيل
selamlîc	selâmlik	سلام عليكم
selemet	selâmet	سلامة
seraschier°	serasker	سر+عسكر
serhat°	serhat	سر+حدّ
sidef	sedef	صدف
sileaf	sileaf, silâh	سلاح
simit	simit	سميد
sinet	senet	سند
sinie	sini	صينية
socac	sokak	زقاق
sofa	sofa	صفّة
sofra	sofra	سفرة
sultan	sultan	سلطان
suret	suret	صورة]
surugiu	surugi	سروجيّ
şabaca	şebeke	شبكة
şah mat	şha mat	شاه مات
şam (ă)	şam	شام

الرومانية	> التركية	> اللغة العربية
răcam	rakam	رقم كاب
rechiab	rikiab	ركاب
redif	redif	رديف
reiz	reis	رئيس
rubia	rubiye	ربعة
ruca	ruka	رقعة
rufet	rufet, hyrfet	حرفة
rup	rüb	ربع
rusumat	rusumat	رسومات
ruşfet	rüşvet	رشوة
rutea	rüte, rütbe	رتبة
sabur	sabyr	صبر
saca	saka	سقّاء
sacat	sakat	سقط
sadrazan°	sadrazam	صدر أعظم
safi	sâf	صافى
saftea	sefte, sifta	استفتاح
sahan	sahan	صحن
salamalec°	selamalek	سلام عليكم
salavat	salavat	صلوات
salep	salep	سحلب
saltanat	saltanat	سلطنة
satara	musadere	مصادرة

الرومانية	< التركية	< اللغة العربية
şart	şart	شرط
şatir	şatir	شاطر
şerbet	şerbet	شربات
şeic	şeyh	شيخ
şerif	şerif	شريف
şiret	şirret	شرّة
şofran	şafran, zaferan	زعفران
şurut	şurut	شروط
tabac	tabak	دبّاغ
tabie	tabiye	طابية
tabiet	tabbiat	طبيعة
tacîm	takim	طاقم
taclit	taklit, taklid	تقليد
tacrir	takrir	تقرير
tahîn	tahin	طحين
tahmin	tahmin	تخمين
tahmis	tahmis	تحميص
taifa	taife	طائفة
taifas	taife	طائفة
taifet	taife	طائفة
tain	tayin	تعيين
talhiş	telhis	تلخيص
tali	tâli	طالع
talîm	talim	تعليم
tamachiar^{o}	tamakar	طمع + كر
taman	tamam	تمام
tandur	tandur	تنّور
taraf	taraf	طرف
tarapana^{o}	tarabhane	ضرب+خانة
taxim	taksim	تقسيم
teclifat	teklifat	تكليفات
telal	tellâl, dellâl	دلاّل
telpiz	telbis	تلبيس
temenea	temenna	تمنى
tergiman	tergeman	ترجمان
tersana^{o}	tersane	دار صناعة
tertip	tertip	ترتيب
teşcherea	tezkere	تذكرة
tibişir	tebeşir	طباشير
tiptil	tebdil	تبديل
tult	suls	ثلث
ulema	ulema	علماء
umur	umur	أمور
uşur	öşur	عشر
vacuf	vakuf	وقف
vadea	vâde	وعدة

الرومانية	التركية >	اللغة العربية >
zambec	zambak	زنبق
zambila	sümbül	سمبل
zapt	zapt, zabt	ضبط
zaraf	zaraf	صرّاف
zarf	zarf	ظرف
zarif	zarif	ظريف
zarzavat	zerzevat	خضروات
zefchi	zevk	ذوق
zuf	sof	صوف
zulum	zulüm	ظلم

الرومانية	التركية >	اللغة العربية >
validea	valide	والدة
valiu	valii	والى
vechil	vekil	وكيل
veznea	vezine	وزنة
vilaiet	vilâyet	ولاية
vizir	vezir	وزير
zabet	zabit	ضابط
zaharea	zahire	ذخيرة
zaiafet	ziyafet	ضيافة
zaif	zayif	ضعيف
zaim	zaîm	زعيم

نيقولا دوبريشان

أستاذ قسم اللغات الشرقية

جامعة بوخارست ــ رومانيا

NICOLAE DOBRISAN

Section de langues orientales

Université de Bucarest

Roumanie

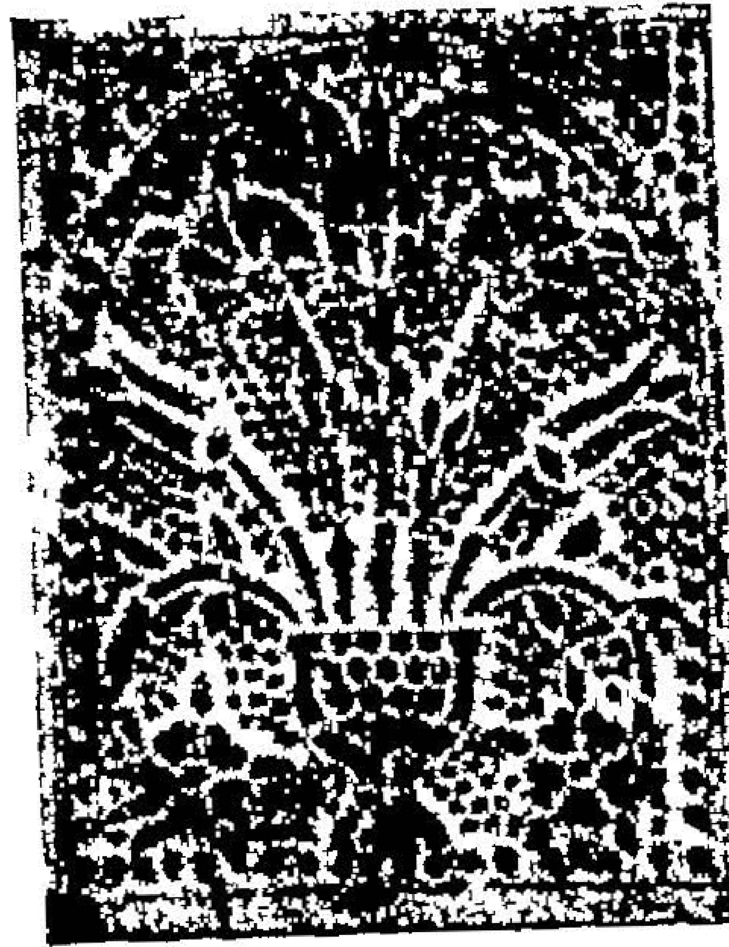

دراسة

فى حركية عين الكلمة الثلاثية فى العربية ولهجاتها

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

مقـــدمة :

توهم القدماء من علمائنا ضآلة قيمة الحركات – وأنها أمر ثانوى بالقياس على الحروف ، وفى هذا القول بعض المغالاة ، فللحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى ، وعن طريقها يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، والدور البنائى الوظيفى . وتاريخ الحركات – جزء هام من تاريخ الكتابة العربية فى عصورها الإسلامية ، غايتها تصوير كل صوت برمز كتابى يدل عليه . ولقد مرت العربية فى تاريخها الطويل بإصلاحات فى هذه الحركات متنقلة بين النقط[1] وغيره حتى استقرت على يد الخليل بن أحمد – رائد هذه المدرسة العلمية بإبدال طريقة النقط التى وضعها أبو الأسود الدؤلى للدلالة على الحركات الإعرابية بجرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر ، وبرأس واو للدلالة على الضم[2] ، وما قام به الخليل فى هذا الشأن يومئ إلى العبقرية العربية ، وأيًّا ما كان فالكتابة وحركاتها ترتبط بالعقيدة الإسلامية حيث حملت الدين الجديد على جناحيها شرقا وغربا ، بل كانت له خيرا من صليل السيوف ومشرعات الرماح ، كما ترتبط بالفن الهندسى الجمالى تارة أخرى .

---

(١) ألف فى النقط كثيرون من العلماء منهم أبو عمرو الدانى صاحب كتاب: النقط والشكل: مكتب الدراسات الإسلامية فى دمشق ١٩٤٠ م . تحدث فيه عن نقط المصاحف وكيفية ضبطها على ألفاظ التلاوة ومذاهب القراءة ، كما ذكر مواضع الحركات من الحروف ، والتنوين وتتابعه ، وعلامة السكون والتشديد ، وتحدث كذلك عن أحكام نقط ما نقص من هجائه وما زيد فى هجائه بالنسبة للمصحف ...

(٢) وآخر هذه الإصلاحات فى الحركات حتى الآن ما قام به الدكتور خليل عساكر حيث أضاف خمس علامات مبتكرة وجعلها رموزا لخمس حركات ترد فى نطق اللهجات العربية الحديثة ، وقد راعى اتفاق هذه العلامات الجديدة وانسجامها مع طبيعة الكتابة العربية . انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ٨ . ورأى أن هذا الإصلاح هو الرابع فى تاريخ إصلاح الكتابة .

وفى العربية نجد أنماطا من الحركات المختلفة من بسيطة ومزدوجة Diphthong وممطولة ومخطوفة أو مختلسة إلى آخر ما نراه فى كتب العربية وعلوم القرآن، على أن الحركات يمكن أن ترتبط بنظرية نحويى العربية الذين يرون أن الحركات الأساسية هى التى بواسطتها تحرك نهاية الكلمة فى حالات الإعراب، غير أنه يوجد إلى جانب هذه الحركات حركات أخرى نشأت بتأثير الحرف الصامت سابقا أو لاحقا، مع بعض العوامل الأخرى.

والحركات قصيرة وطويلة وليس من فرق بينهما إلا فى الكمية، والأولى قامت بدور المخالفة بين الصيغ التى لا تفترق إلا فى حركة محققة البناء الوظيفى فى الصيغة، من ذلك :

حفرت وسْط الدار بئرا وحفرت وسَط الدار بئرا	بين الظرفية والإسمية .
قاتَل فلان فلانا وقاتِلْ فلانا	بين المشاركة وبين الأمر
شاتَم فلان فلانا وشَاتِمُ فلان	بين المشاركة واسم الفاعل
سقْف وسُقُف	بين المفرد والجمع
ضُحَكَة وضُحْكَة	بين الفاعلية والمفعولية
شَربة وشِربة	بين الوحدة والهيئة

فما رأيت من تفاوت أو تغاير فى المعنى الوظيفى فمرجعه الاختلاف فى الحركات دون غيرها .

حركية العين وتنويع المعنى :

قد تتوالى الحركات والسكنات على الصيغة، وتتقاصف عليها فتتألف نمطا منسجما يتواكب مع المعانى الوظيفية[1]، ويمكن أن نرى نموذجا لما وقع فيه التخفيف بالإسكان فى عين الكلمة، ونرصد دلالته فإذا نظرت إلى :

(أ) ثَبَت وثبْت، فالدلالة فى الأول على المتثبت، وفى الثانى على زيادة التمكن فى الوصف .

(ب) النَّفْض والنَّفَض، والخبْط والخبَط، والطرْد والطرَد، فقد كثر عنهم مجىء المصدر

(١) انظر : الوحدات الصرفية ص ٢٥٢ (مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم) الأستاذ أحمد عبد العظيم .

على فعل ساكن العين ، واسم المفعول منه على فعل مفتوحها [1] كما يمكن أن تختلف دلالة الكلمة أيضا باختلاف أى حركة فيها ولو كانت الحركة غير السكون :

(أ) فمن ذلك : قول ابن درستويه « وقد يلتزمون أحد الوجهين للفرق بين المعانى كقولهم : ينفر - بالضم من النفار والاشمئزاز ، وينفر - بالكسر من نفر الحجاج من عرفات [2] » إلا أن هذه المفاهيم الدقيقة قد تجمدت فيما بعد وزالت الحدود بينها رويدا رويدا ، خذ مثلا قول الله تعالى : « ويهلك الحرث والنّسل » [3] فقد روى هارون عن الحسن وابن أبى إسحق وابن محيصن . « ويَهلَك » بفتح الياء واللام ورفع الكاف . الحرث والنسل : رفع فيهما ، وابن مجاهد يغلط القراءة ، وابن جنى يتصدى للدفاع عنها معتمدا على دربته الذهنية وأقيسته الصناعية إذ يقول : لعمرى إن ذلك ترك لما عليه اللغة .... ثم ينقل ابن جنى عن أبى بكر (أنه كان يذهب فى هذا إلى أنها لغات تداخلت [4]) . وكان على اللغويين أن يبحثوا فى المعنى أولا بمعنى أن الفعل هلك - إذا جاء فى قبيلة من باب ضرب ، وفى أخرى من باب علم - هل يكون المعنى واحدا فيهما أم يختلف باختلاف الصيغة ؟ وكان عليهم أيضا أن يفتشوا عن الباب الأصلى لهذه المادة والفرعى منها ، وهل الأصلى يتساوى مع الفرعى فى المعنى أو يزيد أو ينقص أو ينحرف معناه قليلا أو كثيرا ؟ .

(١) المحتسب لابن جنى ٢ / ٦٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) المزهر للسيوطى ١ / ٢٠٨

(٣) سورة البقرة آية ٢٠٥

(٤) المحتسب ١ / ١٣١ خط بالتيمورية .

(ب) وقد كان لدى الفراء شفافية فى لحظ هذه الظلال الدقيقة بين الضم والفتح، وذلك فى كتابه «المذكر والمؤنث[1]» قال الفراء: أكثر القراء على فتح القاف فى قوله تعالى: «إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله» وقرأ أصحاب عبد الله: قرح – بالضم. وكأن القرح – بالضم ألم الجراحات وكأن القرح – بالفتح الجراحات بأعيانها. على أن كثيرا من المتأخرين يمرون على مثل هذا، ولا يكادون يقفون تلك الوقفة الرائعة التى وقفها الفراء حين نظر إلى الصيغة من الجانب الفنى الدلالى لا الجانب الميكانيكى الصناعى الذى ينحصر فى استبدال حركة بأخرى على حين تبقى الدلالة فى الصيغة راكدة هامدة.

التفريخ والتفريع فى عين الكلمة:

معلوم أن الثلاثى المجرد له الأوزان الآتية: فعل، فعل، فعل بفتح العين وكسرها وضمها ولكن لوحظ أن الصيغتين الأخيرتين تعتورهما تغيرات عدة لا سيما فى الأوزان الصرفية، والقصد من هذه التغيرات هو التخفيف وتوفير الجهد الذى تنزع إليه القبائل العربية فى أثناء كلامها، وأمثال ذلك ما نجده فى:

١ – فعِل: بكسر العين سواء كانت اسما أو فعلا حيث ينطق بها (فعْل) بتسكين العين مثل: عَلِم تقول فيه: علْم، وفى كتف: كتْف، وفى فخذ: فخْذ، ويظهر أن هذه التغيرات أو التفريعات تختص بلهجة تميم، على حين لهجة الحجاز أبقتها على حالها بدون تفريع، يقول الرضى «وجميع هذه التفريعات فى كلام بنى تميم، وأما أهل الحجاز فلا يغيرون البناء ولا يفرعون[2]» وعزاه سيبويه «إلى بكر بن وائل وأناس كثير من

(١) ٢٦، وانظر اللسان ٦ / ١٤٨

(٢) شرح الشافية: ابن الحاجب: ١ / ٤٠ ط حجازى.

تميم[١] ، وبالاستقراء وجد أن صيغة : (فعِل) بكسر العين يتفرع عنها ما يلى :

(أ) تسكين العين : مثل فعل .

(ب) تسكينها بعد نقل حركتها إلى الفاء فتصير (فِعْل) نحو : شهد ، فخذ ، فى حلقى العين ، وكتف ، وكبر ، فى غير الحلقى .

(ج) التفريع الثالث : فِعِل : بكسرتين وهذا التفريع يختص بما كان حلقى العين نحوضِحِك .

هذه هى تفريعات (فعِل) بكسر العين .

(أ) فعِل : بكسر العين وتفريعها إلى فعْل بسكون العين .

ولما كانت النصوص القرآنية ، وغيرها هى سبيلنا فى إثبات كل قضية فإليك ما يلى :

١ ـ كلمة على وزن نبقة وهى الفصحى وهى لغة الحجاز ، وبها جاء التنزيل ، وكلمة على وزن (سدرة) ، وعلى وزن (تمرة) وهى لغتا تميم[٢] . ويقول المصباح بأن « الكلمة » تخفف على لغة بنى تميم[٣] . وفى قوله تعالى : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء[٤] » قرئت كلمة ـ على وزن ضربة ، وكلمة على وزن (سدرة)[٥] .

٢ ـ وفى الآية « وكأين من نبىّ قاتل معه ربّيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم »[٦] . قرأ عكرمة وأبو السّمال : وهنوا بإسكان الهاء[٧] .

٣ ـ يرى الأزهرى أن (الوسمة) بكسر السين وهو كلام العرب ـ وعزى كسر السين إلى لغة الحجاز[٨] ، وقال الجوهرى تسكينها لغة[٩] . ولا شك أن التسكين تفريع عن الكسر وأرجح أن التسكين لتميم .

---

(١) سيبويه : ٢ ـ ٢٥٧

(٢) ابن هشام : شذور الذهب : ١٣/١ ، وحاشية عبادة على الشذور : ١٣/١

(٣) المصباح : ٨٣١/١ ، شرح المفصل : ابن يعيش : ١٩/١ ، اللسان : ٤٢٨/١٥

(٤) سورة آل عمران آية : ٦٤

(٥) البحر : ٤٤٧/٢ : ٤٨٢

(٦) آل عمران آية : ١٤٦

(٧) البحر : ٧٤/٣

(٨) المصباح : ١٠٢٤/٢

(٩) اللسان : ١٢٢/١٦

٤ـ فى قوله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة »[١] فقرأ أبو رجاء ومجاهد والحسن وغيرهم بسكون الظاء ـ وهى لغة تميمية[٢] ـ كما عزاها فى المحتسب إلى تميم[٣] أيضا . ولا شك أن هذا التسكين فى الظاء للتخفيف من نظرة ـ بكسر الظاء .

٥ـ وما رواه ابن السكيت من أنه سمع أعرابيا من بنى تميم يقول : « نَعْم »[٤] وقرأ ابن وثاب قوله تعالى « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[٥] بفتح النون وسكون العين ، قال أبو حيان وتخفيف فعل لغة تميمية »[٦] .

ويظهر أن هذا التخفيف لم يكن خاصا بتميم بل شمل كثيرا من المناطق العربية ، فكانت بكر بن وائل تخفف مثل هذا فقد ذكر سيبويه فى كتابه « أن من العرب من يقول : نَعْم الرجل ـ فى نِعم ـ كأن أصله : نَعِم ثم خفف بإسكان الكسرة على لغة بكر بن وائل[٧] ، ومما يزيد هذا الدليل قوة ما روى عن أبى هريرة وعاصم الجحدرى فى قراءتهما « مَلْك يوم الدين »[٨] فى « مالك يوم الدين »[٩] على الصفة المشبهة . وقد قرأ بها أيضا عبد الوارث عن أبى عمرو[١٠] ، كما عزيت هذه القراءة فى مكان آخر لربيعة ، واستشهد لها بقول الأعشى :

فقال للمَلْك أطلق منهم مائة
رَسلًا من القول مخفوضا وما رفعا[١١]

وإذا كانت الظاهرة واحدة فى بكر بن وائل وربيعة ؛ فذلك لأن العلاقة النسبية بينهما قائمة ، إذ أن بكرا هذه ـ كما ترى كتب الأنساب ـ بطن من ربيعة[١٢] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٠

(٢) ٢/٣٤٠ من البحر المحيط ، ومختصر شواذ القرآن ابن خالويه : ١٧

(٣) المحتسب : ابن جنى : ١/١٦٤ مخطوطة بالتيمورية رقم ٣٧٩ تفسير تيمور .

(٤) إصلاح المنطق : ١٠٥

(٥) سورة الرعد آية : ٢٤

(٦) البحر المحيط : ٥/٣٨٧

(٧) اللسان : ١٦/٦٦

(٨) البحر : ١/٢٠

(٩) سورة الفاتحة آية : ٤

(١٠) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه : ١

(١١) الاشتقاق : ١٧ ط وستنفلد .

(١٢) نهاية الأرب : القلقشندى : ١٧٨

وإذا كان هذا التسكين جائزا فإننا نرى بعض المتزمتين يسمونه بعدم الصحة مستدلين بقول الشاعر :

وأحفظ من أخى ما حفْظ منى

ويكفينى البلاء إذا بـــلوت

فسكن حفظ – وهو غير سائغ على رأيهم ! ! والصحيح أنه جائز فى سعة الكلام وليس من الضرورة فى شىء .

والأمثلة السابقة فيها تفرعت الصيغة (فَعِل) إلى (فَعْل) بسكون العين .

وقد تتفرع صيغة (فَعل) بكسر العين إلى (فِعْل) بسكونها ، وذلك فى لهجة تميم ، ومن ذلك :

(ب) فَعِل : بكسر العين وتفريعها إلى فِعْل بكسر الفاء ، وسكون العين .

١ – وذلك قوله تعالى « بئسما اشتروا به أنفسهم »[1] فأصل بئس : بَئِس من البؤس ، سكنت همزتها ، ثم نقلت حركتها إلى الباء ، كما قيل : لكبد : كِبْد .

قال الطبرى فى تفسيره « وهى من لغة الذين ينقلون حركة العين من فَعِل إلى الفاء إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستة – وذلك فيما يقال لغة فاشية فى تميم »[2] .

٢ – وقرأ الجمهور قوله تعالى « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[3] بكسر النون وسكون العين وهى أكثر استعمالا[4] ، وأصلها : نَعِم ، فسكنت العين ثم نقلت حركتها إلى النون قبلها فصارت (نِعْم) .

٣ – وفى المخصص أنه سمع من العرب من يقول « وَرِكَ » ، و – وِرْك » ، وكَتِف وَكِتْف[5] ، ولَعِب ولِعْب[6] .

والغرض من هذا التفريع المعزو إلى تميم هو كراهة الانتقال من الأخف إلى الأثقل . ولهذا آثرت تميم تسكين العين فى هذا كله ، والسكون أخف من الحركة .

---

(١) سورة البقرة آية : ٩٠

(٢) تفسير الطبرى : ٢/٣٣٨ دار المعارف .

(٣) سورة الرعد آية : ٢٤

(٤) البحر : ٥/٣٨٧

(٥) المخصص : سفر ١٤ ص : ٢٢١

(٦) تفسير الطبرى : ٢/٣٣٨ دار المعارف

وقد تتفرع صيغة : فَعِل إلى فِعِل ، بكسر الفاء والعين وهذا التفريع لا يكون إلا فى الحلقى العين .

(ج) فَعِل : بفتح الفاء وكسر العين وتفريعها إلى فِعِل : بكسر الفاء والعين .

وهذا التفريع لا يكون إلا فى الحلقى العين كنِعْم وبئْس : فتقول فيها على التفريع نعم وبئس ، بكسر الفاء والعين فى كل منهما والأصل فيهما ، نعم وبئس بفتح فكسر ، وقد عزا صاحب التوضيح الصيغتين نعم وبئس ، بكسر الحرفين الأولين إلى تميم حيث قال « وكسرهما عند بنى تميم ، ولا يجيز الحجازيون فيهما إلا الأصل »[(١)] ، وقد ساق سيبويه عدة صيغ على فعل : بكسر الفاء والعين منها : رجل لعب : بكسر الفاء والعين ، ورجل محك ، وهو ماضغ لهم : بكسر الفاء والعين ، وهذا رجل وِعِك[(٢)] .

ولقد علل الرضى هذا التفريغ فى تلك الصيغة فقال « وإنما جعلوا ما قبل الحلقى تابعا له فى الحركة ، مع أن حق الحلقى أن يفتح نفسه أو ما قبله كما فى « يد مَع » لثقل الحلقى وخفة الفتحة ، فأتبع فاؤه لعينه فى الكسر[(٣)] . وعلل سيبويه لهذا التفريع بأن حرف الحلق لا يناسبه إلا الفتح ، ولم تفتح العين الحلقية هنا خوفا من أن تلتبس صيغة (فعل) بفتح العين مع صيغة (فعل) بكسرها ، فلما لزمت العين الكسر ، وهى حرف حلق ، وفى ذلك شىء من الثقل ـ أتبعوا الفاء العين ليحدث نوع من التخفيف بالميل من كسرة إلى كسرة ، وذلك لأن اللسان يعمل فى جهة واحدة ، فيكون العمل من وجه واحد[(٤)] .

٢ ـ فَعُل : بفتح الفاء وضم العين وتفريعها إلى فَعْل : بفتح الفاء وسكون العين . وقد جاء التفريع فيها بسكون العين تخفيفا ولا يكون ذلك إلا عند بنى تميم . وأمثلة ذلك : ما قرئ به فى قوله

---

(١) التصريح والتوضيح : ٢/٩٥

(٢) كتاب سيبويه : ٢/٢٥٥ ، شرح السيرافى على سيبويه : ٥-٣١٣ مخطوط بالتيمورية .

(٣) شرح الشافية : ١/٤٠

(٤) كتاب سيبويه : ٢/٢٥٥ ، وانظر : المخصص لابن سيده : سفر : ١٤ ص ٢١٣

تعالى : كبرت كلمة تخرج من أفواههم »[1] بسكون الباء فى (كبر) – وعزاها أبو حيان إلى تميم[2] . كما قرأ أبو السمال قوله تعالى : « وحسن أولئك رفيقا »[3] بسكون السين – وعزاها أبو حيان إلى تميم كذلك[4] : ونسب ابن خالويه فى البديع هذه القراءة إلى قعنب[5] .

على حين لغة الحجاز لا تفرع فى تلك الصيغة ، فقد قرأ الجمهور الآية السابقة « وحسن » بفتح الفاء وضم العين وهى الأصل، قال أبوحيان : وهى لغة الحجاز[6] ، ويظهر أن التفريغ فى تلك الصيغة لم يكن خاصا بتميم وحدها – فقد شمل بقاعا أخرى من الجزيرة العربية ، ومما يؤيد هذا ما جاء عن سيبويه من أن التسكين فى العين لغة بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم ، ومثل لذلك بقوله : « عَضْد فى عَضُد وفى كَرُم الرجل : كرم بفتح فسكون ، وقد وجدنا صدى للهجة بكر بن وائل فى كتاب الله أذكر منها :

(أ) قال تعالى : «حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت »[8]

قرأ زيد بن على « بما رحْبت » بسكون الحاء[9] .

(ب) وقال تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم »[10] .

فقد قرىء (كبْرت) بسكون الباء – وهى لغة تميم[11] .

ويجوز فى هذا التفريع أى صيغة « فَعُل » أن تنقل ضمة عينه إلى فائه فيكون على وزن (فُعْل) بضم الفاء وتسكين العين –وعليها قرىء قوله تعالى : « وحسن أولئك رفيقا »[12] « وحُسْن » بضم الحاء وسكون السين ، والذى حدث فى تلك الصيغة : أن حركة السين وهى الضمة ، نقلت إلى الحاء قبلها – وقد عزى هذه الصيغة المنقولة حركتها –

(١) سورة الكهف آية : ٥
(٢) البحر : ٦/٩٧
(٣) سورة النساء آية : ٦٩
(٤) البحر : ٢٨٩/٣
(٥) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٢٧
(٦) البحر : ٢٨٩/٣ ، الدر اللقيط : ٢٩٠/٣
(٧) الكتاب : ٢٥٧/٢
(٨) سورة التوبة آية : ١١٨
(٩) البحر : ٥ / ٢٤
(١٠) سورة الكهف آية : ٥
(١١) البحر : ٦/٩٧
(١٢) سورة النساء آية : ٦٩

أبو حيان « إلى لغة بعض قيس »[1] — ويظهر أن النقل فى الحركة هنا لا يصح إلاّ إذا لمحنا معنى التعجب فيها ، لأن التغيير فى اللفظ بالنقل صحبه معنى آخر زائدا وهو التعجب ، وهذا معنى كلام الرضى «من أن فَعُل — الذى فيه معنى التعجب يقال فيه فعل[2] » بسكون العين وضم الفاء .

واستشهد لذلك بقول الأخطل :

« وحُبَّ بها مقتولة حين تُقتل »

ولعل ذلك دلالة على نقله إلى معنى التعجب[3] .

وأصل : حُبَّ : حَبَب — بفتح العين ، ثم حول إلى فَعُل : بضم العين لإرادة المدح والتعجب فصار « حبب » بضم العين ، ثم نقلت العين إلى الفاء بعد حذف حركتها فصار : حُبَّ بضم ففتح .

وفى نسبة البيت السابق إلى الأخطل دليل يفيدنا فى قضيتنا ، وهو أن هذا التفريع فى الصيغ لم يكن فى تميم فقط ، ولكنه شمل أجزاء كبرى من الجزيرة العربية — فالأخطل هذا من تغلب ، وتغلب وبكر ابنا وائل من ربيعة . وفى الكامل للمبرد نجد شيئا من التفريع فى صيغة فعُل بضم العين ، وتحويلها إلى فَعْل بسكونها .

من ذلك قول عمران بن حطّان :

من الأزد إن الأزد أكرم معشر
يمانية طابوا إذا نسب البشر[4]

ويعقب المبرد على البيت السابق بقوله: وينشد :

(يمانية قرْبوا إذا نسب البشر)

بسكون الراء .

يريد : قربوا — بضم الراء . قال المبرد : « وهذا جائز فى كل شىء مضموم أو مكسور إذا لم يكن من حركات الإعراب : تقول فى الأسماء : فى فَخِذ : فخْذ وفى عضُد: عضْد بسكون العين ، وتقول فى الأفعال: كرم عبد الله بسكون العين أى كرم »[5] ، وقول المبرد « وهذا جائز . . . » دليل على أن هذا ليس بابه الضرورة ، بل يكون فى سعة الكلام .

---

(١) البحر : ٢٨٩/٣
(٢) شرح الشافية لابن الحاجب : ٤٣/١
(٣) شرح الشافية : ٤٣/١
(٤) الكامل : ١١/١٢ ط حجازى ١٣٦٥
(٥) الكامل المبرد : ١١٤/٢

وإنما كان القصد من هذا التفريع – هو التخفيف ، لأن النطق بصيغة : فَعْل بسكون العين أخف من صيغة فعل : أى بضم العين ، ولا شك أن السكون أخف من الضم . ولو لم يسكنوا العين بل تركوها على الضم لترتب عليه أن اللسان ينتقل من الأخف وهى الفتحة – إلى الأثقل منه – وهى الضمة ، ولهذا سكنت الضمة فى تفريعه ، لأن السكون أخف .

ويظهر أن التسكين كما كان فى الكلمة الواحدة عند تميم ، شمل الكلمتين أيضا ، ويظهر هذا فى غير المتصل بأن تكون الكسرة أو الضمة ليست فى وسط الكلمة – كما تقدم من الأمثلة – بل ينظر إليها بجانب كلمة أخرى ، ومن هذا أنهم يسكنون هاء – هو وهى ، إذا سبقهما واو ، أو فاء ، أو لام ، وقد وردت بعض القراءات على ذلك : منها قوله تعالى : «وهو بكل شىء عليم[1] » ، « وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم[2] » ، « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان[3] »

فقد قرأ قراء عديدون بسكون الهاء من الآيات السابقة منهم أبو عمرو والكسائى وأبو جعفر[4] ، وعزا صاحب الإتحاف هذا التسكين إلى نجد ، كما نسب التحريك فيها إلى الحجاز[5] .

والسبب فى هذا التسكين عند نجد أو تميم أن (فَهُوَ) على وزن (فعل) فكما جاز أن نسكن عَضُدَ – فتكون (عَضْد) ، جاز تسكين الهاء من (فهو) التى بوزن (فَعُل) بضم العين فتصير (فهو) (وهو) ، بسكونها وهذا إن دل فإنما يدل على أن التسكين كان كثيرا شاملا فى تميم فى الأسماء والأفعال .

ومما جاء من التفريع على تلك الصيغة قوله تعالى « فخر عليهم السقف[6] » بسكون القاف وهى قراءة الجمهور ، وقد عزاها أبو حيان إلى تميم[7] » ، وهى مخففة من « السقف » بضم العين ، كما عزا صاحب البحر صيغة « عَضْدا » فى قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين

(١) سورة البقرة آية : ٢٩
(٢) سورة البقرة آية : ٢٧١
(٣) سورة العنكبوت آية : ٦٤
(٤) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٢
(٥) المرجع السابق .
(٦) سورة النحل آية : ٢٦
(٧) البحر : ٤٨٥/٥

عضدا [1] » إلى تميم [2] ، وبهذه اللغة قرأ عيسى [3] ، وفى المصباح عزيت إلى تميم وبكر بن وائل [4] ، على حين عزا ابن منظور ناقلا عن أبى يزيد أن صيغة « العُضُد والعُجُز – بضمتين – فى لغة تهامة [5] » وفى المصباح أن تلك الصيغة السابقة معزوة إلى الحجاز [6] ، وهذا يشير إلى أن التفريع لم يكن فى الحجاز. ويشير إلى معنى آخر وهو أن اللهجات كان بعضها يحل مكان بعض فى نظر اللغويين والرواة ، فالصيغة عزيت فى كتاب إلى تهامة ، وفى كتاب آخر إلى الحجاز ولا شك أن الصيغة الأصلية هى : عضد – بفتح فضم – ثم حدث فيها التخفيف فسكنت الضاد ، فصارت : عضد : بسكون الضاد – وأما نطقها فى تهامة عضد : بضمتين فهى صورة متطورة عن الأصل ، ولأنها أخف من عَضُد – واللغة فى سيرها تميل إلى السهولة ، وقد سبق أن جاءت القراءات فى تلك الكلمة فى لهجة تميم وبكر بن وائل ، أما لهجة تهامة أو الحجاز فقد قرأ بها الحسن فى قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين عُضُدا » بضمتين [7] .

٣ – تفريع : « فُعِل » بضم الفاء وكسر العين إلى « فُعْل » بسكون العين .

وهذا الضرب خاص بالفعل المبنى للمجهول ، ومن المعلوم أن الفعل فى الماضى يضم أوله ويكسر ما قبل آخره فى البناء للمجهول لكنه يحول إلى صيغة تفريعية أخرى عند تميم وبكر بن وائل وتغلب – وهى صيغة : « فعل » بضم الفاء وسكون العين ويمكن أن نورد الشواهد الآتية لهذه الظاهرة :

١ – عزى سيبويه إلى أبى النجم قوله :
(لو عُصْر منه البان والمسك انعصر [8])
بضم العين وسكون الصاد – وأصلها : عصر – بالبناء للمجهول .

(١) الكهف آية : ٥١
(٢) البحر : ٦/١٣٧
(٣) مختصر شواذ القرآن ابن خالويه : ٨٠
(٤) المصباح : ٢/٦٣٥
(٥) اللسان : ٤/٢٨٣
(٦) المصباح : ٢/٦٣٥
(٧) المصباح : ٢/٦٣٥
(٨) الكتاب لسيبويه : ٢/٢٥٨ ، شرح الشافية : ١/٤٣ ، التصريح على التوضيح : ١/١٩٤ ، المخصص : س ١٤ ص : ٢٢٠

٢ – ورد فى كتاب المخصص استشهاده بقول الشاعر : (ونفْخوا فى مدائنهم فطاروا [١]) بسكون الفاء ، ولم يعز البيت إلى قائل ، وفى نسخة السيرافى المخطوطة [٢] على سيبويه عزى هذا البيت إلى القطامى ، وكذلك فى اللسان مادة (ن ف خ [٣]) .

٣ – جاء فى كتاب « العقة والبررة » ما عزى إلى معبد بن قرط العبدى فى هجاء أمه من قوله :

تلتهم الوسقَ مشدودا أشظته [٤]

كأنما وجهها قد سُفْعَ بالنّار

بسكون الفاء – فى « سفع » .

وإذا بحثنا فى كتب الطبقات والأنساب وجدنا أن أبا النجم صاحب البيت الأول من بكر بن وائل [٥] من بنى عجل . وأن القطامى : هو عمير بن شيم من بنى تغلب [٦] فيكون هذا التفريع من « فُعِل » إلى « فُعْل » فى بكر بن وائل ، وفى « تغلب » الذى هو أخو بكر ، كما يطرد هذا التفريع عند تميم أيضا [٧] .

وعلى الرغم من أن التفريع هذا فى تميم إلا أن الرضى المحقق – أخطأ عندما نسب أبا النجم – إلى تميم [٨] فى بيته السالف – ولعل هذا النسب الخاطئ جاء له من شبهة مؤداها : أن هذا التفريع عند تميم أيضا .

ويمكن أن تعلل صيغة التفريع السابقة بأنهم كرهوا فى « فُعِل » الكسرة بعد الضمة . فسكنوا هذه الكسرة حتى لا ينتقل اللسان إلى الثقل ، وعلل صاحب المخصص هذا ناقلا عن سيبويه قوله : « كرهوا فى « عُصِر » الكسرة بعد الضمة ، كما يكرهون الواو مع الياء فى مواضع ، ومع هذا إنه بناء ليس من كلامهم إلا فى هذا الموضع من الفعل فكرهوا أن يحولوا ألسنتهم إلى الاستثقال [٩] »

---

(١) المخصص : س ١٤ ص : ٢٢٠ (٢) السيرافى على سيبويه : ٥–٣٢٤ تيمور خط .

(٣) وفى ديوان القطامى المطبوع سنة ١٩٦٠ ص : ١٤٣ « ونحوا » .

(٤) كتاب العقة والبررة : لأبى عبيد معمر بن المثنى : ٣٦٥ من نوادر المخطوطات رقم ٧ ط أولى ، لجنة التأليف والترجمة : ١٣٧٣ – ١٩٥٤ تحقيق عبد السلام هارون .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٣٢ ط المعاهد ، المخصص : س : ١٤ ص : ٢٢٠

(٦) الشعر والشعراء : ٢٧٧ ط المعاهد .

(٧) شرح السيرافى على سيبويه : ٥–٣٢٣ ، كتاب سيبويه : ٢–٢٥٧ – ٢٥٨

(٨) شرح الشافية : ١–٤٣ ، وانظر الهامش . (٩) المخصص : س ١٤ ص : ٢٢٠

وإذا التفتنا إلى كتاب الله – التمسنا فى قراءته شواهد لهذا التفريع الذى جاء على لهجة تميم ، وبكر ، وتغلب :

١ – قرأ أبو السمال قوله تعالى « ولعنوا بما قالوا[١] » بسكون العين، ولقد حسنت قراءة أبى السمال لأن الكسرة وقعت بين ضمتين[٢] .

٢ – كما قرأ مسلمة بن محارب «جزاء لمن كان كفر[٣] » بإسكان العين فى « كفر » .

٣ – وجاء فى شرح السيرافى مثل من أمثال العرب وهو : لم يحرم من فُصْد له[٤] : بإسكان الصاد وأصلها : فصد – بالبناء للمجهول ، ولكن جاءت صورتها بالسكون فى المثل – وهى ولا شك صيغة تفريعية من المبنى للمجهول .

تلك هى أهم التفريعات وكلها فى تميم ومن لفّ لفهم من بكر بن وائل وتغلب وربيعة .

٤ – أما صيغة (فَعَل) بفتح الفاء والعين فلا تفريع فيها ؛ لأن الفتح خفيف فلا داعى للخروج عنه ، قال سيبويه : وأما ما توالت فيه الفتحتان ، فإنهم لا يسكنون منه ، فلا يقولون فى جمل (بفتح الميم) جمل (بسكونها[٥]) .

وفى ركاب سيبويه يسير السيرافى[٦] وابن جنى حيث يقول فى محتسبه معلقا على قراءة أبى السّمال وأبى المتوكل وأبى الجوزاء (حتى يلج الجمل[٧]) : وأما الجمل – بالسكون فبعيد أن يكون مخففا من المفتوح لخفة الفتحة[٨] .

وأرى أن كلا من سيبويه ومن تبعه فى مذهبه من مثل السيرافى وابن جنى وكثرة كاثرة من النحاة غيرهم قد جانبهم الصواب أو جانبوه لورود ذلك فى القرآن المقدس وفى التراث العربى وأمثلة ذلك من القرآن :

(أ) قراءة جحفلة من القراء (حتى يلج الجمْل فى سم الخياط) بسكون الميم ، وذلك تخفيف من الفتح.

(١) المائدة : ٦٤ (٢) البحر : ٣–٥٢٣
(٣) سورة القمر آية : ١٤ (٤) شرح السيرافى : ٥–٣٢٣ مخطوط .
(٥) شرح السيرافى على سيبويه : ٥–٤١٦ خط بالتيمورية ، الكتاب ٢–٢٥٨ ، ٢–٢٨١
(٦) شرح السيرافى على سيبويه ٥–٤١٦ (٧) الأعراف : ٤٠ وانظر المحتسب فى نفس السورة والآية .
(٨) وانظر كذلك شواهد الشافية : ١٨

(ب) وقرأ أبو عمرو بن العلاء البصرى التميمى وأحد القراء السبعة «ويدعوننا رغْبا ورهبا[1]» بالإسكان ، ورواه عنه هارون عن أبي عمرو[2] ، وبهذا يكون قد خفف أبو عمرو المفتوح.

(ج) كما خففت الجماعة المفتوح فى « كانتا رتْقا[3] » وقراءة الحسن وعيسى الثقفى وأبي حيوة (رتَقا) بالفتح[4] .

(د) وفى معانى القرآن للفراء عند قوله تعالى «سبع سنين دأْبا[5]» يقول الفراء « قرأ بعض قرائنا - دأَبا - فَعَلا . وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة أو غينا أو عينا أو حاء أو خاء أو هاء[6] » والنحاة يرون أن الفتح والسكون فى ذلك لغتان ، وكأنهم ينكرون أن التسكين فى ذلك تخفيف من التحريك .

(هـ) ومن تخفيف المفتوح ما فى البديع لابن خالويه فى رواية عن الكسائى أنه قرأ فى الآية ٩٢ من النساء « ومن يقتل مؤْمنا متعمدا » ساكنة التاء . وقد حكم النحاة على تلك القراءة بأنها فى غاية الشذوذ والوهن ، ثم يتراجعون قليلا عن صلفهم فيقولون : (وسهله مجاورة الفتحة للضمة) وكأن القراءات القرآنية لا تُقبل إلا بمثل هذ التعليل .

ومن التراث :

(أ) وقد ورد تخفيف المفتوح فى قول الأخطل النصرانى :

وما كل مبتاع ولو سلْف صفْقهُ
براجــع ما قد فاته برداد[7]

(١) الأنبياء : ٩٠
(٢) شواذ القرآن : ٩٢ لابن خالويه .
(٣) الأنبياء : ٣٠
(٤) المحتسب : ٢-٦٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
(٥) يوسف : ٤٧
(٦) معانى القرآن للفراء : ٢-٤٧
(٧) سلف صفقه : وجب بيعه . برداد : أسم من الاسترداد .

يقول البغدادى فى شرح شواهد الشافية[1] : أصله سلف بفتح اللام .

(ب) وقول الراجز :

على محالات عُكِسْنَ عكْساً

إذا تسدَّاها طلابـــاً غلسْا

يريد غَلَسا بالفتح .

(ج) ونقل البغدادى عن كتاب الضرائر لابن عصفرر قول الشاعر :

وقالوا ترابىٌّ فقلت صـــدقتم

أبى من تراب خلْقــه الله آدم

يريد : خَلَقه

(د) وقول أبى خراش :

ولحم امرىء لم تطعم الطيــر مثله

عشية أمسى لايُبين من البَكْم

يريد : من البَكَمَ .

وابن جنى فى شرح التصريف للمازنى[2] يرى أن تخفيف المفتوح ضرورة ، وعند أصحابه من الشاذ ، ثم يرى رأيا آخر فى توجيه : سلْف – فى قول الأخطل السابق : وهو أن يكون مخففا من فعل – مكسور العين ، ولكنه فِعْل غير مستعمل إلا أنه فى تقدير الاستعمال وإن لم ينطق به . وهذا تمحل عجيب من جنىّ وابن جنىّ ثم ينقل عن سيبويه قوله (وهذا التسكين لم نره فى المفتوح البتة)[3] وقد وضعت الحق فى نصابه فظهر ترديِّهم فى الخطإ ، ومجانبة الصواب .

مواقف متشابهة :

وموقف النحاة السابق وتزمتهم حتى فى فهم كتاب الله يذكرنى بموقفهم فى إنكار بعضهم إسكان حركة الإعراب ، حيث يرى كثير منهم عدم حذفها مطلقا فى الشعر وغيره ، وهم محجوجون بقراءات القرآن الموثقة ، فقد حذفت الحركة فى الفعل المضارع وقرأ أبو عمرو بحذف الحركة الإعرابية فى « ينصركم » فى آل عمران والملك ، و « يأمركم » و « يأمرهم » و « تأمرهم » و « يشعركم » فى الأنعام ١٠٩ ، « ويعلمهم » فى البقرة ١٢٩ وقد عزى حذف الحركة الإعرابية

---

(١) ص ١٨ فما بعدها .

(٢) ١ – ٢١

(٣) شرح تصريف المازنى ١/ ٢٢ لابن جنى .

فى القراءات السالفة إلى بنى أسد وتميم وبعض نجد [1] ، كما حذفت الحركة الاعرابية فى الأسماء [2] ، وأيدتها القراءات القرآنية الموثقة الأمينـة ، وكما جاء حذف الحركة الإعرابية فى النثر ورد كذلك فى الشعر [3] . وهذا يشير إلى أن المكان السامى الذى كان لحركات الإعراب قد هبط ، إذ الإسكان قد بدأ ينازعها فى مكانها ويستولى على أمكنتها ، وكيف لا يكون ذلك وقد صار الإسكان سمة لهجية لقبائل تميم وأسد وغيرها من قبائل نجد ، وقرأ على تلك الظاهرة أبو عمرو التميمى ، بل يظهر أن الإسكان قد زحف على الأماكن التى تسيطر عليها الحركة الإعرابية ، ومما يؤيد وجهة نظرى ما جاء فى النشر « وقد قرأ بإسكان لام الفعل ... محمد بن عبد الرحمن بن محيصن » وإذا أدرنا البحث فى كتب الطبقات لنعرف إلى أى بقعة ينتمى هذا الذى قرأ بالإسكان — أفادنا ابن الجزرى فى طبقاته « بأنه قرشى ، ومن قراء مكة [4] »

فكأن ظاهرة الإسكان قد زحفت من تميم حتى اقتحمت دوائر الحجاز ، فأصبح الإسكان لا يقل شأنا عن الحركة الإعرابية خذ مثلا — يؤكد ما سبق — على سبيل المثال لا الحصر ، قراءة نافع (والأذن بالأذن) ٤٥ من المائدة . بإسكان الذال . ونافع حجازى قرأ بالإسكان كما ترى ، مخالفا بيئته التى لا تسكن .

والغرض من ذهاب حركة الإعراب هو عامل الخفة والتيسير ، وقد فهمنا فيما تقدم أن تميما وجيرانها يخففون عين الكلمة بإسكانها ، فإذا حذفوا الحركة الإعرابية فإنهم يعملون ذلك تمشيا مع نظامهم فى التيسير والتخفيف ، ومع كل هذا نرى :

١ — أن المبرد يزعم بأن قراءة أبى عمرو لحن [5]

٢ — وسيبويه يحمل ظاهرة الإسكان فى قراءة أبى عمرو على الاختلاس .

---

(١) اتحاف فضلاء البشر : ١٣٦ وانظر إبراز المعانى . ٢٣١ والنشر ٢ — ٢١٢

(٢) النشر ٢ — ٢١٤ ، والبحر ٢ — ١٨٨ ومختصر شواذ القرآن ١٤

(٣) شرح السيرافى ١ — ٢٦٧ والخصائص ١ — ٧٤ دار الكتب ، وسيبويه ٢—٢٩٧

(٤) طبقات القراء ٢ — ١٦٧ (٥) البحر ١ — ٢٠٦

٣-وابن جنى يسير فى ركاب سيبويه بل ويشنع على القراء ويرى أن روايتهم بالإسكان جاءتهم « من ضعف دراية »[١] والحق أنه يجب ألا نلزم بقول النحاة وحدهم ، إذالقراءُ شركاء لهم فى نقل اللغة ، بل قد كان من القراء أكابر النحاة .

على أننى أرجح أن الإسكان لم ينتصر على الحركة الإعرابية وحدها ، بل سيطر على حركات البناء ، ففى الخصائص[٢] ورد قول نهشل بن حرى :

فلما تبينْ غبَّ أمرى وأمره
وولتْ بأعجاز الأمور صدورُ

وقول جرير :

هو الخليفة فارضوْا ما رضِى لكمو
ماضى العزيمة ما فى حكمه جَنَفُ

بتسكين الياء فى رضى .

وقد يستطيع النحاة أن يقولوا شيئا ؛ لأن الشواهد شعرية ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يقولوا شيئا فى قراءة أبىّ « وذروا ما بقْى من الربا[٣] » بكسر القاف وسكون الياء[٤] .

على أن السكون عنصر له قيمة يمكن أن تقارن بقيم الحركات فمثلا : هو يمثل الإمكانية الرابعة وهى الخلو من الحركة ، وله وظيفته وقيمته فى التركيب المقطعى ، وله سمة هامة موسيقية وذلك فى التفعيلات العروضية وله قيمة إيجابية كذلك فى النظام الفنولوجى ، وله مكانته فى الجانب النحوى إذ هو دليل الجزم ، كما أنه دليل إعرابى فى حالة الوقف وأخيرا هو إمكانية من إمكانات البناء[٥] .

هذا ، ويظهر أن مشكلة السكون قد أثارت نوعا من القلق فى دوائر علمائنا الأقدمين ، استمع إلى ما جاء فى شواذ القرآن لابن خالويه[٦] عند قوله تعالى « ويدعوننا رغبا ورهبا »[٧] يقول ابن خالويه سمعت أبا بشر النحوى يقول :

---

(١) الخصائص ١ — ٧٥ ط الهلال .
(٢) ١ — ٧٤
(٣) البقرة ٢٧٨
(٤) شواذ القرآن لابن خالويه ١٧ وانظر البحر ٢ — ٣٢٧ فقد عزاها إلى الحسن .
(٥) السكون . دكتور كمال بشر مجلة المجمع ج ٢٤
(٦) ص ٩٢
(٧) الأنبياء ٩٠

قال الأصمعي قلت لأبي عمرو : لم لا تقرأ - رغْبا ورهْبا - بالسكون مع ميلك إلى إلى التخفيف فقال : ويلك - أحمْل أخف أم حمَل - يعنى أن المفتوح لايخفف ثم يقول ابن خالويه : وسمعت ابن مجاهد يقول : روى بالتخفيف فى قوله : رغبا ورهبا - هارون عن أبى عمرو . ويفهم من تلك المحاورة :

(أ) أن العلاقة بين السكون والفتح كانت غير واضحة تماما عند الأقدمين .

(ب) وأن أبا عمرو قال : بأن المفتوح لا يخفف ثم روى عنه من طريق آخر تخفيف المفتوح ، ولا تعارض ولا تناكر ؛ لأن الروايات موثقة وجاءت على هذا .

إلا أن النظرة اللغوية الحديثة وجدت حلاً لهذه المشكلة وذلك القلق حيث رأت أن السكون له من الناحية الصوتية جانبان .

١-جانب النطق والتأثر السمعى .

٢-جانب الوظيفة التى يقوم بها فى النظام الصوتى ، فهو من حيث الجانب الأول عدم أو لا شئ ، ومن حيث الجانب الثانى فهو عنصر له قيمة تقارن بقيم الحركات . . وقد أطلق عليه (الحركة الصفر) نظرا لسلبية السكون فى النطق ، وإن كانت له قيمة إيجابية فى النظام اللغوى ، وخلاصة ذلك :

١-أنه يجوز أن نسمى السكون حركة إذا نظرنا إلى قيمته الوظيفية .

٢-وهناك نظام وظيفى للحركات مكون من أربعة عناصر : ثلاثة منها لها تحقق صوتى مادى وهى : الفتحة والكسرة والضمة . وعنصر واحد وهو السكون (لا شئ) أو (عدم) من هذه الناحية[1]

تعقيب :

١-أرى مما سبق فى إسكان حركة البنية ، وحركة الإعراب - أنه من خصائص تميم ، ومن جاورها كبكر بن وائل ، وتغلب ومن لف لفهما .

٢-وأن لهجات الحجاز تحتفظ بالصيغ دون حذف أو تغيير ، فالصيغ ثابتة .

(١) السكون : دكتور كمال بشر مجلة المجمع ج ٢٤

٣ ـ أن هذا التفريع فى قبائل تميم وغيرها – تطور عن الصيغ الحجازية الثابتة .

٤ ـ أن ظاهرة حذف الحركات تتلاءم وتميم البدوية ، حيث أنهم يميلون إلى السرعة فى النطق الذى ينتهى إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، ولا شك أن حذف الحركات فيه تيسير واقتصاد وهو ما يهدف إليه البدوى – بعكس الحجاز المتحضرة التى تهدف إلى إعطاء كل صوت حقه من الوضوح والبيان .

ودليل ذلك ما جاء فى الخبر « نزل القرآن بالتفخيم » وقد اختلفت الأئمة فى معنى هذا الحديث ، فبعضهم يرى أنه نزل بذلك[1] ، ثم رخص فى الإمالة وبعضهم شرحه بأن المقصود : أنه يقرأ على قراءة الرجال ، لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء ، وآخرون بأن المقصود منه : أنه نزل بالشدة والغلظة على المشركين ، وبعضهم يرى أن المراد بالتفخيم : تحريك أوساط الكلم بالضم والكسر دون إسكانها[2] ، وأرجح أن هذا المعنى الأخير هو المقصود دون غيره ، لأن من يرى أن معنى التفخيم نزوله بالشدة والغلظة على المشركين – مردود ، لأن القرآن الكريم كما نزل بالغلظة نزل كذلك بالرحمة والرأفة ، والذى يؤيد ما أرجحه ما ورد عن أبى عبيدة من قوله « أهل الحجاز يفخمون الكلام كله[3] » ، وكأن المقصود هو نطق الحركات كاملة دون الجور عليها بالتسكين ، وتلك سمة حجازية .

وهناك استثناء من تلك القاعدة العامة وهو أن أهل الحجاز يسكنون الشين من (عشرة) فيقولون « إحدى عشرة » على حين تميم تقول ذلك بالكسر . وهذا عكس ما نعرفه عنهما ، لأن المعروف أن تميما تسكن العين من فَعِل وفَعَلة ، والحجاز يحركون ذلك ، ووردت نصوص تؤيد ذلك ، منها :

قوله تعالى : « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا[4] » فقد نسب أبو حيان إسكان الشين إلى الحجاز ، وكسرها إلى

(١) لعله يقصد « الفتحة الصريحة » .

(٢) الإتقان : للسيوطى : ١ – ٩٥

(٣) الإتقان : ١ – ٩٥

(٤) سورة البقرة آية : ٦٠

تميم[١] . وعن ابن خالويه – أن كسر الشين قراءة الأعمش[٢] . كما قرأ ابن وثاب قوله تعالى : « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما »[٣] بكسر الشين وهى فى تميم ، والجمهور بالإسكان وهى لغة الحجاز[٤] ، وفى نوادر يونس « أن تميما تثقل عشرة ، وتكسر الشين . وأهل الحجاز لا يحركون[٤] .

وقد يعلل لكل من اللهجتين حيث خالفتا معتاد لغتها ، وذلك أن المشهور عن الحجازيين تحريك الثانى من الثلاثى إذا كان مضموما أو مكسورا – وأما تميم فتسكن ذلك – وسبب المخالفة فى العدد [أنه قد نقضت فى كثير منه العادات من ذلك قولهم فى الواحد : واحد وأحد ، فلما صاروا منه إلى العدد قالوا : إحدى عشرة – فبنوه على فعلى ، ومنه اقتصارهم من ثلثمائة إلى تسعمائة على أن أضافوه إلى الواحد ، ولم يقولوا ثلاث مئات ولا أربع مئين[٥] . ويرى ابن جنى « أن العدد موضع يحدث معه ترك الأصول »[٦] ولهذا تركت كل من اللهجتين لهجتها إلى لهجة أخرى ، فأسكن من كان يحرك ، وحرك من كان يسكن . والمقارنة مع بقية اللغات السامية فى هذا اللفظ تثبت أن اللفظ فى السامية الأم لم يكن فيه حركة بعد العين ، ففى العبرية هو עֶשְׂרֵה ومعنى هذا أن لهجة الحجاز على الأصل ، على حين (عشرة) بالكسر فى تميم من قبيل اجتلاب الحركة ، وهو ما يسمى بالقلقلة[٧] .

٥ – كما كانت كل قبيلة تسير فى لغتها على مقدار يكافئ طبيعتها ، فما رفضته القبيلة أو قبلته فإنما يخضع لعامل الثقل حينا والخفة أحيانا ، وهاتان الصفتان لا تجمع عليهما جميع القبائل ، لأن مراتب الثقل والخفة متفاوتة ، ولهذا قد يدعون البناء من الشىء وهم يتكلمون بمثله فى لفظ آخر ، كما يتركون صيغا سهلة لتوهمهم فيها سببا من أسباب الثقل .

---

(١) البحر : ١ / ٢١٨
(٢) مختصر شواذ القرآن : ٥ / ٦
(٣) سورة الأعراف آية : ١٦٠
(٤) البحر : ٤ / ٤٠٦
(٤) المزهر : ٢ / ٢٧٥
(٥) شرح المفصل لابن يعيش : ٦ / ٢٧
(٦) المحتسب : ابن جنى : ١ / ٣٢٥ / ٣٢٦ ، مخطوط بالتيمورية .
(٧) رابين : ٩٨

وقفـــة :

ولكن يظهر أن القبائل الشرقية- كتميم وبكر وربيعة وأسد وقيس وعقيل وغيرها من قبائل الشرق - لم تكن على درجة واحدة من الميل إلى تسكين البنية ، بل تتفاوت كل قبيلة عن الأخرى فى ميلها إلى تسكين وسط الكلمة - تفاوتاقليلا - أمكننى أن ألاحظه ، وأن أسجل تفاوته بين هذه القبائل الشرقية ، وإن كانت السمة الغالبة عليهم جميعا هى ميلهم إلى التسكين .

١ - فأسد وإن كانت تجنح إلى إسكان البنية - إلا أنها فى بعض الأحيان تخالف ذلك ، فمن ذلك ما جاء فى شرح السيرافى على سيبويه من أن « فعل » بضم الفاء وسكون العين تضم بنو أسد عينه اتباعا لأوله ، على حين « فعل » بضمتين فتسكنه تميم[١] . وفى قوله تعالى « ويأمرون الناس بالبخل »[٢] فقد عزا الفراء : التثقيل فى « البخل » إلى أسد[٣] ، ومراده التثقيل أى النطق بالحركات كاملة ،أى أن أسدا تنطق بالصيغة مكتملة ، على حين عزا التخفيف إلى تميم ، والمراد بالتخفيف التسكين ؛ لأن التسكين أخف على اللسان من غيره ، وقد نطقت الحجاز فى هذا كأسد[٤] : أى باكتمال الحركات وأما بكر بن وائل فسارت سير تميم فى التسكين ، قال ابن خالويه : بالبخل - (بفتح فسكون) لغة بكر بن وائل[٥] ، وعلى هذه اللغات جميعا قرأ القراء كما فى البحر[٦] .

٢ - وفى كنز الحفاظ أن الفراء حكى عن بنى أسد قولهم : هل رأيت عينا؟[٧] بفتح العين والياء فى معنى : أحدًا . وبعض العرب يقول : ما بها عيْن بسكون الياء .

٣ - وجاء فى اللسان أن بنى أسد تقول : فى أسنانه حفر[٨] . بفتح العين ، والحفر ما يلزق بالأسنان ، وغيرهم يقول : حفر . بسكون العين .

(١) شرح السيرافى على سيبويه : ٥ / ٦
(٢) سورة النساء آية : ٣٧
(٣) البحر : ٣ / ٢٤٧
(٤) البحر : ٣ / ٢٤٧
(٥) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٢٦
(٦) البحر : ٣ / ٢٤٦
(٧) كنز الحفاظ : ٢٧٣
(٨) اللسان : ٥ / ٢٨١

فالسمة الغالبة فى هذه النصوص لبنى أسد أنها آثرت الحركات على السكون ، وإنما قلت فى هذه النصوص فقط ؛ لأن المأثور عنها حذف الحركة مثل قراءة « نذرا » فى المرسلات ، « وعرفا » فيها أيضا ، « وخبرا » فى الكهف ، فالإسكان كما ذكر صاحب الإتحاف لغة تميم وأسد وعامة قيس ، والضم لغة الحجاز[1] ، وأرجح أن الأصل الضم فى هذه الأمثلة ، وأسكن تخفيفا . فمن النصوص نرى أن أسدا كانت تتردد فى حذف الحركات ، أى أنها كانت حينا تحذف ، وأحيانا لا تحذف ، وليس هذا اضطرابا فى الظاهرة – بل يسهل علينا تعليل ذلك : أن أسدا من القبائل الكبرى ذات البطون الكثيرة ، والعمائر المتعددة ، فيمكن أن نعزو صيغ حذف الحركات إلى قبائلها المتاخمة لتميم ، والصيغ المكتملة الحركات إلى قبائلها التى تنحدر إلى ما يقرب البيئات الحجازية ، تلك التى كانت تحرص على اكتمال الحركات . إلا أن حذف الحركات فى أسد أكثر من اكتمال الحركات ؛ لأن قبائلها كانت أكثرها فى المنطقة الشرقية والوسطى من الجزيرة العربية تلك كانت تؤثر حذف الحركات .

٢ – أما قيس فقد تقدم أنها أحيانا تسير فى ركاب تميم وبكر بن وائل فى حذف الحركات القصيرة ، ولكن لانعدم أن نرى بعض الروايات التى تنسب إليها اكتمال الحركات مثل ما جاء فى خزانة الأدب من أن قيسا تقول « الضَّبُع » بضم الباء ، وتميم تسكنها[2] ، وورد نص مثله فى المصباح[3] . ويرى البغدادى أن التخفيف الواقع فى الكلمة نحو (عضد) بضم الضاد سائغ فى حال السعة ، لأنه لغة لقبائل ربيعة[4] ؛ وأرى أن قبائل قيس كانت تتردد بين حذف الحركة ، وبين عدم حذفها ؛ وليس معنى هذا اضطراب الظاهرة ؛ إذ أن قيسا كانت شعبا عظيما – تفرق إلى عدة قبائل ، وتوزعت قبائلها على محيط شاسع فى الجزيرة العربية ، وبعض قبائلها كانت فى وسط الجزيرة كعقيل وغنى ، وبعضها الآخر كان يسكن مناطق الحجاز لذلك أرجح أن قبائلها التى كانت تسكن

(١) الإتحاف : ١٤٣

(٣) المصباح : ٢ / ٥٤٥

(٢) الخزانة : ٢ / ٣٦٩

(٤) الخزانة : ٢ / ٣٦٩ ، ٣ / ٥٣١

شرق الجزيرة ووسطها كانت تحذف الحركة القصيرة كعقيل – فقد روى اللسان أن يوم (الجمعة) بسكون الميم لغة بنى عقيل ،وأهل الحجاز تقول :الجمعة– مثقلة [1] – أى مع عدم حذف الحركة والأصل فيها السكون . فمن ثقل أتبع الضمة الضمة . ومن خفف فعلى الأصل. وعلى لغة عقيل قرأ الأعمش [2] . ومما يؤيدنى فى هذا الرأى ما جاء فى الإتحاف من عزو تسكين الوسط فى « نذرا » بالمرسلات ، « وخبرا » فى الكهف إلى تميم ، وأسد ، وعامة قيس [3] . فقوله « وعامة قيس » دليل على أن قيسا لم تكن جميعها تحذف الحركة ، بل قبائلها الضاربة فى البادية كعقيل وغنىّ وغيرهما بدليل ما أوردته فى عقيل . وأما بقية قيس المتصلة بالحجاز كغطفان وغيرها – فإنها لم تكن تحذف الحركة وشأنها فى ذلك شأن الحجاز بدليل أن الحجاز كانت تقول « الجمعة » [4] بالحركات كاملة . وكلما اتجهنا إلى مناطق الحجاز وجدنا استكمال الحركات فى الكلمة والمحافظة عليها ، بدليل أن هذيلا وهى فى مناطق الحجاز أثر عنها كما جاء فى المخصص عن أبى عبيد أنها كانت تقول : « نجد » بضمتين فى (نجد) [5] بالسكون ، والدليل على ذلك ما قاله أبو ذؤيب

فى عانة بجنوب السِّىِّ مشربُها
غور ومصدرها عن مائها نُجُد [6]

بضمتين . وعزا الأصمعى هذه الصيغة إلى الحجاز وهذيل [7] . وفى معجم البلدان أنها لغة هذيل خاصة [8] . وعلى أى حال فسواء كانت اللهجة هى لهجة الحجاز وهذيل . أم هذيل وحدها فإنها تؤيد ما نذهب إليه من أن الحجاز وما جاورها من هذيل وبطون قيس – كانت لا تحذف الحركات القصيرة .

وأما تميم وبكر بن وائل وقبائل ربيعة . وأكثر قبائل أسد . وعامة قبائل قيس المتاخمة لتميم – فإنها كانت جميعا تجنح إلى حذف الحركات القصيرة . ولعل هذا

(١) اللسان : جـ ٩ مادة جمع .
(٢) المصباح ١ / ١٧٠ – ١٧١
(٣) الإتحاف : ١٤٣
(٤) اللسان : جـ ٩ مادة جمع .
(٥) المخصص : س ١٢ ص : ٤٨
(٦) ديوان الهذليين : ١ / ٢٤ دار الكتب
(٧) اللسان : ٤ : ٤٢٥
(٨) معجم البلدان : ٨ / ٢٥٢ ياقوت .

يتفق مع طبيعة البدو فى السرعة فى نطق الكلمة ، ولهذا جانب الصواب الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى كتابه « القراءات واللهجات [1] » حيث ذكر أن تسكين العين فى « رسل » لغة أهل الحجاز والتحريك لغة بنى تميم ، ويبدو أن الدكتور شوقى ضيف مال إلى ما رآه الأستاذ عبد الوهاب حمودة [2] أيضا .

وقد وقع أبو حيان نفسه فيما وقعا فيه عند تفسيره لقوله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل » [3] حيث ذكر أن قراءة الجمهور – بالرسل – بضم السين ، كما قرأ الحسن ويحيى ابن يعمر بتسكينها [4] » ثم قال أبو حيان « وتسكين عينه لغة أهل الحجاز ، والتحريك لغة بنى تميم » [5] .

ومن مجانبة الصواب فى حركة العين من الفعل المعتل أن رجلا أخطأ بحضرة أبى عمرو بن العلاء حين أنشد قول المرقش الأصغر :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره
ومن يَغْوَ لا يعدم على الغىّ لائما .

فقال له أبو عمرو أقومك أم أتركك تتسكّع فى طمّتك ؟ فقال : بل قومنى . فقال : قل : ومن يغْو (بكسر الواو [6]) ألا ترى إلى قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » [7] . وإنما أخطأ المنشد لأن الفعل من باب : قضى يقضى

وقد نرى حذف الحركات تارة واكتمالها تارة أخرى فى اللغات السّامية أيضا كما رأينا فى لهجات القبائل فى ففى الأكدية 'Uznu وهى فى العبرية 'Ozen [8] باكتمال الحركة ، ونجدها فى العربية : أُذُن – باكتمال الحركة تارة وبحذفها تارة أخرى . وذلك فى قراءة

(١) ص : ٣٧ ط أولى .
(٢) تاريخ الأدب العربى ١ – ١٢٦ د . شوقى ضيف
(٣) سورة البقرة آية : ٨٧
(٤) البحر المحيط ١ – ٢٩٩
(٥) البحر المحيط ١ – ٢٩٧
(٦) طبقات اللغويين ٢٩ للزبيدى .
(٧) سورة طه آية : ١٢١
(٨) التطور النحوى ٤٤ برجشتراسر .

نافع « والأُذْن بالأُذْن » ٤٥ من المائدة . ونافع بن أبى نعيم صاحب هذه القراءة مدنى حجازى ، ومع ذلك فقد خالف بيئته التى لا تسكن .

وقد تؤثر عين الكلمة حركة فى موضع ما ثم ترفض نفس الحركة من الكلمة نفسها فى موضع آخر ، وليس السبب فى ذلك عامل الثقل أو الخفة كما قد يتوهم ، وإنما يرجع إلى تحقيق الموسيقا الصوتية وانسجام النغم ، ففى قوله تعالى : « إلى شىء نكُرٌ » القمـــــر : ٦ . حرك عين الكلمة ؛ لأن النظام العام للسورة آثر الحركة فى آياتهـــا ، على حين رفض الحركة فى الكلمة نفسها فى قوله تعالى :

« وعذبناها عذابا نكْرا » الطلاق : ٨ . وذلك تحقيقا لموسيقا السورة التى آثرت سكون العين[1] فى آياتها .

وفى النهاية : نرى أن نظام العربية فى ضوء ما سبق من النصوص والشواهد قد حقق من خلال الحركات والسّكنات وتقاصفها على الصيغ – فيضاً غامرًا من كثرة الوجوه وحركية الانتقال ، ونظاما منتظمًا متوا كبًا مع الدلالة فى نسق صوتى خاص ، وهذه المساوقة بين الصيغ اللفظية ومعانيها يشير إلى تمدن العرب فى لغتهم من جانب ، كما يعدُّ نمطًا فريدا لسياسة الحروف وحركاتها من جانب آخر .

أحمد علم الدين الجندى

---

(١) انظر أمثلة مختلفة للموسيقا وأثرها فى :

(أ) أبو زكريا الفراء ٣٠٤ د . مكى الأنصارى .

(ب) التصوير الفنى فى القرآن .

(ج) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٦٣ د . زغلول سلام .

أمثال عاميّة..

بين القرنين: التاسع والرابع عشر الهجريين

للأستاذ محمد قنديل البقلي

ماعاش صاحب تجربة يمليها مرة عملا، ويمليها مرة كلمة، ولن يبلغ هذا العمل، كما ان تبلغ تلك الكلمة مبلغ التجربة إلا حين يكون هذا العمل أوتكون تلك الكلمة حكما لايتزعزع ولا يجرح، وإلا فقد هذا الحكم أثره.

وهذا الحكم لا يبلغ أن يكون حكما إلا بعد أن تسبقه قضايا تحمل المقدمات نفسها، والملابسات نفسها، والنتائج نفسها، لا يختل من ذلك شيء وإلا اختلّ الحكم. واتحاد كل من المقدمات والملابسات والنتائج لا يعنى أن يكون على صورة واحدة، أو على مرتبة واحدة، بل قد تختلف صورها كما قد تختلف مراتبها.

من أجل هذا كان الاستقصاء الذى يبلغ بالمستقصى إلى الحكم يعوزه جهد كثير وتحرٍّ شامل، كما يعوزه رأى ثاقب وبصيرة نافذة وخبرة واسعة، ثم بعد هذا كله محتاج إلى الصائغ الحكيم الذى يجمع الكثير فى قليل، ويختار من الكلمات أدلها ومن الألفاظ أنفذها ومن العبارات أجزلها ليجعل من حكمه آية مبنى ومعنى.

وبعيد أن يكتب لحكم البقاء ما لم تتوفر فيه الخبرة والوعى والصدق وحسن الأداء لكى يجرى على الألسنة ويعيه الناس جيلا بعد جيل يقضون به فى أمورهم المشاكلة وكأنهم فى ذلك قضاة ولكن دون أن يعنوا أنفسهم بدراسة ودون أن يعنوا أنفسهم بوعى ودون أن يعنوا أنفسهم بصدق الحس، ودون أن يعنوا أنفسهم بحسن الأداء، بل حسبهم أن يقيسوا حاضرا بغائب، وما أيسر ما يكون هذا القياس عليهم، ثم بعدها يحكمون بهذه الأحكام التى حفظوها، وحفظ المرء لهذه الأحكام لن يكون إلا عن إيمان بها وبمدلولها

ومضمونها ، وهذا الإيمان بهذه الأحكام لن يتم للمرء إلا إذا حذر ما تحذره الأحكام ورغب فيما ترغب فيه هذه الأحكام ، عندها تكون الأحكام على لسانه أنفذ وأقوى لأنه سوف يضفى عليها من وحيه وعقيدته فيزيد الناس استمساكا بما يستمسك به هو وبعدا عما يبتعد عنه .

وهذه الأحكام كما لم تبلغ مبلغها عبثا كذلك لم تؤثر عبثا فهى تجربة الماضين للاحقين وأدب من سبقوا يؤدبون به من خلفوا .

ومن المعروف أن الأمثال التى يتداولها الشعب هى حكم نتيجة لتجارب هذا الشعب وتسجيل قولى لبعض ما مر به من أحداث استخلص منها مآثر ومواعظ ، وأبى أن يهملها أو ينساها فسجلها فى هذه الكلمات التى يتناقلها الناس بالرواية جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر ، مما جعل الأمثال تأخذ طابعا خاصا من ألوان فن القول ، وأصبحت الأمثال مرآة للشعوب نستخلص منها اتجاه الشعب وخصائصه الاجتماعية مما لا نجده مسجلا فى أى لون من ألوان الأدب أو المعرفة . فالمؤرخون لا يذكرون دقائق الحياة الاجتماعية على نحو ما تصوره الأمثال . والشعر لا يصف إلا نواحى خاصة من نواحى الحياة الاجتماعية هى التى يراها الشاعر بنظره هو دون أن يراها المجتمع نفسه . ولكن الأمثال هى التى أجمع عليها الشعب ينطق بها الجاهل والمتعلم والفقير والغنى . هى التى تجرى على ألسنة طبقات المجتمع ، فهى المعبر إذن عن اتجاهات ونواحى هذا المجتمع دون غيرها .

فمصر عرفت منذ أقدم عصورها بفن القول ، ولها طابعها الخاص فى النواحى الأدبية التى تمتاز بها عن غيرها من البلدان . ولها حياتها الاجتماعية الخاصة التى هى نتيجة لتلك البيئة المصرية ، وكثرت فيها الأمثال التى عبر عنها المصريون عن تجاربهم الطويلة العديدة ، وعن نواحى حياتهم المتأثرة بما كان فى المجتمع المصرى من سخط ورضى ، وجد وهزل ، نطق المصريون بهذه الأمثال وتداولوها منذ أقدم عصورهم ، ولو قُدّر للمصريين أن يحفظوا أمثالهم القديمة فى عصورهم المختلفة ، ودوّنوا هذه الأمثال لاستطعنا

أن نرجع عددا كبيرا من الأمثال التى ننطقها اليوم إلى عصورها التاريخية .

فمما لا شك فيه أن كثيرا من الأمثال المصرية الحالية عرفها المصريون منذ قرون عديدة وخاصة هذه الأمثال التى تتحدث عن تقلبات الجو ، أو التى تتحدث فى الشئون الزراعية ، فمثل هذه الأمثال قديمة . ولكن لاندرى على وجه التحديد متى ظهرت لأول مرة بين الشعب المصرى . وكذلك نقول عن كثير من الأمثال التى تمس حياتنا الاجتماعية ، فمن حسن الحظ أننا نجد فى كتاب مصرى ينسب إلى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وهو كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » للإبشيهى ، بابا خاصا بالأمثال المصرية ، جمع فيه مؤلف الكتاب عدة أمثال تبلغ نحوا من ثلاثمائة وخمسين مثلا . إذا قرأناها سنجد أنها تتفق فى كثير من ألفاظها مع ما ينطق به رجل الشارع اليوم ، وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدل على أن هذه الأمثال كانت موجودة قبل القرن التاسع للهجرة ، وأنها بقيت على حالتها يرويها الشعب جيلا بعد جيل ، ويأخذها الصغير عن الكبير بدون تغيير يذكر لا لشىء إلا لأنها ما زالت تمثل الحياة المصرية بالرغم مما أصاب حياتنا من تغيير وتطور . وهذا يدل من ناحية أخرى على أن مصر تتمتع بميزة المحافظة وبحب الجديد فى الوقت نفسه .

ومن يدرس الأدب المصرى فى عصوره المختلفة تتضح له هذه الحقيقة ماثلة وتظهر ظهورا لافتا فى مختلف حياتنا . فمصر كما لاحظها مؤرخو الأدب المصرى تحب الاحتفاظ بشخصيتها وبتقاليدها ، فهى محافظة على هذا النحو ، ولكنها من ناحية أخرى تحب أن تعرف كل شىء جديد على أن تخضع هذا الجديد لمزاجها وتقاليدها .

وهكذا استطاعت مصر أن تحافظ على أمثالها بنفس الصيغ التى وردت عند المصريين فى القرن التاسع الهجرى ، كما أضافت إلى هذا التراث القديم أمثالا جديدة هى نتيجة لما طرأ على مصر من تطورات جديدة .

فإذا نظرنا إلى هذه الأمثال التى دونت فى القرن التاسع نستطيع فى سهولة ويسر

أن نقسمها إلى عدة أقسام :نستطيع أن نلمس فى بعضها أنها لا تزال مستعملة إلى اليوم . وهذا القسم من الأمثال هو أكثر ما جاء فى هذا الباب من الكتاب فمثل قوله :

- إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله
- المستعجل والبطى عند المعدية يلتقى
- إذا غاب عنه أصله كانت دلايله فعله
- إيش انت فى الحاره يا منخل بلا طاره
- والله العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب
- تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها
- جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك
- جوزوها له مالها إلا له
- جوزوا مشكاح لريمه ما على الاتنين قيمه
- حاجه ما تهمك وصى عليها زوج أمك
- حب ودارى واكره ودارى
- زى ما هى ومانه إلا قلوب ملانه
- ركبتك ورايه حطيت يدك فى الخرج
- رزق الكلاب على المجانين
- راحت على جمل وجات على قُطّه مال دى الشّيلة إلادى الحطة
- سل مجرب ولا تنسى الطبيب
- شىء ما ييجى على القلب عنايته صعب
- شرى العبد ولا تربيّته
- صباح الخير يا جارى إنت فى دارك وانا فى دارى
- ضرب الحبيب كأكل الزبيب
- طبق وجارية على صحن بساريه
- طعامك ما جانى ودخانك أعمانى
- طار طيرك وأخد غيرك
- طوّل الغيبة وجه بالخيبة
- كُلْ وبَحْلَقْ عنيك عزومة انْحَسَبِتْ عليك
- قالوا للجمل زمّر قال لاشفف ملمومة ولا أيادى مفرودة
- قالوا للدّبة طرّزى قالت خنّية أيادى
- كُشكال داير ولا علامة مقطوعة
- لولاك يا كُمّى ما أكلت يا فُمّى
- لولاك يا لسانى ما انسكّيت يا قفايه
- لو كان فيها خير ما رماها الطّير

– ما شِلتك يا دِمعتى إلا لشدتى

– من عاشر الحداد احترق بناره

– نوايه تِسْند جرّه قال والزِّير الكبير

– لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يبجى

– الكلام لك يا جاره إلا إنت حماره

– إش تعمل الماشطة فى الوش المِشّوم

– أرملة عدس ومزوجة عدس

– جارية وَزِبْدِيَّة على باذنجانة مقليّة

– خطبوها تْعززت

– زمّر بالزميرة تبان لك العاقلة من المجنونة

إلى غير ذلك من هذه الأمثال العديدة التى مانزال نرددها إلى اليوم بنفس الألفاظ التى كان يتحدث بها المصريون منذ خمسمائة عام . ولا شك أن هذه الأمثال كانت أقدم من هذا القرن التى دوّنت فيه ، ومن يدرى لعلها ترجع إلى ذلك العصر الذى بدأ فيه ظهور الآداب الشعبية المصرية ظهورا لافتا ، وهو العصر المملوكى الأول ، أى فى النصف الثانى من القرن السادس للهجرة ، وما بعده ، فإن فيما بقى لنا من أدب شعبى لهذا العصر ألفاظ لا نزال ننطق بها إلى الآن وتعبيرات هى نفس التعبيرات التى نستعملها فى بعض القرى المصرية وبعض الأحياء الشعبية ، فلعل هذه الأمثال ظهرت بهذه الصورة فى تلك العصور . ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك . ولعل أساتذة الفيلولوجى وأساتذة الأدب المصرى فى العصور الوسطى يستطيعون أن يحدثونا عن ذلك كله .

وأذكر هنا بعضا من المؤلفات جاءت بعد كتاب المستطرف للإبشيهى أو التى فى عصرنا ونقلت إلينا الكثير من هذه الأمثال كما رواها الإبشيهى ومنها :

١ – الشيخ محمد شكرى : مجمع الأمثال العامية المصرية ، مخطوط بالتيمورية رقم ٥١٩ تيمور .

٢ – محمود عمر الباجورى : أمثال المتكلمين من عوام المصريين – مصر ١٣١١ هـ

٣ – كرلو لندبرج الأسوجى : الأمثال السائرة والأقوال الدائرة عند أولاد العرب – لندن ١٨٨٣

٤ – شرف الدين بن أسعد : جمع ، الأمثال المصرية العامية – نشرهابوركهارت ، لندن ١٨٣٠

James Richard Jewett : Arabic-o proverbes and proverbial phrases, New Haven 1890.

٦ – أحمد تيمور : الأمثال العامية المصرية ، القاهرة ١٩٤٩

٧ – شفيقة شبير : جمعت الأمثال الاجتماعية والفكاهية .

٨ – فائقة حسين راغب : حدائق الأمثال العامية . القاهرة ١٣٥٧ هـ .

٩ – نعوم شقير : أمثال العوام فى مصر والسودان والشام ، مصر ١٨٩٤

١٠ – Mrs. A.P. Singir : جمعت أمثال العوام من مصر والسودان والشام – نشرها إنو ليتمان ، مصر ١٩١٣

١١ – محمد قنديل البقلى : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦٨

وأما القسم الثانى من هذه الأمثال التى دونت فى القرن التاسع فهى أمثال لانسمعها اليوم فى مصر لا لشىء إلا لأن التطور الذى تطورته مصر فى مدى هذه القرون ، أبعدت الحياة المصرية بعض الشىء عما كانت عليه . فأصبحت هذه الأمثال لا تنطبق على حياتنا الحديثة مثال ذلك :

– بدوى مقروح لقى التمر أينْ يِخْلى ويروح .

فهذا المثل حل محله قولهم : « رزقه فى رجليه » واختفى المثل القديم ، ومن يدرى فلعله لا يزال عند بعض الريفيين .

مثل آخر قولهم :

– ذكروا مصر والقاهرة قامت باب اللوق بحشايشها .

هذا مثل كان يضرب عند ما كانت منطقة باب اللوق المعروفة بالقاهرة مملوءة بالحشائش .وكان يخشى الناس من ارتياد هذه المنطقة ، فلا شك أن من ينظر الان إلى باب اللوق وهى من أعمر أماكن القاهرة لا يستطيع أن يضرب بها المثل بما كان فيها من خراب وحشائش . ثم قوله : ذكروا مصر والقاهرة والمقصود بكلمة مصر فى العصور الوسطى « الفسطاط » وكانت الفساط من أجمل مدن القطر المصرى وكانت تنافس القاهرة فى الذكر لدرجة أن

المؤرخين عندما كانوا يؤلفون كتبهم التاريخية يذكرون مصر والقاهرة معاً ، فمثلا كتاب «لأبي المحاسن بن تغرى بردى» بعنوان « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » والسيوطى له كتاب بعنوان « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » . وعلى هذا النحو ورد هذا المثل وجعل مصر أى الفسطاط معطوفة على القاهرة لما كان بين البلدين من التنافس والرقى فى التحضر. أما الآن فالفسطاط لا وجود لها ، بل حل محلها مصر القديمة حتى نستطيع أن نتحدث عنها فى الأمثال فى جيلنا الحديث ، ولذلك اختفى هذا المثل من أمثالنا الحديثة .

ومثال قوله أيضاً :

– رأوا سكران يقرأ قالوا : غِنْ تشاكل روحك .

فالمعروف فى ذلك العصر ، أى فى القرن التاسع الهجرى أن كلمة قراءة كان المقصود بها قراءة القرآن الكريم وتجويده ، كما أن المعروف فى كل العصور وفى كل البيئات أن السكير الذى يقرأ ويغن فى قراءته كأنه يتشاجر مع نفسه ، فلا شك أن ظروف التعليم والقراءة فى عصرنا هذا تختلف عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، والقراءة الآن أصبحت ليست وقفا على تلاوة القرآن الكريم ، ومن ثم أصبح هذا المثل لا ينطبق على حالتنا الحاضرة ولذلك اختفى .

ومثل آخر ورد فى هذه المجموعة هو قولهم :

– هانت الزلابية حتى أكلها بنو وائل .

فهذا المثل يدل عى أن المجتمع المصرى فى هذه العصور الوسطى كان لايزال يحتفظ إلى حد ما بالنسبة القبلية وخاصة هذه الطبقة من المجتمع التى سماها المؤرخون طبقة الأعراب ، وكان فى هذه الطبقة الأغنياء والفقراء والرفيع والذليل ، فهذا المثل يدلنا على أن بنى وائل فى مصر كانوا من الطبقات الذليلة حتى ضرب بذلتهم هذا المثل ، ومن حسن الحظ أننا نعيش الآن فى جو اجتماعى إشتراكى تعاونى لانلمس فيه أثر العنجهية القبلية ، ولا ينتسب أحد إلى طبقة دون أخرى ، فالكل سواء ولذلك لانرى هذا المثل بين أمثالنا الحديثة .

وكذلك قولهم فى الأمثال القديمة :

ـ بقى للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية .

ذلك عندما كان الأغنياء يركبون المطايا ذات السروج والغواشى ، ولهم عبيد وحاشية ، أما الآن فالأغنياء يركبون السيارات الكاديلاك بدلا من الخيل أو البغال وليس لهم عبيد وإن كان لهم خدم ، ولذلك لا ينطبق هذا المثل على عصرنا الحالى .

وقولهم :

ـ خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب

فهذا المثل لا ينطبق على عصرنا الحديث لأن الصلب لا يكون فى الميادين ، كما كان الأمر فى العصور الوسطى .

أما القسم الثالث من هذه الأمثال التى ذكرها الابشيهى فهى هذه الأمثال التى تتعلق ببعض النواحى الجنسية ، التى لا نستطيع أن نذكر عنها شيئا فى هذا الغرض . ومن الغريب أن هذا القسم من الأمثال يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذى نسمعه الآن وعما يشبهه بالرغم من أن الألفاظ تكاد تكون واحدة ولكن مدلول المثل مختلف جداً .

ونلاحظ فى هذا القسم كثرة ما يقال عن النقاب الذى كانت تضعه المرأة المصرية على وجهها ، وما كان يجر النقاب من ويلات وما شنع به على كل متنقبة مما يجعلنا نحمد الله الآن عى أن تنبهنا إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، ونبذ النقاب إلى غير رجعة حتى لا ينطبق علينا الآن ما كان يقال عن المرأة صاحبة النقاب فى العصور الوسطى .

وهكذا أمثالنا تدل علينا قديما وحديثا ، ولعلنا نعمل على دراسة أدبنا القومى دراسة صحيحة شاملة ، ولعل الذين يهتمون بأمر الفولكلور المصرى ومافيه من آداب شعبية يعملون على إيجاد هذه العلاقة بين حاضرنا وماضينا ، عسانا ننتفع بالماضى للمستقبل ثم لإحياء مايفيد فى نهضتنا الحالية .

محمد قنديل البقلى

لاميـــة
منظور بن مـرثد الأسـدى

جمعها وحققها وعلق عليها :
الدكتور رمضان عبد التواب

لفت نظرى إلى هذه الأرجوزة ، لمنظور بن مرثد الأسدى ، اشتغالى بموضوع الضرائر الشعرية ، منذ زمن ليس بالقصير؛ فقد اضطر هذا الراجز إلى تشديد أواخر كلمات كثيرة فى أرجوزته تلك ، بسبب ضرورة الوزن والقافية ؛ مثل كلمات : الأول ، وأرغل ، والطول ، والعطبل ، والخلخل ، والمكحل ، ومبدل ، وعيهل ، والمرحل ، والكلكل ... وغيرها .

ومن هذه الأرجوزة حوالى ثلاثين بيتا فى « مجالس ثعلب » ، غير أن فى بعضها هناك سقطا وتحريفا . وقد قلبت كثيرا من المصادر ، بحثا عن أبيات هذه الأرجوزة[1] ،فاجتمع لى منها ست وأربعون بيتا[2] ، عرفت مطلعها[3] ، ورتبتها حسبما بدا لى من معانى أبياتها . وقد دللت على اختلاف الروايات فى بعض هذه الأبيات ، وانتقيت من الشروح المأثورة هنا وهناك مايبين معناها ، وخرجتها فى مصادرها المختلفة التى وقعت لى .

أما صاحبها ، فقد قال عنه الآمدى إنه هو « منظور بن حبة الأسدى ، وحبة أمه ، ويعرف بها[4] » ، ومع ذلك فإننا لانعثر له على أثر فى كتاب محمد بن حبيب : « ألقاب الشعراء ومن يعرف منهم بأمه » ، الذى نشره عبدالسلام

---

(١) قال البغدادى فى خزانة الأدب ٢ / ٥٥٢ : « وهى أرجوزة طويلة ، أورد منها شراح شواهد سيبويه جملة ، وكذلك أبو على الفارسى فى المسائل العسكرية » .

(٢) قال محقق سر صناعة الإعراب (١ / ١٧٨) فى هامشه : « وعدة ما وجدنا من أبياتها ثمانية عشر بيتاً مفرقة فى بطون الكتب » ! !

(٣) نص على ذلك فى شرح شواهد الشافية ٤ / ٢٤٨ والمحتسب ١ / ٢٧٦

(٤) المؤتلف والمختلف ١٤٧

هارون ؛ فى نوادر المخطوطات (المجلد الثانى ٢٩٧ – ٣٢٨) .

وأما أبوه فاسمه «مرثد». وهو ينسب فى المصادر إلى أبيه وإلى أمه ، وهذا ماجعل البغدادى (فى شرح شواهد الشافية ٤/ ٤٤٨) يظنه شخصين ، فيقول : «والبيت من أرجوزة طويلة لمنظور بن مرثد الأسدى ، وقيل لمنظور بن حبة الأسدى » ! أو لعله يقصد أنه يسمى بهذا وبذاك ؛ فقد قال (فى خزانة الأدب ٢/ ٥٥٣) : «وهذه الأرجوزة نسبها السخاوى فى سفر السعادة لمنظور بن مرثد الأسدى ؛ قال : وقيل لغيره . ونسبه الصاغانى فى العباب لمنظور بن حبة الأسدى ، وهما واحد ؛ فإن مرثداً أبوه وحبة أمه ، فبعضهم ينسبه إلى أبيه ، وبعضهم إلى أمه . قال الصاغانى فى العباب : منظور بن حبة ، راجز من بنى أسد ، وحبة أمه . واسم أبيه مرثد بن فروة بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن طريف بن عمرو بن قعين » .

وقد نسبه الآمدى فقال : «وهو منظور بن مرثد بن فروة بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس »[1] . أما المرزبانى ، فقد تردد بين نسبين له . فقال : «منظور بن مرثد بن فروة الفقعسى . وقيل هو منظور بن فروةبن مرثد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف »[2]

وقد كناه أبو محمد الأسود الغندجانى «أبا مسعر »[3] . وهو شاعر وراجز محسن[4] . قال عنه الآمدى ، بعدأن ساق بعض شعره : «وله أيضا أراجيز جياد »[5] . كما ذكر المرزبانى أنه إسلامى[6] .

وهو فى أرجوزته هذه يتحسر على مافات من عمره ، ويشكو من هجران محبوبته ، التى يسميها « ليلى » ، كما يسميها «بجمل» أو « هند » أو «مىّ » كذلك ؛ إذ تعرّضت له بحسنها وجمالها ، فسلبت لبه وخلبت فؤاده ،

---

(١) المؤتلف والمختلف ١٤٧
(٢) معجم الشعراء ٢٨١
(٣) هامش معجم الشعراء ٢٨١
(٤) المؤتلف والمختلف ١٤٧
(٥) المؤتلف والمختلف ١٤٧
(٦) معجم الشعراء ٢٨١

ولم يكن ليرضى بها بديلا ، غير أنها بخلت عليه بالوصل ، وظعنت مع الظاعنين ، فأخذ يسلى همومه ، ويشفى وجده وهيامه ، بوصف راحلته ، وقد أبدع فى هذا الوصف ، حتى كأن الأرجوزة قد قيلت فى وصف الإبل .

وفيما يلى نسوق هذه الأرجوزة :

١ - ليت شبابى كان للأوَّلِ
٢ - وغضَّ عيشٍ قد خلا أرْغَلِ
٣ - من لىَ من هجران لَيْلَى مَن لِى
٤ - والحبل من حبالها المنحلِّ
٥ - تعرَّضت لى بمكانٍ حِلِّ
٦ - تعرُّضَ المُهرَة فى الطِّوَلِ
٧ - تعرُّضاً لم تأْلُ عن قتلٍ لى
٨ - بمثل جِيد الرَّئمة العُطْبُلِ
٩ - ملءُ البريم متأَقُ الخَلْخَلِ
١٠ - ومُقلتان جَوْنتا المُكْحَلِ
١١ - فأردفتْ خَبْلاً على خَبلٍ لِى
١٢ - كالثِّقْل إذ عالَى به المعتلى
١٣ - ياصاحِ لا تُكثر بها عذلاً لِى
١٤ - فلم أكن والمالكِ الأجَلِّ
١٥ - أرضى بإلف بعدها مُبْدَلِ
١٦ - بخَلَّةٍ عنها ولا مُختَلِّ
١٧ - إنْ أصحُ عن داعى الهَوى المضلِّ
١٨ - صُحُوَّ ناسى الشوق مُستَبِلِّ
١٩ - مقتصر للصّرم أو مُدِلِّ
٢٠ - إن تبخلى ياجُمْلُ أو تعتلى
٢١ - أوتصبحى فى الظاعن المُوَلِّى
٢٢ - أو تغْدُنِى عن حاجها حاجٌّ لى
٢٣ - نُسَلِّ وَجْدَ الهائم المغتلِّ
٢٤ - ببازلٍ وجناء أو عَيهلِ
٢٥ - تَرى مَرَادَ نِسْعِه المُدْخَلِ
٢٦ - بين رَحَى الحيزُوم والمرْحَلِ
٢٧ - بِمِلْمٍ من دفِّهِ المزَلِّ
٢٨ - مثل الزَّحاليف بنَعْف التَّلِّ
٢٩ - نُوط إلى صُلب شديد الحَلِّ
٣٠ - وعُنق كالجذع مُتمهِلِّ
٣١ - تقصُر عنه هُدُبات الجَلِّ
٣٢ - إذا اعتلى عَرْضَ نِياف فَلِّ
٣٣ - أذرَى أساميات عتيق ألِّ
٣٤ - بأوبِ ضَبْعَىْ مَرِح شِمِلِّ
٣٥ - كأنَّ مَهواه على الكَلْكَلِّ
٣٦ - ومَوْقِعا من ثَفِنات زُلِّ

٣٧ – بعد السُّرى من النَّـدى المُخْضَل

٣٨ – فى غَبَشِ الصُّبح وفى التَّجلِّى

٣٩ – مَوْقِعُ كفَّىْ راهبٍ مُصَـــلِّ

٤٠ – لعلَّها تُسعفُ أو لَعَـــلِّ

٤١ – فى طَلَب الحاج أو التَّسلِّى

٤٢ – ياصاحِبىَّ خَوِّصَــــا بِسَـلِّ

٤٣ – من كلِّ ذاتِ ذَنَب رِفَـــلِّ

٤٤ – حَرَّقها حَمضُ بـلاد فــلِّ

٤٥ – وغَتْمُ نجم غيرِ مُستَقَــلِّ

٤٦ – فما تكادُ نِيبُها تُــــولِّى

* * *

فروق الروايات :

١ – فى المحتسب ١/٢٧٦ : «عادللأول».

٤ – فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٣ : «والحبل من وصالها».

٥ – فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وتاج العروس (عرض) ٥/٥٣ وإعجاز القرآن للباقلانى ١٧٣ : «بمجازحل». وفى المحتسب ١/١٣٧ : «بمجار» تصحيف.

٧ – فى اللسان (عرض) ٩/٣٠ وإصلاح المنطق ١٧٠ والوساطة للجرجانى ٤٦٤ وتهذيب اللغة ١٤/١٧ : «تعرضت» وفى شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ : «تعرضا لم تعد». وفى تاج العروس (طول) ٧/٤٢٣ والصحاح (قتل) ٥/١٧٩٩ : «لم يأل». وفى سر صناعة الإعراب ١/٢٣٥ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ واللسان (أنن) ١٦/١٧٨ : «عن قتلالى».

٩ – فى مادة (خلل) من اللسان ١٣/٢٣٤ والتاج ٧/٣٠٩ : «ملأى البريم».

١١ – فى تاج العروس (ردف) ٦/١١٦ : «خيلا على خيل» تصحيف.

١٥ – فى اللسان (بدل) ١٣/٥١ : «أرضى بخل».

١٧ – فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥١ : «إن صح».

١٨ – فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٥١ : «ضحوة» !

٢٠ – فى اللسان (عسس) ٨/١٥ والمحكم لابن سيدة ١/٣٠ : «إن تهجرى ياهند».

وفى أمالى ابن الشجرى ١/٥٠ : «إن تبخلى يامى» .

٢٣ـ فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ : «فسل هم الوامق» . وفى المحكم لابن سيدة ١/٦٥ : «فسل وجد» . وفى التاج (عهل)٨/٤٠ : «الهائم المعتل» تصحيف

٢٥ـ فى شرح ابن يعيش ٩ / ٨٢ : «مزاد سعد» تحريف

٢٦ـ فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ : «بين رجى» . وفى شرح ابن يعيش ٩/٨٢ : «بين رجا» .

٢٧ـ فى اللسان (زلل) ١٣/٣٢٥ : «من دفة مزل» .

٢٩ـ فى مجالس ثعلب ٢ / ٥٣٦ : «شديدالحمل» . وفى تهذيب اللغة ٦/٥٧٢ واللسان (خلل) ١٣/٢٣٣ : «ثم إلى هاد شديد» . وفى جمهرة اللغة ١/٦٩ والصحاح (خلل)٤/١٦٨٩ : «ثم إلى صلب شديد» . وفى التاج (خلل) ٧/٣٠٦ : «تمت إلى صلب» تحريف .

٣٠ـ فى اللسان (خلل) ١٣/٢٣٣ : «فى الجذع» . وفى جمهرة اللغة ١/٦٩ والتاج (خلل) ٧/٣٠٦ : «وعنق أتلع» .

٣٢ـ فى مجالس ثعلب ٢ / ٥٣٦ : «إذا اغتدى» .

٣٤ـ فى اللسان (نوف) ١١/٢٥٨ : «بعطف ضبعى» ، وبعده : «ويروى : بأوب» .

٣٥ـ فيما عدا مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وتهذيب الألفاظ ٤١٢ والأضداد لأبى الطيب ١/١٢٨ : «كأن مهواها» . وفى قوافى الأخفش ٩٠ : «أقول إذخرت على الكلكل» ، وهو خلط لهذا البيت ببيت آخر هو : «أقول إذ خرت على الكلكال» وبعده : «ياناقتى ماجلت من مجال» . انظر : تأويل مشكل القرآن ٢٣٤ وشواهد التوضيح ٢٣ والإنصاف ١٦

٣٦ـ فى نوادر أبى زيد ٥٣ : «من نفثات» . وفى اللسان (كلل) ١٤/١١٧ : «وموقفا من ثفناة» تحريف .

٣٨ـ فى الأضداد لأبى الطيب ١/١٢٨ واللسان (غبش) ٨/٢١٣ «أو التجلى» وفى تهذيب الألفاظ ٤١٢ : «أو التتلى» .

٣٩– فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ : «راهب مصلٍ» . وفى اللسان (كلل) ١٤/١١٧ : «موضع كفى» .

٤٢– فى تهذيب إصلاح المنطق ١/٣٧ «يا ذائدبها خوضن» . وفى شرح المفضليات ١٣١ ، ٥٧٠ ، ٦٣٦ : «يا ذائدبها خوصا» .

٤٣– فى المقاييس ٢/٢٢٨ : «لبن رفل» .

٤٥– فى الاقتضاب ٣٠٩ : «وغيم نجم» وهى رواية نص عليها فى اللسان (حرق) ١١/٣٢٦ وتهذيب إصلاح المنطق ١/٣٨

٤٦– فى الاقتضاب ٣٠٩ : «بينها تولى» تصحيف .

* * *

الشروح اللغوية :

٢– فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٨ : «شدد لام أول وأرغل كذلك ، وهو بالغين المعجمة . قال صاحب العباب : وعيش أرغل وأغرل أى واسع» .

٤– فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ : «قال أبو على فى المسائل العسكرية : المنحلّ لا يخلو من أن يكون محمولا على (الحبل) أو (الحبال) وكلا الأمرين قبيح» .

٥– فى جمهرة اللغة ٣/٤٩٧ : «يريد : تريك عرضها أى جانبها ، وقولهم : عرّضت لفلان بكذا وكذا ، إذا لم تبيينه له» .

٦– فى إعجاز القرآن للباقلانى ١٧٣ : «تريك عرضها وهى فى الرَّسَن» والطُّوَل ، كعنب : الحبل الطويل يربط أحد طرفيه بيد الدابة والآخر بوتد أو نحوه؛ لتدور فيه وترعى ولا تذهب لوجهها ، وقد شددها الراجز للضرورة .

٧– فى اللسان (عرض) ٩/٣٠ : «واعترض الفرس فى رسنه وتعرض : لم يستقم لقائدة» . وفى تهذيب إصلاح المنطق ٢/٢٩ : «لم تأل : لم تقصر فى اعتمادها قتلى . تعرضت له كما تتعرض المهرة فى طِوَلها ، تفعل ذلك لنشاطها» . وقد أفاضت المصادر فى شرح الرواية الأخرى لهذا البيت ، وهى : «عن قتلالى» ؛ فقال فى اللسان (طول) ١٣/٤٣٩ : «ويروى : عن قتلالى ، على الحكاية ، أى عن قولها : قتلاله» . وفى سر الصناعة ١/٢٣٦ : «هكذا

أنشدنيه (أبوعلى) . عن قتلا . وحمله تأويلين : أحدهما أنه قال : يجوز أن يكون أراد الحكاية ، كأنه حكى النصب الذى كان معتادا من قولها فى بابه ، أى كانت تقول : قتلا قتلا ، أى أنا أقتله قتلا ، ثم حكى ماكانت تلفظ به ... والوجه الآخر الذى أجازه أبوعلى فى قوله : عن قتلالى ، أنه قال : يجوز أن يكون أراد : أن قتلالى ، أى أن قتلتنى قتلا ، فأبدل الهمزة عينا ، فهذا أيضا من عنعنة تميم » . وقال فى اللسان (قتل) ١٤ / ٦٦ : « أراد عن قتلى ، فلما أدخل عليه لاما مشددة ، وصار الإعراب فيه ، فتح اللام الأولى ، كما تفتح فى قولك : مررت بنمر ونمرة وبرجل وبرجلين . قال ابن برى : والمشهور فى رجز منظور : لم تأل عن قتلالى ، على الحكاية ، أى عن قولها : قتلا له ، أى اقتلوه ، ثم يدغم التنوين فى اللام ، فيصير فى السمع على مارواه الجوهرى (قَتْلَلِّ) . قال : وليس الأمر على ماتأوله » .

٨ـ فى المحكم لابن سيدة ٢/٣٢٠ واللسان (عطبـل) ١٣/٤٨٣ :

« والعُطْبُل والعطبول من الظباء والنساء : الطويلة العنق . وقوله أنشده ثعلب : بمثل جيد الرئمة العطبلّ ، إنما أراد العطبل ، فشدد للضرورة » .

٩ـ البريم : خيط فيه ألوان تشده المرأة على حقويها ، والمتأق : المملوء . وقال فى اللسان (خلل) ١٣/٢٣٤ : «أراد متأق الخلخل ، فشدد للضرورة ، والخلخل لغة فى الخلخال ، أو مقصور منه ، واحد خلاخيل النساء » .

١٠ـ الجون : الأسود المشرب بحمرة ، أراد أنها سوداء مكان الكحل بلا كحل ، والمكحل : مكان وضع الكحل ، وشدد لامه للضرورة .

١١ـ فى اللسان (ردف) ١١/١٤ : «وأردف الشئ بالشئ وأردفه عليه : أتبعه عليه » .

١٥ـ فى اللسان (بدل) ١٣/٥١ : «إنما أراد مبدل ، فشدد اللام للضرورة . قال ابن سيدة : وعندى أنه شددها للوقف ، ثم اضطر فأجرى الوصل مجرى الوقف » .

١٨ – الصحوّ : مصدر من مصادر صحا يصحو . والمستبل : الذى برأ وصح . وفى شرح شواهد الشافية ٤/٢٥١ : «ومستبل من أبل من مرضه إذا صح وتوجه إلى العافية » .

٢٠ – فى خزانة الأدب ٢/٥٥٢ : « وقوله : إن تبخلى ، هو من البخل ، أى إن تبخلى علينا بوصلك ، وجمل بضم الجيم : من أسماء نساء العرب . وتعتلّى : من الاعتلال ، وهو التمارض والتمسك بحجة » . وانظر كذلك شرح شواهد الشافية ٤/ ٢٥٠

٢١ – فى خزانة الأدب ٢/٥٥٢ : «والظاعن من ظعن – من باب نفع – إذا ارتحل . والمولّى : من ولّيت عنه ، إذا أعرضت عنه وتركته . وتستلّى ، وتصبحى معطوفان على تبخلى ؛ ولهذا جزما بحذف النون » .

٢٢ – فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٥١ . «وتَنْدُنى : تتجاوزنى . وحاج : جمع حاجة » .

٢٣ – فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ : «نسل : من التسلية ، وهى تطييب النفس ، وهو جواب الشرط . والمغتلّ – بالغين المعجمة : الذى قد اغتلّ جوفه من الشوق والحب والحزن ، كغلة العطش » . وفى خزانة الأدب ٢/٥٥٢ : « نسل : جواب الشرط ، مجزوم بحذف الياء ، وأوله نون المتكلم ، من التسلية ، وهو إذهاب الهم ونحوه بالسلو . قال أبوزيد : السلو طيب نفس الإلف عن إلفه . والوجد : الغم والحزن . والهائم : أراد به الشاعر نفسه ، وهو من هام إذا خرج على وجهه لايدرى أين يتوجه ، إن سلك طريقاً مسلوكا ، فإن سلك طريقا غير مسلوك ، فهو راكب التعاسيف ، كذا فى المصباح . والمغتل – بالغين المعجمة : من الغُلّة بالضم ، وهى حرارة العطش »

٢٤ – فى نوادر أبى زيد ٥٣ : « قال أبو الحسن : عَيْهلٌ ، وجاء فى الشعر : عَيْهَلٌ ... والوجناء : الوثيرة القصيرة . والعيهل : الطويلة ... قال أبو الحسن : حفظى عن الأصمعى الذى لا أشك فيه أن الوجناء الغليظة ، مأخوذة من الوَجين ، وهو ماغلظ من الأرض . والعيهل : السريعة » . وفى الصحاح (عهل)

٥/١٧٧٨ : «الأيهل من النوق : السريعة. قال أبوحاتم : ولا يقال جمل عيهل ... وربما قالوا : عيهل مشددا فى ضرورة الشعر». وفى المحتسب ١ / ٧٦ : «يريد : العيهل ، فنوى الوقف ، فثقل ثم أطلق وهويريد الوقف» . وفى خزانة الأدب ٢/٥٥٢ : «وقوله : ببازل ، متعلق بنسلّ . والبازل : الداخل فى السنة التاسعة من الإبل ، ذكرا كان أو أنثى ، والمراد هنا الثانى لقوله : وجناء ، وفسرها أبوزيد بالوثيرة بالثاء المثلثة ، وهى الكثيرة اللحم . والتى لاتتعب راكبها . والمشهور تفسيرها بالناقة الشديدة . والعيهل : فسرها أبوزيد بالطويلة. وقال غيرد : هى السريعة . قال صاحب العباب : العيهل والعيهلة : الناقة السريعة . قال أبو حاتم : ولايقال جمل عيهل . وتشديد اللام لضرورة الشعر اهـ . وبه يظهر فساد قول السخاوى فى سفر السعادة : إن العيهل النجيب من الإبل الأنثى عيهلة ، ويرد عليه أيضا قوله : وجناء» . وانظر سفر السعادة للسخاوى ١١٠ ب .

٢٥ ـ مراد النسع ، بفتح الميم : المكان الذى يتحرك فيه النسع من جانبى الدابة وبطنها . والنسع : الحبل أو السير يضفر ، ويجعل حزاما للدابة . والمدخل الذى يدخل بعضه فى بعض الضفر . وشدد اللام للضرورة .

٢٦ ـ الحيزوم : الصدر . والرحى من البعير : هى القرص المستدير الذى يلامس الأرض إذا برك . والمرحل : حيث يشد الرَّحْل ، وشدد لامه للضرورة . وقال فى اللسان (دخل) ١٣/٢٥٤ : «إنما أراد المُدْخَلَ والمَرْحَلَ ، فشدد للوقف ، ثم احتاج فأجرى الوصل مجرى الوقف ».

٢٧ ـ الدف والدفة . الجنب . والمزل : من الزلل وهو الزلق . وفى اللسان (زلل) ١٣/٣٢٥ : « من دَفَّة مَزِلٌ » . قال ابن سيدة : «يجوز أن يكون :مَزِلّ بدلا من سلم ولا يكون نعتا ، لأن مَفْعِلاً لم يجئ صفة. ويجوز أن تكون الرواية : مُزِلّ ، بضم الميم »

٢٨ ـ الزحاليف : جمع زحلوفة ، وهى المكان الأملس ، الذى يتزلَّج عليه الصبيان من فوق التل . ونعف التل : ما انحدر منه . ومعنى هذه الأبيات أن الموضع الذى يقع عليه النسع بين رحى

الحيزوم والمرحل ، يتحات شعره حتى يصير أملس كالزحاليف بنعف التل .

٢٩ـ نوط ، يريد : نيط ، على لغة من يقول : «بوع» فى «بيع» . وفى اللسان (خلل) ١٣/٢٣٣ : «والخل : عرق فى العنق متصل بالرأس» .

٣٠ـ فى اللسان (مهل) ١٤/١٥٧ : «اتمهلّ اتمهلالاً ، أى اعتدل وانتصب» .

٣١ـ الجَلّ بالفتح : شراع السفينة .

٣٢ـ فى اللسان (نوف) ١١/٢٥٨ : «فلاة نياف : طويلة عريضة» .

٣٣ـ فى اللسان (سهك) ١٢/٣٣٠ : «وسهكت الدابة سهوكاً : جرت جرياً خفيفاً ، وقيل سهوكها : استنانها يميناً وشمالا . وأساهيكها : ضروب جريها ، واستنانها ... أراد : ذى أل ، وهو السرعة وإن شئت قلت : إنه وصفه بالمصدر» . والعتيق : الكريم ، يريد به البعير .

٣٤ـ فى اللسان (شمل) ١٣/٣٩٤ : «وجمل شملّ وشملال وشمليل : سريع» .

٣٥ـ فى تهذيب الألفاظ ٤١٢ : «الكلكل : الصدر . واحتاج إلى تشديد اللام من أجل القافية» . وفى خزانة الأدب ٢/٥٥٢ : «وقوله : مهواها ، مصدر بمعنى الهوى والسقوط . والكلكل كجعفر : الصدر وتشديد اللام ضرورة أيضاً» .

٣٦ـ فى نوادر أبى زيد ٥٣ : «الزّلّ : الملس» . وفى تهذيب الألفاظ ٤١٢ «والزُّلّ القليلة اللحم» . وفى خزانة الأدب ٢/٥٥٢ : «وثفنات : جمع ثفنة ، بفتح المثلثة وكسر الفاء بعدها نون ، وهو ما يقع على الأرض من أعضاء الإبل استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما . وزُلّ ـ بالضم : جمع أزلّ ، وهو الخفيف ، وفسره أبوزيد بملس ، وهو غير مناسب إذ المراد تشبيه الأعضاء الخشنة الغليظة من الناقة بكثرة الاستناخة ، بكفى راهب قد شثنت وخشنت من كثرة اعتماده عليها فى السجود» .

٣٨ـ فى خزانة الأدب ٢/٥٥١ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ : «والغَبَش ـ بفتحتين : بقية الليل ، وأراد بالتجلى : النهار» . وفى تهذيب الألفاظ ٤١٢ : «التتلى : ما يتلو ضوء الفجر الأول من الضوء الذى بعده . ويروى : أو التجلّ : أن يعم الضوء كلّ شىء» .

٤١ – فى شرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ : «شبه الأعضاء الخشنة من الناقة بكثرة الاستناخة ، بكفى راهب قد خشنتا من كثرة اعتماده عليهما فى السجود » . وفى تهذيب الألفاظ ٤١٢ : « شبه موقع ثفناته إذا برك ، بموقع كفى راهب على الأرض إذا صلى . قال وعندى أنه أراد أن يشبه يدى الراهب وركبته بثفنات البعير ، فاقتصر على ذكر اليدين لأنه يعلم أن المصلى لا يدع يديه على الأرض ويرفع ركبتيه ». وفى خزانة الأدب ٢/٥٢ : «وروى : رجلى راهب ، بدل : كفى راهب » .

٤٢ – فى اللسان (خوص) ٨/٣٠٠ : «ابن الأعرابى خوّص الرجل : إذا ابتدأ بإكرام الكرام . ثم اللئام ... وفسره فقال : خوّصا أى ابدأ بخيارها وكرامها يقول : قدم خيارها وجلتها وكرامها تشرب . فإن كان هنالك قلة ماء كان لشرارها ، وقد شربت الخيار عَفْوته وصَفْوته . قال ابن سيدة : هذا معنى قول ابن الأعرابى ، وقد لطفت أنا تفسيره . ومعنى (بِدَنلٌ) أن الناقة الكريمة تنسلّ إذا شربت فتدخل بين ناقتين ». وفى المقاييس ٢/٢٢٩ : «يقول : قرّبا إبلكما شيئاً بعد شئ ، ولا تدعاها تداكّ على الحوض » أى تزدحم عليه .

٤٣ – فى شمس العلوم ٢/٢٦٠ : «والرفل : الطويل .... أى قربا إبلكما شيئاً بعد شئ » . وفى تهذيب إصلاح المنطق ١/٣٧ : «والرفِل : التام » وفى اللسان (خوص) ٨/٣٠٠ : «وقوله : من كل ذات ذنب رفل . قال : لا يكون طول شعر الذنب وصَفْود إلا فى خيارها » .

٤٤ – فى أساس البلاغة ١/١٦٨ : «حرق المرعى الإبل : عطشها ». وفى تهذيب إصلاح المنطق ١/٣٨ : «حَرّقها : أى حَرّق أجواف الإبل رعىُ الحمض ، وليس لها ماء » . وفى اللسان (فلل) ١٤/٤٧ : «الفِلّ : الأرض القفرة ». وفى إصلاح المنطق ٢٥ : «والفِلّ :الأرض التى لم يصبها مطر ، وجمعها : أفلال . وقد أفللنا ، إذا وطئنا أرضاً فلاً » .

٤٥ – فى إصلاح المنطق ٢٥ واللسان (فلل) ١٤/٤٧ : «الغتم : شدة الحر الذى يأخذ النفس ». وفى تهذيب إصلاح المنطق ١/٣٨ : « والغتم : شدة الحر والأخذ

بالنفس ؛ أي طلع نجم الحر . ويروى : غيم نجم ، والغيم : العطش » . وفي اللسان (غتم) ١٥/٣٢٩ : «غير مستقل : أي غير مرتفع ؛ لثبات الحر المنسوب إليه ؛ وإنما يشتد الحر عند طلوع الشعرى التي في الجوزاء » .

٤٦ـ في تهذيب إصلاح المنطق ١/٣٨ : «والنيب : جمع ناب ، يريد أنها قد اشتد عليها العطش ، فما تكاد تولى عن الحوض لما وردت ؛ لما نالها من العطش» . وفي الاقتضاب ٣٠٩ : «أي ما تكاد تولى عن الحوض لشدة حاجتها إلى الماء » .

تخريج أبيات القصيدة :

١ـ شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٨ وبلا نسبة في المحتسب ١/٢٧٦

٢ـ شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٨ وبلا نسبة في المحتسب ١/٢٧٦

٣ـ شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٨ والخصائص ٢/٢٦٢ وبلا نسبة في مجالس ثعلب ٢/٥٣٣ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٧ ؛ ١/٢٣٥ وشرح ابن يعيش ٩/٨٢

٤ـ شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٨ وبلا نسبة في مجالس ثعلب ٢/٥٣٣ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٧ ؛ ١/٢٣٥ وشرح ابن يعيش ٩/٨٢

٥ـ شرح شواهد الشافية ٤ / ٢٤٩ ولسان العرب (طول) ١٣/٤٣٩ (قتل) ١٤/٦٦ وجمهرة اللغة ٣/٤٩٧ وتاج العروس (عرض) ٥/٥٣ (طول) ٧/٤٢٣ وتهذيب إصلاح المنطق ٢ / ٢٩ وبلا نسبة في مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ ؛ ١/٢٣٥ واللسان (أنن) ١٦ / ١٧٨ وشرح ابن يعيش ٩/٨٢ والصحاح (طول) ٥/١٧٥٤ (قتل) ٥/١٧٦٩ وإعجاز القرآن للباقلاني ١٧٣ والمحتسب ١/١٣٧ والقوافي للأخفش ٩٠ وشرح القصائد السبع ٥٠

٦ـ شرح شواهد الشافية ٤ / ٢٤٩ واللسان (طول) ١٣/٤٣٩ (قتل) ١٤/٦٦ وجمهرة اللغة ٣/٤٩٧ وتاج العروس (عرض) ٥/٥٣ (طول) ٧/٤٢٣ وتهذيب إصلاح المنطق ٢/٢٩ وبلا نسبة في مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ ؛ ١/٢٣٥ واللسان (عرض) ٩/٣٠ (أنن) ١٦/١٧٨ وإصلاح المنطق ١٧٠ وشرح ابن يعيش ٩/٨٢ والصحاح (طول) ٥/١٧٥٤ (قتل) ٥/١٧٩٩ والوساطة للجرجاني ٤٦٤ وإعجاز القرآن للباقلاني

١٧٣ وتهذيب اللغة ١٤/١٧ والمحتسب ١/١٣٦ وشرح القصائد السبع ٥٠ والقوافى للأخفش ٩٠

٧ - شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ ولسان العرب (طول) ١٣/٤٣٩ (قتل) ١٤/٦٦ وتهذيب إصلاح المنطق ٢/٢٩ وتاج العروس (عرض) ٥/٥٣ (طول) ٧/٤٢٣ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وسر صناعة الإعراب ١/٢٣٥ واللسان (عرض) ٩/٣٠ (أنن) ١٦/١٧٨ وإصلاح المنطق ١٧٠ والصحاح (قتل) ٥/١٧٩٩ والوساطة للجرجانى ٤٦٤ وتهذيب اللغة ١٤/١٧

٨ - من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وبلا نسبة فى مادة (عطبل) من اللسان ١٣/٤٨٣ والتاج ٨/٢٤ والمحكم لابن لابن سيدة ٢/٣٢٠

٩ - من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وبلا نسبة فى مادة (خلل) من اللسان ١٣/٢٣٤ والتاج ٧/٣٠٩

١٠ - المحتسب ١/١٣٧، ١/٢٧٦

١١ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وبلا نسبة فى مادة (ردف) من اللسان ١١/١٤ والتاج ٦/١١٦

١٢ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وبلا نسبة فى مادة (ردف) من اللسان ١١/١٤ والتاج ٦/١١٦ وهو فى المحكم لابن سيدة ٢/٢٥٢ ولسان العرب (علا) ١٩/٣١٦

١٣ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٤

١٤ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وبلا نسبة فى اللسان (بدل) ١٣/٥١

١٥ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٤ وبلا نسبة فى اللسان (بدل) ١٣/٥١

١٦ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٥

١٧ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥١ وسفر السعادة ١١٠ ب .

١٨ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥١

١٩ - مجالس ثعلب ٢/٥٣٥

٢٠ - نوادر أبي زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ واللسان (عهل) ١٣/٥٠٩ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وسفر السعادة ١١٠ أ وأراجيز العرب ١٥٨ وبلا نسبة فى اللسان (عسس) ٨/١٥ والمحكم لابن سيدة ١/٣٠ وأمالى ابن الشجرى ١/٥٠ والصحاح (عهل) ٥/١٧٧٩

٢١ - نوادر أبي زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ واللسان (عهل) ١٣/٥٠٩ وسفر السعادة ١١٠ أ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وأراجيز العرب ١٥٨ وبلا نسبة فى اللسان (عسس) ٨/١٥ والمحكم لابن سيدة ١/٣٠ وأمالى ابن الشجرى ١/٥٠ والصحاح (عهل) ٥/١٧٧٩

٢٢ - شرح شواهد الشافية ٤/٢٥١ وسفر السعادة ١١٠ ب .

٢٣ - نوادر أبي زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وسفر السعادة ١١٠ أ ؛ ١١٠ ب ؛ ومادة (عهل) من اللسان ١٣/٥٠٩ والتاج ٨/٤٠ وأراجيز العرب ١٥٨ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ والمحكم لابن سيدة ١/٦٥

٢٤ - نوادر أبي زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ ومادة (عهل) من اللسان ١٣/٥٠٩ والتاج ٨/٤٠ وسفر السعادة ١١٠ ب ؛ وتهذيب الألفاظ ٤١٢ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وأراجيز العرب ١٥٨ ولرجل من بنى أسد فى سيبويه والشنتمرى ٢/٢٨٢ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وسر صناعة الاعراب ١/١٧٨ ولسان العرب (بدل) ١٣/٥١ (فوه) ١٧/٤٢٣ والخصائص ٢/٣٥٩ والمحتسب ١/١٠٢ ؛ ١/١٣٧ ؛ ١/٢٧٦ والمقاييس ٤/١٧٣ والمنصف ١/١١ والصحاح (عهل) ٥/١٧٧٩ والممتع فى التصريف ١/١١١ والمحكم لابن سيدة ١/٦٥ ؛ ٤/٣١٣ والإنصاف ٤٥٧ والقوافى للأخفش ٩٠

٢٥ - شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ ولسان العرب (دخل) ١٣/٢٥٤ وشرح ابن يعيش ٩/٨٢

٢٦ - شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٥/٥٣٥ وسر صناعة الإعراب ١/٧٨١ ولسان العرب (دخل) ١٣/٢٥٤ وشرح ابن يعيش ٩/٨٢

٢٧ - من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وبلا نسبة فى اللسان (زلل) ١٣/٣٢٥

٢٨ ـ شرح شواهد الشافية ٤/٢٤٩ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٥ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ ولسان العرب (دخل) ١٣/٢٥٤

٢٩ ـ من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وينسب إلى جندل بن المثنى الطهوى فى جمهرة اللغة ١/٦٩ وتاج العروس (خلل) ٧/٣٠٦ وهو بلا نسبة فى المنصف ١/٢٠٥ والمحتسب ٢/١٧٨ ومادة (خلل) من الصحاح ٤/١٦٨٩ ولسان العرب ١٣/٢٣٣ وتهذيب اللغة ٦/٥٧٢

٣٠ ـ من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وينسب إلى جندل بن المثنى الطهوى فى جمهرة اللغة ١/٦٩ وتاج العروس (خلل) ٧/٣٠٦ وبلا نسبة فى المنصف ١/٢٥٠ ولسان العرب (خلل) ١٣/٢٣٣ (مهل) ١٤/١٥٧ وتهذيب اللغة ٦/٥٧٢

٣١ ـ مجالس ثعلب ٢/٥٣٦

٣٢ ـ منه قطعة محرفة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ هى : « إذا اغتدى عر » . وهو بلانسبة فى مادة (نوف) من اللسان ١١/٢٥٨ والتاج ٦/٢٦٣

٣٣ ـ من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وبلانسبة فى اللسان (نوف) ١١/٢٥٨ (سهك) ١٢/٣٣٠ وتاج العروس (نوف) ٦/٢٦٣ (سهك) ٧/١٤٦

٣٤ ـ من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وبلا نسبة فى اللسان (نوف) ١١/٢٥٨ (شمل) ١٣/٣٩٤ وتاج العروس (شمل) ٧/٣٩

٣٥ ـ نوادر أبى زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ ومادة (كلل) من اللسان ١٤/١١٧ والتاج ٨/١٠٣ وسفر السعادة ١١٠ ب وتهذيب الألفاظ ٤١٢ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وأراجيز العرب ١٥٩ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ ولسان العرب (فوه) ١٧/٤٢٣ والمحتسب ١/١٠٢ والمنصف ١/١١ وتوجيه إعراب أبيات ملغزة ١٥٥ والمعانى الكبير ١/٢١٨ والصحاح (كلل) ٥/١٨١٢ والمحتسب ١/١٣٧ والمحكم لابن سيدة ٤/٣١٣ والأضداد لأبى الطيب ١/١٢٨ والقوافى للأخفش ٩٠

٣٦ -نوادر أبي زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ واللسان (كلل) ١٤/١١٧ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وتهذيب الألفاظ ٤١٢ وأراجيز العرب ١٥٩ وسفر السعادة ١١٠ب ؛ وبلا نسبة فى الأضداد لأبى الطيب ١/١٢٨

٣٧ - من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦

٣٨ - شرح شواهد الشافية ٤/٢٥٠ ، وتهذيب الألفاظ ٤١٢ وخزانة الأدب ٢/٥٥٢ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ والأضداد لأبى الطيب ١/١٢٨ ولسان العرب (غبش) ٨/٢١٣

٣٩ - نوادر أبي زيد ٥٣ وشرح شواهد الشافية ٤ / ٢٥٠ ومادة (كلل) من اللسان ١٤/١١٧ والتاج ٨/١٠٣ وتهذيب الألفاظ ٤١٢ وخزانة الأدب ٢/٥٥١ وأراجيز العرب ١٥٩ وسفر السعادة ١١٠ ب ؛ وبلا نسبة فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦ وسر صناعة الإعراب ١/١٧٨ ولسان العرب (فوه)١٧/٤٢٣ والصحاح (كلل) ٥/١٨١٢ والمحكم لابن سيدة ٤/٣١٣ والأضداد لأبى الطيب ١/ ١٢٨

٤٠ - من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦

٤١ - من قصيدته فى مجالس ثعلب ٢/٥٣٦

٤٢ - مقاييس اللغة ٢/٢٢٨ وشمس العلوم ٢/٢٦٠ وتهذيب إصلاح المنطق ٣/٧١ ولسان العرب (خوص) ٨/٣٠٠ وتهذيب اللغة ٧/٤٧٥ وتاج العروس (خوص) ٤ / ٣٩٢ وشرح المفضليات ١٣١ ؛ ٥٧٠ ؛ ٦٣٦ ولم ينسب فى أى مصدر من هذه المصادر ، غير أنه ذكر فى بعضها مع رقم ٤٤ وهو لمنظور .

٤٣ - مقاييس اللغة ٢ / ٢٢٨ وشمس العلوم ٢/٢٦٠ وتهذيب إصلاح المنطق ١/٣٧ ولسان العرب (خوص) ٨/٣٠٠ وتاج العروس (خوص) ٤/ ٣٩٢ وشرح المفضليات ١٣١ ؛ ٥٧٠ ؛ ٦٣٦ ولم ينسب فى أى مصدر من هذه المصادر ، غير أنه ذكر فى بعضها مع البيت التالى ، وهو لمنظور .

٤٤ - لسان العرب (نيب) ٢/٢٧٥ والتاج (نيب) ١/٤٩٨ وينسب لأبى صالح مسعود بن قيد الفزارى فى التكملة ١/٢٨١ وتاج العروس (حرق) ٦/٣١٣ (فلل) ٨/٦٦ (غتم) ٩/٢ وبلا نسبة فى لسان العرب (خوص) ٨/٣٠٠ (حرق) ١١/٣٢٦ (فلل) ١٤/٤٧ (غتم) ١٥ / ٣٢٩ وإصلاح المنطق

٢٥ وتاج العروس (خرص) ٤ / ٣٩٢ وأساس البلاغة ١٦٨/١ والصحاح (نيب) ١ / ٢٣٠ (حرق) ٤/١٤٥٨ (فلل) ٥/١٧٩٣ (غتم) ٥/١٩٩٥ وتهذيب إصلاح المنطق ١/٣٧ والاقتضاب ٣٠٩ وتهذيب اللغة ٨/٨٣ ؛ ١٥ / ٣٣٥ وشرح المفضليات ٦٣٦

٤٥ـ ينسب لأبى صالح مسعود بن قيد الفزارى فى التكملة ١ / ٢٨١ وتاج العروس (حرق) ٦/٣١٣ (فلل) ٨ /٦٦ (غتم) ٩ / ٢ مع البيت السابق . وبلا نسبة فى لسان العرب (حرق) ١١ /٣٢٦ (فلل) ١٤ / ٤٧ (غتم) ١٥ / ٣٢٩ والصحاح (نيب) ١/٢٣٠ (فلل) ٥/١٧٩٣ (غتم) ٥ / ١٩٩٥ وتهذيب إصلاح المنطق ١/٣٧ والاقتضاب ٣٠٩ وتهذيب اللغة٨/٨٣ ؛ ١٥/٣٣٥ وشرح المفضليات ٦٣٦

٤٦ـ لسان العرب (نيب) ٢/٢٧٥ وتاج العروس (نيب) ١/٤٩٨ وينسب لأبى صالح مسعود بن قيد الفزارى فى التكملة ١/٨١ وتاج العروس (فلل) ٨ / ٦٦ وبلا نسبة فى اللسان (فلل) ١٤ /٤٧ وتهذيب إصلاح المنطق ١ / ٣٧ والصحاح (نيب) ١ / ٢٣٠ والاقتضاب ٣٠٩ وشرح المفضليات ٦٣٦ وإصلاح المنطق ٢٥

قائمة المصادر :

١ ـ أراجيز العرب ، للسيد توفيق البكرى ـ القاهرة ١٣٤٦هـ

٢ ـ أساس البلاغة ، للزمخشرى ـ القاهرة ١٩٢٢

٣ ـ إصلاح المنطق ، لابن السكيت ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٥٦

٤ ـ الأضداد فى كلام العرب ، لأبى الطيب اللغوى ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٣

٥ ـ إعجاز القرآن ، للباقلانى ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ القاهرة ١٩٥٤

٦ ـ الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، للبطليوسى ـ نشر عبد الله البستانى ـ بيروت ١٩٠١

٧ ـ ألقاب الشعراء ومن يعرف منهم بأمه ، لمحمد بن حبيب ـ المجلد الثانى

من نوادر المخطوطات – تحقيق عبدالسلام هارون – القاهرة ١٩٥٤

٨ – الأمالى لابن الشجرى – حيدر آباد بالهند ١٣٤٩هـ .

٩ – الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، لأبى البركات بن الأنبارى – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٥٣

١٠ – تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى – القاهرة ١٣٠٦ هـ .

١١ – تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة الدينورى – تحقيق السيد صقر – القاهرة ١٩٥٤

١٢ – التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، للصاغانى – تحقيق عبد العليم الطحاوى – القاهرة ١٩٧٠

١٣ – تهذيب إصلاح المنطق ، للتبريزى – القاهرة ١٩٠٧

١٤ – تهذيب الألفاظ ، لابن السكيت – نشر لويس شيخو – بيروت ١٨٩٥

١٥ – تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهرى – تحقيق عبد السلام هارون وآخرين – القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٧

١٦ – توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب المنسوب للرمانى – تحقيق سعيد الأفغانى – دمشق ١٩٥٨

١٧ – جمهرة اللغة ، لابن دريد الأزدى – تحقيق كرنكو – حيدر آباد بالهند ١٣٤٤ – ١٣٥١ هـ .

١٨ – خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادى بولاق ١٢٩٩هـ .

١٩ – الخصائص ، لابن جنى – تحقيق محمد على النجار – دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٢ – ١٩٥٦

٢٠ – سر صناعة الإعراب ، لابن جنى – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٤

٢١ – سفر السعادة وسفير الإفادة . لعلم الدين السخاوى – مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٨ مجاميع م .

٢٢ – شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغـــدادى – تحقيق محمد الزفزاف وآخرين – القاهرة ١٣٥٦هـ .

٢٣ – شرح الشواهد للشنتمرى – على هامش كتاب سيبويه – بولاق ١٣١٦ – ١٣١٧هـ .

٢٤ – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، لابن الأنبارى – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٣

٢٥ – شرح المفضليات ، لأبى محمد القاسم بن بشار الأنبارى – تحقيق لايل – بيروت ١٩٢٠

٢٦ – شرح ابن يعيش للمفصل – المطبعة المنيرية بالقاهرة (بلا تاريخ) .

٢٧ – شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، لنشوان بن سعيد الحميرى – طبعة عيسى الحلبى بالقاهرة (بلا تاريخ) .

٢٨ – شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – القاهرة ١٩٥٧

٢٩ – الصحاح للجوهرى = تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبى نصر الجوهرى – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – القاهرة ١٩٥٦

٣٠ – القوافى ، لأبى الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش – تحقيق الدكتور عزت حسن – دمشق ١٩٧٠

٣١ – الكتاب ، لسيبويه – بولاق ١٣١٦ – ١٣١٧ هـ .

٣٢ – لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى بولاق ١٣٠٠ – ١٣٠٧ هـ .

٣٣ – المؤتلف والمختلف ، للآمدى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة ١٩٦١

٣٤ – مجالس ثعلب – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٠

٣٥ – المحتسب فى تبيين وجوه سواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جنى – تحقيق على النجدى ناصف وآخرين – القاهرة ١٣٨٦ هـ .

٣٦ – المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة ، لابن سيدة الأندلسى – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٨ ومابعدها .

٣٧ – المعانى الكبير ، لابن قتيبة الدينورى حيدر آباد بالهند ١٩٤٩

٣٨ – معجم الشعراء ، للمرزبانى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة ١٩٦٠

٣٩ – مقاييس اللغة ، لابن فارس – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٣٦٦ – ١٣٧١ هـ .

٤٠ ـ الممتع فى التصريف ، لابن عصفور الإشبيلى ـ تحقيق فخر الدين قباوة ـ حلب ١٩٧٠

٤١ ـ المنصف ، لابن جنى ـ شرح التصريف للمازنى ـ تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ـ القاهرة ١٩٥٤

٤٢ ـ النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى ـ نشر سعيد الشرتونى ـ بيروت ١٨٩٤

٤٣ ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه ، لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ـ تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٥١

رمضان عبد التواب

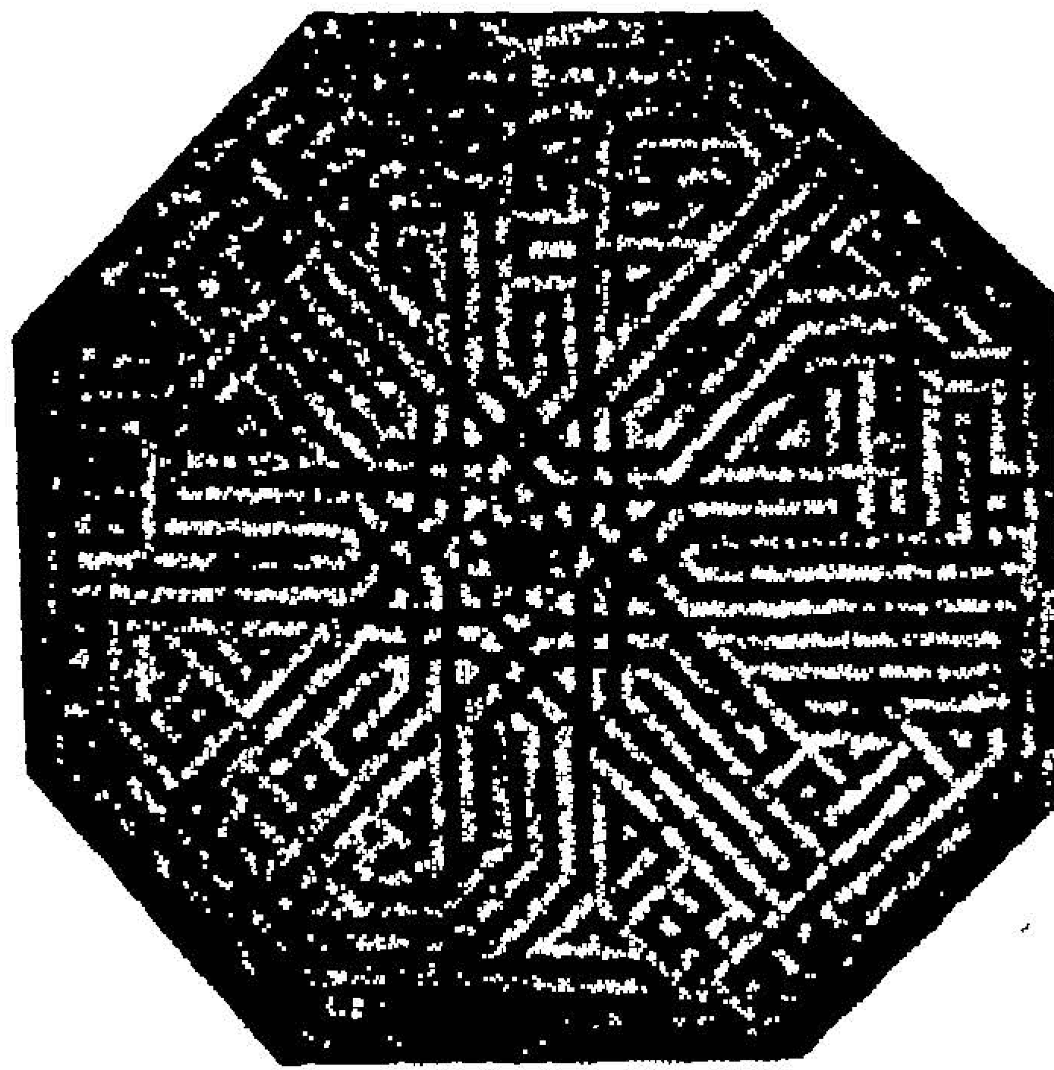

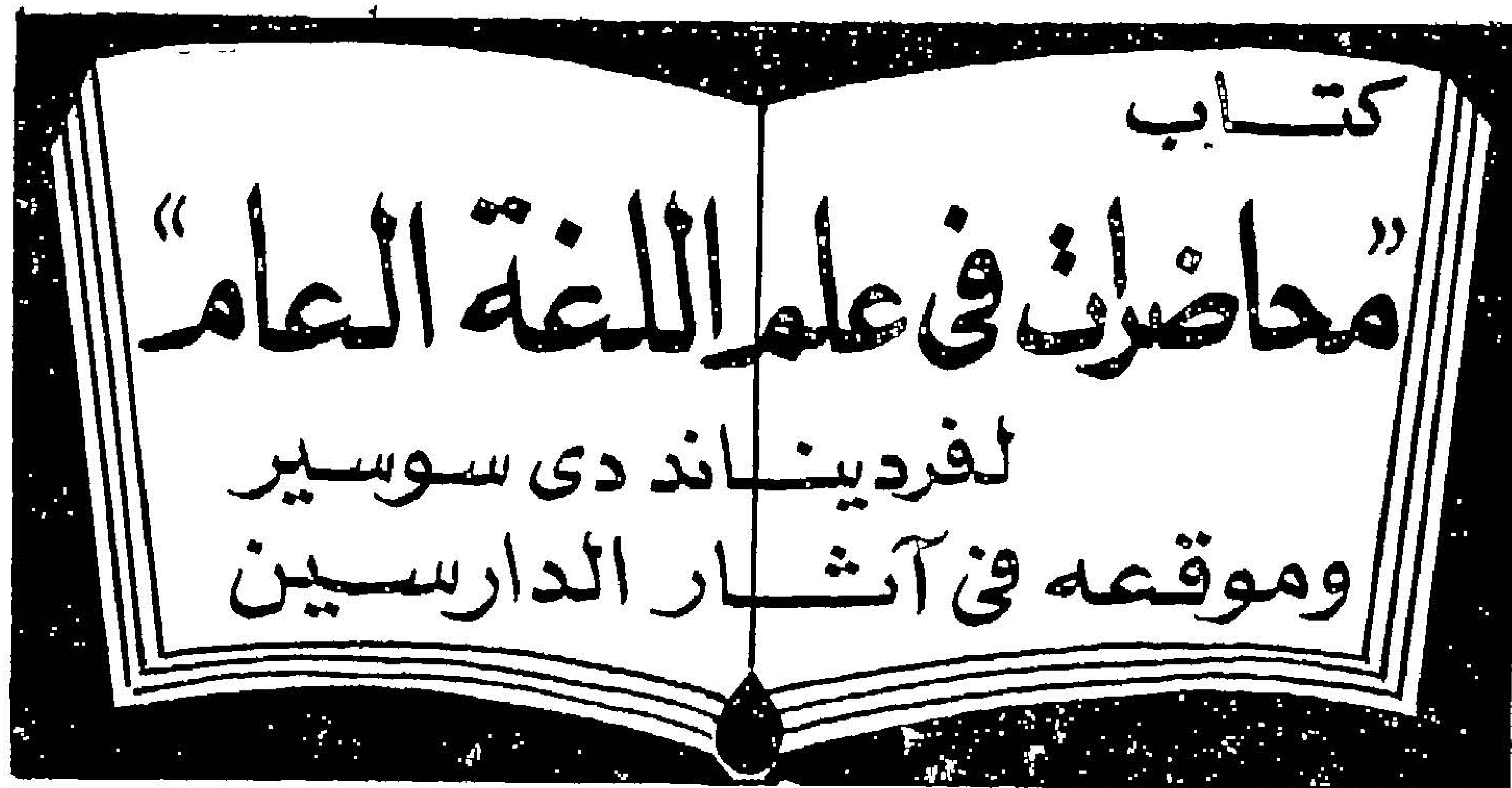

للدكتور كمال محمد بشر

فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن الذى نعيش فيه ، حظى الدرس اللغوى بالقارة الأوربية بعبقرية نادرة المثال . ونعنى بتلك العبقرية ذلك اللغوى السويسرى الشهير فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure

ويحتل دى سوسير فى نظر الدارسين مكانة خاصة ، قل أن يشاركه أويدانيه فيها غيره من اللغويين المحدثين . إنه فى نظرهم أحد الرواد القلائل الذين وضعوا حجر الأساس لعلم اللغة الحديث . وهو بالإضافة إلى ذلك يمثل مدرسة فكرية جديدة من نوع لم يألفه الناس من قبل : مدرسة استطاعت أن ترسم حدودا واضحة المناهج من البحث كانت بمثابة اللبنات الأولى لكل الاتجاهات الجديدة فى الحقل اللغوى المعاصر .

لسنا ننكر أن القارة الأوربية قد شهدت فى تاريخها الطويل شخصيات لغوية أخرى فذة ، أمثال همبولت Humboldt ، نورين Noreen ، ماشيس Mathesius تروبتسكوى Trubetzkoy ، مييه Meillet وهيلمسلف Hjelmslev . ولكن دى سوسير يفوق هؤلاء جميعاً بميزتين مهمتين :

١ — تعد أفكار دى سوسير وآراؤه بداية علم اللغة الحديث بوصفه موضوعا أكاديميا مستقلا ، كما يبدو فى صورته الحاضرة .

٢ — كثير من الموضوعات والتعريفات العلمية المعترف بها فى العالم الآن ، والتى تعد أساسيات فى الدراسات اللغوية الحديثة ، قد اتضحت لأول مرة على يديه وبفضل جهوده الخاصة (١) .

ومما يؤكد أهمية آراء هذا العالم ويشير إلى خطورة أفكاره ، أن أصبح اللغويون المحترفون يصنفون ويقسمون إلى مجموعات ، منسوبين إليه جميعاً . فهم على رأى أستاذنا فيرث — اما :

١ — Saussureans = السوسيريون .

٢ — anti — Saussureans

(1) See, Robins: General Linguistics: An Introductory Survey, P. 32.

= معارضو السوسيريّين .

٣ — Post — Saussureans

= السوسيريون المتأخرون .

أو ٤— non — Saussureans[1]

= اللاسوسيريو ن .

وما ذلك فى رأينا إلا لأن دى سوسير قد أثر فى الدارسين تاثيرا لا يعدله بحال تأثير أى لغوى فرد على الإطلاق ؛ فقد نجح الرجل فى إثارتهم جميعاً وشد انتباههم إليه ، بما ألقى فى الحقل اللغوى من أفكار جريئة ومبادىء غير مألوفة لهم من قبل . وقد حمل هذا بعض الدارسين إلى اتباعه والتحمس لتعاليمه كما دفع آخرين إلى إلى معارضته والتصدى لنظرياته .

ولا ترجع شهرة دى سوسير ومكانته العلمية إلى كثرة نتاجه أو كثرة المنشور منه. فكل مانشر فى حياته لا يتجاوز ستمائة صفحة ، وهى تشمل رسالته للدكتوراه التى اتبع فى كتابتهـا الخطوط التقليـدية لمناهج البحث ، كما تشمل بحثا قيما عن « نظام الحركات » Vowel systim فى اللغة الهندية الأوربية الأم : Proto—Indo—European وقد قام بهذا العمل الأخير وهو فى سن العشرين (أو الثانية والعشرين ، على مايرى بعضهم)[2] حين كان طالبا بجامعة ليبزج . ويقول الدارسون : إن هذا البحث — بالرغم من اعتماده على حقائق كانت معروفة آنذاك — يعد أشمل دراسة وأعمقها فيما يختص بهذا الموضوع (٣) . وتنتظم هذه الصفحات المذكورة كذلك دراسات أخرى من أنواع متفرقة .

أما شهرة دى سوسير الحقيقية فتنسب فى الأساس إلى محاضراته القيمة التى ألقاها على طلابه فى معهدين كبيرين من معاهد العلم فى أوربا . أولهما : معهـد الدراسات العليـا بباريس École de Hautes Études حين كان فى الوقت نفسه يشغل منصب الأمانة العامة للجمعية اللغوية هناك . وثانيهما : جامعة جينف ، حين تربع على كرسى الأستاذية سنة ١٩٠٦ خلفا للعالم الكبير Joseph Wertheimer

وقد كانت هذه الفترة الثانية — فترة أستاذيته بجنيف — أخصب سنى حياته وأكثرها تأثيرا فى عقول الدارسين . وهذه الفترة نفسها — بالرغم من قصرها — هى التى شاهدت أفكار هذا العبقرى تجاوز

---

(1) Firth : Papers in linguistics, P.179.

(٢) انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب دى سوسير :

Course in General Linguistics, P. XI, translated by W. Baskin (Peter Owen, London 1960).

وانظر أيضا :

New Trends in Linguistics, by B. Malmberg, P. 36.

(٣) مقدمة الترجمة الإنجليزية للكتاب السابق ص xi

الحدود التقليدية للبحث اللغوى ، وتخط للباحثين خطوطا جديدة تتسم بالأصالة والابتكار .

ولقد ألقى الأستاذ محاضرات هذه الفترة الثانية على ثلاث دورات ، بدأت عام ١٩٠٦ ، وانتهت عام ١٩١١ . وكان المفروض أن تخصص هذه المحاضرات كلها لعلم اللغة العام ، ولكن دى سوسير اضطر — بحكم طبيعة عمله فى الفترة الأولى - إلى أن يعرج من آن إلى آخر على تاريخ اللغات الهندية الأوربية ووصف مشكلاتها . ولقد كان من نتائج هذا السلوك — كما يقرر ناشرو هذه المحاضرات — أن الجزء الأساسى من موضوعه (وهو علم اللغة العام) لم يحظ بالعناية التى يستحقها (١) .

وقد أدى هذا إلى حرمان الدارسين من مادة قيمة كان بوسع دى سوسير أن يقدمها إليهم فى سهولة ويسر .

وفى سنة ١٩١٣ وضع القدر نهاية لهذا الفكر الخصب بوفاة دى سوسير ، تاركا طلاب اللغة جميعاً بدون مرجع يلجئون إليه لتوضيح آرائه ونظراته ، وهى آراء لا يغنى فيها أى مرجع آخر ، ونظرات يعوزها البسط والتفصيل أحياناً ، هذا بالإضافة إلى أنها — فى جملتها — من ابتكار الرجل ومن صنع ذاته وحده .

وقد كان ذلك حافزاً للنابهين من طلابه إلى جمع « مذكراتهم » الخاصة بعد مراجعتها ومقارنتها بما عسى أن يكون الأستاذ قد تركه من مخطوط لدى أسرته ، وضم ذلك كله بعضه إلى بعض وإخراجه فى صورة كتاب كامل يحمل ذلك العنوان المشهور فى الدرس اللغوى الحديث :

Cours de linguistique générale

وخرج الكتاب إلى الناس لأول مرة سنة ١٩١٦ (٢) بعد جهود شاقة قام بها تلميذاه الوفيان Charles Bally و Albert Sechehaye . وقد ساعدهما فى بعض المراحل تلميذ ثالث هو A. Reidinger وقد اضطروا جميعاً إلى اتخاذ خطوات معينة تضمن صحة المادة وسلامتها والظفر بأفكار أستاذهم كاملة دون تزييف .

ولم يكن هذا العمل بطبيعة الحال أمراً هيناً ، فمذكرات الطلاب مهما بلغت من الدقة يعوزها الوضوح والكمال أحيانا ، بما قد يلحقها من اضطراب العبارة أو تكرارها ، أو تداخل الأفكار بعضها ببعض. ويزيد فى هذا الاضطراب والخلط أن دى سوسير كان يلقى بأفكاره على طلابه ارتجالا ، كما كان كثير الحركة أثناء الإلقاء وقد جعل هذا السلوك مهمة التسجيل لما يقول

---

(١) مقدمة الناشرين للكتاب المذكور ص xiii .

(٢) ترجم الكتاب إلى الألمانية سنة ١٩٣١ ، وإلى الأسبانية سنة ١٩٤٥ ، كما ظهرت له ترجمة انجليزية سنة ١٩٦٠ انظر ص ٢٢٩ ، ملحوظة (٢) ونحن فى سبيل الانتهاء من ترجمته إلى العربية .

أمراً فيه قدر كبير من الصعوبة . ويروى كذلك أن الأستاذ كان يطلق العنان لأفكاره أحياناً وينتقل من نقطة إلى أخرى بدون تنبيــه لطلابه أو تحذير لهم ، حتى ليكاد يخرج عن الموضوع أو يناقض نفسه من آن إلى آخر .

وقد وضع طلابه القــائمون بهذه المهمة هذه الأمور كلها نصب أعينهم . ومن ثم راحوا يجمعون ما يمكن جمعه من مذكرات الدورات الثلاث ومقارنتها بعضها ببعض ، معتمدين على محاضرات الدورة الثالثة كنقطة بداية للعمل . وفى نهاية المطاف خرجوا بالكتاب فى صورة متكاملة .

ولكن بالرغم من هذا الجهد الكبير فقد بدت بالكتاب بعض أوجه القصور التى يستطيع أن يدركها من له دراسة بالبحث اللغوى .

من أهم هــذه الوجوه فى نظرنا ما يتسم به الكتاب من تعقيد واضطراب فى العبارة أحياناً ، حتى ليعجز المرء فى أكثر من مناسبة عن إدراك المقصود . وذلك بالطبع أمر يمكن تفسيره ، إذ من الصعب أن ترقى عبارة الطالب إلى عبارة الأستاذ فى الدقة والوضوح ، وبخاصة فى مثل تلك الظروف التى أحاطت بالقاء دى سوسير لمحاضراته . وقد أحس الناشرون بهذا الأمر ، فكانوا يعمدون إلى توضيح ما استبهم بإشارات تفسيرية فى هامش الكتاب .

وقد يوجه النقد مباشرة إلى الناشرين فى بعض النقاط . من ذلك مثلا أنهم حاولوا نسبة بعض الحقائق العلمية إلى أستاذهم ، بالرغم من أنها كانت معروفة من قبله ، ونوقشت بالفعل فى بحوث سابقة لمحاضراته ، كما يبــدو ذلك الأمر جليا فى بعض القضــايا التى أثيرت حول موضــوع التطــور الصــوتى Phonetic change . ولكن الناشرين — مدركين احتمال توجيه هذا النقد — يجيبون — وهم على حق — بأن ما نسبوه لأستاذهم فى هذا المجال ليس تزييفاً للأمور ، وانما هو فى الحقيقة من صنعه ؛ وإن كان ذلك من زاوية معينة . تتمثل تلك الزاوية فى قدرة دى سوسير على ربط هذه القضايا بموضوع آخر لا شك إطلاقا فى أنه صاحبه وصانعه بالدرجة الأولى ، وهو منهجه الخاص بعلم اللغة الذى نعته « بالسنكرونى » synchronic فى مقابل علم اللغة « الدياكرونى »[1] diachronic (انظر ص ٢٣٤) .

على أن بالكتاب نقاط ضعف أخرى ، تظهر فى المادة العلمية ذاتها ولكنها هذه المرة ترجع إلى دى سوسير نفسه . من هذه النقاط ما نلحظه هنا وهناك من إيجاز مخل ، حيث يكتفى الأستاذ أحياناً بلمس

(١) انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية للكتاب ، ص Xiii. وما بعدها .

بعض المسائل المهمة لمسا خفيفاً ، فيترك القارىء نهبا للغموض وسوء الفهم . وقد حدث ذلك بالفعل عندما عرض للسيمانتيك أو علم الدلالة أو « السيمية » باصطلاح مجمع اللغة العربية بالقاهرة . فقد أشار إلى هذا الموضوع إشارات عابرة لاتشفى غلة ، ولا تمكن الدارس من التعرف على رأى دى سوسير فيه تعرفاً دقيقاً . هذا ما فعله دى سوسير ، بالرغم من أنه قد ناقش فى ثنايا كتابه بعض الجوانب المهمة للسيمية ، كالرمز اللغوى مثلا أو ما سماه le signe linguistique ، وبالرغم من أن فكرته عن هذا « الرمز » كانت بمثابة الانطلاقة الحقيقية لعلم « السيمانتيك » الحديث ، كما كانت أساساً مهما لتفريع قضاياه وإثارة مشكلاته ، على نحو ما يجرى فى الدراسات المعاصرة الخاصة بهذا العلم .

ربما يعتذر عن دى سوسير هنا بأنه فى حقيقة الأمر لم يكن يهدف فى هذه المحاضرات إلى معالجة كل نقاط الدرس اللغوى ، وإنما كانت لديه أفكار معينة ، يرمى إلى إبرازها وتأكيد أهميتها حتى يتبناها طلابه والدارسون من بعده .

وقد يؤخذ عليه كذلك أنه أهمل أحد طرفى « ثنائيته » المشهورة والمعروفة باللغة langue والكلام parole (١) ، ولم يعطه نصيبا من النظر والدرس . لقد ركز دى سوسير جل اهتمامه أو كله على « اللغة » ووجه كل عنايته إلى « العلم » الذى يكرس جهوده لبحثها وهو « علم اللغة » بالمعنى الصحيح ، على حين لم يأخذ « الكلام» فى حسبانه إلا على ضرب من التسامح وفى حدود ضيقة إلى أبعد حد . ولم يشأ دى سوسير كذلك أن يضع منهجا أو أن يخط مبادىء علم معين لدراسة « الكلام » فى الوقت الذى يعترف فيه بأنه يستحق الدراسة ، وبالرغم من أنه صاحب ثنائية « اللغة — الكلام » التى كان ينبغى أن تقابلها ثنائية فى المنهج أو طرائق البحث .

ولا يعدم قارىء الكتاب كذلك أن يجد أفكاراً يناقض بعضها البعض الآخر ، كما يظهر ذلك مثلا فى استعمال بعض المصطلحات . « فالرمز اللغوى » le signe linguistique بوصفه مصطلحاً ، قد خرج باستعماله عن المفهوم التقليدى وهو « الدال » signifiant وأطلقه على معنى جديد ينتظم مجموع شيئين متلازمين ، هما « الفكرة » concept (أو ما يشار إليه عادة بالمدلول Signifié) والصورة الذهنية للأصوات sound — image (أو ما يعرف عند الآخرين بالدال signibiant). وهذا يعنى أن « الرمز اللغوى » عنده وحدة متكاملة ذات جانبين لا يمكن فصلهما أو عزلهما بعضهما عن بعض ، شأنهما فى ذلك شأن صفحتى الورقة (٢) .

(١) انظر ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) انظر : مالمبرج ، السابق ص ٤١ — ٤٤

وليس ينكر أحد على دى سوسير أو غيره حقه فى استعمال المصطلحات فى مفهومات جديدة ، متى قام بتحديدها ، وبيان المقصود منها ، ولكن الذى نأخذه عليه هو أنه قد خالف هذا الاستعمال بنفسه أحياناً ، حيث كان يطلقه على المعنى التقليـــدى ، وهو « الدال » فقط ، الأمر الذى أدى إلى الخلط وســـوء الفهم لبعض مسائل الكتاب .

ومهما يكن من أمر فكتاب دى سوسير يعد واحداً من تلك الآثار العلمية التى وضعت على الطريق معالم بارزة فى مناهج البحث اللغوى الحديث والتى كونت — بجدتها وعمقها — علما مستقلاله كيانه الخاص.

ولسنا نبالغ إذا قررنا أن محاضرات دى سوسير هذه كانت أكبر أثراً من غيرها فى هذا المجال ، لاحتوائها على أفكار ومبادىء تعرف لأول مرة فى تاريخ الدراسات اللغوية ، أو على الأقل تولت شرح أو تفنين أمثلة جزئية من الأفكار ، كانت تطلق قبله هنا وهناك دون القدرة على الربط بينها وإخراجها فى صورة نظريات أو مناهج متكاملة .

ولعل أبرز سمة يتصف بها كتاب دى سوسير هى اهتمامه بالمبادىء العامة دون الدخول فى الدقائق والتفصيلات ، أو التعرض للأمثلة الجزئية إلا فى النادر اليسير. وفى هذه الحالة الأخيرة ، تظهر عبقرية الرجل فى محاولة التعرف على الخيوط الرفيعة التى تربط هذه الدقائق بعضها ببعض والتى تقود إلى استخلاص قاعدة عامة على نحو ما من هذه الأمثلة المتفرقة .

والكتاب فوق هذا وذاك يمثل خلاصة آراء هذا اللغوى الكبير واتجاهاته نحو عدد من المسائل الخطيرة التى تكون فى جملتها نظرية متكاملة ، جديرة أن تنسب إليه وحده. والحق أن مناقشة أية مسألة من هذه المسائل— على نحو ما جرى فى محاضرات دى سوسير — تقود فى نهاية المطاف إلى نظرية خاصة بهذه المسألة أو تلك . ولكنا بالرغم من ذلك نعد هذه النظريات « الجزئية » أو « النوعية» حلقات متصلة من التفكير تأخذ بيدنا فى النهاية إلى كل متلائم الأطراف متناسق الوحدات ، تتمثل فيما يمكن أن يسمى «نظرية دى سوسير فى البحث اللغوى » .

وقد كانت أفكار دى سوسير ومبادئه اللغوية تدور فى عمومها حول هدفين رئيسين : اولهما : تصحيح بعض الآراء الزائفة التى كانت تشيع فى أوساط التقليديين من اللغويين . وثانيهما : محاولة تخليص البحث اللغوى من تبعيته للعلوم الأخرى وتخصيص علم مستقل ذى حدود معينة يقوم على النظر فى اللغة والكشف عن حقيقتها .

كما كان دى سوسير كذلك يصدر فى كل ما أتى به عن فكرة معينة ألحت عليه إلحاحاً شديداً فى كل أعماله . تتمثل

هذه الفكرة فى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وليست كائناً حيا (إلا على ضرب من المجاز) أو هى حقيقة اجتماعية social fact يمكن أو ينبغى أن تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية الأخرى من التحليل العلمى . واللغة بهذا المعنى ، ينبغى أن نأخذها — حين نتناولها بالدرس — على أنها « نظام تركيبى » تتحدد قيمة كل عنصر فيه بالإشارة إلى وظيفته ، أى إلى علاقته بالعناصر الأخرى فى هـذا النظام ، لا بالإشارة إلى خواصه اللغوية ، فيزيائية كانت أو سيكلوجية .

والمبادىء اللغوية التى ألقى بها دى سوسير إلى العاملين فى الحقل اللغوى كثيرة متنوعة. ولكنا هنا سوف نقصر الحديث على مبدأين أو فكرتين اثنتين . ذلك ، لأن دى سوسير هو الرائد الأول فيهما ، أو — على أقل تقدير — هو صاحب الفضل فى إبرازهما بتلك الصورة التى أدت إلى إحداث ثورة فى التفكير اللغوى ، وإلى دفع هذا التفكير إلى آفاق علمية لم يحلم بها سابقوه . أضف إلى هذا أن هاتين الفكرتين تكونان — فى حقيقة الأمر — الإطار العام لوجهة نظر هذا اللغوى الكبير فى دراسة اللغة ، كما أنهما تنتظمان — بطريق مباشر أو غير مباشر — أهم الأفكار الجزئية المتناثرة هنا وهناك فى محاضراته .

هاتان الفكرتان هما : أولا : التفريق التام بين طريقين لدراسة اللغـة سماهما « التحليل السنكرونى » و « الدراسة « الدياكرونية » . ثانياً : التفريق التام بين ما أطلق عليهما la langue و la parole .

وقد كانت هاتان الفكرتان كلتاهما تمثلان اتجاهين مختلفين تماماً عما تعارف عليه التقليديون من اللغويين .

الفكرة الأولى :

جاء دى سوسير فوجد اللغويين من قبله يقصرون دراستهم للغة على النهج التاريخى الصرف ، أو النهج التاريخى المشوب بشىء من الوصف المبنى على أفكار فلسفية أو معيارية . وقد كانت هذه الدراسة ذاتها ناقصة من بعض وجوهها ؛ إذ كانت تعنى — فى الأغلب الأعم — بتتبع الظواهر اللغوية من فترة زمنية إلى أخرى ، لا بوصفها عناصر فى نظم لغوية تتبين قيمها بمواقعها فى هذه النظم ، وإنما بالنظر إليها كما لو كانت ظواهر منعزلة ، أو — بالأحرى — كما لو كانت أمثلة جزئية لا تخضع لقواعد مطردة .

ثار دى سوسير على هذا الخط التقليدى ، ورأى أن هناك طريقين مختلفين لدراسة اللغة. أما أحدهما فسماه المنهج « الدياكرونى » diachronic أو التاريخى historical أو ما يدعى أحياناً بالنظرة « الديناميكية » dynamic والثانى هو طريق التحليل « السكرونى » synchronic أو ما عرف فيما بعد

بالوصفى descriptive وقد ينعت أحياناً « بالثابت » static .

ثم أخذ دى سوسير يفرق تفريقاً تاما بين هذين الطريقين ، فالمنهج الدياكرونى أساسه تعدد الفترة الزمنية ، حيث يلاحظ الدارس الظواهر اللغوية من فترة زمنية إلى أخرى ، قصدا إلى التعرف على ما أصابها من تغير وتطور . ولكن « المنهج السنكرونى » خاصته الأساسية وحدة الفترة الزمنية ، مع قصر وظيفة اللغويين فى هذه الحالة على النظر فى وحدات التركيب اللغوى للوقوف على نوع العلاقات الداخلية بينها فى هذا التركيب. إن الدارس — على هذا المنهج — لا يدخل عامل الزمن فى حسبانه ألبته ، وإنما يعنيه أولا وآخرا أن يأخذ اللغة على أنها « نظام تركيبى » ثابت فى نقطة محددة من الزمن لا يتعداها .

فالمنهجان فى نظره صالحان للدراسة ، وضروريان للبحث اللغوى ، ولكن مع التمييز بينهما والتفريق بين وظائفهما . ومن ثم لا يجوز الخلط بينهما أو العمل بهما معاً فى آن . وحذر دى سوسير من اعتماد الدراسة السنكرونية على النظرة التاريخية، لما يعقب ذلك من الخلط فى النتائج اللغوية ؛ ولكن الطريقة الدياكرونية لها أن تلجأ إلى المنهج السنكرونى ، بل إن ذلك أمر ضرورى حيث إن تعدد الفترة الزمنية يعنى — بداهة — انتظام العمل لأكثر من دراسة سنكرونية سابقة ، كل واحدة منها تختص بفترة زمنية واحدة .

الفكرة الثانية :

أنهى دى سوسير مناقشته الطويلة فى الموضوع السابق بأن المنهج السنكرونى هو المنهج الواجب اتباعه فى تحليل اللغة ، بالمعنى الجديد الذى أراده لها .

ومن ثم كان عليه أن يحدد أو أن يبين ما يعنيه « باللغة » التى يرى وجوب اخضاعها لهذا المنهج . بدأ دى سوسير هذا التحديد وذاك البيان بالتفريق بين ثلاثة مصطلحات وثلاثة مدلولات ليصل إلى مقصوده . هذه المصطلحات هى :

lalangue, la parole, le langage (١)

---

(١) المصطلحات الثلاثة التى استعملها دى سوسير فى هذا المقام (وهى Parole, langue, langage) مصطلحات فرنسية ، وهى ذات دلالات خاصة عنده ، كما سيتبين لنا فى هذا البحث . ومن ثم حرص كثير من الدارسين على الاحتفاظ بها دون الالتجاء إلى ترجمتها حتى لا يختلط الأمر ويسوء الفهم . ونحن من جانبنا نقرر أن أيا من هذه المصطلحات لا يمكن ترجمته إلى العربية ترجمة دقيقة بكلمة واحدة ، على ما هو المفروض أن يتبع فى مجال المصطلحات العلمية . أما الترجمة المناسبة لهذه المصطلحات — فى رأينا — فهى (على الترتيب المذكور بالنسبة للمصطلحات الفرنسية السابقة) : اللغة بالمعنى العام أو المطلق ، اللغة بمعنى النظام التركيبى ذى الحدود والقواعد المعينة (وهذا المعنى لا ينطبق إلا على اللغة المعينة ، كالعربية فقط أو الإنجليزية فقط إلخ . . .) . ثم الكلام الفعلى . وقد نكتفى فى هذه الحالة الأخيرة بلفظة « الكلام » وحدها ، قاصدين بها ذلك النشاط اللغوى المنطوق من المتكلم الفرد فى الموقف=

le langage مصطلح فرنسي يستعمله دى سوسير ليريد به ما يمكن أن يسمى « اللغة بالمعنى المطلق » . أنها - عنده - أشبه بالملكة أو الطاقة اللغوية . وهى دائما تتضمن جانبين متقابلتين ، فهى تتضمن نظاما ثابتا مقررا established system كما تتضمن التطور والديناميكية evolution . أو قل : إنها تنتظم مجموع الأحداث النطقية الواقعية فى الكلام الفعلى ، كما تنتظم القواعد اللغوية المقررة فى البيئة الاجتماعية المعينة .

إنها - بهذا المعنى - شئ غير متجانس hetrogenous غير واضح الحدود ، وهى ملك الفرد والمجتمع كليهما ؛ فهى فردية واجتماعية معا (individual and social) .

واللغة بالمعنى المطلق عند دى سوسير لها اتصال بمجالات من أنواع شتى ، مجالات فيزيائية مادية physical وفسيولوجية نفسية physiological and psychological

ولكن هذه اللغة (langage) ينقصها مبدأ التجانس والوحدة ومن ثم لم يكن فى استطاعتنا دراستها دراسة علمية . والحق أنه ليس هناك علم وحيد يمكن أن يخضعها للنظر والبحث ، كما أنه ليس فى مقدورنا أن نحدد لها مكانا فى أجناس الحقائق الانسانية ؛ إذ من الصعب التعرف عليها أو اكتشاف وحدتها ، إنها - كما يقول هو - inconnaissable .

هذان الجانبان المتقابلان اللذان تتضمنهما « اللغة بالمعنى العام » أو laugage يشيران إلى « ثنائية » دى سوسير الشهيرة أو ما سماهما langue و parole .

أما la parole فيطلقه دى سوسير على ما يمكن أن ندعوه « بالكلام » أو عملية الكلام "speaking" . ويعنى به النشاط الصوتى المادى ، أو هو عبارة عن تلك الأصوات والأحداث المنطوقة بالفعل من المتكلم الفرد فى الموقف المعين . وهو لذلك فردى فقط individual ونفسى مادى psychophysical . والفرد صاحبه وهو المسيطر عليه : يغير فيه بالزيادة والنقص والتطوير . و parole شئ غير ثابت ، إنه مرتبط باللحظة التى يؤدى فيها . إنه ليس حقيقة اجتماعية ، وإنما هو نشاط فردى إيجابى غير مستقر ، وهو وظيفة الفرد وحده la sujet parlant .

= المعين ، على نحو ما قصد دى سوسير نفسه بمصطلحه الثالث parole . وهذا المصطلح ذاته قد جرت عادة الدارسين ممن يكتبون بالانجليزية على ترجمته بالكلمة « speech » . ولكن مترجم كتاب دى سوسير آثر مصطلحا آخر هو speaking ليعنى به parole وخصص المصطلح "speech" للدلالة على ما سماه دى سوسير langage (اللغة بالمعنى العام) . وما جرى عليه هذا المترجم الفاضل أدق فى نظرنا لأن كلمة speaking أصدق فى الدلالة على ما عناه دى سوسير باللفظة parole ، وأقرب إلى المفهوم الذى رآه لهذا المصطلح الأخير . ولسوف نسير فى هذا البحث وفقا للترجمة العربية التى اخترناها وإن كان هذا لا يمنع الجمع بين هذه الترجمة ونظيرها الفرنسى بلفظه ، أو الاقتصار على المصطلحات الفرنسية وحدها ، إذا اقتضى الأمر ذلك قصدا إلى الدقة فى التوضيح أو إلى الاختصار فى صيغ المصطلحات .

ثم ينتقل دى سوسير إلى الكلام عن la langue ، فيصورها لنا بالطريقة التالية : إذا استبعدنا من هذا العموم المسمى langage وأخذنا منه كل العناصر الفردية التى تتمثل فى الكلام الفعلى ، وكل الأصوات المنتشرة فى الهواء ، وكل الأحداث الفعلية الواقعة من أفراد المتكلمين ، أو — بعبارة أخرى — إذا أبعدنا واستخلصنا la parole من le langage فسوف يبقى لدينا أهم شئ فى الموضوع ، أو سوف نحصل على هدفنا الأصلى وهو la langue أو « اللغة بمعنى النظام الثابت » أو أنماط العادات والقواعد اللغوية التى استقرت فى أذهاننا نتيجة لممارسة النشاط الكلامى الإيجابى فى البيئة .

langue إذن ليس فيها أصوات مادية حقيقية ، وإنما تحتوى على وحدات صوتية ذهنية أو فونيمات phonemes وليس بها كلمات أو جمل منطوقة بالفعل وإنما بها أجناس صرفية نحوية . وهى عرفية تقليدية ، وهى وظيفة جماعة المتكلمين la masse parlante . إنها ملك هذه الجماعة وليس للفرد عليها من سلطان ، وهى لذلك اجتماعية فقط social ونفسية صرفة psycho logical وهى مخزونة فى شبه نظام دقيق فى الوعى أو العقل الجماعى conscience collective

إن langue بهذا الوصف الذى أتى به دى سوسير إنما تنطبق على اللغة المعينة كالعربية فقط أو الانجليزية فقط ، آخذين فى الحسبان خاصتيهما الأساسيتين وهما كون كل منهما « نظاما » ، لا أحداثا منطوقة ، وكون هذه اللغة أو تلك اجتماعية ، تنسب إلى جماعة المتكلمين ، لا إلى الأفراد ، بوصفهم أفراداً .

ويوضح هاتين الخاصتين معا تفسيره « للغة » بهذا المعنى المعين بأنها « حصيلة كل القوانين اللغوية التى تحدد استعمال الأصوات والصيغ ووسائل التعبير النحوية والمعجمية فى البيئة اللغوية المعينة » .

وهى - بهذا أو مع هذا - « نظام تركيبى » مكون من وحدات ذات قيم خلافيه لا يمكن التعرف عليها أو الكشف عنها إلا بتحديد مواقعها وبيان علاقاتها مع جاراتها فى التركيب . وفى رأيه أن ذلك أنما يتم بطريق التحليل السنكرونى .

والفرق بين اللغة والكلام كالفرق بين القاعدة وتطبيق هذه القاعدة . والناس لا يتكلمون القواعد وإن كانو يتكلمون طبقا لها ويحاولون تحقيقها ماديا ، كما يظهر ذلك فى كلام الفرد فى الموقف المعين . أو - على حد تعبير دى سوسير نفسه[1] - اللغة تشبه السيمفونية على حين يشبه الكلام العزف على الآلات الموسيقية بالفعل لتحقيق هذه السيمفونية

(١) الترجمة الانجليزية ص ١٨

ماديا .أو قل : إن اللغة تقع من الكلام موقع القواعد التلغرافية من عملية إرسال الرسالة التلغرافية نفسها .

و langue يمكن أن تدرس وحدها ، أى بقطع النظر عن تحقيقها المادى وهو الكلام parole . فاللغات الميتة كالسنسكريتية واليونانية واللاتينية وغيرها تجرى دراستها الآن - كما جرت من قبل - فى الجامعات ومعاهد العلم المختلفة ، بالرغم من أن الناس لا يتكلمونها ، ولايستعملها أحد فى التخاطب العادى .

أما الكلام فتحتاج دراسته إلى التعرض لأشياء أخرى ، أو على أقل تقدير ، لابد لهذه الدراسة من النظر فى اللغة ، إذ الكلام لا يكون إلا بوجود اللغة . وصاحبه - وهو الفرد - مضطر دائما إلى أن يتعلم هذه اللغة وإلى أن يظل دائما كما لو كان فى فترة تدريب على كيفية أداء هذه اللغة لوظيفتها .

وإلى هنا يصل دى سوسير إلى تفريق تام بين lavgue و parole ولكنه بالرغم من ذلك لا ينكر وجود علاقة بينهما ، كما لاينكر اعتماد كل واحد منهما على الآخر. إن اللغة - عنده - أداة الكلام من جهة وهى نتاجه من جهة أخرى (٢) . فاللغة تمد الكلام بالقواعد والقوانين التى يجرى على سننها تحقيقه المادى الفعلى ، كما أنها - بوصفها مجموعة من النظم الذهنية - تترسب فى أذهان الجماعة اللغوية المعينة وتختزن فى هذه الأذهان بعد الاستماع الطويل المتكرر إلى المتكلمين ، بوصفهم أفرادا - فى البيئة الخاصة .

والكلام هو الآخر ضرورى لبناء اللغة وتكوينها . وهو وسيلتها إلى التطور والنمو ، ويتم التطور عن طريق تأثرنا بكلام الأفراد الكثيرين من حولنا ، الأمر الذى يؤدى إلى تغيير عاداتنا اللغوية أو تعديلها .

واللغة بهذا المعنى الذى قرره دى سوسير يمكن التعرف عليها وعلى حدودها . وهى متجانسة homogenous ولها بذلك مكان بارز بين الحقائق الإنسانية . ومن ثم نستطيع تناولها بالدراسة ، بل إن اللغة - بهذا المفهوم الخاص - هى الموضوع الأساسى لعلم اللغة

وليس يعنى هذا أن الكلام شىء لا يستحق الدراسة . إنه جدير بها . ولكن هذه الدراسة لاتتم - فى رأيه - فى إطار علم اللغة بالمعنى الصحيح . وإذا كان من الضرورى سحب المصطلح « علم اللغة » عليهما معا (langue و parole) .وجب علينا حينئذ أن نتكلم عما يمكن أن نسميه « علم لغة الكلام » linguistics of speaking فى مقابل « علم لغة اللغة « linguistics of language ، على شريطة ألا نخلط

(٢) السابق ص ١٩

بينهما بحال من الأحوال [1]. ومع هذا كله فقد استقر رأى دى سوسير على إفراد langue وحدها بالدراسة وعلى تخصيص « علم اللغة » لها دون غيرها .

....

وإذا كان لنا أن نقف على مدى التأثير الذى أحدثته أفكار دى سوسير فى البحث اللغوى وأن نتعرف على نوع هذا التأثير واتجاهاته أصبح من الضرورى أن نصاحب كتابه المذكور فى رحلته التاريخية الطويلة ، وأن نواكب محاضراته هذه فى مسارها العلمى عبر قارات العالم المختلفة .

لقد بدأت هذه المحاضرات رحلتها فور ظهورها فى صورة كتاب لأول مرة عام ١٩١٦ م . ومنذ ذلك التاريخ حتى هذه اللحظة ، والكتاب يوالى أسفاره ويجد فى مسيرته عبر قارات الدنيا ، غربها وشرقها على سواء ، وإنك لتجده يحتل مكانا بارزا فى مكتبات دور العلم وقاعات الدرس ومنتديات الفكر اللغوى فى كل بلد أراد لنفسه أن يحظى بنصيب من هذه الثروة العلمية الجديدة وتلك الأصالة المنهجية اللتين حملهما الكتاب إلى الناس .

وقد اتخذ تأثير الكتاب فى أعمال الدارسين من بعد دى سوسير صورا عدة ونحا فى ذلك نواحى مختلفة . وإنه لمن الصعب فى هذا المقام أن نحصر هذه الصور أو أن نعدد تلك المناحى . وبحسنا أن نشير هنا إلى أمثلة محدودة فقط من صور هذا التأثير ، وبخاصة فيما يتعلق بمبدأيه الأساسيين اللذين سبقت الإشارة إليهما . ونعنى بهما التفريق بين المنهج الدياكرونى والمنهج السنكرونى ورأيه فى مفهوم « اللغة والكلام » والعلاقة بينهما .

وأول ما يلفت النظر فى هذا الشأن هو أن الكتاب استطاع أن يجذب إليه عددا من اللغويين وأن يوحد بين اتجاهاتهم وأفكارهم الرئيسية بحيث أصبحوا يكونوا مدرسة لغوية جديدة ، عرفت فيما بعد بمدرسة دى سوسير ، أو مدرسة جنيف .

من أشهر أعضاء هذا المدرسة تلميذه الوفى تشارلز بييه الذى « طبق مبادئ أستاذه فى التحليل السنكرونى على اللغة الفرنسية ، والذى استخدم هذه المبادئ ذاتها فى عقد مقارنة بين نظامى اللغتين « الفرنسية والألمانية » . وكذلك سار هذا التلميذ فى ركاب أستاذه

(١) بالرغم من اعتراف دى سوسير « بأهلية » الكلام بالدراسة وبالرغم من اقتراحه اطلاق اسم « علم لغة الكلام » linguistics of speaking على العلم الذى يمكن أن يتولى شئونه — فانه لم يشأ أن يحدد طبيعة هذا العلم ، أو أن يبين جوانبه . وقد كان هذا مدعاة إلى اتهامه باهمال أحد طرفى ثنائيته (اللغة — الكلام) كما سبق أشرنا إلى ذلك (انظر ص٢٣٢) . وقد رأى بعض تابعيه (مثل بالمسار الانجليزى على ما يروى يسبرسن فى كتابه « الانسانية والأمة والفرد من وجهة نظر لغوية » ص ١٥) أن علم النفس هو المختص بالنظر فى « الكلام » ، على حين قرر كثيرون أن « علم الأصوات » (الفوناتيك phonetics فى مقابل الفنولوجيا phonology) هو الذى يعنى بدراسته والبحث فيه .

بقبوله مبدأ التفريق بين اللغة والكلام ، وإن كان يرى أن أستاذه قد بالغ فى النظر إلى اللغة على أنها شئ عقلى صرف ، وأنها نتيجة العقل الجماعى . أما هو(بيبه)فيؤكد أهمية العنصر العاطفى فى اللغة .

أما أشهر تلامذته وأهمهم على الإطلاق فهو اللغوى الفرنسى الذائع الصيت أنطوان مييّه الذى أخذ بوجهة نظر الأستاذ فيما يتعلق باللغة بوصفها « نظاما متكاملا متناسق التركيب مترابط الوحدات » والذى حذر ـ كما فعل أستاذه من قبل ـ من خطر دراسة عناصر اللغة منعزلة عن سياقها التركيبي . ولكن مييّه بالرغم من هذا يميل إلى مخالفة الأستاذ فى بعض النقاط . من ذلك مثلا أنه «يأسف لما تعنيه النظرة التركيبية للغة ـ كما أرادها دى سوسير ـ من التجاهل الواضح للبشر الذين يستعملون اللغة ومن إغفالها لهذا العنصر المهم عند التحليل » .

وقد رأى هذا الرأى نفسه اللغوى الأسبانى « أمادوألونسو» أحد المتأثرين بآراء دى سوسير وأفكاره الجديدة . يلخص « ألونسو» موقفه من هذه القضية بقوله : « إن نظرية دى سوسير اللغوية قد ظفرت بوضوحها الرائع وبساطتها المميزة على حساب تجاهل أهم شئ فى الموضوع وهوالعنصر البشرى فى اللغة» .

ولم يقف تأثير الكتاب عند هذا الحد الذى ينتهى بتجميع عدد من التلامذة حول آراء الأستاذ ومبادئه ، وإنما استطاعت نظريات دى سوسير ومناهجه أن تنفذ بعمق واتساع واتساع عريض إلى أعمال اللغويين المحترفين على اختلاف بيئاتهم واتجاهاتهم الفكرية .

لقد أحدثت فكرة دى سوسير فى التفريق بين المنهجين الدياكرونى والسنكرونى فى دراسة اللغة ردود فعل واسعة متباينة ، فعارضها قوم فى بداية الأمر،مقررين سلامة القول بوجود هذين المنهجين ، ولكن التفريق التام بينهما ـ كما فعل الأستاذ الأول ـ أمر مبالغ فيه ولا تسوغه طبيعة اللغة ذاتها. وحجتهم فى ذلك ـ كما يرويها واحد منهم وهو يسبرسن الدنمركى ـ أن الدراسة السنكرونية التى لا تأخذ عامل الزمن فى الحسبان ألبتة لا يمكن تطبيقها تطبيقا سليما على اللغة ، إذ من الصعب « تثبيت » هذه اللغة ووصفها دون الإشارة إلى ما قد تخضع له من تغير وتطور . ودعموا حجتهم هذه بمجموعة من التساؤلات أوردها لنا يسبرسن المذكور على هذا النحو : « متى يجوز لنا أن نقرر أن حالة ما من حالات اللغة قد انتهت ، وأن حالة أخرى قد حلت محلها » ؟ « كيف نتعامل مع تلك الآثار اللغوية القديمة التى تسللت وعادت إلى الحياة فى أساليب لغوية معينة » ؟ أو « كيف إذن نتناول هذه المستويات اللغوية المختلفةالظواهر ، كاللغة الدارجة ، وأساليب النثر العادية ، أو أساليبه الراقية » ؟ « أهذه المستويات لغات مختلفة أم هى لغة واحدة » ؟

على أن هذه المعارضة لم تمنع مبدأ التفريق بين المنهجين من الانتشار والذيوع ، بحيث أصبح لكل منهج أتباع وأشياع . وكان المنهج السنكرونى أسعد حظا من صاحبه وتلقاه الناس بالقبول ، واتجه إليه معظم الدارسين المحدثين فأفادوا منه ، وطبقه كل واحد منهم بصورة أو بأخرى ، والتزموا — بوجه خاص — بما تضمنه هذا المنهج من وجوب النظر إلى اللغة بوصفها « نظاما تركيباً » تظهر قيمة وحداته بطريق النظر فى علاقتها بعضها ببعض .

وهكذا امتد المنهج السنكرونى وأصبح يعنى شيئين متلازمين ، أولهما وصف الحقائق اللغوية ، كما هى فى التركيب فى فترة زمنية معينة ، ومن ثم أطلق عليه فيما بعد « المنهج الوصفى » وثانيهما : تناول اللغة على أنها شكل « تركيبى » لا مادة منطوقة ، مع الأخذ فى الحسبان أن اللغة « كل متكامل » تظهر قيم وحداته عن طريق وظائفها ، وذلك بالإشارة إلى جاراتها فى التركيب ذاته . وقد سمى هذا الوجه الثانى فيما بعد « بالنظرة التركيبية » أو « التركيبية الشكلية » فى البحث اللغوى .

ولسنا نبالغ إذا قررنا منذ البداية أن معظم الاتجاهات اللغوية الحديثــة التى تؤكد أهمية منهج الوصف فى دراسة اللغة إنما ترجع مباشرة بطريق أو بآخر إلى دى سوسير نفسه ، كما ترجع إليه كذلك كل الأفكار الجديدة فيما يتعلق بالنظرة التركيبية إلى اللغة .

تجد هذين الجانبين كليهما واضحين فى أعمال اللغوى الإنجليزى « فيرث » الذى لا يحيد عن مبدأ الوصف فى كل ما أخرجه هو وتلامذته إلى الناس ، كما تراه يلتزم بصورة أو بأخرى بالنظرة التركيبية إلى اللغة . اننا لا ننكر أن فيرث هو الآخر كان رائد مدرسة خاصة به ، تنسب إليه وحده ، كما لا ننكر أنه كان كثير الاعتراض على الفكرة « التركيبية » للغة . بالمعنى الذى عناه رجال التحليل الفونيمى أو التحليل الصوتى الوظيفى ، من الأمريكان . ولكنه من المؤكد كان من رجال « النظــرة التركيبية » بالمفهوم الذى أراده دى سوسير . تلحظ هذا فى بعض مصطلحاته ، كما تلمسه فى طرائق تحليله للغة .

ولقد أفاد الأمريكان المحدثون من المنهج السنكرونى عند دى سوسير . أفاد منه زعيمهم بلومفيلد المتوفى سنة ١٩٥٣ م ، فالتزم بمبدأ الوصف التزاما واضحا كما طبق النظرة التركيبية فى آثاره وأهمها كتابه الموسوم « باللغة » والمنعوت « بإنجيل علم اللغة » عند الأمريكان . غاية الأمر أن بلومفيلد خلط عمله هذا بمنهج مرحلى ، قوامه النظرة السلوكية إلى الأحداث اللغوية . إن هذه الأحداث عنده لا تعدو أن تكون ردود فعل لمثيرات أو دوافع ، تتبعها استجابات عملية . على أن هذا المنهج السلوكى ذاته لم يخل بالوفاء بمبادىء الوصف والتحليل التركيبى ، وهى مبادىء ترجع فى أساسها إلى العبقرى السويسرى دى سوسير .

ومنـذ أن خط باومفيلد هذا الخط ، والدراسات اللغوية الأمريكية كلها على اختلاف اتجاهاتها لا تستطيع تجاوزه ؛ فالوصف أصبح القاعدة العامة عند تلامذته ولاحقيه ، كما سيطرت النظرة التركيبية على جل أعمالهم . يبدو ذلك واضحاً فى أعمال « زليج هارس Z. Harris » المؤسس الحقيقى للنظرة التركيبية فى أمريكا ، كما يشهد على ذلك كله كتابه المسمى «طرائق فى علم اللغة التركيبى Methods in Structural Linguistics » :

وكل ما هنالك أن دراسات « هارس » فى هذا الكتاب كانت مركزة على الجانبين الصوتى والصرفى للغة دون كبير اهتمام بالجانب النحوى .

وفى هذه الأيام يخرج إلينا اللغوى الأمريكى « تشومسكى chomsky » بنظرية عدوها آخر صيحة فى البحث اللغوى ، وهى ماسموها « نظرية النحو التحويلى Transformational grammar » .
وإنك إن دققت النظر فى تفاصيلها استطعت أن ترجعها بصورة أو بأخرى إلى فكرة دى سوسير عن الدراسة التركيبية للغة .

والحق أن الأمريكان متأثرون أشد تأثر بالمنهج السنكرونى عند دى سوسير بل لعلهم بالغوا فى ذلك ؛ اذ هم الآن يعاملون اللغة ويتناولونها بالتحليل ، كما لو كانت شيئاً جامداً لا يتحرك ، شيئاً لا يصيبه التغير والتطور .

وجدير بنا هنا كذلك أن نشير إلى أن « النظرة السنكرونية » عند دى سوسير قد وجدت طريقها إلى أعمال الدارسين فى مدرسة « براج اللغوية » على الأقل فى فتراتها الأولى ، أو مرحلتها « الكلاسيكية» كما يطلقون عليها أحياناً . نعم ، لقد كان لهؤلاء القوم – كما يقولون – معرفة من نوع ما بالمنهج السنكرونى والطبيعـة السنكرونية للغة ، ولكن فكرة دى سوسير فى هذا الشأن كانت الدافع القوى لتعميق هذه الدراسة وجعل هذا اللون من التحليل خطا تفكيريا عاما فى رحاب هذه المدرسة :

وهناك فى جانب آخر من جوانب القارة الأوربية نجد ذلك العالم الدنمركى الشهير « هيلمسلف » الذى تأتى آثاره امتدادا حقيقياً لطريق دى سوسير فى التركيز على « الخواص التركيبية » للغة ، وفى تناولها على أساس أنها « بنـاء » أو « شكل » form « لا مادة منطـوقة substance . إنه يصرح أكثر من مرة أن مهمة علم اللغة إنما هى وصف وحدات اللغة فى التركيب وبيان العلاقات بين هذه الوحدات :

ويستمر هيلمسلف فى تعميق هذه النظرة وتأصيلها حتى يصل بها إلى دراسة رياضية ، مستخدما فى ذلك مناهج علم الجبر ووسائله فى التحليل اللغوى . وكان دائم الإلحاح على وجوب الاهتمام « بجوانيه » اللغة « لا بجوانيها « البرانية » ، ومن ثم كان من أهم

أهداف نظريته الوصول إلى ما سماه « علم اللغة الجوانى . » إنه – مثل دى سوسير – ينكر أن تكون اللغة مجرد أسماء لمسميات أو مجموعة من الرموز أو علامات مميزة للأشياء فى الواقع الخارجى ، إنها عنده مجموعة من العلاقات والارتباطات بين عناصر التركيب .

والخلاف الواضح بين الرجلين إنما يظهر فى إهمال هيلمسلف للجانب « العقلى أو النفسى للرمز » اللغوى وتركيزه على تحليـــل هذا « الرمز » بطريق « الوظائف الداخليـــة » التى يتكون منهـــا والوظائف الخارجيـــة التى تربطه بغيره من الوحدات اللغوية ، ويتم ذلك كله فى إطار الطريقـــة « الجوانية » للتحليل .

وبالرغم من أن هيلمسلف ينص على أنه وصل إلى نظريته هذه مستقلا عن غيره ، فانه لا ينكر فضل دى سوسير عليه ، وإفادته منه . لقد رأى فى أعمال دى سوسير تأكيدا لآرائه وتشجيعاً لها . وفى اعتقاده أن نظريته هى أول نظرية تمشى فى اطراد على الأسس التى وضعها دى سوسير فى نظريته التركيبية .

أما رحلة هذا الكتاب بالنسبة للمبدأ الثانى من مبادىء دى سوسير – ونعنى به – مبدأ التفريق بين « اللغة » و « الكلام » – فانها رحلة أطول مدى وأكثر تشعباً وأعمق تأثيراً من صاحبتها[1] .

---

(١) إن دى سوسير يعد فى نظرنا الرائد الأول فى التفريق بين اللغة langue والكلام parole ، بالوجه الذى طلع علينا به ، وبالصورة التى رسمها وحدد معالمها ، بحيث أصبح الجانبان كما لو كانا من طبيعتين مختلفتين ، وبحيث أدى هذا التفريق إلى إحداث تغيير ثورى فى النظر إلى اللغة وإلى خلق مناهج بحث جديدة ما كان لها أن تظهر لولا هذا الابتكار .

ولكن هذا لا ينفى بحال من الأحوال وجود نوع ما من التفريق أو التقابل بين اللغة والكلام فى التراث اللغوى الإنسانى قبل عصر دى سوسير ، ويظهر هذا التفريق النوعى فى صورتين رئيستين :

أولاهمـــا تتمثل فى وجود مصطلحات معينة فى بعض اللغات تومىء أو تشير إلى هذا التفريق النوعى . فى اللغة العربية مثلا ، يوجد المصطلحان : اللغة والكلام ، وبجانبهما أيضاً يوجد مصطلح ثالث هو « اللسان » . وهذه الثلاثية موجودة فى اللغة الانجليزية كذلك . فهناك speech, language, tongue . وكان المصريون القدماء يستعملون أحياناً المصطلح ro (بمعنى فم) فى مقابل « لغة » ، على حين كانت الكلمة mūdet تمثل « الكلام الفعلى » speaking .

أما اللاتينية ففيها المصطلحان : lingua و sermo ، وفى الألمانية : sprache و Reda ، وفى الهولندية : taal و rede وفى السويدية : spräok و tal, وفى الأسبانية : langue و habla . (جاردنر : نظرية الكلام واللغة ص ١٠٧ ، والمبرج : اتجاهات حديثة فى علم اللغة ص ٤٠) .

فى هذه اللغات كلها يغلب أن يطلق المصطلح « لغة » أو مايقابله (وهو الأول من اليمين فى كل حالة) على العرف أو النظام اللغوى العام ، أو على الحقائق اللغوية بوصفها وحدات فى نظم مقررة يجرى عليها التقليد فى البيئة اللغوية المعينة ، على حين يستعمل « الكلام » وما يرادفه فى معنى النشاط العضوى أو النطق للانسان أو فى معنى الأحداث اللغوية الواقعة بالفعل من المتكلم .

عندما صرح دى سوسير بأن اللغة «حصيلة من الرموز المخزونة فى أذهان الجماعة وأنها بذلك عقلية اجتماعية، ومن ثم كانت الموضوع الأول والأخير لعلم اللغة، وأن الكلام المنطوق شىء مادى فردى وبذلك لا يدخل فى نطاق علم اللغة بمعناه الصحيح — عندما قرر دى سوسير ذلك تشعبت آراء الدارسين من بعده إلى اتجاهين رئيسين فى هذا الشأن .

أما الاتجاه الأول فهو اتجاه معارض ، ويتزعمه اللغوى الدنمركى يسبرسن الذى ينص على أن هذا التفريق يخالف طبيعة الأمو وواقعها . فاللغة والكلام جانبان لشىء واحد ، وكلاهما عقلى ومادى وكلاهما اجتماعى وفردى ، وليس أحدهما أولى

على أن هذا التقابل فى استعمال هذه المصطلحات لا يرقى بحال إلى مستوى التفريق الذى جاء به دى سوسير . فمن الواضح أن هذه المصطلحات (أو أغلبها) ذات مفهومات واسعة ، وقد يحدث التداخل أو الخلط بينها أحياناً .

« فاللغة » فى العربية مثلا مصطلح ذو مدلولات عدة ، فقد يطلق على الأسلوب ، وقد يعنى اللهجة ، وربما أطلق على « الكلام » نفسه ، هذا بالإضافة إلى معناه التقليدى المشهور .

« والكلام » هو الآخر قد يعنى أشياء كثيرة ، منها : اللغة ، ومجموعة الأصوات المنطوقة ، والحادثة واللهجة ، وقد يكون مرادفا للجملة ، كما فى نحو قول ابن مالك : كلامنا لفظ مفيد ، كاستقم .

وقد يشير إلى هذا التداخل أو الخلط ما نلمسه من استعمال بعض هذه اللغات لهذه المصطلحات . ففى الألمانية والسويدية تستعمل الكلمتان sprache و sprack فى معنى « اللغة » على حين أن المصطلح الانجليزى speech يطلق على « الكلام » ، بالرغم من انتماء هذه الكلمات الثلاث إلى أصل لغوى واحد ، كما هو معروف . وفى السويدية تعنى الكلمة tal « الكلام » ولكن المصطلح الهولندى taal يعنى « اللغة » .

وعلى فرض أن هناك فروقا دقيقة بين « اللغة » و « الكلام » فى الاستعمال العام لهذه اللغات ، فان هذه الفروق ذات طبيعة تختلف عما عناه دى سوسير بمصطلحيه المشهورين ، على الوجه المبين سابقا . ولهذا لم يجد أكثر العلماء بدا من الالتزام فى غالب الأحايين بالمصطلحات الفرنسية التى استعملها هذا اللغوى الكبير فى هذا المجال ، حيث تأكدوا أن غيرها من المصطلحات فى اللغات الأخرى لا يستطيع الوفاء بما يرمى إليه دى سوسير ويعنيه .

أما الصورة الثانية التى تشعر بوجود فروق بين « اللغة » و « الكلام » فى التراث اللغوى ، فتظهر فيما يرويه التاريخ عن الهنود القدماء . يروى التاريخ أن هؤلاء الهنود قد وجدت لديهم فكرة التفريق بين هذين الجانبين ، ونصوا على أن « الكلام شىء ، ومعرفة العناصر التى يحتوى عليها هذا الكلام شىء آخر » ، أو بعبارة أخرى — كما يقرر أستاذنا فيرث — « لقد أكد الهندوس القدامى الفرق الكبير بين الكلام ومعرفة هذا الكلام .. أو تحليله من طريق نسبتهم أول تحليل للكلام — وبالتالى نسبتهم أسس قواعد الكتابة — إلى الاله أندرا Indra » (انظر : فيرث Tongues of Men, P. 15.) .

وواضح من هذا أن هؤلاء الهندوس كانوا يدركون خواص كل من اللغة والكلام . ولكن هذا الإدراك — فى نظرنا — لم يتعد هذه المرحلة إلى ما بعدها ، بحيث تظهر آثاره فى الدرس العلمى ، وبحيث يضيف جديداً فى طرق البحث اللغوى . وحقيقة الأمر أن هذا التفريق الهندى بين الجانبين كان صادرا عن دافع دينى بحت ، ظهرت نتائجه فى نسبة تلك الأعمال العظيمة — وهى القدرة على التحليل اللغوى ووضع أسس الكتابة — إلى آلهتهم .

وبهذا كله استقر لنا الرأى الذى تبنيناه ، وهو أن ماقام به دى سوسير فى هذا الموضوع يعد أول محاولة علمية فى تاريخ البحث اللغوى .

من الآخر بالنظر والدراسة . وإذا كان لنا أن نفرق بينهما كان ذلك على أساس الواقع والاستعمال ، فنقول مثلا : لغة الجماعة ولغة الفرد . وفى رأى أصحاب هذا الاتجاه أن دى سوسير فى نقطتـــه هذه كان متأثراً بآراء « دركايم » فى التركيب الاجتماعى وفكرته حول ما أسماه « العقل الجماعى » أو « الشعور الجماعى » و « العقل الفردى » أو « الشعور الفردى » .

ويميل إلى هذا الرأى فى عمومه أستاذنا فيرث . والحق أن فيرث لم يتورط فى موضوع التفريق بين اللغة والكلام بالصورة التى خرج بها دى سوسير إلى الأوساط اللغوية . إن فيرث لا يرى التفريق بينهما ، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، لا فى النظر ولا فى التطبيق . ويبدو أن فيرث كان أكثر اهتماما بالأحداث المنطوقة - سواء أسميتها لغة أم كلاما ؛ لأن هـــذه الأحداث هى اللغة الحية التى تحمل فى طياتها الحقائق الاجتماعية والثقافية فى المجتمع المعين . وسر هذا الاهتمام من فيرث ليس غريباً عن منهجه العام فى دراسة اللغة . إنه منهج يقوم على نظرية « المقام » أو سياق الحال context of situation . ومعناه عنـــده أنه لا يمكننا دراسة اللغة منعزلة عن سياقها الاجتماعى الذى تستعمل فيه .

ويسير الاتجاه الثانى فى ركب الأستاذ مع خلافات يسيرة لا تخرج السائرين فى هذا الطريق عن الإطار العام الذى حدده دى سوسير . ومن البديهى أن يسلك تلامذته هذا النهج ، كما سبق أن بينا فيما يتعلق بتلميذه « بييه » الذى وافق أستاذه فى قضيته هذه ، ولكنه تخلف عنه حين قرر أن دى سوسير قد بالغ فى التفريق بين اللغة والكلام .

وهناك خارج « مدرسة جنيف » يقابلنا « بالمار » الإنجليزى الذى يحذو حذو دى سوسير فى مبدأ التفريق فى عمومه ، ويقدم لنا تفسيرات أخرى لبيان الفرق بين اللغة والكلام . إنه يشبه الفرق بينهما بالفرق الذى يوجد بين القواعد والنظم والتلغرافية وإرسال الرسالة التلغرافية نفسها عن طريق استخدام هذه القواعد . أو قل إنه كالفرق بين قواعد الموسيقى ونظمها وبين العزف نفسه .

وكذلك الحكم على جاردنر الذى ينضم فى نظرنا إلى أصحاب هذا الاتجاه . يظهر اتباعه لهذا المنهج فى تفسيره للحقيقة اللغوية وعناصرها وشرحه للعملية اللغوية وميكانيكيتها .

والحق أن جاردنر يفصح عن منهجه هذا بعنوان كتاب له ينتظم صراحة وبلا غموض فكرة التفريق السويسرية ، إذ أطلق عليه The Theory of Speech and Language « نظرية اللغة والكلام » .

وامتد هذا التأثير إلى واحد من أشهر المهتمين بالسيمانتيك أو علم المعنى فى انجلترا. ذلك هو أولمان الذى يسير على الدرب ذاته ، حين يقرر بوضوح أن « اللغة نظام من رموز صوتيه مخزونة فى أذهان أفراد الجماعة اللغوية ، ولكن الكلام نشاط مترجم لهذه الرموز الموجودة بالقوة إلى رموز فعلية حقيقية » .

ولم يكتف أولمان بهذا التفريق النظرى ، بل ظهر أثره فى أعماله فى أكثر من صورة . من ذلك مثلا أنه ينص على أن التحليل اللغوى ينبغى أن « يسير فى خطين متوازين » أحدهما يعنى بالجانب المادى وهو يتمثل فى الأصوات المنطوقة بالفعل والآخر يختص بالنظر فى الجانب العقلى وهو المعنى .

وما هذان الجانبان فى نظرنا إلا انعكاس صادق لفكرة « الثنائية » التى جاء بها دى سوسير . ويظهر هذا التأثير بصورة أعمق فى مواضيع أخرى مهمة أولاها أولمان عناية كبيرة .

من أبرز هذه المواضيع ما شغل أولمان به نفسه حين أراد تفريع علم اللغة إلى فروعه المختلفة . لقد قام هذا الباحث بتفريع هذا العلم تفريعا يطابق هذه الثنائية اللغوية مطابقة تامة . من ذلك مثلا أنه لم يدخل «الفونانيك» (علم الأصـوات Phonetics) فى قائمة فروع علم اللغة على أساس أنه مختص بالنظر فى أصوات الكلام ، وهى أصوات مادية ، ليس من شأن اللغوى أن يعرض لها إلا بوصفها وسيلة لا غاية . أما العلم الذى نص عليه ، ورآه أهلا لنظر اللغويين فهو « الفنولوجيا » (أى علم وظائف الأصوات Phonology) أو علم الوحدات الصوتية للغة ، لا الأحداث الصوتية المنطوقة فى الكلام الفعلى .

أما التأثير الواضح لفكرة التفريق بين اللغة والكلام التى أتى بها دى سوسير فيظهر فى أعمال مدرسة مشهورة فى البحث اللغوى الحديث تعرف « بمدرسة براج اللغوية » . نلمس هذا التأثير عميقاً فى ذلك المبدأ المنسوب إلى رواد هذه المدرسة فى فتراتها الأولى . ونعنى به مبدأ التفريق التام بين علمين أو منهجين اثنين لدراسة الأصوات ، أحدهما هو «الفونانيك» ، والآخر هو « الفنولوجيا». ويخصصون الأول لدراسة الأحداث الصوتية المنطوقة فى الكلام الفعلى ، أما الثانى فيكرس جهوده فى النظر فى النظم الصوتية للغة المعينة ودراسة وظائف أصواتها فى التركيب .

ولقد كان هناك فى أواخر القرن التاسع إحساس عام بين اللغويين بوجوب التفريق

بين الأصوات المنطوقة ، وأنماط الأصوات أو الوحدات الصوتية . فكر فى هذا التفريق — بصورة ما — يسبرسن الدنمركى وسويت الإنجليزى ، ولكن وضع الحدود الفاصلة بين الجانبين إنما جاءت بطريقة حاسمة على يد الدارسين التشيكيين . وكان زعيمهم فى هذا الشأن هو العالم الشهير « تروبتسكوى » الذى وضع أسس « الفنولوجيا » ، ومناهج البحث فيه ، بوصفه فرعا من فروع التحليل اللغوى ، مناظرا ومقابلا للفوناتيك .

ولقد اعتمد تروبتسكوى فى عمله هذا على فكرة دى سوسير فى التفريق بين اللغة والكلام ، حيث طابق هذه الثنائية بثنائية « الفوناتيك والفنولوجيا » وحكم على الفوناتيك بأنه من العلوم الطبيعية ، على حين عد الفنولوجيا منهجاً لغويا أو فرعا مهما من فروع علم اللغة . وبالرغم من اعتراف تروبتسكوى بأهمية الفوناتيك بالنسبة للفنولوجيا وعلم اللغة بعامة ، فقد قوبل بما قوبل به دى سوسير من اعتراضات على مبدأ التفريق بين الجانبين ، فكلاهما مبالغ فى نظرته ، إذ اللغة والكلام — فى رأى المعارضين — شيئان لا ينفصلان ، وكذلك لا تتم الدراسة الصوتية دراسة دقيقة دون الاعتماد على الفوناتيك والفنولوجيا كليهما .

ومهما يكن الأمر فمن المؤكد لدى الدارسين أن مبدأ التفريق الذى أتى به دى سوسير هو الأساس الحقيقى لظهور مدرسة صوتية مميزة ، ما كان لها أن تظهر بمنهجها هذا لولا أفكار هذا السويسرى العظيم . هذه المدرسة هى « مدرسة براغ للصوتيات » .

وهناك فى الجانب الآخر من الصورة مجموعة من اللغويين فى بلاد العالم المختلفة لم تشأ أن تقف عند مسألة التفريق بين اللغة والكلام وقفة خاصة ، وأن تبدى رأيا حاسما واضحاً فيها ، ولكنا مع ذلك نلمح فى آثار بعضهم الميل أحياناً إلى التسليم بمبدأ التفريق فى بعض صوره .

من ذلك مثلا ما يعمد إليه البعض فى أمريكا بالذات من محاولة الإشارة إلى الطبيعة المادية للكلام فى مقابل الطبيعة التركيبية أو « النظامية » للغة . ومن ثم نرى هؤلاء

يضعون حدوداً من نوع ما بين الفوناتيك والفنولوجيا . حتى لتجد الواحد منهم يعد « الفوناتيك » فرعا ثانوياً من فروع علم اللغة ، أو تخرجه نهائياً من هذا الحقل ؛ على حين يضع الفنولوجيا فى قائمة الفروع الأساسية لهذا العلم ، بوصفه منهجا يعنى باللغة أو بنظامها الصوتى ، لا بالأحداث المادية للكلام المنطوق . يظهر هذا السلوك فى أعمـــال هُكِت الأمريكى ، ويشبهه إلى حد ما فى ذلك روبنس الإنجليزى .

كمال محمد بشر

فى الساعة السادسة من مساء الاثنين ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٤ من فبراير سنة ١٩٧٢ ، اقام المجمع فى دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، حفل استقبال الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة عضو المجمع من تونس ، وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى استقبال

أيها السادة : فى مثل هذا اليوم من العام الماضى وفى هذه القاعة نفسها سعد المؤتمر باستقبال زميل كريم وعالم جليل هو السيد الأستاذ الشاذلى القليبى وزير الثقافة التونسى الذى اختير عضوا عاملا بالمجمع من تونس الشقيق ، خلفا للعالم الكبير الأستاذ المغفور له حسن حسنى عبد الوهاب ؛

والليلة يسعد المجمع كل السعادة أن يستقبل زميلا كريما آخر من تونس الشقيق وخلفا للمرحوم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور وهو السيد الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة عميد كلية الشريعة وأصول الدين فى جامعة الزيتونة وأحد أركان النهضة الفكرية العربية ، وإن المجمع إذ يهنىء الزميل الجديد بما نال من ثقة وتأييد ليسره كل السرور أن يرى كفاية عربية جديدة تضاف إلى كفاياته ، ونشاطا علميا جديدا سيلتقى بنشاطه ، فكذلك كان المجمع . وسيظل مثابة للثقافات العالية وملتقى للكفايات الممتازة

إننا إذ نستقبل الزميل الجديد لا ننسى أن اسم تونس الشقيق ، وقد اقترن بهذا المجمع وقت نشأته ؛

فقد كان المرحوم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من أولئك الرواد الأوائل الذين حملوا رسالة المجمع وشارك فى وضع الأسس والقرارات التى مازلنا حتى اليوم نفيد منها ، ونعمل فى ضوئها ، ثم بعد ذلك أتى إلينا المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، فكانت له مواقف وكلمات وتعليقات فى المجمع مازلنا نذكرها له بالإعجاب والتقدير ؛

وهانحن أولاء الليلة نظفر بعالم جليل كما ظفرنا فى العام الماضى بأستاذ جليل ، وهكذا سيظل تونس دائما يزودنا بالعلماء الأجلاء الذين يشاركوننا فى تأدية رسالة المجمع ، وإننا لعلى ثقة أن زميلنا الجديد بما يعرف عنه من نشاط وكفاية سيشغل هذا الفراغ

الذى تركه المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور بيننا ، وسيكون خير خلف لخير سلف ، فمرحباً بالزميل الجديد فى أسرة المجمع ، وأهلا به بين الخالدين . أما الآن . — أيها السادة — فسيتولى استقبال الزميل الجديد الكريم الدكتور مدكور الأمين العام لمجمع اللغة العربية ، فليتفضل وشكراً .

• • كلمة الدكتور ابراهيم مدكور

سيدى الرئيس ، سادتى :

زرت تونس منذ ثلاث سنوات فى مهمة خاصة بتكليف من المجمع ، ولمست حين ذاك أن للعربية فيها جذوراً أصيلة وعميقة ، برغم منافسة الفرنسية الشديدة وتعصب فريق لها . وبدت لى آثار ذلك واضحة فى أقلام الكتاب وعلى ألسنة الخطباء فى الإذاعة والصحافة ، فى الدرس والمحاضرة ، فى الأندية والمجالس ، بل فى الحديث الدارج بين الناس ، ولم يتسع لى الوقت لتفهم مدى هذه الظاهرة ، والوقوف على ما وراءها من عوامل وأسباب .

ونعمت هذا العام بزيارة هذا القطر الشقيق مرة أخرى ، فتوثقت صلتى به ، ووقفت على كثير من شئونه ، وزاد اتصالى بشبابه وشيوخه ، وتنقلت بين أطرافه وجوانبه ، وزرت عددا غير قليل من مدنه وشواطئه . ولست فى حاجة أن أتحدث عما حظيت به من رعاية وعناية أعتقد مخلصا أن مردها الأول إلى مجمعكم الموقر ، وإنى لعاجز كل العجز عن أن أوفى تونس والتونسيين حقهم من الحمد والثناء ، أما الزملاء والأصدقاء فأنا مدين لهم بمودتهم الصادقة وأخوتهم الكريمة ، وأتيحت لى الفرصة مرة أخرى لأتبين فى دقة موقف العربية فى هذا القطر الشقيق ، وقد وجدتها صامدة لتقلبات الدهر ، تصارع وتجالد ، وتسترد مكانتها بعد ما أقامه الاستعمار فى طريقها من أشواك ، ولا سبيل بحال للغة أخرى أن تحل محلها :

ولا غرابة فالشعب التونسى عربى صميم ، عربى فى أصله ونشأته ، يعتز بماضيه وتراثه ، ويسعى جاهداً إلى أن يستعيد مجد الأغالبة والحفصيين ، عربى فى حاضره ، يحس إحساساً صادقاً بعروبته ، ويشعر شعوراً خالصاً بأنه جزء من الوطن العربى الكبير . يهتز طربا لأمجاده وانتصاراته ويأسى حزنا وكمدا على ما يحل به من ويلات ونكبات وإن شعبا أنجب ابن رشيق القيروانى بالأمس وأبا القاسم الشابى اليوم لايمكن أن تصاب العربية فيه بسوء .

ومن حسن حظ هذا البلد الأمين أن قام فيه معهد من معاهد الإسلام الخالدة ، وهو جامع الزيتونة ، ثمرة الماضي وعون الحاضر. وهو أحد مساجد ثلاثة في أفريقيا لها شأنها في تاريخنا الثقافي الطويل ، قام إلى جانب الأزهر والقرويين على رعاية التراث الإسلامي وتعهده . أسس أولا ليكون مصلى ومقرا للعبادة ، ثم شاء الحفصيون أن يجعلوا منه أيضاً معهد للدرس والبحث ، فجلبوا إليه الشيوخ والعلماء من الأندلس وصقلية . وأصبح جامعة إسلامية مكتملة ، تعنى بالعلوم النقلية والعقلية ، فدرس فيها الفقه والحديث والتفسير ، والتاريخ والأدب واللغة ، كما درست الفلسفة والرياضة والطب . وكان لهجرة علماء الأندلس في القرن السابع الهجرى إلى تونس شأن في ازدهار ثقافي كبير عمر بضعة قرون . واتصلت الزيتونة بالمعاهد الإسلامية الأخرى ، ، وبخاصة الأزهر الشريف .

وتخرج فيها عدد غير قليل من الأئمة والعلماء ، والكتاب والأدباء ، ويكفى أن أشير إلى أن ابن خلدون عالم تونس الكبير نهل من حياضها .

قضت هذه الجامعة التونسية نحو ثمانية قرون تسير في طريقها ، وتنشر العلم والثقافة. وفى القرن التاسع عشر أريد تطويرها ، والتطور سنة من سنن الحياة . ولم ير القائمون عليها بأسا في أن يسايروا الزمن ويلائموا بين الحاضر والماضي . وما الجمعية الخلدونية إلا صورة من صور هذا التطور ، أنشئت عام ١٨٩٦ على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، وقد كان له بتونس صلات وثيقة وقصد بها أن تعلم فيها العلوم العصرية باللغة العربية ، وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا في أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك ، وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد . وجمعية قدماء الصادقية دعامة أخرى من دعائم التجديد والإصلاح ، ربى أبناؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، فتلاقت الصادقية في البداية مع الخلدونية ، وقد قاما معا على أكتاف الزيتونة ، وجاء الصدى للتطور المنشود .

وقد أضحت الزيتونة نفسها واحدة من كليات جامعة تونس الحديثة ، وتضطلع بوجه خاص بعلوم الشريعة وأصول الدين ، وتؤدى رسالة عظمى في ميدان الثقافة التونسية ، ولا يقف أشعاعها عند تونس وحدها ، بل يمتد إلى أبناء أقطار أخرى في أفريقيا وآسيا . يفدون إليها وينهلون من حياضها .

وللزيتونة أياد على مجمعنا هذا ، أسهمت فيه منذ إنشائه ، أمدته بأئمة أعلام ، وغذته بغذاء صاف كريم . فكان الخضر حسين من أعضائه المؤسسين ، ولاتزال بحوثه القيمة حجة يرجع إليها . واختير الشيخ الجليل محمد الطاهر ابن عاشور بين أوائل

أعضائه المراسلين ، وهو من نعرف تفانيا فى خدمة اللغة والدين ، « استمساكا بكلمة الحق . أطال الله بقاءه ونفع به الإسلام والمسلمين . وحسنى عبد الوهاب ، وإن كان صادق النشأة ، لم يفته أن ينهل من جامع الزيتونة ، فأكثر التردد عليه وعلى خزائن كتبه حتى اختلط بالمحيط الزيتونى وامتزج به ، وقد كان من أعضاء المجمع المؤسسين . . ونعمنا معه بزيتونى آخر كبير هو الخالد الذكر محمد الفاضل ابن عاشور ، وقد عرفتموه فاضلا حقا ، وعالما كبيرا ، وإماما من أئمة الأدب ، اللغة والفقه والتشريع .

* * *

« ها نحن أولاء نستقبل اليوم تلميذه وصفيه ، الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، وهو زيتونى النشأة والثقافة . نستقبله ليشغل كرسى استاذه ، ولو كان الأمر ميراثا ما كان أحد أحق به منه ، على أنكم اخترتموه وانتم على يقين من أنه خير خلف لخير سلف . وما اظن انى رايت تلميذا شبيها بأستاذه شبه الحبيب بالفاضل . يحاكيه فى زيه وسمته ، ويتسم بما اتسم به من شمائل وخلال ، ويسير على نهجه فى درسه وبحثه .

وقد قدم الاستاذ لكتاب « مناهج البلغاء » الذى أخرجه التلميذ ، وفى هذه المقدمة ما يعبر عن البنوة الروحية والود الأثر ، يقول الفاضل : « إنه سرى فى نفس الحبيب ما سرى من نفحات نفسى ومدارك عقلى وحسى » . ورحمة الله على الراحل الكريم ، ومرحبا بالقادم العزيز ، وسأترجم له فى اختصار ، وأشير إلى شىء من جوانب نشاطه وثقافته .

ولد الحبيب فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، ونشأ فى بيئة دينية محافظة ، وأسهم فى تثقيفه البيت والمدرسة ، فالتحق بالمدارس القرآنية الابتدائية ، وكان أبوه يرعاه ويوجهه ، ويشرف على دروسه فى اللغتين العربية والفرنسية ، وفى سن الرابعة عشرة دخل المدرسة الصادقية ولم يكد يمضى فيها عامين حتى بدأت الاضطرابات السياسية ، ولم يكن بد من أن يسهم فيها شاب مثله ، وداعى الوطن عنده مستجاب دائما ، وكان جزاؤه أن نال شرف السجن والطرد من المدرسة فى سبيل أمته وبلاده . وما أن أطلق سراحه حتى ألحق بجامع الزيتونة ، وفيه أتم دراسته الثانوية والعالية . واستطاع أن يضيف إليه دراسة قانونية ، وحصل على شهادة الحقوق التونسية ويوم أن اكتمل إعداده اجتذبته المعاهد المختلفة ، فدعى للتدريس فى ثانوية الجمعية الخلدونية ، وثانوية الدراسة الزيتونية ، ومعهد البحوث الإسلامية للجمعية الخلدونية ، ولما يجاوز الرابعة والعشرين . وفى عام ١٩٥٠ نجح فى مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ، وانتدب بعد ذلك بقليل أستاذا بالتعليم العالى بالجامعة الزيتونية ، وقضى فيها إحدى عشرة سنة . ثم شاء أن يضيف الثقافة الغربية إلى ثقافته العربية ، فالتحق

بجامعة باريس التى منحته درجة الدكتوراه بمرتبة « الامتياز الفائق » بعد عامين اثنين ، وأصبح فى آن واحد الشيخ الزيتونى والدكتور السربونى . ثم عاد إلى وطنه ينشر العلم فى أرجائه ، ويوفى الزيتونة بعض حقها عليه ، وقد عين أستاذا بها ، ولم يبعده عنها إلا عمل بمصلحة النشر بوزارة الثقافة أشرف فيه على إخراج طائفة من الكتب القيمة ، وهو اليوم عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ؛

ولم يقف نشاط الحبيب عند تونس بل جاوزها إلى أوساط ثقافية مختلفة ، فدعى للتدريس فى جامعة محمد الخامس ، والقرويين بفاس ، وجامعة بنغازى ، وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالبيضاء . وحاضر بدار الفكر بالرباط ، وفى الجزائر بدعوة من وزارة الثقافة . وكان للمشرق فيه نصيب ، فحاضر فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وفى جامعة آل سعود بجدة . أما رحلاته وأسفاره فتعددة ، زار فى العالم الإسلامى القاهرة ، وبيروت ، وجدة ، والمدينة ، وكراتشى ، وفى أوربا باريس ، ولندن ، وبرلين ، وبون وفرنكفورت ، وليبتز ، وبلجراد ، وبودابست . وأسهم فيما يزيد على عشرة مؤتمرات ، بين أدبية وثقافية ، عقدت فى تونس أو فى غيرها من عواصم العالم الإسلامى . واشترك فى عدة هيئات ، فهو عضو بلجان الموسوعة الفقهية وإحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو قديم بالجمعية الخلدونية ، وعضو بالشبيبة المدرسية لجمعية قدماء الصادقية ، ورئيس للشبيبة الزيتونية ، وجمعية طلبة شمالى أفريقيا ،

* * *

وما أشبه الحبيب فى نشاطه العلمى بشيخه الفاضل ، إنتاجه غزير ومتنوع ، درس وحاضر وحقق وأخرج ، وكتب وألف ، كتب بالعربية وبالفرنسية معا ، قام بهذا كله ولما يبلغ الخمسين فى نشاط الشباب ورجاحة الشيوخ . ويدور إنتاجه حول أبواب ثلاثة : بحوث إسلامية ، ودراسات فى الأدب واللغة والتاريخ ، وتحقيق لبعض نفائس التراث القديم . فعرض الزميل الكريم للعمل والجهاد فى الإسلام ، وعالج موضوع الأخلاق الإسلامية وموقف الإسلام من التطور والتجديد وقد ظهرت سلسلة من هذا أخيرا تحت عنوان : مواقف إسلامية وعنده أن الإسلام دين جد وعمل لا خمول وكسل ، والعمل فيه مناط التكليف وأساس المسئولية ، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـون » والجهاد لفظة إسلامية واسعة الدلالة ، يقصد بها خاصة مجاهدة العدو الظاهر والعدو الباطن ، وترى مجاهدة العدو الظاهر أولا إلى نصحه ودعوته إلى الرشاد ورفع راية الأمن والسلام ، فإن أبى إلا العدوان والخصومة لم يكن بد من الذود عن الحياض والدفاع عن ذار

الإسلام : وليس عدونا الباطن شيئاً سوى أهوائنا وشهواتنا ، ومجاهدتنا لها هى الجهاد الحقيقى أو الجهاد الأكبر ، لنقف فى طريقها ونترفع عن الخطايا والدنايا .
ولم يكن الجهاد فى الإسلام قط مجرد عدوان للظفر والغلبة ، أو الاستعمار والسيادة ، ولا محل لأن يفسر فقط بالحرب والقتال ، بل هو معالجة طويلة ومتنوعة ربما كانت الحرب آخر وسائلها . ومن الخطأ أن يقال إن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف . ولاشك فى أن الدعوة الإسلامية السمحة تقوم على أساسين هامين : كفالة الحريات ، وإقرار السلام « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . ويحرص الزميل الكريم فى بحوثه هذه على أن يصدر عن الكتاب والسنة وأن يستخلص منهما الأهداف الحقيقية للإسلام . وهو يرى أن تعاليم الإسلام تواجه شئون الدين والدنيا ، وليس فيها ما يتعارض مع أصول الحضارة الصحيحة أو الرقى السليم . أما الدعايات الهدامة ، والأيديولوجيات الكاذبة فليست من الدين ولا من الحضارة فى شىء . وهل من سبيل لأن تقوم حضارة على الماديات وحدها إنها بذلك أشبه ما تكون بحياة الغابات والجاهلية الأولى والإباحية المطلقة ، وهذا ما تشقى به بعض المجتمعات الغربية اليوم ، وما أجدر مجتمعاتنا الإسلامية أن تتحرر من هذه الآفات . وللشيخ حديث طويل فى هذا ألقاه تحت عنوان : « الإسلام وأزمة مجتمعاتنا الحاضرة » بالجزائر فى ديسمبر الماضى بمناسبة الأسبوع الثقافى التونسى .

* * *

وقد عنى زميلنا بالدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية عناية كبيرة ، فعرض لبعض الكتاب والشعراء القدامى والمعاصرين ، أمثال الشاب الظريف ، وصفى الدين الحلى ، وشوقى ، والجارم ، وأحمد أمين . واتجه خاصة نحو الأدب ، التونسى ، يحيى ماضيه ، ويحلل حاضره ، تتبع مراحله ، من الفتح والمعهد الأغلبى إلى الدور العبيدى والصنهاجى ، ومنه إلى العهد الحفصى ثم التركى ، ويقف عند العصر الحديث عصر النهضة والتجديد . وله عشر محاضرات فى الشعر العربى المعاصر بتونس ألقيت فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، ولم يفته أن يعالج موضوع الأزجال والموشحات فى الأندلس وبلاد المغرب العربى .

واستوقفته الدراسات النحوية والبلاغية طويلا ، فدرس نشأة النحو العربى ، وبين المدارس النحوية المتعاقبة فى المشرق العربى ، وأشار إلى ما أدخل على النحو من اصلاحات وتجديدات وعلى نحو شبيه بهذا تصدى لنشأة علم البلاغة والمذاهب البلاغية ، وعالج قضايا النقد وما يتصل بها : وفرق بين المدارس البلاغية المختلفة ، وبين أثرها فى الفنون الأدبية .

وله بحث طريف ودقيق فى هجرة الأندلسيين إلى أفريقية فى القرن السابع الهجرى ، وهى هجرة أشرنا إليها من قبل ، وسبق للشاعر الطليطلى أن توقعها قبل ذلك بنحو قرن ونصف حين قال :

يا أهل أندلس شدوا رحالكـــم
فـما المقام بها إلا من الغلـــط
السلك ينثر من أطرافـه وأرى
سلك الجزيرة منثورا من الوسـط
من جاور الشر لا يأمن بوائقـه
كيف الحياة مع الحيات فى سفـط

وقد اتجه مهاجرو الأندلس نحو شمال أفريقيا ، فاستقر به منهم من استقر ، وأوغل فى الرحلة فريق آخر ، اتجه نحو مصر والشام والحجاز . وكان لتونس من هؤلاء المهاجرين نصيب كبير ، نزلوا أهلا ومكانا سهلا ، وأسهموا فى الحضارة والثقافة التونسية إسهاماً واضحاً ، ولا تزال فى تونس أسر معروفة بأصولها الأندلسية ، وأسرة آل عاشور واحدة منها . ويحرص الأستاذ الحبيب على أن يقف عند الأثر الثقافى لهذه الهجرة ، ويلاحظ بحق أن هؤلاء المهاجرين قد غذوا الحركة الفكرية فى تونس بغذاء خاص ، فكان منهم القراء والمحدثون ، والفقهاء والمؤرخون ، والأدباء والعلماء . ويسرد صاحبنا أسماء عدد وفير منهم ، نذكر من بينهم ابن الأبار الأديب الشاعر من بلنسيه ، وكان من أوائل الوافدين (٦٣٥ هـ) ، وابن البيطار (٦٤٥ هـ) النباتى الكبير ، وهو من مالقه ، أقام بتونس زمنا ، ثم رحل إلى مصر ، وكان رئيس العشابين بها وابن سيد الناس (٦٥٧ هـ) الفقيه والمحدث تلميذ ابن خروف وابن جبير ، وهو من اشبيليه ، وابن عصفور (٦٦٩ هـ) النحوى المشهور تلميذ الشلوبين ، وهو من أشبيليه أيضاً ، وحازما القرطاجنى (٦٨٤هـ) الشاعر والناقد واللغوى . ولزميلنا صلة وثيقة به سنعرض لها بعد قليل . وعن هؤلاء وزملائهم الآخرين أخذت الأسانيد الأندلسية ، وعرفت المذاهب النحوية ، وحفظ الشعر والأدب الأندلسى ، وكتب العلم والتاريخ . ونشأت باختصار مدرسة أندلسية تونسية ، كان فيها الفقهاء والمحدثون ، والنحاة واللغويون ، والنباتيون والرياضيون .

وللشيخ الحبيب ولع خاص باحياء التراث وتحقيق النصوص ، وأغلب الظن أن شيخه الأكبر الطاهر ابن عاشور وأستاذه الفاضل غرسا فى نفسه ذلك . فأولع به فى شبابه الباكر ، وكان من أحب الأشياء إليه أن يتردد على المكتبة العبدلية ، وأن يقتنى نفائس المخطوطات .

وقد حقق وأخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى ، وهو الذى قدمه لجامعة باريس ، ونال به شهادة الدكتوراه ، واتصلت عنايته بحازم ، فحقق ديوانه ، وهو تحت الطبع الآن . وحقق كذلك رحلة ابن رشيد (٧٢١ هـ) . وكتابين

آخرين له فى الحديث ، وهما : « السنن الأبين والمورد الأمعن فى السند المعنعن » ، « وإفادة النصيح » ، ونرجو أن يخرج هذا كله للقراء قريباً .

ولصاحبنا منهج مرسوم فى التحقيق وإقامة النص ، وهو منهج علمى دقيق يعتمد على التاريخ اعتمادا كبيرا ، فيستوعب المراجع كلها : قديمها وحديثها ، مفصلها ومجملها ، مخطوطها ومطبوعها ، عربيها وأجنبيها . ويوازن بينها فى نقد محكم ، ويستخلص منها أوثق المعلومات وأصح الأحكام ، ويثبت الآراء المختلفة مرجحا بعضها على بعض ، ومحاولا الفصل فى أدق المواقف وأعقدها . يتأهب لما يحاول تحقيقه ، فيجمع كل ما يهتدى إليه من أصوله . ولا يفوته أن يستعين ما أمكن بكل ما ورد منه على ألسنة باحثين آخرين . يعرف بالأشخاص والأماكن ، ويشرح الألفاظ الغامضة والعبارات المأثورة .ويختم تحقيقه بمعاجم للمصطلحات والألفاظ الغريبة وبفهارس للأعلام والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار . وكل ذلك فى ترتيب واضح ، وأسلوب سهل ولغة دقيقة . والحق أن زميلنا يعول على التاريخ التعويل كله ، وقد تطلب هذا منه اطلاعا واسعا ، وقراءة مستفيضة . وأضحى حجة فى تاريخ الثقافة التونسية بخاصة ، والاسلامية بعامة .

والنموذج القيم فى التحقيق الذى أخرجه خير شاهد على ذلك ، فقد شاء بتوجيه من أستاذه الفاضل ، أن يخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى ؛ عرفه مخطوطا منذ عهد مبكر ، واستعان به فى عام ١٩٥٦ على تدريس النقد ومناهجه لطلبة كلية اللغة العربية بالجامعة الزيتونية ، وأخذ يقلب صحائفه ، ويتدارسه ، واستقر رأيه على إعداد نشره وطوال عامين كاملين بباريس تفرغ له تفرغا تاما ، ثم أخرجه بتونس عام ١٩٦٦ فى ثوب أنيق ؛

وقد مهد له بمدخل طويل يقع فى نحو ٩٠ صفحة ، ترجم فيها للمؤلف ، متتبعا كل المصادر التى عرضت له من أقوال حازم نفسه ، أو ما كتبه عنه معاصروه ، أو ما سجله له رجال التاريخ والطبقات وبخاصة السيوطى والمقرى . واستخلص من ذلك كله ترجمة كاملة تكشف عن مراحل حياة الرجل وتوضح البيئة السياسية والفكرية التى عاش فيها ، وتعرض لمصنفاته المخطوط منها والمطبوع ، « والمقصورة » على رأسها ، وتبين أثرها فى المشرق والمغرب . ثم اتجه الحبيب إلى تحليل الكتاب نفسه ، فحقق عنوانه ، ولخص موضوعه ، وشرح منهجه ، وأشار إلى العوامل التى أثرت فيه . ولاحظ بحق أنه مؤلف محكم الترتيب ، وضع فى صورة أقسام ، ومناهج ، ومعالم ، ومعارف وإضاءات ، وتنويرات ، وخرج بذلك عن أسلوب التأليف المعهود . وبرغم ترتيبه الدقيق لم يخل من غموض وتعقيد ، لاستعمال ألفاظ غريبة ، واستحداث مصطلحات

جديدة ، وإسراف فى المصطلح الفلسفى وهو مع هذا يؤذن باطلاع واسع ، وإحاطة تامة بالأدب العربى ، يستشهد حازم بالشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، كما يستشهد بشعر المشارقة والمغاربة المتأخرين . ويشير إلى بعض النقاد والبلاغيين السابقين ، أمثال قدامة بن جعفر (٢٩٤ هـ) وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) ، وابن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ) ، وابن الأثير (٦٠٦ هـ) ، والآمدى (٦٣٠ هـ) ، والخفاجى (١٠٦٩ هـ) ، ولكن من الخطأ أن يظن أنه قنع بمجرد الأخذ عنهم بل له محاولات لا تخلو من ابتكار وأصالة . وكتابه « المنهاج » لون خاص من ألوان الدراسة الأدبية .

والواقع أن هذا الكتاب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع دار حوله شئ من الأخذ والرد ، ونعنى به موضوع الصلة بين الدراسات الأدبية العربية وبعض الآراء والنظريات الأدبية الهلينية ، وقد أنكر هذه الصلة فريق ، وأيدها آخرون ، وسبق لابن الأثير أن ذهب إلى أن كلام أرسطو ومن بعده ابن سينا فى الخطابة والشعر لغو ، ولا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا ، ولكنا نعتقد أنه لم يبق اليوم شك فى أن البلاغة العربية تأثرت بالفلسفة والمنطق على الأخص ، وقديما فرق بين الطريقة الكلامية والطريقة الأدبية ، وما الأولى إلا درس للبلاغة فى ضوء الكلام والفلسفة . ويشهد تاريخ البلاغة بأن الكثيرين ممن كتبوا فيها فلاسفة أو متفلسفون ، كقدامة ابن جعفر ، والجرجانى (٤٧٢ هـ) وحازم القرطاجنى واضح وصريح كل الصراحة فى هذه الناحية ، فقد أخذ بآراء أرسطو وتلاميذه من المشـائين العرب ، وعول على كتاب « الشعر » لابن سينا ، وأحال عليه عدة مرات ، وهو مستمد من كتاب « الشعر » الأرسطى . ولاغرابة فحازم تلميذ تلميذ ابن رشيد وان لم ينقل عنه وآثر النقل عن الفارابى وابن سينا ، ونزعته الفلسفية والمنطقية واضحة .

* * *

سادتى :

لقد عنينا بتاريخ الثقافة العربية فى عصورها الأولى ، وعالجنا شيئا من تاريخها المعاصر والحديث ، وأغفلنا مرحلة طويلة بين هذين الطرفين . أغفلنا أو كدنا ـ مابين القرنين السادس والثانى عشر الهجرى ، وهى حقبة على ما بها جديرة بالبحث والدرس .

وفى جهود زميلنا الكريم الأستاذ الحبيب ابن الخوجة ما يلقى أضواء عليها ، وما يكشف عن الصلات الوثيقة بين ثقافة المغرب الإسلامى ، وثقافة المشرق . وقد رأيتم كيف طوف بأرجاء الثقافة العربية وأحاط بجوانبها المختلفة ، وفى زمالته الكريمة خير عون لمجمع الخالدين على أداء رسالته .

والسلام عليكم ورحمة الله ، ، ،

• كلمة الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

حضرة الرئيس الموقر

حضرات الأساتذة أعضاء المجمع المحترمين

سيداتى الفضليات ، سادتى الكرام

جرت عادة هذا المجمع الجليل – كغيره من المجامع العلمية واللغوية فى مختلف البلاد – باقتبال الأعضاء الجدد فى جلسة علنية عامة ، يقدم فيها أحد الأعضاء العاملين العضو المنتسب ، ثم يتلوه هذا بالحديث عن صاحب المقعد الذى يخلفه فيه تقريرا لاستمرارية العمل بالمجمع وتخليدا للراحل الذى زان من قبل تلك المؤسسة العلمية الموقرة بمواقفه وخدماته وعمله وآثاره .

وإنى حين يقحم بى إقحاما فى هذا المقام الجليل : لأتعثر فى مشيتى حياء ، ويعقد لسانى شعورى بحقيقة أمرى ، وأفقد العبارة الموفية بما يطلب منى وتدعونى ضرورة هذا الموقف إليه .

وأجدنى بادئ بدء مصروفا إلى رد التحية ، وشكر الأستاذ الجليل أمين المجمع على ما حبانى به من عطف وشملنى به من رعاية يحاول بهما أن يرفع من منزلتى لديكم ويقربنى منكم بما تستطيعون به الاطمئنان إلى القادم عليكم الذى يعتقد فى قرارة نفسه أنه لايريد إلا الاستفادة منكم ، والانتفاع بتجاربكم ، والمسايرة لمناهجكم ، لكونه قاصرا عن المشاركة لكم مشاركة مركزة فيما بلوتم من أسرار البيان ، وحقائق وتصاريف لغة القرآن . وانى لا أقدر على أن أوفيه حقه فقد شرفنى بما عرض له وذكرنى به عرضا وذكرا يصوران كمال خلقه وجميل أدبه وما أعرب عنه وترجم عليه من حسن ظن بى أرجو محاولة تحقيقه بما يكسبنى محبتكم ، ويدنينى منكم .

وهل أشك فى تفضلكم بذلك ، أوأتردد فيما أطمع وأتطلع إليه من صداقتكم وحدبكم وقد بذلتم الشواهد عليه أولا وآخرا . فكنتم المقترحين لعضويتى المبادرين بإكرامى فى غيبتى حين شئتم أن أكون لمجمعكم عضوا مراسلا ، ومن بعد عام رشحتمونى لأكون عضوا عاملا .

وليس لى ما أطمح به إلى هذه المنازل الشريفة العالية إلا ما طبعت عليه من إخلاص للعربية ، وتفان فى خدمتها ، وذود عنها ،

أنا فى جميع ذلك مدين به للراحل العزيز أستاذى وشيخى مقام والدى ، العلامة محمد الفاضل ابن عاشور ، تغمده الله برضوانه : وأسكنه فسيح جناته .

وإنى لأزجى لكم من الشكر على ثقتكم الغالية التى أعتز بها اعتزازى بلغتى وأدب قومى ، ما يكافئ جهودكم الجبارة فى الحفاظ على العربية ، والدعم لها ، والحرص على إنمائها وإثرائها ، والمساعدة على تطورها والنهوض بها ، تطورا ونهوضا تستعيد به ما سلف من مجدها ، وتكون معه لغة إنسانية عالمية ، لاتضيق بشئ مما تمتد إليه أيدى الناس ، أويعن لهم من آراء وأفكار ونظريات وقوانين ومصطلحات وأغراض وعلوم وفنون .

وإن فى الأعمال التى يشتغل بها مؤتمركم فى كل عام مما يتصل بأصول اللغة والمعجمات والمصطلحات والبحوث والدراسات ، وفى ما يصدر عن المجمع من منشورات ومعاجم وكتب ، وفى ما تقوم به اللجان العلمية من تحقيق ودرس على مر الأيام وطوال السنين ، وفى ما تتجهون إليه وتنمونه وتؤكدونه من صـلات المجمع بالهيئات والمنظمات العلمية ، ما هو كفيل بما نؤمله للغة العربية من ازدهار ، وللسان الوحى الإسلامى من غلبة وظهور .

وإنى لأحس بالفراغ الكبير الذى تركه الراحل الخالد فضيلة الأستاذ المقدس المبرور محمد الفاضل ابن عاشور بينكم ، وأشعر بما تشعرون به لذكراه من أسى على فراقه . وأعلم أن أى واحد من بعده من أهل بلده - لايمكنه أن يشغل ذلك الفراغ الذى تركه ، أو يقوم بالدور الذى كان يقوم به معكم بهذا المجمع .

فلقد كان — رحمه الله — فردا فيما تجمع فيه من خصال وكمالات ومعارف وآداب ولطائف وأذواق . وكان وحده الذى يستطيع أن يمثل بصدق هذا المجمع - مجمع اللغة العربية - ببلده ، كما كان يمثل أحسن تمثيل بلده المسلم العربى التونسى به . ولا غرو فى ذلك فقد كان طود علم ، وقمة فكر ، أجمع الناس من حوله فى الأجيـال التى تخرجت عليـه وعاشت معـه على كونه المثل والرائد والأسوة . وقبلوا فى تقدير وإجلال رئاسته الفكرية والعلمية فى كل ميدان حل به أو مجلس ظهر فيه .

تعود معرفتى به إلى أيام الدراسة الثانوية زمن كنت تلميذا فى الصفوف الأولى بالمدرسة الصادقية . وكان كل ما نتصل بهم من الأساتذة هناك يطبقون على تعظيمه وإكباره ، وينعتونه بالعلامة البحر . حتى إذا تحولت إلى الجامع — جامع الزيتونة الأعظم كعبة العلوم الإسلاميـة والعربية بإفريقيـة ، رأيت فيه علما لا نظير له فى الشيوخ والمدرسين ، يتميز عن جميعهم بكمال الذات والأدوات ، وبعد الغور ، واتساع النظر ،

وشمول المعرفة . وقد اقتضى ذلك فيما أحسب حسن تخرجه على شيخنا الأستاذ الإمام والده أطال الله عمره المبارك ، وأخذه بالمنهجين المتكاملين والوجهتين المتلاقيتين فيه ، الأصالة والتفتح .

يشهد لأصالته مارواه وسمعه وقرأه ودرّسه ودرسه من أمهات الكتب الجليلة والمصنفات العظيمة المعتمدة فى العلوم اللسانية والشرعية جميعا . فقد حضرنا دروسه للمطول ، والبيضاوى بحاشية الشهاب ، والعقائد النسفية ، وجمع الجوامع للجلال المحلى . وهو إلى عظيم غوصه ، وبديع تقريراته ، وكمال تدبره لتلك المؤلفات وما كتب عليها ، جليل المحاضرة ، جميل المذاكرة ، عجيب التدقيق والتحرير للقضايا ومسالكها ، والمسائل ومتفرعاتها . لا يكاد يسأل فى شئ إلا أجاب عنه ، مع شرح ومقابلة وتفصيل وتعليل . وهو إلى هذا الجانب العظيم فيه الذى ينفرد به يضم إلى كمال الدراية حسن الرواية فى هذا العصر ببلدنا ، لا يعرف ذلك منه إلا النزر اليسير من طلابه والمنتسبين إليه .

وقد خصنى — رحمه الله وبرد ثراه — بعد دراسة طويلة عليه ، وانقطاع كامل إليه بالإجازة العامة فى كل ما قرأته عليه وسمعته منه ، وما يتحمله من شيوخه من الطرق . وأتحفنى بعد ذلك من بين تلك الأسانيد بأعلاها وأكملها قائلا فى التمهيد له : « وهذا السند العزيز الغالى هو ما لا نعلم أحدا فى الدنيا يحدث به الآن غير والدنا — أدام الله عزه — وهو ، زيادة على خصوصية جمعه بين الصحيحين ، يكون أعلى إسناد مجمع على استيفاء شروطه يحدث به فى الصحيحين ، إذ يكون فيه بين الابن المجاز وبين الإمامين البخارى ومسلم ثلاثة عشر راويا ، ويكون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة عشر راويا فى ثلاثيات البخارى » . وكتب لى ذلك شاهدا به على نفسه « كتب الله له فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، فى يوم الأربعاء خامس شهر رمضان المعظم من سنة ست وستين وثلاثمائة وألف » . . . .

ثم قرأت بين يديه موطأ الإمام مالك ، وهو يمسك بيده الشريفة نسخته ، وكتب لى فى آخر نسختى ، عند تمام التلاوة ، ما نصه :

(الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم . قرأ على ابنى العزيز محمد الحبيب ابن الخوجه جميع الأحاديث التى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله وإقراراته من مسند أو مرسل أو بلاغ مما تضمنته برواية يحيى عن مالك فى الموطأ . وكانت قراءته بهذه النسخة ، غير معتمد على طبعتها لما فيها من تحريف ، قراءة تحقيق وإتقان قدر الطاقة فى أربعة أيام ، وذلك بالمسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة . وكان الختم بعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة

سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف بالروضة الشريفة بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره الكريم ، محمد الفاضل ابن عاشور) .

ومن لطيف الأسانيد التى تحملتها منه وأقرأ بها الجامع الصحيح لأمير المؤمنين فى السنة أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى المسلسل بالمحمدين :

محمد الحبيب ابن الخوجة ، عن شيخى وأستاذى سيدى محمد الفاضل ابن عاشور ، عن والده سيدى محمد الطاهر ، عن جده الشيخ محمد العزيز بوعتور ، عن شيخ الإسلام محمد ابن الخوجة ، عن الشيخ محمد بن التهامى الرباطى ، عن محمد بن عبد السلام النصاصرى ، عن محمد بن الحسن التطاونى ، عن محمد بن عبد العزيز الحنفى ، عن محمد بن علاء الدين البابلى ، عن الشيخ محمد حجازى ، عن الشيخ محمد الغيطى ، عن محمد بن محمد الزنجى ، عن محمد الخضيرى ، عن محمد المراعى ، عن فخر الأئمة محمد القرقشندى ، عن محمد بن فليج ، عن محمد بن مسلم الحنبلى ، عن محمد ابن أحمد بن عبد الرحيم المقدسى ، عن محمد ابن عبد الواحد ، عن محمد بن أبى القاسم القطان ، عن محمد ابن محمد الحفيد ، عن محمد بن طاهر المقدسى ، عن محمد بن عبد الواحد البزار ، عن محمد بن أحمد ابن حمدان ، عن محمد مكى ، عن محمد ابن يوسف الفربرى ، عن الإمام محمد محمد بن اسماعيل البخارى .

وليست هذه الأسانيد مقصـــورة على رواية الحديث النبوى الشريف أو العلوم الشرعية بل له منها ، كما تدل على ذلك الإجازة العامة ، ما يضبط روايته الكتب الأدبية ، ومن ذلك سنده الذى نروى به ديوان الحماسة عن طريق أبى العلاء المعرى الذى كان أعلم أهل عصره به - عن أبى عبد الله النمـــرى ، عن أبى رياش ، عن عبد السلام البصرى ، عن أبى المطوف الأنطاكى ، عن أبى تمام .

وتنطق بتفتحه محاضراته التاريخية والأدبية ودروسه فى الفرق وفى المناهج الأدبية وما كان يتعرض له أثناء ذلك من آراء وأفكار للمستشرقين وغيرهم بالنقد والمناقشة والتصحيح بعد مطالعات واسعة وشاملة لكتبهم ، وتحليل دقيق لمواقفهم ، سواء منها ما يتصل باللغة أو الأدب أو القرآن أو التاريخ أو الحضارة العربية الإسلامية . وقد كان العامة والخاصة ينثالون مع الطلاب على حلقته أو فصله أو قاعة المحاضرة التى يكون بها ، يغترفون من معينه الذى لا ينضب ويتلقون عنه ما لا يستطيعون الحصول عليه بمفردهم فكان يفرغ فى أسماعهم نتائج مطالعاته المختلفة المتنوعة مرتبة منسقة مصفاة لاتشوبها شائبة غموض أو إبهام ولايكدرها توقف أو حيرة .

فعلى أساس تلك الأصالة المثالية التي تشد راحلنا الكريم بمصادر اللغة العربية ومنابع التشريع الإسلامى ومناهج الفكر والنظر فى الثقافة والحضارة الإسلامية التى تجعله لا يصدر فى شأن من شئونه إلا عن ملاحظة لها وتقدير لجانبها ومراعاة وحفاظ على قوانينها وأذواقها ، وعلى أساس هذا التفتح النير الذى كان به الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الرجل الأصيل مواكبا لعلوم وثقافات وحضارة عصره ، عائشا زمنه ، منتبها لكل ما يجرى به من تغير وتطورات ، متفاعلا معه تفاعلا ينأى به عتق القعود والرجعية ويدفع به إلى الإصلاح .

قامت شخصية الراحل العزيز وتركزت جهوده وأعماله ، فكان الشيخ الجليل وأستاذ الأساتيذ ، إليه المرجع فى كل عويص ، وعنده المصدر لكل بحث قد زاد فى تعلق الناس به ، وإقبالهم عليه ، وحرصهم على زيارته والاتصال به ، بره واحتفاؤه بكل من يلقاه منهم ، وإعانته ومجاملته لكل من يقصد إليه فى حاجة أو مهم . ولم تعرفه فقط حلقات الدرس والمجالس العلمية والأدبية بل تجاوز نشاطه ذلك الحد ليكون شأنه فى مجتمعه شأن العالم المسلم والرجل المصلح الذى ينهض بأعباء قومه ويعنيه من أمرهم ما يعنيهم. فوقف إلى جانب العمال الذين استولى على شئونهم المستعمرون ، وألهوهم بالتنظيمات النقابية التى سخروها لخدمة مصالحهم . فدعاهم بداعى الإسلام والإيمان للتكتل والتجمع ، والخروج من ذلك السلطان القاسر القاهر إلى سلطان وحدة وطنية ترعاهم بعنايتها وتشملهم برحمتها ورعايتها وهكذا بخطبه الحماسية الإيمانية ودعوته الإسلامية الدينية بعث منظمة للشغالين - أسندت إليه رئاسته الشرفية - قابل بها منظمة العمال الفرنسية .

وتنقل - وأنا فى معيته - من أجل التأليف بين عناصر العمال ، والإحكام لروابط الحركة القومية النقابية من أقصى البلاد إلى أقصاها يخطب فى المساجد والنوادى يدعو إلى الإئتلاف وراء الحركة الشغيلة التونسية. فكان صوته يرن فى كل مكان وكلماته تردد على جميع الآذان تحرض على الاتحاد وتحث عليه . ومن كلمة فى مثل هذه المواطن قوله بمدينة صفاقس فى اجتماع نقابى :

« وهكذا قامت نقابة المدرسين ومعلمى المدارس القرآنية لتطبيق المبادىء الإسلامية فى تأييد العامل ونصرة الشغل . فالشريعة الإسلامية قد أزالت كل معنى من معانى التفريق ، والفوارق الظاهرة حكمت بتميز الطبقات ، على أن فى كل عصر كانت فيه مبادىء الإسلام مطبقة ، كانت فيه الفوارق معدومة ، فالحروب أو الفتن التى تقوم بين الطبقات الاجتماعية انما هى ناشئة على غير مبادىء الإسلام . فمن واجب المسلم أن يشعر بما يربط بينه وبين أخيه من مواثيق الأخوة التى هى أمتن من النسب . فالمدار على الاتحاد القلبى لا على ما يرتديه الشخص من البرنس الأبيض والرداء الأزرق » .

وقد كانت روحه الوطنية العارمة التى يذكيها إيمانه بالعروبة ويصهرها تمسكه بالإسلام هى التى حملته مع بعض إخوانه زعماء الحركة الوطنية على إقامة مؤتمر ليلة القدر الذى زج بأثره مع ثلة منهم إلى السجن . وبهذه الروح أيضا شارك فى العمل التحريرى الحزبى ، وخطب على منبر معهد البحوث الإسلامية داعيا ، بعد التحليل والدرس لأوضاع العالم العربى والإسلامى ، إلى وجوب التفكير فى تمتين الروابط بين مختلف أقطار الجامعة الإسلامية ؛ وبتلك الروح أيضا احتفل وأقام مهرجانات عيد العروبة .

فكانت العناصر الثلاثة المقومة لشخصيته ، وهى الوطنية والعروبة والإسلام ؛ بادية فى كل عمل يأتيه أو أثر يصدر عنه ، لايشعر بواحد منها على حساب الآخرين ، ولايخضع للمفاهيم الضيقة التى تعنيها أو توجه إليها الحركات الانفصالية التى لاتهدف إلى مايهدف إليه فى اتجاهه القومى التونسى المغربى العربى الإسلامى . وهو كذلك دائما ما قامت الحقيقة الإسلامية فى النسب الإقليمية والعربية فإذا ضعفت تلك الحقيقة لم يحتفل بالنسب لأنها فقدت جوهرها وعدمت القوة المحركة فيها ، والدافعة لها .

بهذه الروح وتلك المبادىء طبع دراساته الإسلامية والأدبية كالحركة الفكرية والأدبية فى تونس فى فجر هذا القرن ، وأعلام الفكر الإسلامى فى تاريخ المغرب العربى . وأركان النهضة الأدبية بتونس ، ثم عنون لها بتحليلاته الفلسفية ومواقفه الإصلاحية .

فالإسلام فى اعتقاده فكر ونظر ، يملك طاقات عجيبة ؛ ويصنع بذاته لمعتنقيه أصول النهضة كما يرسم لهم مناهج الحضارة ومسالك الرقى والازدهار . أكد ذلك عند حديثه عن نسبة التفاعل بين الكندى وبغداد حين قال :

« فالإسلام يدعو البشر إلى سبيل من النظر العقلى : يسلكونه متجردين عن آثار الوراثات والعصبيات ، متخلصين من تضارب القوى الذهنية ، بين عقلية وإحساسية وإعتقادية ، حتى يصلوا بأنفسهم إلى إقامة الحكمة الحق : المتجانسة مع العقل الصحيح والفطرة السليمة الجامعة لما تشتت بين مذاهب الحكماء من صواب المنزهة عما علق بها من خطأ ، حيث تكون العقيدة بنت عقل إرادى جعل الوجود كله ميدانا لحركته » .

وهكذا تتجه الفلسفة الإسلامية اتجاهها الخاص بها ، فتختلف فى مادتها بعض الاختلاف عن مادة فلسفة السابقين ، وتتبع منهجا مفردا يميزها عن غيرها ، ويكون لها به الغنى عنها والظهور عليها . ولتوضيح ذلك وتقريره يمضى شيخنا قائلا :

« وما كانت الفلسفة الإسلامية بحاجة إلى هذه المادة من فلسفة الأوائل لتنبع منها وتتكون بها ، لأنها فلسفة تخرج من صميم العقيدة الإسلامية ، ولكنها كانت بحاجة إلى

الحكمة القديمة لتجمع أطرافها . وتسيطر عليها بالبحث الفاحص والحكم الممحص ثم لتخرج منها فلسفة جامعة مهذبة قوامها روح النظرة الإسلامية ، ومادتها كل ما أنتجته الأوائل من آراء وما سلكت من مذاهب ، ومنهجها التقريب بين كل ماظنه الأوائل متباعدا ، والتأليف بين ما حسبته متنافرا ، وخاصة فى ما بين العقل والعقيدة والطبيعة ومابعد الطبيعة » .

وعلى هذا النحو من تحليل الفلسفة الإسلامية أو النظر والفكر الإسلامى ببيان خصائصه وإبراز ظواهره ومميزاته يتجه العلامة المرحوم شيخنا الفاضل إلى التفريق أولا بين العلم والمعرفة والثقافة ليتخلص من ذلك إلى الحديث عن مقومات الثقافة الإسلامية وما تتميز به ذاتيا عن غيرها من الثقافات . وهنا يظهر العمق الذى يعالج به هذا الموضوع الدقيق . وهو قبل أن يحلل ركائز الثقافة الإسلامية الأربع يمهد لذلك بقوله :

« وإن الثقافة الإسلامية ذاتيه للإسلام ، ناشئة عن خصوصيات تعاليمه ، وخصوصيات المناهج التربوية التى كونت بها الدعوة الإسلامية أمة الإسلام ، فرديا واجتماعيا ، فى الاعتقاد والفكر والسلوك . وبذلك كان للثقافة الإسلامية منهجها الذى اختلف عن جميع المناهج الثقافية ، وسارت به المعرفة والحضارة فى تاريخ الإسلام سيرة ذات مميزات هى التى برز بها التفكير الإسلامى على النحو الذى برز عليه فى التاريخ الوسيط وهذا المنهج الثقافى الإسلامى يتقوم من خصوصيات تتحقق من تلاقيها وتفاعلها ماهية الثقافة الإسلامية . وتعتمد تلك ، الخصوصيات على أربعة أركان : الروح والمادة والوضع والحركة » .

فإذا فقد ركن من تلك الأركان ، فأعوزت المادة الروح ، أو خانت الحركة الوضع ، حصل مامنه نستغرب اليوم ، وما هو مشاهد من فروق بين العالمين الأوربى والإسلامى .

« فان حركة تداول التراث العلمى بينهما ثلاثة قرون لم تكن نتائجها بين العالمين متساوية ولامتقاربة بل كانت فما يظهر للعيان متعاكسة فإذا كان اقتباس الغرب عن الإسلام قد أفاد تقدما واستقلالا وتفوقا ، فإن اقتباس الإسلام عن الغرب لم يفده عزة ولا استغناء ولا ارتقاء بل أصابه بخنوع متواصل وتبعية متظاهرة وما زاده إلا خبالا » .

ولن يعود شأن المسلمين إلى المستوى الثقافى السليم الاصيل الا متى شعروا بأن العلم الرياضى والطبيعى سند للعلم الدينى ودعامة من دعائمه وأن العلم الدينى روح توجه بها المدارك العلمية الرياضية والطبيعية .

« فهنالك يعود العالم الإسلامى إلى الأصالة الفكرية ، وينزع عن التقاليد ، وتبدو عبقريته بالإسلام كما بدت به أولا ، إذ يستمد من ذاتيته الإسلامية روحاً ثقافية

متجانسة مع روحه الإعتقادية ، تجعل التعليم الإسلامى باللغة القرآنية أصلا للتعليم فى مراحله كافة ، ينمو مع نمو الفرد طبعا وفكرا ويمتد إلى طلب المعارف واللغات طلبا حثيثا بدافع من الذات ، ولغاية زكية سامية من الدين ، فيدرك أن منهجه الإسلامى هو منهجه الأصلى لا التقليدى ، وأنه لن يبلغ مبلغ الأمم التى يتطلع إلى اللحاق بها ، إلا إذا طلب العلم على منهجه الذاتى ، وبدافع من نفسه كما طلبت هى العلم على منهج ذاتى لها وبدافع من أنفسها . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فالروح الإسلامى ، والتربية الدينية ، والوازع الدينى ، والتمسك باللغة مع مراعاة متطلبات العصر ومقتضياته والاستجابة لمستلزمات رقيه وتطوراته هى الأصول النظرية والطرائق العلمية ، التى جاهد فقيدنا العزيز فى تركيزها ، وعمل مخلصا من أجل الدعوة إليها والحث على التمسك بها . أعلن عن ذلك فى غير ما مناسبة وصرح به فى مقامات مختلفة ، تنطق بذلك بحوثه ودراساته عن منهج الثقافة الإسلامية ، وعن روح الحضارة العربية ، وعن التشريع الإسلامى وغيرها ، كما تردد صدى ذلك ندواته ومحاضراته وخطبه بوطنه وخارج وطنه .

فلله مابذل الراحل الخالد فقيدنا العزيز أبو عياض محمد الفاضل ابن عاشور ذلك الداعى ، المجاهد فى سبيل اللغة والإسلام ، المكافح المناضل فى سبيل إرساء قواعد الثقافة العربية وبعث وتجديد الحضارة الإسلامية جزاه الله عن العربية والإسلام خيراً ، وأفاض عليه من شآبيب الرحمة ، وواسع المغفرة ما يرفع مقامه فى عليين ، ويحشره به مع عباده المخلصين من الشهداء والصالحين ، « وحسن أولئك رفيقا » .

وإنى وأنا أخلفه فى مقامى هذا ، وقد بوأتمونى – شكر الله لكم – مقعده بينكم لأوجه من هذا المكان إلى روحه الزكية الطاهرة ، وهو فى دار الخلد ، هذه التحية الخالصة من ابن بار به ، يعرف حقه عليه ، ويحاول قدر الطاقة الجرى على سننه والايتساء به فى ماكان له عنوانا من الفضائل الخلقية والكمالات العلمية . وأرجو الله أن يكتب لى من التوفيق ما أكون به عند حسن ظنكم جميعا ، وأن يمدنى بعونه وأيده كيما أسهم معكم – لا زلتم للغة الضاد حماة ، ولأمجادها دعاة ، ولروائعها بناة – فى الخدمات الجليلة التى تقومون بها والأعمال العملية التى تعكفون عليها والجهود الجبارة التى ما فتئتم تبذلونها قصد حماية العربية وصونها ورعايتها وتعزيزها . أقدرنى الله على أن أكون حريا بالانتساب إليكم والعمل معكم وسدد خطانا جميعا للاطلاع بأعباء المسؤوليات الثقيلة التى تنوء بها كواهلنا من أجل أن نعيد للغة القرآن شبابها وماسلف من زاهر عهودها وأن نحقق لها الانطلاقة الكبرى بفضل ما توفر لها من شمول واتساع مادة وحيوية تجعلها دوما ثابتة ولتطورات الزمان ومقتضيات الحضارة الجديدة مواكبه.

فى الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ١٣ من شوال سنة ١٣٩١ هـ الموافق اول ديسمبر سنة ١٩٧١ م اقام المجمع فى دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع حفل تابين للمغفور له الدكتور عبد الرزاق السنهورى عضو المجمع ، وفيما يلى الكلمات التى القيت فى الحفـل :

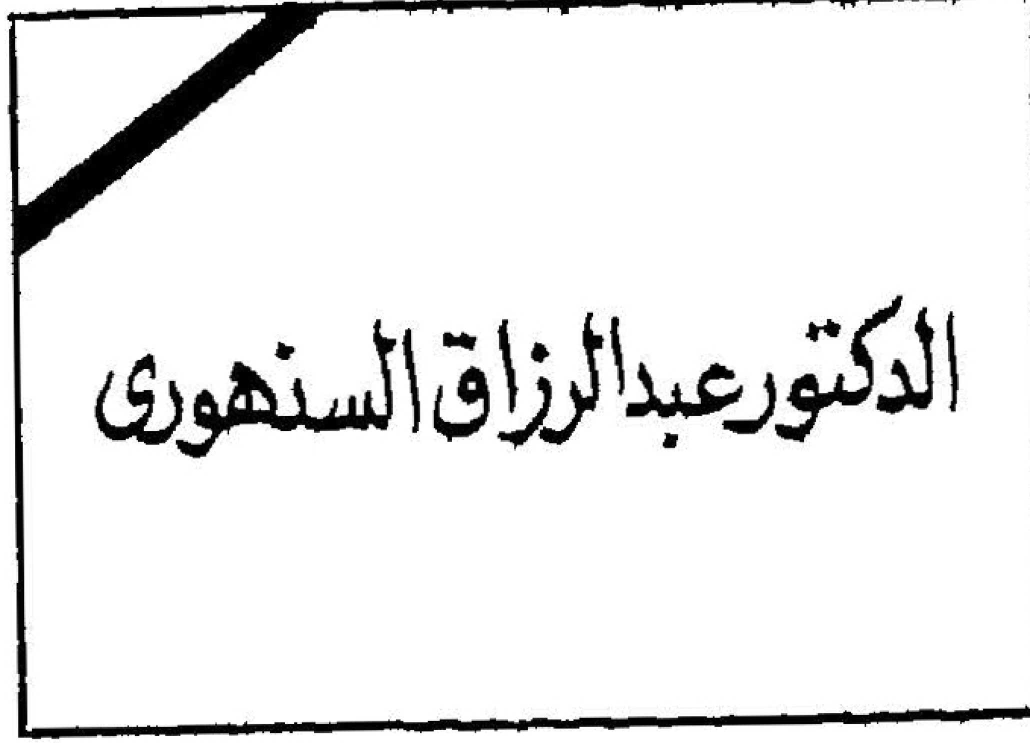

كلمة الأستاذ زكى المهندس
فى تأبين المرحوم

سيداتى ، وسادتى :

لقد كان السيد الدكتور طه حسين رئيس المجمع ، حريصا على أن يشارك فى تأبين الفقيد الكريم ، ولكن نظرا لحالته الصحية فقد اضطر إلى الاعتكاف والاعتذار ، وإنى باسمه وباسم المجمع أحييكم وأشكر لحضراتكم كريم مواساتكم لنا فى تأبين الفقيد . وإنه ليعز علينا أن نرى الموت يختطف زملاءنا واحدا وراء الآخر وفى فترات متقاربة ، فما تكاد دموعنا تجف على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر ، ففى عام واحد ودع المجمع ثلاثة من أعضائه العاملين الذين كان يعتز بهم ، ويعتمد فى تحقيق رسالته على علمهم ونشاطهم.

لقـد ودع المجمع فى صدر هذا العام الزميل الكريم والعالم الجليل المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف ، الذى اغتالته المنية فجأة ثم ودعنا بعده الزميل الكريم المرحوم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى الذى دهمته سيارة وهو فى طريقه إلى المجمع ليشارك فى حفل تأبين المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف .

وها نحن أولاء نجتمع الليلة لتكريم ذكرى راحل كريم ثالث وهو المغفور له الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى . لقد وافته المنية فى شهر يونيه الماضى حين كان المجمع فى عطلته السنوية . وكان قد اعتكف عنا عامين كاملين ، أخذ يصارع فيهما المرض، ولكنه انتهى إلى حيث أراد الله لكل حى أن ينتهى .

لقد كانت خسارتنا فيه فادحة وفجيعتنا فيه أليمة، وقد ترك بيننا فراغا ليس من السهل أن يشغله سواه ، على أننا إذ نبكى السنهورى الليلة ، فإننا لانبكى فيه عضوا مجمعيا ممتازا

فحسب ، ولكننا نبكى فيه عالما من أعلام القانون ، ورائدا من رواد الفكر والثقافة .

نبكى فيه عالما تجاوزت كفايته القانونية حدود بلده وشع ضوؤها على كثير من البلاد العربية . ولعل أصدق ما وصف به السنهورى أنه « دينامو » عمل ونشاط ؛ فقد اجتمع له من صفات الصبر والجلد والقدرة على مواصلة العمل ، مالم يتهيأ للقليل جدا من الناس .

وأذكر أننى اجتمعت به ذات مساء فى لجنة من لجان وزارة المعارف وهو يومئذ وزيرها ، وفى أثناء الاجتماع انطفأ النور وطالت مدته وشاء الرفاق أن يؤجلوا عمل اللجنة إلى موعد آخر ، ولكنه أبى وأصر على أن تتم اللجنة عملها وأمر بإحضار بعض الشموع ، وظلت اللجنة تعمل فى ضوء الشموع حتى عاد التيار .

هذا — أيها السادة : — هو فقيدنا الذى نجتمع الليلة لتكريم ذكراه ، رحمه الله وطيب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومثواه .

كلمة الدكتور محمد مصطفى القللى

سيداتى ، سادتى

فقدنا الأستاذ الإمام : فقدنا رجل القانون النابغة الفذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، وقلما يجود الزمان بمثله . ذلك قضاء الله ولا راد لقضائه ، ولا حيلة إلا الصبر والامتثال لمشيئته . . . إنا لله وإنا إليه راجعون

إن الخطب جلل والخسارة فادحة ، لا لمجمع اللغة العربية وحده ولا لمصر وحدها بل وللشرق كله ، ولعالم القانون بصفة عامة .

كان — عليه رحمة الله — نسيج بر د وحده. فإذا بكيته فإنما أبكى فيه أمة مجتمعة فى شخصه نبكى فيه العالم المتبحر والباحث المدقق والأستاذ المتمكن والمؤلف الفياض والمشرع الحصيف الثاقب النظر ، والقاضى النزيه الحرئ العادل ، الذى لا يرى إلا الحق سلطة تعلو على سائر الرءوس ، والذى ينتصر للمظلوم ولو كان من خصومه والحاقدين عليه ، ويقتص من الظالم وإن كان من أقرب الأقربين إليه ، أو كان له النصيب الأوفى من الهيمنة والسلطة الغاشمة . نبكى فيه الوطنى الغيور المخلص فى وطنيته ، والاشتراكى الصادق النظر المدرك لأوجاع أمته ، نبكى فيه الرسول المؤمن برسالته ، والعربى الوفى

لعروبته ، العامل على استعادة مجدها والتقريب بين أبنائها وتوثيق الألفة بين قلوبهم :

نبكى فيه كل هاتيك الفضائل والمناقب : تعددت ميادين جهاده وتنوعت المهام التى اضطلع بعبئها ، وامتد نشاطه إلى سائر البلاد العربية أستاذا ومؤلفا ومشرعا . وتوالت أبحاثه ومؤلفاته فيضا غزيرا فى القانون وخاصة فى القانون المدنى ، فخلف لنا ثروة علمية طائلة لايدانيه فيها أحد ، وتراثا خالدا من محكم البيان وصائب التفكير ، ونموذجا رائعا لحسن الأداء وسلاسة التعبير . كنز ثمين لا تبلى جدته ، وذخر دائم لا غنى عنه لرجال القانون على اختلاف مشاربهم فى سائر البلاد العربية .

لقد مكنه من كل هذا الإنتاج الضخم وهيأ له تلك المنزلة السامية سواء فى مصر أو فى الوطن العربى بصفة عامة ما حباه الله به من مواهب عقلية وخلقية فذة وما استقر فى قرارة نفسه وأمام ناظره من مثل عليا تغياها طول حياته :

منحه الله عقلا منطقيا مرتبا ، وذهنا نافذا لا يرضى بالقشور أو السطحيات ، وإنما يعمل فى تؤدة حتى يكشف عن أصول الأشياء ويصل إلى كبد الحقيقة . وأفرغ عليه صبرا وطول أناة فى كل ما يفعل . فكان جلده وتفانيه فى العمل مدعاة للإعجاب بل وللإشفاق عليه . إنما ذلك كله يرجع إلى حبه لفنه . فقد كان محبا لفنه إلى أقصى درجات الحب . وهذا هو سر تفوقه وإنتاجه الغزير فى هذا الميدان . كان يضحى فى سبيل عمله بكل الاعتبارات أيا كانت . كان عمله وخاصة فى ميدان القانون والقانون المدنى فى الطليعة هو متعته وغذاؤه ، وهو سلوته وهو هناؤه . وكانت أسعد الأوقات تلك التى يقضيها بين كتبه وأوراقه يطالعها ويناقشها ويستوعب ما فيها ، أو مع إخوان من الصفوة الممتازة يجادلونه ويجادلهم فى شتى المسائل وخاصة المشكلات القانونية . ولم يكن يضن فى هذا السبيل بوقته أو براحته أو بصحته . تعرض له المشكلة فلا يزال يقلب فيها ويجزئها ، ويستعرض سائر وجوهها ومختلف الاحتمالات فى مجابهتها وحلها . ويتناقش مع المختصين فيها ، ويستمع إلى كل رأى وإن كان يسرف فى معارضة رأيه ومناقضته ، كل ذلك فى صبر وفى جلد ودون أدنى ملل مهما طال النقاش ، كما لو لم يكن أمامه فى الحياة سوى تلك المشكلة ؛ يتأمل فيها ويراجع من سبق أن عالجوها ويستوعب آراء من يتناقشون معه . وبعد هذا الدرس وهذا التمحيص يستخلص النتيجة التى ينتهى إليها فإذا بها آية فى سداد الرأى وسلامة التفكير ، تدل على تلك العقلية المنطقية المرتبة وعلى ذلك الذهن النافذ الوقاد .

كان يؤمن إيمانا عميقا وجوب سيطرة القانون . فالقانون هو صوت العدل مجسما يبين للناس كافة حدود حقوقهم والتزاماتهم سواء فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض أو فى علاقتهم بأرباب السلطة العامة والقابضين على

مقاليدها . والقانون روح قبل أن يكون نصا ومعنى قبل أن يكون حرفا ، ولهذا يجب أن يكون تعبيرا صحيحا عن الوضع العادل السليم ، يستهدف المصلحة العامة فى غير جور أو حيف أو محاباة . ولهذا أيضا لا بد أن يرسخ فى نفوس الحاكمين والمحكومين وجوب احترامه والإذعان لأوامره ونواهيه . ذلك لأن القانون هو الذى ينظم سير الناس فى طرقات الحياة، ويحدد أبعاد مالهم وما عليهم. فهو الدرع الواقى لكل فرد سواء فى نفسه أو فى ماله أو فى عرضه أو فى كرامته . وعلى أساس القانون السليم العادل يجب أن تقيم الأمة بناءها وإلا انهار كل ما تبنيه أو يتخيل البانون أنهم يقيمونه . كانت هذه نظرة الكريم الراحل . نلمس أمثلة عليها بارزة فى قراراته وأحكامه وهو رئيس لمجلس الدولة، وفى مشروعاته الدستورية التى عهد إليه بوضعها . وفى الحق أن القانون أشبه بشرطى المرور ينظم لأفراد الشعب سيرهم فى طرق الحياة . وبلد تهون فيه سلطة القانون أشبه بطريق مزدحم بالمارة خال من إشارات المرور وممن ينظمه . ومؤدى ذلك دون ما ريب فرضى لاحد لها ، واختلال ضحيته الضعفاء والراجلون .

وكان – عليه رحمة الله – فى هذا السبيل صلبا فى الدفاع عن الحق الذى يمثله القانون عنيدا فى الذود عن حياضه . اختطفته السياسة فترات ما لتفيد من عبقريته ومن نبوغه فكان، وهو فى غرتها كالعهد به طول حياته ، عادلا فى تصرفاته مستهدفا المصلحة العامة دون سواها ، مضحيا فى خدمتها بوقته وصحته أبعد ما يكون عن التطلع إلى كسب مادى أو مظهر ما من زيف الحياة، مما يتكالب عليه الناس ويتسابقون ويتفانون فى الوصول إليه ؛ ولم يكن ينسى وهو فى دوامات السياسة فنه المحبب وأبحاثه فى القانون المدنى خاصة ، فلم تنقطع صلته به بل ظل يوالى تآليفه ومحاضراته ؛

وعدت عليه تيارات السياسة أيضا ضيقا بحيدته وطمعا فى إمالته ، فلم يهن ولم تفل عزيمته . وظل كما هو كالطود الراسخ لا تلين قناته ولا يلتوى عوده ، شديد الإيمان بالله وبعدالته وبأنه جل شأنه ناصر للحق وإن طالت غشاوته .

وكان فى طليعة المؤمنين بأن وحدة الشعوب العربية غاية أولى يجب أن تتضافر الجهود من كل النواحى لتحقيقها . ففى ذلك القوة الحقة للعروبة وإعلاء كلمتها فى المجال الدولى ، والوسيلة الناجعة لاستعادة مجدها ورد كيد الحاقدين عليها والطامعين فى ثروات أقطارها. وكان فى هذا الميدان الجندى الباسل والداعية الحصيف الرأى والثاقب النظر . فأخذ يستعين بنفسه للتقريب بينها ، وذلك عن طريق توحيد الثقافة القانونية وتوحيد التشريعات أو تقاربها . بهذا ينهل أبناء البلاد العربية فى هذا الصدد من معين واحد وتربط بينهم فى معاملاتهم وتصرفاتهم أيا كانت أنظمة واحدة وتؤلف بين قلوبهم أصول ومبادئ راسخة لديهم مؤمنين بها مجمعين عليها .

كان السنهورى – تغمده الله برحمته – شخصية نادرة تنوعت مواهبه وتعددت مآثره . وكانت حياته صورة مشرفة للعاملين المخلصين المجاهدين ، ومثلا عاليا جديرا أن يحتذيه الناشئون ويجرى على نهجه الحاكمون والمصلحون . وكم يطول بى المقام بعد هذه النظرة المجملة لو حاولت أن أحصى آثاره ومناقبه . وحسبى أن أستعرض فى عبارات موجزة خطواته فى الحياة وثمرات إنتاجه ، وكلها صفحات ناصعة وضاءة ، هى مثار للإكبار والإعجاب وعلى مثلها فليعمل العاملون .

نشأ الفقيد الكريم بالإسكندرية . وكان مولده بها فى سنة ١٨٩٥ . وبعد أن أتم دراسته الابتدائية بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية التحق بمدرسة رأس التين الثانوية ثم بالمدرسة العباسية وحصل منها على شهادة البكالوريا سنة ١٩١٣ وكان ترتيبه الأول بين الناجحين فى القسم الأدبى . ثم التحق بمدرسة الحقوق بقسم المنتسبين وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩١٧ وكان ترتيبه الأول بين خريجى ذلك القسم . وعين فى ذلك العام بالنيابة العامة . ثم عين رغم حداثة سنه لتدريس مادة القانون بمدرسة القضاء الشرعى خلفا للمرحوم الأستاذ الكبير أحمد بك أمين . وإذ أعيد إرسال البعثات الدراسية للخارج عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى أوفد صيف سنة ١٩٢١ إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه فى القانون فالتحق بكلية الحقوق فى ليون . وهناك كان اتصاله بالعلامة الكبير الأستاذ إدوار لامبرت الذى كان فيما مضى ناظرا لمدرسة الحقوق الخديوية . وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى توجيه النشاط العلمى للمرحوم الدكتور السنهورى . ذلك لأن الأستاذ لامبير كان زعيم المنادين بأهمية دراسة القانون المقارن ففى ذلك فائدة محققة سواء من حيث دراسة القانون القائم أو البحث فى مجال التشريع عن أصلح الأنظمة وأوفاها بحاجيات الأفراد ، وتقرير الأحكام العادلة فى معاملاتهم وشتى تصرفاتهم . وفعلا أنشأ الأستاذ لامبرت معهدا للقانون المقارن . وعن هذا الأستاذ الجليل أشرب المرحوم الدكتور السنهورى حبه للدراسات المقارنة . وقد أسهم فعلا بنصيب كبير فى هذا المجال فى المقارنة بين القوانين الوضعية وأحكام الشريعة الغراء .

ومن كلية الحقوق بليون حصل على الدكتوراه فى العلوم القانونية سنة ١٩٢٥ وكان موضوع رسالته « القيود التعاقدية على حرية الفرد فى العمل » . وقد عنى فيها خاصة بدراسة أحكام القضاء الإنجليزى وتناول فيها بحث المعايير القانونية المرنة مقارنا إياها بالقواعد الجامدة . ثم حصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية والاقتصادية سنة ١٩٢٦ وكان موضوع رسالته « الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية » . وحصل كذلك على دبلوم معهد القانون الدولى بجامعة باريس .

وهكذا نرى أنه قد اتسعت آفاق دراساته القانونية فتناول فى تحصيله مواد القانون الخاص والقانون العام ولا سيما مادة القانون الدولى .

وبعد أن أتم دراساته فى الخارج عاد إلى مصر سنة ١٩٢٦ وعين مدرسا بكلية الحقوق . وربما لا يعرف الكثيرون أن الدكتور السنهورى ذلك القطب العملاق فى القانون المدنى عندما عاد من بعثته فى الخارج كان المقرر أن يعين لتدريس القانون الدولى . ولكن نظرا لعدم خلو المكان فى ذلك الوقت عهد إليه بتدريس القانون المدنى فتفوق فيه وأبدع ، وكان له ذلك الإنتاج الضخم الغزير الذى يعد ثروة غالية وكنزا ثمينا لرجال القانون . وليس هذا بمستغرب فالفضل فى ذلك إنما يرجع إلى تلك العقلية الجبارة والعبقرية الموهوبة وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

وسرعان ماتخطى درجات الترقى بالكلية حتى صار أستاذا للقانون المدنى . وفى كلية الحقوق تجلى نبوغه وبرزت شخصيته الفاضلة العظيمة . فكان الأستاذ العطوف على تلامذته ، القريب إلى قلوبهم ، المحبب إلى أسماعهم ، المتفانى فى تثقيفهم وإرشادهم وتيسير عويص المشكلات أمامهم ، يحرصون كل الحرص على محاضراته ويترسمون أسلوبه ومنطقة فيما يلقيه أو يكتبه . وأخذت تتوالى مؤلفاته القيمة . فأخرج فى سنة ١٩٣٠ كتابه فى « شرح عقد الإيجار » جرى فيه على نهج علمى ممتاز . ثم أخرج سنة ١٩٣٤ مؤلفه الشامخ « فى نظرية العقد » وهو يقع فى نحو ألف صحيفة من القطع الكبير . وكان هذا الكتاب بحق فتحا علميا جديدا فى الفقه المدنى فى مصر ، وتلقاه كبار رجال القانون وخاصة من أساطين القضاء بكل تقدير وترحيب .

وقد نشر بعد ذلك كتابه « الموجز فى النظرية العامة للالتزامات » فى ٧٥٠ صحيفة وهو مرجع مبسط شامل لطلاب القانون . كما أخرج كتاب «أصول القانون» بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد حشمت أبوستيت

وفى سنة ١٩٣٥ ندب عميدا لكلية الحقوق فى بغداد بالعراق فاصطحب معه نخبة من خيرة الشبان الأكفاء . وهناك وضع الأسس السليمة التى قامت عليها دراسة القانون وأرسى قواعد النظام المحكم لكلية الحقوق ببغداد . وكان حصيفا وعمليا فأفرغ جهده فى المواءمة والمقارنة بين المبادئ الحديثة فى القانون المدنى وبين « أحكام المجلة » التى كانت سارية بالعراق وقتئذ ، ووضع مؤلفين فى هذا الصدد لطلاب الكلية . وطلب منه وزير العدل المرحوم رشيد عالى الكيلانى مشروعا للقانون المدنى فلم يتمكن إلا من وضع مشروع لعقد البيع .

ولم تطل إقامته بالعراق . وبعد عام عاد إلى مصر واختار معه العشرة الأوائل من أبناء كلية الحقوق ببغداد وألحقهم بكلية

الحقوق بالقاهرة . وكان من هؤلاء نواة الأساتذة العراقيين الذين اضطلعوا بتدريس القانون هناك فيما بعد .

وفى أواخر سنة ١٩٣٦ انتخب عميدا لكلية الحقوق بالقاهرة . ثم نزعته السياسة من التدريس إلى القضاء المختلط فى سنة١٩٣٧ فكان القاضى النابه بين زملائه من القضاة الأجانب . ثم اختير مستشارا مساعدا بقلم قضايا الحكومة .

وحدث أن استجابت الحكومة فى ذلك العهد إلى ماسبق أن نادى به من قبل من وجوب وضع قانون مدنى جديد للبلاد . فقد سبق أن نشر مقالا مسهبا فى هذا المعنى بمجلة القانون والاقتصاد فى سنة ١٩٣٦ فى العيد الخمسينى للمحاكم الأهلية . وإذ نزلت الحكومة عند فكرته هذه شكلت فى أول الأمر لجنة لتعديل القانون المدنى ، وكان السنهورى من أبرز أعضائها . ثم انتهى الأمر بإسناد مهمة التعديل إليه وحده فى سنة ١٩٣٨ . وكان أن انقطع لوضع مشروع القانون المدنى ، أفرغ فيه جهده مستعينا فى ذلك بنخبة من خيرة رجال القانون الأكفاء ، واشرك معه فى أول الأمر أستاذه العلامة الجليل إدوار لامبير . وفى هذا المشروع سد مابالتشريع القائم من ثغرات على ضوء ماجرت به أحكام القضاء واستقرت عليه ومادعت إليه ضرورات الحياة والأخذ والعطاء بين المتعاملين ، وما اهتدى إليه المشرعون مختلف البلاد الراقية تحقيقا للعدل فيما نجم عن تطور أساليب الحياة وماترتب عن ذلك من مشاكل وتضارب بين الحقوق والالتزامات وساعده فى مجهوده الموفق فى هذا المشروع تضلعه فى أحكام الشريعة الغراء وسعة اطلاعه فاقتبس منها وأفاد منها أيما فائدة .

وانتهى وضع مشروع القانون المدنى الجديد سنة ١٩٤٥ ثم مر فى مجلس النواب والشيوخ بعد إدخال تعديلات قليلة عليه وصدر فى أواخر شهر يوليه سنة ١٩٤٨ . وأكشف لكم هنا عن ناحية مشرفة فى عمله الجليل الذى تفانى فى إنجازه تدل على زهده وإكباره للمعنويات دون الماديات . فقد عرضت عليه الحكومة القائمة وقتئذ مبلغا ضخما لقاء الجهد المضنى الذى بذله فى هذا العمل العظيم وألح عليه وزير العدل حينئذ الحاحا شديدا فرفض بكل إباء ، وأنا أعلم فى يقين مدى حاجته وقتئذ ، وآثر أن يقدم صنيعه خدمة للوطن ولا يبتغى عليه أجرا فأجره عند الله ، والله عونه ورازقه ، فهو هو عبد الرزاق كما كان دائما ، خدمة القانون والقانون وحده هدفه وغايته .

وقد رأى من واجبه أن يشرح للمطلعين والباحثين ذلك القانون الذى وضعه . فقام بتأليف كتابه القيم « الوسيط فى شرح القانون المدنى » وهو مؤلف فى عشرة أجزاء استغرق فى تأليفها عشرين سنة . وكل جزء منها يتكون من ألف صحيفة أو يزيد ، وبعض الأجزاء يتكون الواحد منها من مجلدين .

وقد أتم الجزء الأخير من هذا الكتاب وهو فى مرضه الأخير ، ولم يقعده المرض عن تنفيذ ماعتزمه ، وإتمام رسالته التى يؤمن بها حق الإيمان . وهذا الكتاب موسوعة مسهبة فى القانون المدنى ، وهى ذخيرة علمية لاتدانى . وكما يقول عنها بحق أحد الأساتذة الأجلاء : « إنها تذكرنا بالمجلدات الضخمة التى كان يعكف على تأليفها فقهاء الإسلام فى العصور الأولى ويفرغون لها العمر كله . ولكن الغرابة تزول إذا ماعرفنا أن ذلك المؤلف الذى اضطلع بكل هذا العبء وحده هو الدكتور السنهورى » .

وإمعانا فى خدمة المادة والتيسير على الطالبين والباحثين كان يعتزم — كما أفصح عن ذلك فى مستهل كتابه « الوسيط » — إخراج موجز يقتصر فيه على بيان الأصول والقواعد الأساسية ، وكذلك إخراج شرح مستفيض فى مؤلف باسم « المبسوط » . وقد آثر أن يبدأ بالوسيط فهو كما أشار إليه بمثابة الحلقة الوسطى من عقد واحد تجمله فيصبح وجيزا وتفصله فيصير مبسوطا .

وقد أصدر فعلا فى سنة ١٩٦٦ كتاب « الوجيز فى نظرية الالتزام بوجه عام » ، لخص فيه الأجزاء الثلاثة الأولى من الوسيط وهو يقع فى ١٣٠٠ صحيفة . وكان فى نيته أن يلخص كل ثلاثة أجزاء من الوسيط فى جزء واحد من « الوجيز » .

وفضلا عن هذه المؤلفات نشر الفقيد أبحاثا ومقالات عديدة باللغة العربية واللغة الفرنسية فى مختلف المجلات العربية والأجنبية ، وكلها كسب عظيم للثروة العلمية . أسوق منها خاصة مايأتى :

باللغة العربية :

١ — تنقيح القانون المدنى وعلى أى أساس يكون (الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية سنة ١٩٣٣) .

٢ — من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدنى العراقى (مجلة القضاء العراقية سنة ١٩٣٦) .

٣ — مشروع تنقيح القانون المدنى المصرى (مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٤٢) .

٤ — الروابط الثقافية والقانونية بين البلاد العربية (المجلة المصرية للقانون الدولى سنة ١٩٤٦) .

٥ — عقد البيع فى مشروع القانون العراقى (مجلة القضاء العراقية) .

٦ — الانحراف فى استعمال السلطة التشريعية (مجلة مجلس الدولة سنة ١٩٥٢) .

٧ — تطبيق نظرية الظروف الطارئة (مجلة المحاماة سنة ١٩٦١) .

٨ — الإسلام والشرق (السياسة الأسبوعية ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٢) .

٩ — الوحدة العربية (فى ثلاث مقالات) (مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٦)

وباللغة الفرنسية :

١ ــ المعيار فى القانون (فى مجموعة البحوث المهداة إلى الأستاذ جينى سنة ١٩٣٧) .

٢ ــ الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع المصرى (فى مجموعة البحوث المهداة إلى الأستاذ لامبير سنة ١٩٣٨) .

٣ ــ المسئولية التقصيرية (بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ الدكتور حلمى بهجت بدوى ، فى مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٣٣) .

٤ ــ المسئولية التقصيرية فى الشريعة الإسلامية (مجموعة بحوث مؤتمر القانون المقارن بلاهاى سنة ١٩٣٧) .

٥ ــ الشريعة الإسلامية أمام مؤتمر القانون المقارن بلا هاى (مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٣٧) .

٦ ــ مجلس الدولة (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عثمان خليل عثمان ، فى مجلة مجلس الدولة سنة ١٩٥١) .

ومن نواحى عظمة السنهورى العلمية تمكنه من الشريعة الإسلامية . فقد كان يؤمن بأن فقهاء الشريعة قد خلفوا كنوزا ثمينة من خير ماتنتجه القرائح وتهتدى إليه العقول الناضجة فى التخريج والتدليل والعمل على تحقيق المصالح بين الناس . ولذلك كان يرى أن الشريعة الغراء مصدر عظيم من مصادر التشريع . وله فى هذا الصدد بحث رائق باللغة الفرنسية بعنوان « الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع المصرى » وقد نشر فى مجموعة البحوث المهداة إلى الأستاذ لامبير كما سبق وأشرت إليه . وقد عكف على دراسة الشريعة دراسة عميقة ومفصلة . ولم يقتصر فى ذلك على مذهب معين بل تناول المذاهب المختلفة بالبحث والتحليل والمقارنة . ولهذا لم أدهش حينما قرأت لأحد تلامذته النابهين أنه سمع من أحد الثقاة أن الأساتذة المتفرغين للدراسة الشريعة الإسلامية فى الجامعات البريطانية يعتبرون السنهورى دون أدنى جدال الإمام الخامس بعد الائمة الأربعة.

وإن أنس لاأنسى جهده الرائع الموفق فى مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى فى صيف سنة ١٩٣٧ . فقد صاحبته أنا ونخبة من أساتذة كلية الحقوق كأعضاء فى ذلك المؤتمر الذى كان يتناول موضوعات مختلفة فى شتى فروع القانون . كان الفارس المجلى فى ميدان أبحاث القانون المدنى وفى المقارنة مع أحكام الشريعة الغراء بوجه خاص والدفاع عنها ضد من يتجنون عليها ، وما أكثرهم ، ويردون إلى القانون الرومانى فضل ماجادت به قرائح الفقهاء وثمرات اجتهادهم .

ومن آثاره الخالدة فى خدمة الفقه الإسلامى ماقام به فى معهد الدراسات العربية العليا . فقد تقدم لمجلس جامعة الدول العربية بمشروع

إنشاء معهد للدراسات العربية ووافق المجلس على إنشاء المعهد فى مارس سنة ١٩٥٢ . وعين السنهورى رئيسا لقسم القانون بالمعهد منذ إنشائه وظل رئيسا له حتى أواخر سنة ١٩٥٩ . وقد قام بإلقاء المحاضرات فى الفقه الإسلامى ونشرت هذه المحاضرات على نفقة المعهد فى كتابه « مصادر الحق فى الفقه الإسلامى » وهو ذخيرة قيمة ويقع فى ست أجزاء . وقد طبعه المعهد ثلاث طبعات .

ولم يقتصر نشاطه فى مجال القانون على الدرس والنظر ، بل أن آثاره فى ميدان العمل والتطبيق بارزة عديدة . فقد عمل فى المحاماة فى فترات متقطعة أكثرها طولا مابين سنتى ١٩٤٢ و ١٩٤٥ وله فى هذه الحقبة مذكرات قيمة قدمها لمحكمة النقض فى قضايا خطيرة حدثنى عنها أحد تلامذته النجباء الذين عملوا معه فى تلك الفترة ، وخص بالذكر منها مذكرة مستفيضة فى أكثر من مائتى صحيفة كان لها صيت مدو وكان موضوعها : «وصية غير المسلم وخضوعها لأحكام الشريعة الإسلامية » . وتعتبر مرجعا علميا ثمينا فى بابها . ومما يؤثر فى شأنه فى عالم المحاماة أن أرباب القضايا كان يعجبون لتواضعه فى تقدير أتعابه وفى رفض القضايا المجزية .

ومن أروع آثاره الخالدة فى ميدان العمل والتطبيق والتى تعد بحق خدمة جليلة للعروبة وللتقريب بين أبنائها نواحى نشاطه فى مجال التشريع . فقد قصدت اليه أغلب البلاد العربية لتفيد من غزير علمه وواسع خبرته فى وضع تشريعاتها الحديثة . فوضع للعراق قانونها المدنى الذى جمع فيه بين أحكام القوانين الوضعية العصرية وأحكام الشريعة الإسلامية . إذ كان السارى فى العراق من قبل « مجلة الأحكام العدلية » . وهى مجموعة قواعد قانونية مستمدة من الفقه الإسلامى على مذهب الأمام أبى حنيفة جرى العمل بها منذ التبعية فيما مضى للدولة العثمانية . وقد رأى بصادق نظره أن لايقطع الصلة بين الماضى والحاضر وآثر التدرج على الطفرة .

كذلك قام عليه رحمة الله بوضع القانون المدنى فى سوريا وقانون البينات وهو يشمل قواعد الإثبات الموضوعية وإجراءاتها ، كما وضع القانون المدنى فى ليبيا، وتكفل بوضع جميع قوانين الكويت الأساسية ودستورها وكذلك وضع الدستور السودانى . وكان آخر عمل تشريعى قام به فى البلاد العربية مشروع وضع دستور لاتحاد إمارات الخليج العربى، ولكنه لم يتمكن من إتمامه نظرا لحالته الصحية التى لم تكن تساعده على السفر إلى تلك المنطقة لدراسة ظروفها وعوائدها وتقرير مايلائمها . كذلك وضع لإمارة البحرين مجموعة من القوانين العصرية قال عنها أحد الأساتذة المحترمين أنها تعد من المفاخر التشريعية .

ومن الصفحات الخالدة الوضاءة فى تاريخه عهد رئاسته لمجلس الدولة ، وما بدا منه فى ذلك العهد من مواقف حازمة جريئة وماقرره من مبادىء سامية عادلة صونا للحريات

وكبحا لافتيات السلطات الحاكمة وعنتها . وليس من المبالغة فى شئ إذا قيل بأنه حين يذكر مجلس الدولة فإنه يذكر مقرونا باسم السنهورى . فقد جعل من مجلس الدولة حصنا منيعا لحماية حريات الأفراد وملاذا أمينا من عدوان الحاكمين .

لقد تولى رئاسة ذلك المجلس فى سنة ١٩٤٨ وظل به حتى عام ١٩٥٤ . وفى تلك الفترة عمل جاهداً على أن يحقق على خير وجه الغاية التى من أجلها أنشئ ذلك المجلس . وقد عبر عن ذلك فى تقريره له سنة ١٩٤٨–١٩٤٩ بقوله: « إن مجلس الدولة له رسالة جليلة سامية ، فهو يقف إلى جانب الإدارة المصرية يعاونها فيما تحمل من أعباء وتبعات ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث يقوم مجلس الدولة ويصبح حقيقة واقعة . بل لعله أن يكون حقيقة رائعة . روعته أن الإدارة المصرية أعلنت بقيامه أنها تقف إلى جانب الحق والقانون لاتظلم ولا تتعسف » « وأن صدرها يتسع للشاكى يناقشها الحساب فتنصفه أو تنتصف منه . وروعته أن الأفراد والجماعات يرون فيه غوثاً للملهوف وملاذاً للعائذ وموئلا للحريات » .

وحسبى أن أشير إلى بعض المبادئ الجوهرية التى قررها والمواقف الحميدة التى حرص عليها والتى تعد مفخرة فى سجل مجلس الدولة .

فى قمة المبادئ السليمة التى أرساها حق القضاء فى رقابة دستورية القوانين ، وذلك خلافاً للرأى الراجح فى ذلك الوقت : أوضح فى بيان مفحم أن السلطة القضائية وهى تراقب تقدير السلطة التشريعية لا تقوم بعمل تشريعى يحول دونه مبدأ الفصل بين السلطات ، ولكنها تقوم بعمل قضائى محض هو تعرف القانون الواجب التطبيق فى النزاع المطروح أمامها . فإذا تعارض التشريع مع الدستور وجب عدم تطبيق التشريع المخالف وتطبيق الدستور سيد القوانين فى البلاد .

ومن تصرفاته العادلة الرشيدة انتصاره لحرية الصحافة ؛ فقد وقف بالمرصاد لما كانت تقرره الحكومة من تكميم حرية الصحف وتعطيلها . لقد أدرك بثاقب نظره الصادق أن حرية الكلمة وحرية الصحافة خاصة هى أول ضمان للحريات عامة ، وأن حرية الصحافة سياج واق من عبث الحاكمين وطغيانهم . ولهذا أصدر بوصفه رئيساً لمجلس الدولة القرارات بوقف ما كانت تصدره الحكومة من أوامر بتعطيل بعض الصحف رافضاً أن يعتبر القرار الصادر بتعطيل جريدة أو برفض الترخيص بإصدارها أو إلغاء الترخيص عملا من أعمال السيادة ، ولو كان صادرا من مجلس الوزراء . واتبع هذه القرارات بالفصل فى الموضوع من محكمة القضاء الإدارى بإلغاء القرارات الإدارية الصادرة من مجلس الوزراء . سار على هذا النهج فى إنصاف الصحف حتى وإن كان أربابها من خصومه .

كذلك وقف فى حزم وصلابة ضد امتناع بعض الوزراء وقتئذ عن تنفيذ الأحكام التى تصدر من مجلس الدولة ، ووصم هذا الامتناع بأنه مخالفة قانونية خطيرة لأصل من الأصول التى تمليها المبادئ الدستورية العليا ، وقضى بأن هذا يعد خطأ جسيما يندرج تحت الجرائم التى يعاقب عليها جنائيا ، ويعد خطأ الوزير الذى يقدم على ذلك مستوجبا لمسئوليته الذاتية فى ماله الخاص عن التعويض المطالب به دون خزانة الدولة .

وتفيض أعداد مجلة مجلس الدولة فى عهده بأحكامه وقراراته العادلة الحكيمة ، وتروى مواقفه الحازمة الجريئة ضد تحدى بعض الحكومات التى كانت تضيق به ذرعا فى أوائل عهده ، وتحاول أن تحمله على التخلى عن منصبه . ولكنه ظل كالطود الراسخ مؤمنا بمبادئه السامية المحايدة بعيدا عن التحيز أو الغرض لايعبأ بالتحدى وتعطيل وجوه الإصلاح التى كان يقترحها للنهوض بالمجلس.

أن ذكراه العطرة فى مجلس الدولة تحدث عن مثل عال ضربه لما يجب أن يكون عليه القاضى من النزاهة والعدل ، فلايخشى فى الحق لومة لائم ولايطأطئ رأسه لصاحب النفوذ مهماعلا قدره وأمعن فى عتوه وعدوانه. وقد قرأت للسيد ضياء شيت خطاب رئيس ديوان التدوين القانونى بالعراق أن إحدى الصحف البريطانية قالت فى تعليق لها على أحكام المرحوم السنهورى : «ليت فى بريطانيا قضاة مثل هذا الرجل » .

وإلى جانب نشاطه القانونى الفياض علما وعملا كان له نشاط فى ميدان الإدارة والسياسة فقد عين وكيلا لوزارة العدل كما عين وكيلا لوزارة المعارف ثم وزيرا لها مرتين . وكان فى كل هذه المراحل هو هو معدنه الأصيل لايتغير ، هدفه المصلحة العامة أولا وآخرا مضحيا فى ذلك بمصالحه الخاصة وبراحته ، وتصرفاته فى مختلف الشؤون والمشكلات لايبغى من ورائها إلا وجه الحق والإنصاف ، لايقعده فى هذا السبيل أية اعتبارات مهما كان شأنها . وقد ترك فى وزارة المعارف آثارا جليلة . وكان من أول ماعنى به وضع سياسة ثابتة للتعليم يكون قوامها إنصاف المعلم وتوفير الاستقرار والكرامة له مع توسيع قاعدة التعليم وتوجيه الطلاب إلى مايتلاءم مع احتياجات المجتمع من أنواع التعليم الفنى ، الزراعى والصناعى ، الذى لاجدال فى أنه دعامة أساسية لتقوية البنيان الاقتصادى للدولة . كذلك عمل على دعم سلطة المناطق التعليمية واستقلالها ، كما عنى كل العناية بالتوسع فى إنشاء دور التعليم المصرية فى السودان .

هذا وقد أوفد إلى مؤتمرات دولية عديدة. ففضلا عن المؤتمرات القانونية التى شهدها ، كان رئيس الوفد المصرى إلى لندن فى مؤتمر فلسطين سنة ١٩٤٦ ورئيس الوفد المصرى فى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٦ وعضوا فى الوفد المصرى الذى تقدم بشكوى مصر ضد إنجلترا أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ .

ويتوج هذه المواهب النادرة والمناقب التى ذكرتها ماكان للفقيد العزيز من شأوعظيم فى مجال اللغة وآدابها . فقد أوتى حظا كبيرا فى تحصيلها ، وبدا ذلك جليا رائعا فى مؤلفاته وعديد كتاباته . وهو دون أدنى ريب فى طليعة الأفذاذ فى أدب العبارة فى القانون . يمتاز أسلوبه بالرصانة والأحكام والسلاسة ، وكان مجددا فى تعبيراته التى يستعملها موفقا فى اصطلاحاته التى يبتكرها . كان مثلا فريدا فى بلاغة الأداء وسهولة التعبير . وستظل مؤلفاته وكتاباته نموذجا يحتذى فى حسن البيان والإفصاح عن المراد فى عالم القانون .

وقد حظى مجمعنا بانضمامه إليه فى سنة ١٩٤٦ فأسهم بآرائه واقتراحاته الناضجة . وقد عرض فكرته حول تطور لغتنا العربية ومسايرتها لتطور المجتمع وحاجياته فى مؤتمرات المجمع .

ومما ذكره فى ذلك المقام قوله فى مؤتمر عام ١٩٤٨ مايأتى :

« اللغة العربية ليست مقصورة على ماقاله أسلافنا وأجدادنا فى العصور السابقة ، بل هى تتسع لتشمل ما نقوله نحن فى عصرنا الحاضر . ولايملك الأموات من هذه اللغة أكثر مما يملك الأحياء » .

ثم يستطرد ويقول :

« هناك وجه شبه حقيقى فيما بين اللغة العربية والفقه الإسلامى، هو فى أن الفقه واللغة على السواء مصادرهما واحدة . مصادر الفقة الإسلامى كما تعلمون الكتاب والسنة ، أى النص ، ثم القياس والإجماع : ومصادر اللغة العربية هى أيضا النص ، وهو هنا ينحصر فى هذه الألفاظ والعبارات التوقيفية التى ورثناها عن أجدادنا الأولين والتى يأبى بعض منا إلا أن يقف عندها ، وهم فى ذلك يعتبرون أهل الظاهر فى اللغة ويقابلون أهل الظاهر فى الفقه . ثم القياس ، وبه يقول فيما أعلم جمهور الزملاء فى المجمع ، فيستنبطون صيغة من أخرى سماعا وقياسا ، ويشتقون وينحتون . ثم الإجماع وهذا هو المصدر الذى أحب أن أسترعى إليه أنظاركم ، فإن الإجماع فى اللغة كالإجماع فى الفقة مصدر جوهرى ، وهو الذى يكفل التطور فى اللغة كما كفل التطور فى الفقة . وقد لايريد بعض منا أن يعترف بهذا المصدر أو يقره . ولكنه مصدر يفرض نفسه ، وتحتمه سنن الوجود ، ويقتضيه القانون الطبيعى . واللغة التى لايعترف بالإجماع مصدرا لها لغة لاتلبث أن تنطوى على نفسها ، ثم تذبل وتموت ؛ والذين ينكرون الإجماع مصدرا للغة ، ينكرون على هذه اللغة أن تعيش .

والإجماع معناه حق المساواة مابين السلف والخلف . وهو حق هؤلاء جميعا فى أن يصنعوا لغتهم على قدر حاجتهم ، فيكون لكل جيل نصيب فى ذلك . وكما أن الذى يراه المسلمون فى الفقة حسنا فهو عند الله حسن ، كذلك مايراه الناطقون بالعربية

فى جيل من الأجيال حسنا فهو فى اللغة حسن .

لانستطيع أن ننكر على أى جيل حقه فى أن يساهم فى صنع لغته ، وفى أن يبتدع من الألفاظ مايفى بحاجاته ، ومايتمشى مع حضارته ، ومتى فعل ذلك فإن الألفاظ التى ابتدعها تكسب مكانا مشروعا فى اللغة لايجوز لأحد إنكاره . »

هذا هو النابغة العظيم الذى نفتقده اليوم . كان منارا للعلم وداعية للحق ، ومعلما أمينا ارتوى من فيض علمه قولا وكتابة آلاف الطالبين والباحثين . كان نورا تجلى فى سماء البلاد العربية كافة ، أضاء لها سبل الحياة عن طريق القانون ، وعاملا على التأليف بين قلوب أبنائها وتوحيد تفكيرهم والتقريب فى الأخذ والعطاء بينهم .

وقد رأت الدولة علو كعبه وسمو منزلته فمنحته أخيرا سنة ١٩٧٠ جائزة الدولة التقديرية تكريما له واعترافا بفضله . والسنهورى من ذلك الطراز الذى ترتفع به الوظائف وتزدان به الجوائز . وهو من حيث تقدير العارفين فى سائر الوطن العربى فى أعلى عليين .

ولئن غاب شخصه الكريم عنا فستظل ذكراه خالدة أمد السنين ، وسيظل المرشد الأمين والحكيم الصائب الرأى ، يستنجد بتراثه وينهل منه الطالبون والمدافعون والقضاة والمشرعون ، ويحتكم إلى سداد رأيه المتنازعون والمتقاضون . فهو السند الأمين لصاحب الحق ، ومطلع النور فى الظلمات الخصومة ، وصائب الرأى ماأفتى به وما قاله السنهورى .

رحمه الله رحمة واسعة وأنزله فسيح جناته فى عداد الأبرار الأخيار المخلصين .

• • قصيدة الأستاذ محمد عزيز أباظة

ظُلِمَ الموتُ ؛ إنَّ فى أحضانِهْ — الحليم الذى يتوج بالغفرا
مَرْفَأً للغريق فى أشجانِهْ — ن آلاءه على عبُدانه (1)

ومَجازاً إلى جوار طهــور — كل حىّ فانٍ . وما الحَىُّ إلاالله
ساكب حوله سنا رحمانه — ـه فى حوله وفى سلطانه

(١) عبدان وعبيد جمع عبد

والردى راصد . وكل ابن أنثى راضَ للباحِثينَ جامِحَه الصَّعْـ
بين فكَّيْـه مُنْظَرٌ لأوانه بَ وأرخى لهم عَصِيٌّ عِنانِه
يتلقى الصباح فى أردانـهْ وحَباهم من المراجعِ بالغَيْـ
ويراه المَساءُ فى أكفانِهِ ـثِ تُضِيءُ الشُّروحُ فى هَطَلانه
ما الحياة التى نعيش غرور مُغْنِياتٍ عن غيرِهِنّ جَـلاهُ
نحن نلتذه على بهتـانه ـنٌ بعيدُ الآفاقِ من إمْكانِـه
إن حب البقاء غَشَّى على المو صادِراتٍ عن رأيه . لايَسُوقُ الـ
ـت وحض الورى على نسيانه ـحُكْمَ إلاّ إن صَحَّ فى مِيزانِهْ
غَيَّبَ الموتُ شافعىَّ[1] زمانهْ جهد فردٍ تَعْيَا المَجامِعُ ذاتُ الـ
وأصاب القانونَ فى بُرهانهْ ـعَزْمِ عن صوفه وعن إتْقانه
يعظم الخطب فى العظيم إذا لم صَفْوةُ القول أنه عَبْقرىٌّ الـ
يَرْقَ راقٍ إلى عَوالِى مكانهْ ـجيل غيرُ المسبوقِ فى مَيْدانه
نَكَّسَ الفقهُ رأسَه يوم أوْدَى ذو حَياءٍ فى فَضْلهِ حين بعضُ الـ
وانطَوَى سامداً[2] على أحزانه ـخَلْقِ ذو خَيْلَة[4] على نُقْصانِهْ
أى صافٍ منه تدافَعَ سهلا جَمَّعَ الشرقَ وحده فتَلاقَى
مُعْجِزاً من جَنانه لبنَانه فى ديابيج علمه وبيانه
صاحَبَ الفقه منذ هَلَّ صِبَا الفقْـ من أقاصى خَليجه لدمَشْقٍ
ـه إلى أن أشعَّ[3] فى رَيْعانه من طَرابُلْسه إلى بَغْدانه[5]

(١) الإشارة الإمام الشافعى رضى الله عنه (٢) السامد : المبهوت المتحير
(٣) أشعت الشمس : تلألأ نورها (٤) الخيلة : الكبر والعجب
(٥) إشارة إلى أن الفقيد هو الذى سن قوانين الكويت وليبيا وسورية والعراق وغيرها .

وطوى العرب عند ضاف من التّقْ

نين أعلى وشدَّ من أركانه

فجَنَوْا من نَضيرِ بسْتانه الفيْـ

ـنان أبْهَى ما رَفَّ من ألْوانه

وانتَشَوْا من رَحيقِ راووقه[1] العَذْ

بِ وضمُّوا الصفوفَ حولَ دِنانه

لَمَّ من شَملهم طراز من التّشـ

ـريع باتُوا فى أمْنه وضَمانِـه

ثم عادُوا إلى التّخاذُل مُفْتَنّـ

ـينَ فى خَلْقه وفى إعْلانِـه

آه لو يُخْلِصُون لانْبَعَثَ الشرْ

ـقُ وردَّتْ له نباهةُ شـانه

اختلاف الآراءِ قد يَلِدُ الخَيـ

ـرَ ويبنى إن عُفَّ عن شنآنه

إن هذى الحَياةَ وهى صِراعٌ

لم تُوطَّأْ لقابعٍ فى هَوانِـه

رُبَّ ومضٍ مُبَشِّر لاح فى الأفـ

ـقِ سَنَبْلُو غداً مَدَى لمَعانـهْ

***

نَهْنِهُوا الحُزْنَ إنه فى رُفاتِـه

حُطَّ عنه ما مَضَّهُ فى حَياتهْ

حُطَّ عنه الأذَى يُشَنُّ فَيَشْقَى الـ

ـحُرُّ فى وَقْدِه وفى لَفَحاتِـهْ

سادنُ العدْلِ أعرض العَذْلُ عنه

ساخراً من يَقينه وحَصاته

رأيه الحُرُّ عُدَّ من سَيّآتـهْ

والإباءُ الوَقُورُ من سَقَطاته

وعظيمُ الرجال يُغْرَى به الحَقْـ

ـدُ فيُضْفى السَّنا على حَسَنَاته

حَسَدُ الحاسدينَ يُغْضِى عن السَّفْـ

ـح ويَرقى للطودِ فى شُرفاته

إنَّ رأىَ الإنسان ضربٌ من العِرْ

ضِ ، هما الأكرمانِ من حُرُماتِهْ

فإذا ساقَه اسْتَطارَتْ قُوى الشَّـ

ـرِّ فالْوَتْ برزْقِه أو بذاتِهْ

وإذا البَغْىُ لم تُزِلْهُ فأَمْهِلْـ

ـهُ تَفُلَّ الأيَّامُ حَدَّ شَباتِهْ

ليس حُكْماً ، حُكْمٌ يَشُقُّ من الإرْ

هاب مَهْواتَه إلى شَهَواتِهْ

(١) الراووق : المصفاة .

لیس شَعْباً ، شَعْبٌ يقرٌّ على الضَّـ
ـيم ويشفِى غليلَه فى نِكاتِهْ

إيهِ عَبْدَ الرَّزَّاقِ أضْفَى عليكَ اللـ
ـهُ من فَضْلِهِ ومن رَحَمَاتِه

وتَولاَّك من رضاهُ بفَيْض
يَتوالى عليكَ فى جَنَّاتِهْ

يُكْرِمُ اللهُ نافِعَ الناسِ قَبْلَ الـ
ـمُنْطوِى فى صِيامِه وصَلاتِهْ

جَزِع المجمَعُ الوَقُورُ وهَلْ يَجْـ
ـزَعُ إلاَّ للصُّمِّ من نَكَباتهْ

كادَ لولا حياؤه وجلالُ الـ
ـعِلْمِ يروى أساهُ فى عَبَراتِهْ

لم يمت عالم جَماهِيرُ أهْلِ الـ
ـفِقْهِ مهما يَتَشَعَّبُوا من رُواته

لا . ولا المَشْرَعُ الخِضَمُّ الذى فـ
ـجَّرت للشرق فاسْتَقى من فُراته

أنْتَ حَيٌّ وإن طَوَتْكَ المَنايا
ومن الناس مَيِّتٌ فى حَياتِهْ

كلمة الأسرة للأستاذ حنفى محمود الفزارى

أساتذتى الأجلاء :

سيداتى وسادتى :

يؤسفنى أن تغيب عن هذا الحفل كريمة الراحل العظيم ؛ إذ هى فى خارج البلاد تواصل دراساتها العليا فى صحبة السيدة والدتها .

ولقد أريد لهذا الحفل أن يكون حفل تأبين للفقيد الكبير ، ولكنكم استطعتم بشرف حضوركم وأنتم الصفوة المختارة من رجال العلم والقانون وما دوى فى أرجائه من كلمات الخطباء الأجلاء ، تلك الكلمات الفياضة بكل معانى الإجلال والإكبار ، الزاخرة بكل عواطف الوفاء والإخلاص — أن تجعلوا منه حفلا يمدنا بأسباب الزهو به ؛ فقد أصبحنا أسرة أخرجت إلى الأمة عظيما من عظمائها .

على أن الراحل العظيم لم يكن فردا فى أسرة وإنما كان واحدا فى أمة ، عاش حياته يعمل لها وينشر فقهه ، ويطوف ببلاد الأمة العربية يضع دساتيرها وقوانينها ليقيم أقوى عناصر الوحدة بينها .

ولقد سعى سعيه يبتغى الحياة فى مواجهة الموت، فدانت له الحياة، وبقى ببقاء فقهه وعلمه وإن ذهب عنها كما يذهب أصحاب الرسالات؛ فالراحل العظيم من هذا ينتمى إلى أسرته القانونية التى ظل عقله ينبض بحبها، مكرسا حياته لها. وليس أمامى إلا أن أعترف بأنه فقيدكم قبل أن يكون فقيدنا .

لقد كان يغالب عدوا واحدا هو الزمن فقد كان يسابقه خشية أن يحين الأجل قبل أن يفرغ من تدوين علمه وفقهه .

ومعذرة إذا رأيتم أن هذه الكلمة قد خالطها لسان واحد من تلاميذه فوق لسان واحد من أسرته؛ إذ أن أمجاد الرجل العظيم هى حديث أمته لا حديث أسرته .

ويكفينا — نحن أسرته — أن يكون لنا شرف الانتساب إليه .

أطال الله بقاءكم، وجزاكم عنا خير الجزاء .

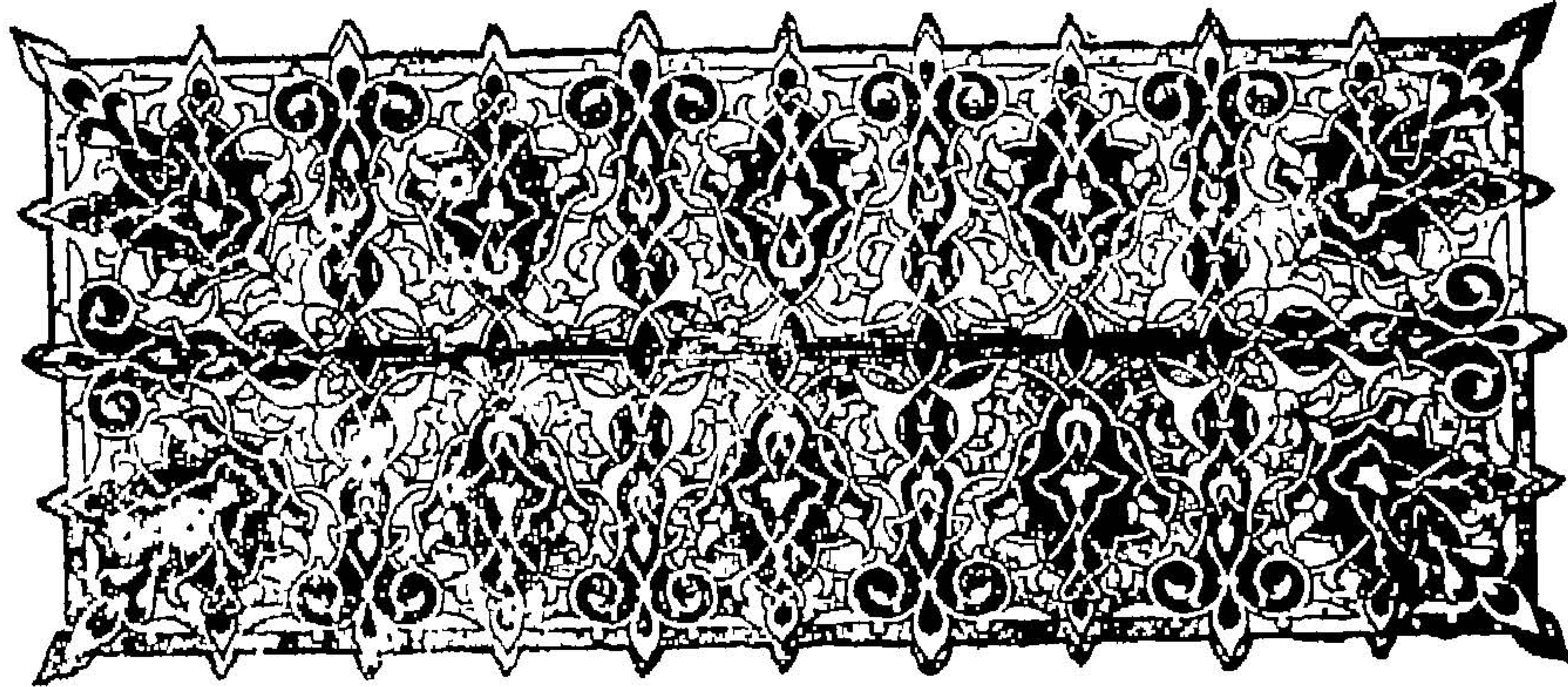

اقام المجمع فى دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع فى الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٥ من فبراير سنة ١٩٧٢ ، حفل تأبين للدكتور قدرى حافظ طوقان عضو المجمع من الأردن . وفيما يلى ما ألقى فى الحفل:

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم

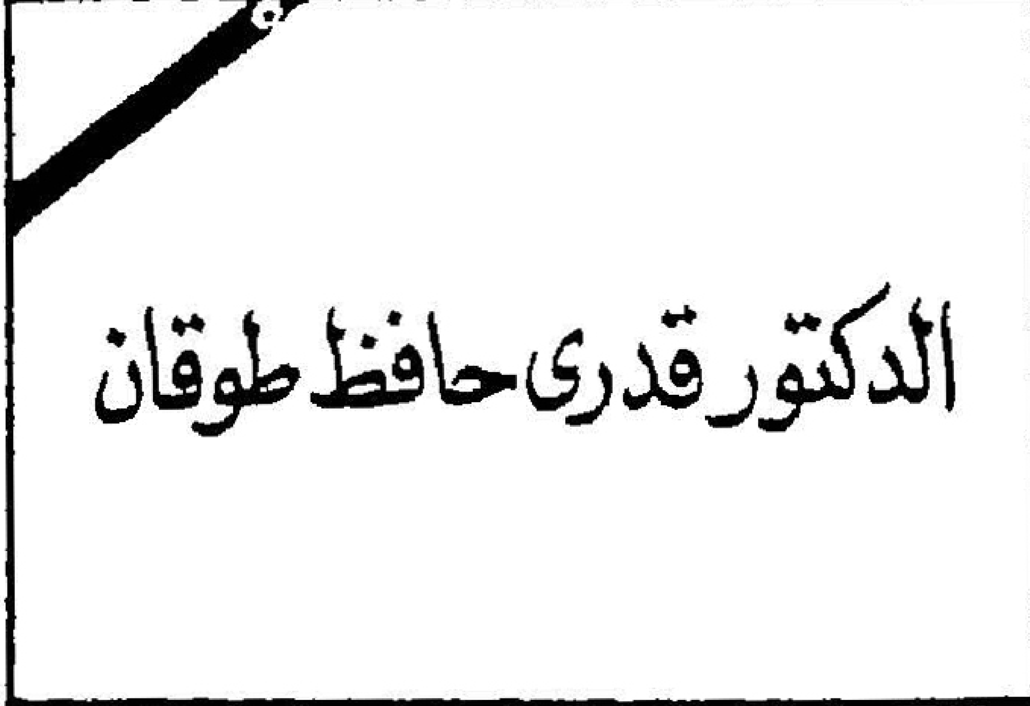

سادتى

إنه ليعز علينا أن نجتمع الليلة لتأبين زميل كريم وعالم جليل هو المغفور له الأستاذ الدكتور قدرى حافظ طوقان .

لقد تركت وفاته فى نفوسنا الحزن ، وأعمق الأسى :

لقد كان رحمه الله — يتابع أعمال المجمع عن كثب ، وكان عاملا نشيطاً يمدنا بكثير من بحوثه ومقالاته ، وقد نشرنا له فى مجموعة البحوث ثلاثة لها بحوث قيمتها وأثرها .

على أن الفجيعة فى طوقان ، ليست فجيعة المجمع وحده ، أنها فجيعة الأمة العربية بأمرها لأنها فجيعة العلم والعلماء فى كل قطر عربى.

لقد استطاع — طيب الله ثراه — بمؤلفاته ومقالاته أن يجلو أمامنا أمجاد العرب العلمية ، وأن يؤكد لنا ما سبق أن أكده بعض المنصفين من علماء الغرب من أن الطريقة الحديثة فى البحث العلمى مدينة بنشأتها وتنظيمها لجهود علماء العرب .

ففى الوقت الذى كانت فيه أمريكا لا تزال فى عالم الخفاء وكانت أوربا لا تزال تعيش فى جهالة جهلاء ، وظلمة عمياء ، كانت للعرب طاقات علمية مبدعة خلاقة ، تبحث وتحلل وتلاحظ وتجرب وتصل إلى نتائج علمية ، كان لها أثرها وخطرها فى نهضة أوروبا .

على أن الفقيد — رحمه الله — كان من رجال العلم القلائل الذين اجتمعت لهم دقة العالم وخيال الأديب ، وعهدنا بكثير من رجال العلم أنهم لا يحفلون بالأدب ، ولا يقيمون له وزناً فى حياتهم ، ولكن فقيدنا — رحمه الله — كان يعنى بالأدب عنايته بالعلم ، كان عالماً أديباً ، أو أديباً عالماً . وإذا كان العلم يمثل العقل الإنسانى فى أعمق صوره ، فإن الأدب يمثل العاطفة الإنسانية فى أنبل صورها ومظاهرها .

لهذا كان الفقيد يعنى بالأدب عنايته بالعلم. إن النزعة الأدبية لم تفارقه حتى وهو يعالج مسائل العلم . فإذا كان العلم من شأنه أن يدربنا على التفكير المنطقى وعلى التماس الحق ،

وعدم الاسترسال مع العواطف ، ويكشف لنا عن أسرار الكون وأعاجيبه ، فإن الأدب يعالج النفس الانسانية فى جميع مظاهرها ويضىء فى نفوسنا تلك الجوانب المظلمة. وهو كذلك يضفى على أذواقنا رقياً وتهذيباً وجمالا »

ويحضرنى فى هذه المناسبة كلمة قالها (داروين) وهو العالم المشهور صاحب نظرية أصل الأنواع ، قال فى أسى وحسره ما معناه : إن كثرة مزاولتى للعلم قد أفقدتنى القدرة على تذوق الشعر والأدب حتى لقد حاولت أن أقرأ شيئاً لشكسبير فلم أظفر منه بطائل ، ولئن أتيح لى أن أبدأ حياتى مرة أخرى لأفرضن على نفسى قراءة الأدب والشعر كل يوم .

رحم الله الفقيد وجزاه عما قدم للأمة العربية خير ما يجزى به عباده المخلصين العاملين . أما الآن أيها السادة — فسيتولى تأبين الفقيد نيابة عن المجمع الزميل الدكتور عبد الحليم منتصر ، فليتفضل مشكوراً .

كلمة الدكتور عبد الحليم منتصر

لعمرى لئن خطفتك المنايا
ووارتك تحت ظلام الحفر
فما زلت فى كل نفس تعيش
عبيرا زكا وضياء غمر

أيها السادة :

يعز على نفسى جدا ، أن أقف فى مكانى هذا ، مؤبناً صديق العمر ، زميلنا وفقيدنا العظيم الدكتور قدرى طوقان الذى شارك فى جميع المؤتمرات العلمية العربية التى عقدت فى العواصم العربية ، وكان خير سفير علمى للفكر العربى فى الدول الأجنبية ، وقف حياته على الدراسة والبحث الخصب ، وأنشأ مكتبة تضم الألوف من الكتب والمخطوطات النادرة ، وكتب ونشر وأذاع مئات المقالات والأحاديث والمحاضرات فى كثير من الحواضر العربية والأجنبية .

لقد كنا فى مطلع نهضتنا العلمية ننقل المعرفة عن غيرنا نقلا ، ونظن أنها علوم مستوردة كلها من الخارج ، حتى جاءت المدرسة العظيمة والشجرة الباسقة يتزعمها المرحومون مصطفى نظيف وعلى مشرفة وعبد الحميد حمدى والأمير مصطفى الشهابى وقدرى طوقان وأصواتهم تجلجل فى المؤتمرات العلمية مصححة تاريخنا العلمى ومطعمة شجرة المعرفة لدى الأجيال الصاعدة بثقافة علمية عربية أصيلة ، وغدت أسماء ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمى والبيرونى والصوفى وابن يونس والخازن

وجابر وغيرهم كثير . غدت مألوفة لدينا وغدا فضلهم معترفاً به بيننا ، وعرفنا أننا لسنا دخلاء على المعرفة العلمية وإنما نحن أهل أصالة فيها ، وقدرنا فضل هؤلاء على النهضة العلمية العالمية ، هذا الفضل الذى اعترف به المنصفون من الأجانب ، فقالوا إن الحضارة المصرية القديمة هى ينبوع الحضارات جميعاً وإن الحضارة العربية الإسلامية هى النبع الأصيل للعلوم الطبيعية من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وطب ونبات وحيوان ومعادن ، هى النبع الذى تزودت منه النهضة العلمية الأوروبية وإن العلماء العرب فى العصر الإسلامى هم الذين قدموا لأوروبا زاد نهضتها العلمية . ومن الحق أن نقول إن فقيدنا العظيم كان أيسر هؤلاء حركة وانتقالا بين العواصم الأوروبية والعربية ، فكان خير سفير للفكر العلمى العربى فى كل رجا من أرجاء العالم حملته إياه قدماه . ويفضل هؤلاء الأعلام امتدت جذور شجرة ثقافتنا العلمية إلى منابعها الأصيلة ، وأصولها العربية العميقة ، فاستقام عودها وامتدت فروعها ، وكثفت أوراقها واخضوضرت براعم وأغصانا ، وعرفنا فضل الخوارزمى على الحساب والجبر وأن ابن مسكوية وابن خلدون وإخوان الصفا ، قد سبقوا داروين ولا مارك فى فى القول بالتطور وأثر البيئة على الأحياء ، وأن الخازن قد سبق تورشيلى ونيوتن ، فى القول بالجاذبية ، وأن ابن الهيثم قد سبق ديكارت وغيره فى الضوء ونظرياته .

وأن جابراً أول من أسس الكيمياء على دعائم التجربة الصحيحة الدقيقة ، وأن الصوفى كان نقطة تحول فى علم الفلك ، وأن الرازى وابن سينا والزهراوى كانوا بمثابة المصابيح التى أضاءت منها أوروبا قناديلها فى القرون الوسطى فى علوم الطب ، وأن ابن النفيس قد سبق هارفى فى كشف الدورة الدموية الصغرى ، وأن الجاحظ لم يكن إماما من أئمة الأدب فحسب بل إنه لإمام فى العلم التجريبى كذلك بما أجرى من تجارب علمية على الحيوان . وان ابن الهيثم سبق باكون فى القول بالطريقة العلمية ، وأن ابن يونس مكتشف البندول لا جليليو كما يقال عادة . وأن ماتعرفه أوروبا باسم قاعدة البيرونى أو معادلة البيرونى لإيجاد نصف قطر الأرض ، إنما هو فضل يجب أن يعرفه أبناؤنا ومن الخير أن نذكر أن فقيدنا العظيم كان الفارس المجلى فى هذا الميدان ، ميدان تحقيق التراث العلمى العربى والتعريف به فيقول : إن الروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين ، إنما تتجلى فى إخلاصهم للحقيقة ، وتمجيدهم للعقل ، والتقيد بأحكامه ، مما دفعهم فى كثير من الأحيان إلى مخالفة فلاسفة اليونان .

كما ظهرت روحهم العلمية ، فى عدم إيمان كثير منهم بالتنجيم والدعوة إلى إبطال نظريات تحويل المعادن إلى ذهب وأنهم يدفعون إلى صميم الموضوع فى دقة وإيجاز وضبط وإحكام ، تسيطر على هذا كله روح علمية صحيحة وكذلك امتاز أسلوب

الفارابى المعلم الثانى ، وابن سينا المعلم الثالث بالعمق والدقة والاعتماد على المنطق لأنه الآلة العاصمة للذهن من الخطأ ، ومع اعترافهما بفضل المعلم الأول أرسطو ، إلا أنهما يخالفانه فى أشياء ويقولان إنه لا ينبغى أن يختار على الحق . ويورد اعتراف باكون بابن رشد كفيلسوف يتعمق ، صحح كثيرا من أغلاط الفكر وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لايستغنى بها عنها لسواها . وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلوما لأحد . وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه وأثبت أن الغرب اقتبس فلسفة ابن رشد ، وكان من حسناتها أن حلت عقال الفكر الأوروبى ، وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها ، وكيف أن الغزالى قد جعل أول شرائط البحث عن الحقيقة أن يكون الباحث ذا عقل مستقل تماما ، فالحقيقة لايمكن الوصول إليها إلا عن طريق بحث حر مختار . وقد ندد فى جميع أعماله وبحوثه بالتفكير الموسوم بالتبعية والتقليد .

ويورد أقوالا مشابهة كثيرة لابن الهيثم والكندى والبيرونى ، يتحدث عن شجاعة البيرونى الفكرية وحبه للاطلاع العلمى ، وبعده عن التوهم وإخلاصه للحقيقة وتسامحه. ويبين كيف أنه كان فى الواقع عبقريا مبدعا ، ذا بصيرة شاملة نافذة . وقول ابن طفيل بأهمية التجارب وأن أسرار العالم العربى المادى لا تفهم ولا تعرف إلا عن طريق التجارب المتكررة بعد الملاحظة وإعمال العقل ، فالاشتغال بالأمور المادية والصناعات والعلوم هى الخطوة الطبيعية الأولى فى سبيل الكمال الروحى ، ودعوة ابن خلدون أن يفكر العالم فيما تؤدى إليه التجربة الحسية ؛ وكيف حارب التنجيم بالأدلة العقلية، وقوله إن الاشتغال بالكيمياء قصد الحصول على الذهب مضيعة للوقت ، قد انتحلها واشتغل بها بعض العاجزين عن معاشهم بالطرق الطبيعية وابتغاء المعاش من غير وجوهه الطبيعية .

وإن فقيدنا العظيم ليدعو الأمة العربية إلى الأخذ بالروح العلمية التى تجلت فى التراث العربى عند العلماء العرب والمسلمين تلك الروح التى تمجد العقل وتدعو إلى التجربة والتجديد واحترام الأمانة العلمية والإخلاص للحق والحقيقة ، وتقديس حرية الفكر والانعتاق من أغلال التقليد وتدفع إلى التطور ، وبذلك يدفع المجتمع العربى إلى التقدم المستمر والنمو المتواصل ، وتحول دون تعطيل العقل وتجميده ؛ فينطلق متحركا خلاقا منتجاً فى سائر ميادين الحياة . ويذهب فقيدنا العظيم فى بحثه عن فاعلية الفكر العربى فى نقد الفكر اليونانى ، إلى أن الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت ، فقد قام أصحابها العرب بدورهم فى تقدم الفكر وتطوره بأقصى الحماسة والفهم ؛ ولم يكونوا مجرد ناقلين كما قال بعض المؤرخين ، بل

إن فى نقلهم روحا وحياة ، وكذلك لم يكن ميكانيكيا فهو أبعد ما يكون عن الجمود .

ففى فلسفتهم عناصر يونانية وهندية وفارسية ، ثم إن فيها ثمرات عبقرية أهلها، خالفوا أرسطو وأفلاطون وجالينوس — وبطليموس. ويؤيد ماذهب إليه سارتون بأنه لو لم ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، لتأخر سير المدنية عدة قرون ، وأنه كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والبيرونى والصوفى حتى يتسنى ظهور جاليليو وكبلروكوبرنيق . وأنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية . وأن العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم وأنهم قد نقدوا واتقنوا وعملوا على تحسين وتصحيح وإنماء التراث اليونانى حتى سلموه إلى العصور الحديثة ، وما كان التحسين ، والتصحيح والإنماء ليتم لولا النقد والتمحيص . فقد وضعوا الكتب والمقالات فى الشكوك على بطليموس وتصحيح أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون .

ويورد قول ابن الهيثم فى الشكوك على بطليموس : « الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر » ، ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة، يعنى بطليموس القلوذى، وجدنا فيها علوما كثيرة ، ولما درسناها وميزناها ، وجدنا فيها مواضع مشبهة وألفاظا بشعة ومعانى متناقضة إلا أنها يسيره فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة ، ورأينا فى الإمساك عنها هضما للحق وتعديا عليــه ويعرض لآراء الكندى الجريئة فى نشأة الحياة على الأرض وفى زرقة السماء الناشئة من انعكاس الضوء على ذرات الغبار وبخار الماء العالق بالجو ، وأثر القمر فى حركة المد والجزر ، ولآراء ابن حزم فى أثر النجوم والكواكب، وقوله: ليس لها تأثير فى أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الغذاء لنا وكتدبير الماء والهواء ونحو أثرها فى المد والجزر ، وكتأثير الشمس فى عكس الحر وتصعيد الرطوبات . والنجوم لا تدلل على الحوادث المقبلة — ويبن كيف أن ابن الهيثم قد قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علما جديدا ، فقد أبطل علم المنــاظر وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث وبالحدود والأصول التى نريدها الآن ، وأن أثر ابن الهيثم فى هذا لايقل خطورة عن أثر نيوتن فى الميكانيكا ويشرح رأى ابن طفيل ومخالفته للكثيرين من معاصريه ومن الذين سبقوه من فلاسفة اليونان ، إذ قال بوحدة القوانين والأنظمة الكونية وشمولها ، ممــا يسيطر على النبات والماء والهواء والجماد يسيطر على الحيوان والإنسان وسائر الموجودات ، وأن العــالم بجملته كشىء واحد يتصل بعضه ببعض ويتحرك فى دائرة من الأنظمة والقوانين لا يخرج عليها ولا يشذ عنها ؟

ويتابع عالمنا عرض هذه الصفحات المشرقة من التراث العلمي العربي ، موضحا أن العرب لم يكونوا مجرد نقلة أو مقلدين وأنهم لم يصبهم شلل الفكر ، بل لجأوا إلى العقل فجعلوه المرجع والأساس ولجأوا كذلك للامتحان والتجربة والدرس والبحث ، فنفذوا نظريات وآراء فلاسفة اليونان وعلماء الإسكندرية وخالفوهم في القضايا والأحكام ، وعدلوا بعضها وصححوا بعضها الآخر ، ولم يعبأوا بالمصدر أو القائل ، بل ركزوا عنايتهم واهتمامهم بالنظرية أو الرأى والقول ، ولهذا أضافوا إلى المعرفة الإنسانية إضافات هامة ، يرى فيها المنصفون من الثقات والباحثين الغربيين عملا هاما من عوامل التقدم العلمي والنهضة العلمية الحديثة ، حتى قال دى فو : إن الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام عليه ، أما العرب فقد اتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه إلى العصور الحديثة . وكذلك ظل عالمنا يردد هذه الآراء في المؤتمرات والمحافل التي كان يرتادها ممثلا الأردن ، بل الدول العربية جمعاء على مدى ربع قرن من الزمان ، وما أشك في أنه نجح إلى أبعد الحدود في تبيان فضل العرب على الحضارة العلمية .

ولابد لى من الإشارة إلى دور فقيدنا العظيم في إنشاء الاتحاد العلمي العربي ومحاضراته في مؤتمراته المختلفة ، وكانت شعبة الأردن أو الاتحاد العلمي الأردني ، أول شعبة تتكون في هذا الاتحاد ، وكيف شارك في اجتماع اللجنة التأسيسية في بيت مرى بلبنان ، وكان رحمات الله عليه لايفتأ يدعو إلى التعاون العلمي بين العلماء والباحثين في العالم العربي باعتباره عنصرا أساسيا في نهضة العلم وأنه لا يمكن للبلاد أن تتقدم ولا أن يرقى مستواها المادى والاجتماعى إلا على أسس علمية سليمة وأن هذه المؤتمرات دلت على وعى علمى كما أنها تنبيه للشعوب العربية بأن العلم هو القوة الفعالة التى تنقل العرب إلى آفاق جديدة ، تحررهم من الماضى ومقاييسه ، وأنه طريق الرخاء والصحة وهو القوة بجميع معانيها .

أما روحه المرحة ، فقد كانت طبيعة فيه لا اصطناع فيها ، ولذا كان نجم كل مؤتمر وكل ندوة وكل اجتماع ، إنه مركز الاشعاع والإشراق الذى يتحلق حوله المجتمعون ، يستمتعون بحلو حديثه وطريف تعليقاته وعمق فكره وآرائه ، إنه الرفيق الذى لا تمل صحبته أبداً ولا تشبع من عذب حديثه أبداً . وهو في العيد الألفى لابن سينا كأنما تسمع متخصصا في أعمال ابن سينا باحثا منقبا في ابن سينا وأعماله العلمية ، وفي العيد الألفى للبيرونى كأنما هو الدارس المتخصص لأعمال البيرونى ، وحين يعرض لأعمال ابن الهيثم أو الكندى أو الرازى أو الصوفى أو الفارابى فكأنما صرف عمره كله في دراسة مئات الدراسات والكتب التى تركها هؤلاء ، فهو يحيط بها إحاطة شاملة ويعرضها عرضا أميناً وافياً ، لا يكاد يترك منها شاردة ولا واردة ، إنما هى دراسة استقصائية يعرضها في عمق وإيجاز .

وهو فى اشتغاله بالحركة الوطنية ، كأنما هو الزعيم الذى نيط به قيادة الحركة الوطنية ليسنم بلاده ذرا المجد والاستقلال ، كما كان داعية إلى اتحاد الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج .

لقد ولد عالماً فى مدينة نابلس بالأردن سنة ١٩١١ وتخرج فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ١٩٢٩ متخصصاً فى العلوم الرياضية ومثل بلاده فى أكثر من خمسة وعشرين مؤتمرا علمياً وثقافياً وإنسانياً فى البلاد العربية والغربية فى سويسرا والهند والباكستان وإيطاليا وأسبانيا ومصر والكويت ولبنان والمغرب والعراق ودمشق وهو عضو فى المجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمى لدول البحر المتوسط بايطاليا ورئيس الجمعية الأردنية للعلوم وعضو اللجنة القومية وعضو مجلس الاتحاد العلمى العربى بالقاهرة وعضو مجلس أمناء الجامعة الأردنية وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ ١٩٦١ ، وانتخب نائباً للرئيس فى المؤتمرات العلمية العربية جميعاً ومؤتمر المفكرين فى لاهور ومؤتمر التعريب فى الرباط .

أما عن كرمه وبسطة يده ، فيكفى أن أذكر إصراره على دعوة وفد مصر فى مؤتمر الخريجين بالقدس فى الخمسينيات الوسطى . وكان يزيد على مائة وخمسين عضوا فلما راجعته فى ذلك ترك لى الخيار أن أدعو له من أشاء فدعوت نحو الخمسين .

أعد لهم رتلا من السيارات نقلتهم من القدس إلى نابلس ، حيث نعموا بكرم ضيافته وأمضوا يوماً لا أظن واحدا منهم ينسى قدرى الكريم المضياف صاحب المكتبة الزاخرة بالمؤلفات النادرة ولا المصانع التى يديرها ولا كلية النجاح التى يشرف عليها ، ولا هداياه الرمزية التى لا يفتأ يغمر بها أصفياءه وأصدقاءه .

أما وفاؤه لأصدقائه فلا أكاد أعرف له ندا فى هذا الوفاء ، فهو حين يحل مصر ، لا بد أن يتصل بأصدقائه وأن يزورهم ، وأن يحمل لهم التذكارات وفى الحق أن أصدقاءه هنا ، كانوا يبادلونه الود والوفاء ، فما يعلمون بوجوده بين ظهرانيهم حتى يهرعون إليه للتحية والسلام ، وما ذلك إلا أنه أهل لكل تقدير ووفاء .

لقد أذاع عالمنا عشرات الأحاديث العلمية فى الأقطار العربية والأوروبية ، وكتب العديد من المقالات وألقى الكثير من المحاضرات فى العلم والتوجيه العلمى .

ونال عالمنا أرفع الأوسمه من الأردن والمغرب ، كما نال وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى عيد العلم العاشر فى سنة ١٩٦٤ بالقاهرة ، وذلك تقديرا لجليل خدماته للعلم والقومية العربية ، ومنحته جامعة البنجاب فى الباكستان درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٦٥ .

ولايتسع المقام لعرض أعماله العلمية ، ومعظمها يدور حول تراث العرب العلمى ، وله كتاب بهذا العنوان طبع ثلاث مرات ، عالج فيه أعمال العلماء العرب فى العصر الإسلامى ، أشاد فيه بأفضالهم على العلم والحضارة العلمية وقال بحق إنهم كانوا واسطة العقد بين العصرين الإغريقى والإسكندرى من ناحية وبين عصرى النهضة الأوروبية والعصر الحديث واستشهد بأقوال كثير من المستشرقين من أمثال سارتون ونيللينو سميث وبرنال وغيرهم . وبين بما لا يدع مجالا للشك فضل الحضارة العربية على النهضة العلمية الأوروبية . ثم الأسلوب العلمى عند العرب ، والنزعة العلمية فى التراث العربى والعلوم عند العرب وقد طبع عدة مرات ، ومقام العقل عند العرب ، وأثر العرب فى تقدم علم الفلك ونشاط العرب العلمى . ذلك إلى جانب مؤلفات ومحاضرات أخرى مثل نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، والكون العجيب ، وبين العلم والأدب ، وجمال الدين الأفغانى « والعيون فى العلم » « وبعد النكبة » ، و« وعى المستقبل » « والخالدون العرب » و« بين البقاء والفناء » « وابن حمزة والتمهيد إلى اللوغاريتمات ، كما ألقى أمامنا فى المجمع ثلاثة بحوث قيمة هى » الروح العلمية عند علماء العرب والمسلمين » ، و« التعاون بين العلماء والباحثين فى البلاد العربية » و« فعالية الفكر العربى فى نقد الفكر اليونانى » .

لقد عمل فقيدنا وزيرا للخارجية فى الأردن عام ١٩٦٤ ، وكان من أهم منجزات الوزارة حينذاك تحسين العلاقات بين الأردن ومصر وبقية الدول العربية ، وكانت طبيعته المرحة تتجافى ومقتضيات هذه المناصب ، فكان يصرف من يتولون حراسته سواء فى الأردن أو فى خارجه ثم أن طبيعته الصريحة والحرة إلى أبعد الحدود لم تتح له البقاء طويلا فى مثل هذه المناصب التى قد تحتاج إلى مؤهلات أخرى لم تكن متاحة لصاحبنا .

لقد عمل فقيدنا منذ تخرجه مدرساً بكلية النجاح الوطنية بنابلس ثم تولى إدارتها منذ خمس وعشرين سنة ، وإن هذه الكلية لمدينة لعالمنا بكل ما وصلت إليه من نجاح وازدهار وقد علمت أن إدارتها فكرت فى إقامة تمثال له يقوم على صنعه مثال مصرى . كم أرجو أن يتولى مجمعنا الدعوة إلى أن تسهم مصر فى نفقات صنع هذا التمثال وإقامته ، فقد كان فقيدنا مثالا فى عروبته ومتفانيا فى حب مصر والمصريين . وإنى لأقترح تخليدا لذكراه أن يتبنى المجمع الدعوة لإنشاء كرسى لتاريخ العلم عند العرب فى إحدى الجامعات العربية فى أى من البلاد العربية وليكن جامعة الأردن أو الجامعة العربية فى بيروت ؛

وكذلك عاش فقيدنا كتلة من النشاط والحركة والبحث والدرس والكتابة والنشر والسفر ، حتى وافاه القدر المحتوم وهو فى طريقه إلينا ظهر يوم ٢٦ من فبراير ١٩٧١ ، اختطفه الموت فجأة فى بيروت وإن مقعده فى الطائرة التى تغادر بيروت إلى القاهرة لينتظره فى عصر نفس اليوم ، رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له الثواب بقدر ما أعطى للعلم والأمة العربية وتراثها العلمى من خدمات ، وأحسن عزاء آله وذويه ومحبيه وعارفى فضله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

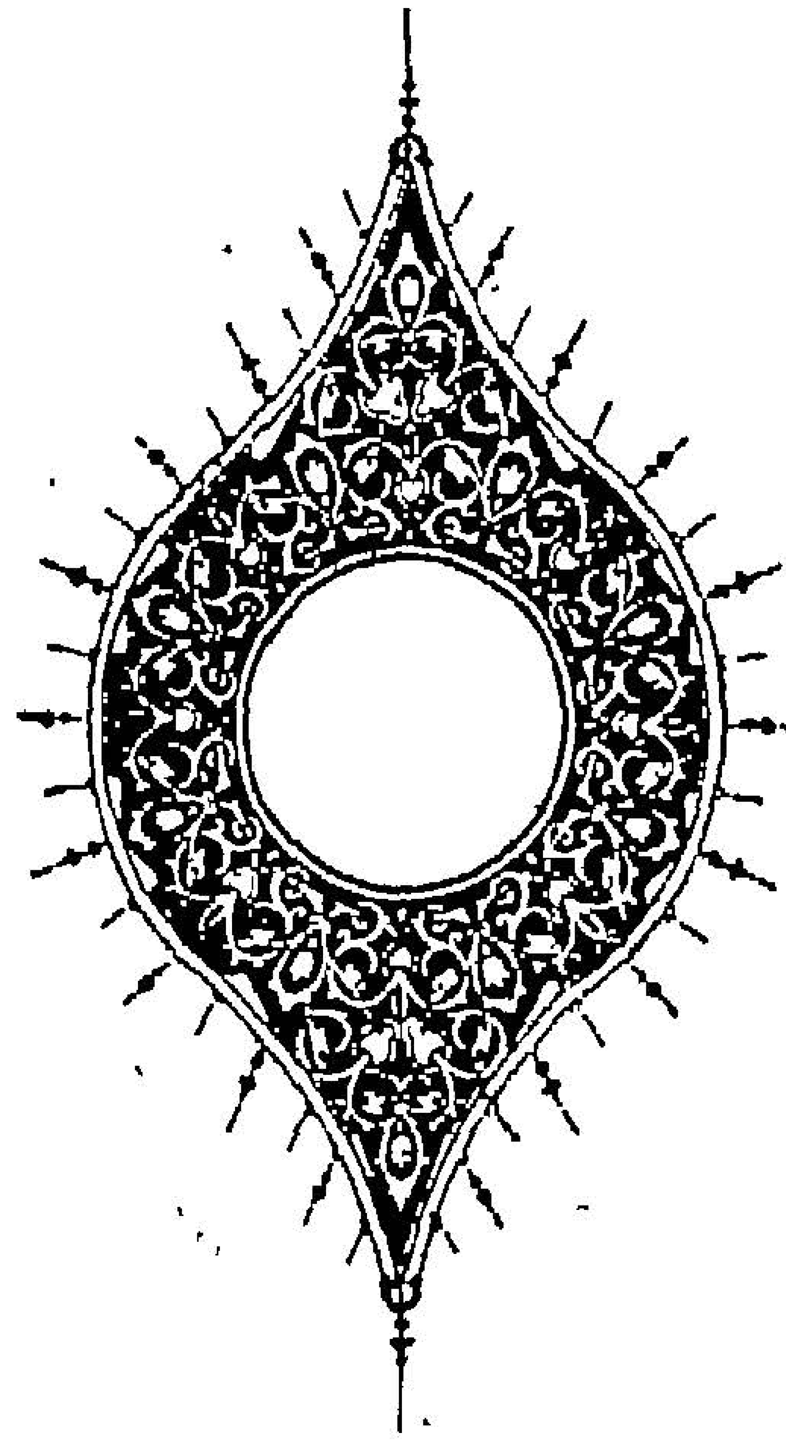

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١٣ من المحرم سنة ١٣٩٢هـ الموافق ٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٢ اقام المجمع فى داره حفل تأبين للأستاذ السير هاملتون الكزاندر رسكين جب عضو المجمع من انجلترا ، وفيما يلى كلمة التأبين التى القيت فى الحفل :

كلمة الدكتور مهدى علام فى تأبين

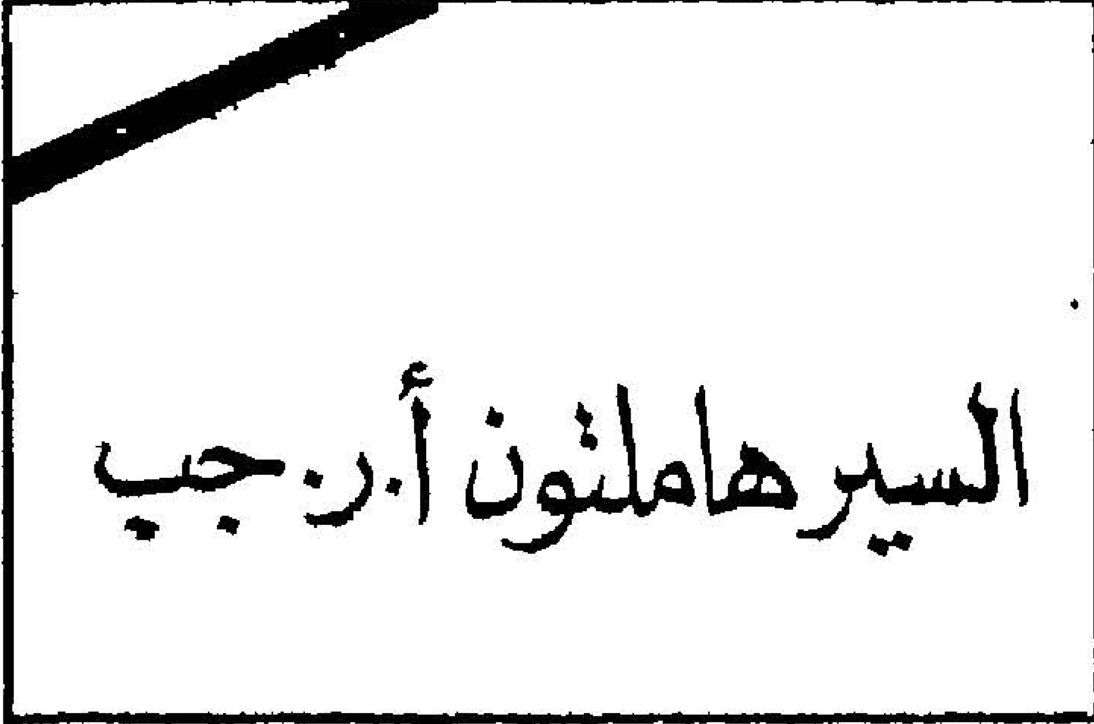

فى خريف سنة ١٩٢٥ ، فى مدخل مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، عرفنى الأستاذ سير توماس آرنولد بشاب سامق حيى هادئ الحركات ، يكاد يبدو مشغولا عن محدثه وقال لى : هذا مستر جب ، مساعدى فى تدريس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية ولم يكن عملى يتصل بعمله مدة دراستى هناك ، ولكننا كنا نلتقى فى الفينة بعد الفينة لتبادل تحية قصيرة ، أو لحديث موجز عن أصل كلمة عربية .

وفى شتاء عام ١٩٢٨ ، وكنت قد عدت إلى مصر ، اتصل بى هذا الأستاذ ، فتقابلنا على فنجان شاى فى القاهرة ، وسارع إلى موضوع المقابلة ، سائلا عن مؤلفات بعض رجال الفكر المعاصرين فى مصر ، فذكرت له ما أعرفه منها ، مع تعليقات وجيزة عن رأيى فيها اعتقادا منى أنه كان يرغب فى هذه التعليقات . وحدث أننى لم أذكر مؤلفات عالم شهير فى ذلك الوقت ، فسألنى عنها ، فقلت له إننى لم أذكرها لأننى أعتقد أنها كتابات لا تهمك باعتبارك متخصصا فى الأدب العربى ، ولأنها فى رأيى كتابات كانت تمثل مرحلة قد انقضت فى حياتنا الثقافية ، وأنها ليست مما يشغل بال الأدباء اليوم .

وهنا أدركت لأول مرة أننى لم أكن أمام رجل يقصر بحثه على الأدب العربى ، بل كنت أمام أستاذ يؤرخ للفكر العربى الإسلامى ، فقد أخبرنى أنه لا يعنيه موضوع هذه الكتب ولا مدى قبول ما فيها من أفكار . إنه يبحث عن كل ما خطته أقلام المؤلفين فى مصر ليؤرخ له بل إن دائرة بحثه قد اتسعت ، كما نعرف من مؤلفاته التى أخرجها فى نحو نصف قرن بعد ذلك ، حتى شمل نشاطه العلمى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين ، ولم يحتل الأدب إلا منزلة لا تتميز عن سائر هذه الفروع من المعارف ، إن لم تكن أقلها .

وكادت الصلة تنقطع بيننا منذ ذلك اليوم ، حتى رأيت اسمه فى المرسوم الذى صدر فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٣٢ بإنشاء مجمع اللغة العربية ، فاذا هو واحد من عشرين علما من أعلام اللغة العربية وأدبها ، يمثلون مصر ، وسائر العالم العربى ، وخمسة من كبار المستشرقين يمثلون : إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وهولندة .

وكان فقيدنا أصغر هؤلاء العشرين سنا ، بل كان عمره أقل من متوسط عمر الأعضاء بنحو عشرين عاما ، وأقل من سن بعض الأعضاء بأربعين سنة ؟

هذا هو الفقيد الذى نجتمع اليوم لتأبينه فى المجمع الذى اتصلت حياته العلمية به منذ أربعين سنة .

ولد هاميلتون الكزاندر وسكين جب فى الاسكندرية ، فى الثانى من يناير سنة ١٨٩٥ من سلالة اسكتلندية أبا وأما ، وكان والده مديرا لمزرعة تابعة لجمعية استصلاح الأراضى الزراعية .

وفى سن الخامسة أرسل هاميلتون الصغير إلى استكلنده ليتعلم هناك . وقضى فى هذه المرحلة اثنى عشرة عاما ، حتى سنة ١٩١٢ . وفى خلال تلك المدة حضر إلى مسقط رأسه مرتين لقضاء الصيف مع والدته التى كانت ما تزال تقيم فى مصر .

وقد شملت دراسته فى هذه المرحلة اللغتين العريقتين اليونانية واللاتينية ، واللغتين الحديثتين الفرنسية والألمانية ، كما شملت العلوم الطبيعية .

وفى سنة ١٩١٢ التحق الشاب الذى كان فى سنته الثامنة عشرة بجامعة أدنبرة . وهنا ظهر له ميل يمكن أن نعزوه إلى ميلاده فى بلد عربى قضى فيه باكورة حياته ، فقد التحق فى السنة الجامعية الأولى بشعبة الدراسات السامية ، لدراسة اللغة العربية والعبرية والآرامية وكان أستاذه فى اللغة العربية هو الأستاذ ادوارد روبرتسون الذى سعدت بزمالته بعد ذلك بربع قرن فى جامعة منشستر اثنتى عشر سنة : وكثيرا ما حدثنى عن تلميذه النجيب هاميلتون جب . وكان له أثر كبير فى تحبيب دراسة اللغة العربية اليه

وانقطعت دراسة جب الجامعية بقيام الحرب العالمية الأولى ، فقد التحق بالجيش سنة ١٩١٤ وخدم فى فرنسا من سنة ١٩١٧ حتى إعلان الهدنة سنة ١٩١٨

ثم عاد إلى الجامعة وحصل فى سنة ١٩١٩ على درجة الليسانس (بنظام الحرب) وهى درجة أنشأتها الجامعات البريطانية للطلاب الذين قطعوا دراساتهم الجامعية للالتحاق بالقوات المسلحة باسم War Degree

والتحق بعد ذلك بمدرسة اللغات الشرقية بلندن . وكانت وليـدة الحرب ، ولكنها ضمت إلى جامعة لندن كلية من كلياتها . وحصل منها على درجة الماجستير فى اللغة العربية سنة ١٩٢٢ ، وعين مدرسا مساعدا فيها ، وكان موضوع رسالته « الفتوحات العربية فى وسط آسيا » .

وهنا تحدد فى ذهنه المنهج العلمى الذى أراد أن ينتهجه فى حياته ، وهو التأريخ للحياة العربية الإسلامية ، فى سياستها واجتماعها واقتصادها ودينها . وأعتقد أننى لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه كان لأستاذه العظيم ، سير توماس آرنولد ، أثر مباشر فى هذا الاتجاه فقد كان هذا العلامة أستاذا للتاريخ الإسلامى فى جامعة لندن ، وكان جب مساعدا له .

وقد قام فى المدة التى كان يعمل فيها معه برحلتين علميتين ، إحداهما فى شمال أفريقية ، والأخرى فى الشرق الأوسط .

وفى سنة ١٩٢٩ عين فى جامعة لندن بلقب "Reader" للتاريخ الإسلامى واللغة العربية ويعبر هذا اللقب فى الجامعات الإنجليزية عما نسميه فى جامعاتنا أستاذا بدون كرسى ، ولما خلا الكرسى فى سنة ١٩٣٠ بوفاة أستاذه ، سير توماس آرنولد ، شغله هذا الأستاذ الذى كان بمقياس السن شابا صغيرا ، حتى لقبه المستشرق ليفى دلا ڤيدا بالأستاذ الحدث السن "The young professor"

وكما خلف أستاذه فى الكرسى الجامعى ، خلفه كذلك فى الإشراف على دائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٣١ ؛ وكان هنا كذلك أصغر المشرفين على هذه الدائرة سنا. كان أصغر من ليفى دلاڤيدا بتسع سنوات ، ومن فنسنك بخمس عشرة سنة . وفى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية كان أحد المشرفين الأصليين ، بعد ما تجلى من جهده فى المدة التى حل فيها محل أستاذه فى الطبعة الأولى .

وبقى الأستاذ جب فى جامعة لندن من سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٧ حين خلا كرسى اللغة العربية فى جامعة أكسفورد من شاغله الأستاذ مرجوليوث ، فشغله فقيدنا من سنة ١٩٣٧ حتى سنة ١٩٥٥

وفى تلك السنة دعته جامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، أستاذا ومستشارا للدراسات العليا - وبعد ذلك بعامين عين مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط . وفى سنة ١٩٦٤ تقاعد مع بقائه مشرفا على ذلك المركز .

ولايتسع المقام للحديث عن النشاط العلمى للفقيد ، فكتاباته تملأ آلاف الصفحات ، ومحاضراته استمع إليها علماء البلاد العربية والاسلاميـــة ، وبعض البلاد الأوربيـــة والأمريكية .

وقد كرمته دول وهيئات علمية كثيرة . فقد منحته دولته لقب سير سنة ١٩٥٤ ، ومنحته فرنسا وهولندة بعض الأوسمة . وكان عضوا فى الأكاديمية البريطانية ، والأكاديمية الدانمركية ، والجمعية الفلسفية الأمريكية، وكان عضوا فخريا فى الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم ، وعضوا فخريا فى الأكاديمية الأمريكية للقرون الوسطى وعضوا مؤسسا فى مجمعنا هذا ، وعضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بدمشق ، وعضوا مراسلا بالمجمع العلمى العراقى .

وسأقتصر على لمحات من نشاطه .

فى هذا المجمع اشترك الفقيد فى لجنة رسم الحروف ، ولجنة الأصول ، ولجنة معجم فيشر ، ولجنة الأعلام الجغرافية ،ولجنة

اللهجات . وفى افتتاح دورة الانعقاد الثالثة سنة ١٩٣٦ جاء فى خطابه قوله :

« قد أشار الزميل المحترم السيد محمد كرد على بك إلى أن المجمـــع قد تجـاوز سن الرضاعة ، ويدخل الآن فى سن الحضانة ، واحتج بصغر سنه على من يلح عليه بأن ينوء بأعباء فوق طاقته الحالية .

والمجمع كله يؤيد ولا شك هذا الاحتجاج ومما يزاد على ذلك أن سن الحضانة هى فى الوقت نفسه سن التعليم والاستعداد لأعمال الرجولة ، وأن تجاربنا فى سنتى الطفولة قد برهنت على أن نجاح المجمع فى تأدية وظيفته نحو العالم العربى يتوقف على استعدادنا لسلوك طريق طويل المدى ، دارس المعالم - طريق الاكتشاف والتوسع ، وهو طريق لا يسلك إلا بشئ من الجرأة ، ولا يسلم من الضلالة فيه إلا من استعد له بكامل العدد ، وليس منا أحد إلا وهو يعترف بأنه تعلم فى الدورتين اللتين مضتا كثيرا . واوصرح لى بإشارة شخصية لقلت تعلم كثيرا جدا مما كان يجهله .

أما مدرستنا فليست محصورة بين هذه الجدر الأربعة ، بل تمتد إلى حدود العالم العربى وإلى ما وراءها . وياحبذا لو أن العالمين بأنواع العلوم والفنون الذين ينظرون إلى المجمع بعين العطف والإخلاص ، أجابوا دعوته إلى الاشتراك معه فى أعماله . ولن يتحقق صعوبة وظيفة المجمع فى القرن بين تيار الجديد وتراث القديم إلا من جربها . فويل للغة مصادرها ومعجماتها ، دون الشعور الحى للناطقين بها ، وويل أيضا للغة ينطق ويكتب الناطقون بها طوع أهوائهم ويضربون بمعجماتها عرض الأفق لذلك كان رجاؤنا إلى المخلصين المنتقدين جميعا أن لا يلزمونا التسرع فى إصدار الرأى قبل أوانه .

وبهذه الروح — روح الاجتهاد فى العمل ، وروح التعاون نتقدم إلى أعمال الدورة الثالثة عسى الله أن يوفقنا إلى أن نجعلها ، كما قال معالى الرئيس وباشرافه الكريم ، حافلة بالخير والبركة على اللغة » .

وفى مؤتمر الدورة الثالثة عشرة سنة ١٩٤٨ ألقى الفقيد كلمة جاء فيها :

« أفتتح كلمتى معترفا بالتقصـــير - أوبالأحرى بما يشبه التقصير - فى التخلف عن شهود المؤتمرين الماضيين . على أنى لم أقطع صلتى بالمجمع : فإنى لا أزال من أشد أعضائه تفاؤلا بمستقبله ، وإيمانا بمهمته .

وقد كنت خلال هذين العامين أعمل مع إخوانى المستشرقين فى انجلترا . وقصة عملنا طويلة ، وهذا موقف اختصار . وربماأتيحت لى فى غير هذه المناسبة فرصة لشرح التفاصيل وحاصل الأمر أننا : أساتذة اللغات والثقافات الشرقية فى انجلترا ، كنا فى هاتين السنتين متطوعين نجاهد فى توسيع نطاق الدراسات الشرقية فى جامعاتنا ، وقد تابعنا هذا الجهاد

فى جهتين مستقلتين ، جهة حكومية ، وأخرى داخلية .

فأما الجبهة الحكومية فقد ابتدأت بتأليف لجنة رسمية مثلت فيها كثرة الوزارات لبحث حالة الدراسات الشرقية فى الجامعات فاستمرت فى البحث أكثر من سنة ، بل نحو سنتين ، ودرست تقارير الجامعات والمستشرقين ، وأصدرت تقريرا يسمى تقرير سكار بارا ، دعت فيه إلى إرصاد مبالغ وافرة لتشجيع الدراسات الشرقية فى الجامعات ، وحث الطلبة المتميزين على التخصص فى هذه الدراسات .

وأما الجبهة الداخلية فقد جمعت أساتذة اللغات الشرقية وغرضها تنظيم الدراسات الشرقية فى جامعاتنا . والاستفادة مما كسبناه من التجارب أثناء سنى الحرب الماضية فى تعليم الضباط . وفى سنة ١٩٤٦ عقدنا مؤتمرا عاما فى أكسفورد بمناسبة مرور مائتى سنة على ميلاد سير وليام جونز (Sir William Jones) من أكابر المستشرقين فى القرن الثامن عشر . وقد اشترك فى هذا المؤتمر أساتذة اللغات والثقافات الشرقية ، وبحثوا فى أساليب التدريس ووسائل التعرف إلى الثقافة العربية والهندية وغيرها من ثقافات الشرق ، وكيفية نشرها بين الجمهور . وقد نجح المؤتمر نجاحا أكاد أقول غريبا . واتجه العزم إلى انشاء جمعية خاصة للمهتمين بهذه الدراسات ، لتواصل عقد المؤتمرات والأبحاث لتنظيم أعمالنا ونشر ثقافاتنا ، إذا سمحتم لى أن أقول ثقافاتنا . . . وقد ألفت هذه الجمعية فى مؤتمر عام انعقد فى كمبردج فى السنة الماضية ، وشرعت الجمعية فعلا فى القيام ببعض الأعمال .

وفى أثناء ذلك فتحت جبهة ثالثة ، هى جبهة ما وراء البحار ، فإن هذه الحركة فى انجلترا تردد صداها فى بعض الدوائر العلمية الأمريكية ، فدعت مؤسسة روكفيلر وفدا منا للاتصال بالمستشرقين فى جامعات أمريكا والاشتراك معهم فى بحث الأساليب الكفيلة بتشجيع الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية ، وتنظيم وسائل التعاون فى هذا السبيل ، بين الأساتذة الانجليز والأمريكيين وقد تم الاتصال المنشود ، ورسمت بعض الخطوط العملية للقيام بغرضين : تشجيع الدراسات الثقافية العربية فى الجامعات الأمريكية ، والتعاون على بث التعرف إلى الثقافة الإسلامية والعربية فى بلادنا .

وتلك هى الجبهات الثلاث التى كانت تعمل على تنظيم الجهود فى السنين الماضيتين وعسى أن يراها المجمع جديرة باهتمامه » .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن الفقيد توج أعماله العلمية بما قام به فى جامعة هارفارد ، ومركز دراسات الشرق الأوسط بها .

ومما يجدر بى أن اشير اليه ، بصدد إشراف الفقيد على دائرة المعارف الاسلامية ، أنه إلى جانب ذلك الجهد العلمى الشاق ، قد ساهم بنحو ثلاثين مقالة فى تلك الموسوعة

وكان من الطبيعى أن تكون مقالاته عن تاريخ بلاد وشخصيات عربية ، وموضوعات إسلامية . فمن ذلك مقالاته عن عدن ، والبحرين ، ومصر ، وحضرموت، واليمن ، وعبد العزيز بن سعود ، ومحمد على، وسعد زغلول ، وعن اللغة العربية ، والخلافة والدروز .

كذلك أود الإشارة إلى كتاباته عن أعمال بعض الزملاء المجمعيين . فقد كتب عن قاموس شرف ، وعن إحياء النحو للمرحوم إبراهيم مصطفى ، وعن قرية ظالمة الدكتور محمد كامل حسين .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية كان من حظى أن أترجم لسير هاميلتون مقالتين عن الأدب العربى ، نشرتا فى مجلة « الأدب والفن » الأولى فى العدد الثانى من السنة الأولى سنة ١٩٤٣ والثانية فى العدد الأول من السنة الثالثة سنة ١٩٤٥ . وأعيد نشرهما فى كتابه « دراسات فى حضارة الإسلام » سنة ١٩٦٢

"Studies on the civilization of Islam"

ومما جاء فى المقالة الثانية بعنوان « نشأة الإنشاء الأدبى » محاولة الكاتب فى تعريف الأدب ، إذ يقول :

« الأدب ، كما هو معروف لكل إنسان كلمة اصطلاحية تدل على إنتاج إنشائى من طراز خاص باللغة العربية . غير أن الكتابات التى تندرج تحت هذه الكلمة تتنوع تنوعا كبيرا فى موضوعاتها ، وأساليبها ، وأغراضها ، بحيث يصعب أن تجد عبارة تشملها جميعا . ويترجم الكتاب الأوربيون عادة كلمة أدب ، بهذا المعنى ، بالعبارة (Belle — lettres) أو الأدب الجميل، أو الكتابة الرفيعة ، وهى عبارة تكاد تكون فى صعوبة اللفظ العربى تحديدا .

ولا يسر لنا أن نعرف الأدب تعريفا سلبيا. فنحدد ما لا يدخل تحته بأن نميزه من الكتابات التى فى فقه اللغة ، والفلسفة ، والتاريخ والجغرافية ، وما إلى ذلك على أننا سنرى أن الحد الفاصل بينه وبينها ليس واضحا بحال من الأحوال . ولعل أقرب تعريف يتسنى لنا وضعه هو أن نقول إن كتابا فى الأدب هو كتاب يكتبه مؤلفه وهو يشعر بغرض أدبى أو إنشائى ، سواء أكان يعالج موضوعا فى فقه اللغة أو التاريخ أو الأخلاق أو التسلية المحضة : فالكاتب فى فقه اللغة أو التاريخ مثلا يرمى فى كتابته إلى هدف واحد ، هو تزويد القارئ بمعلومات أو تنظيم بعض الحقائق وتبويبها لتزود القارئ بمعلومات على حين أن كاتب الأدب يدخل فى موضوعه أيا كان ذلك الموضوع ، عنصر الخيال أو الابتكار بما يضفى عليه ثوب الجمال أو الفن، فيجعله سائغا شائقا للقراء الذى يشاكلونه فى ميولهم وأذواقهم العقلية . ويحدث هذا طبعا بدرجات مختلفة فى مستوياتها من حاسة الجمال المرهفة المثقفة التى تتميز بها الدوائر الأدبية الواسعة الاطلاع ، إلى الفجاجة والفظاظة التى تتمثل فى دهماء الشوارع .

فسنجد عناصر من جميع هذه المستويات ممثلة فى الانشاء الأدبى وأنه من أجل ذلك كانت تلك الكتابة الأدبية إذا فهمت فهما صحيحا ، هى المصدر الذى نجد فيه أصدق صورة للمجتمع الاسلامى فى القرنين التاسع والعاشر ، ذلك المجتمع الذى كان مدهشا فى حيويته ، وبحثه ، وقوته ، وتشعب نواحيه » .

وبعد: ألم أقل من قبل أن اهتمام هذا الأستاذ كان يدور فى فلك التاريخ السياسى والاجتماعى للمجتمع الاسلامى .

فها هوذا يعلن أنه يستهدف من دراسته للأدب العربى ، تحليل صور الحياة فى المجتمع الاسلامى .

لقد عاش هذا المستشرق العظيم دارسا ومعلما فى هذا الاطار الشامل للدراسات الاسلامية . وما أبعدنى عن انتقاص قدره فى يوم تكريم ذكراه ، إذا لاحظت أن أوجز أعماله وأصغرها حجما ، هو كتابه « الأدب العربى : مقدمة
"(Arabic Literature : On Introduction"

كما يدل على ذلك هذا العدد الكبير من البحوث التى كتبها ، والتى تميزت إلى جانب عمقها ، بتنوعها وتعددها ، فكانت بمثابة روضة يانعة مترامية الأطراف متنوعة الثمار وكان بين أشجارها شجرة صغيرة جميلة هى شجرة « الأدب العربى » .

باسم هذا المجمع الموقر ، الذى شرفنى بالتحدث باسمه فى تأبين فقيدنا الكريم ، أحيي هذا الإنتاج العلمى العظيم فى ميدان الثقافة العربية الاسلامية ، وأحيي صاحبه فى مثواه الأخير .

وإذا كان هناك مؤسسة قديمة باسم مؤسسة جب : The Gibb Memorial فإن مؤسسة معنوية جديدة لذكرى هاميلتون جب قد أقامها لنفسه فقيدنا الكريم .

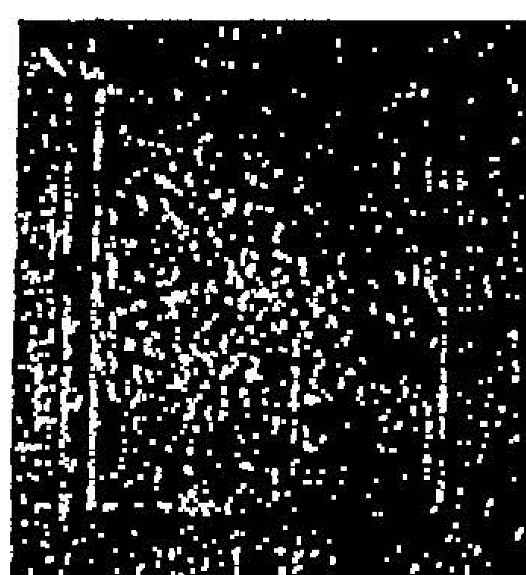

Arabic Literature : On Introduction.